حياتي ككوردي

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - شارع گولان - اربيل- كُردستان العراق

نورالدين زازا

حياتي ككوردي

ترجمة:

خسرو بوتاني

بالإشتراك مع الشعب الكوردي
ووفاءاً لأخي الدكتور نافذ

أهدي هذه الشهادة لزوجتي جيلبيرت فافر
ولولدي شانغو فاليري

اسم الكتاب: حياتي ككوردي
مذكرات: نورالدين زازا
ترجمة: خسرو بوتاني
تنقيح: أوميد البناء
من منشورات ئاراس رقم: ٧١٠
الإخراج الفني: آراس أكرم
الغلاف: مريم متقيّان
الطبعة الأولى ٢٠٠٨
رقم الإداع في المديرية العامة للمكتبات العامة في إقليم كردستان: ٢٠٠٨/١٧٣

مقدّمة الطبعة الثانية

داخل غرفة بمستشفى سيسيل في لوزان وفي الساعة ١٩,٣٠ بداية شهر تشرين الأوّل من عام ١٩٨٨ كان نورالدين زازا ممدّداً على السرير ورأسه غائص في المخدّة بلا حراك منذ كسر فقرتين من فقراته العنقية حديثاً وعيناه مثبّتتان على الشاشة الصغيرة. عن طريق اللومند التي قرأها ولحد يوم واحد قبل وفاته، يوم ٧ تشرين الأوّل، عرف بأن ثمّة أحداث مهمّة تجري في العالم فالدكتاتوريات من فرسوفيا وإلى سانتياغو شيلي بدأت تترنّح وتسير نحو الهاوية.

«فقط حركة شعبية واسعة يمكن أن تقود شيلي وبولونيا إلى الديموقراطية» تمتم بتفاؤل غير مستفيض لكن بثقة لا متناهية.

و فجأةً إذا به يرى على الشاشة الصغيرة صوراً رهيبة تذكّره بمذاق إختبره: المسيرة اللاّمنتهية لعذاب كورد العراق وهم يفرّون من الغازات الكيمياوية.

إذ أنّه بعد حلبجة في ربيع عام ١٩٨٨ التي لم تثر سوى إحتجاجات خجولة وبعد الهجمة الكيمياوية الأولى خلال صيف عام ١٩٨٧ في منطقة باليسان التي وقعت بعيداً عن أنظار العالم قرّر صدّام حسين البدء من جديد لإثارة هجرة جماعية أُخرى على الدرب الإستشهادي لكورد العراق !

إنّ مشهد هؤلاء الأطفال والشيوخ والنساء الأبرياء الذين لم يرتكبوا خطيئة سوى جريمة إنتمائهم بالولادة إلى الكورد بدى مأساوياً لايمكن تحمله، لقد كانوا كوراً مثل نورالدين زازا الذي عانى في روحه وجسده ثمناً لإلتزامه وقد عاش هكذا منذ نعومة أظفاره ـ كان عمره خمس سنوات حينما سجنوا والده وأخاه ـ وكابد في سجون العراق وسوريا بينما الجلاّدون يصرخون في وجهه:

«ها ألم يحن الزمن يا كوردي القذر لتصبح عربياً؟»

في مساء هذا اليوم من شهر تشرين الأوّل لعام ١٩٨٨ عرض شعب تنكّر له غالباً

بونس بيلات الغرب و «الإخوة» المسلمون للرأي العام العالمي ولضميره، دموعه ويأسه وكذلك شجاعته وعزّة نفسه.

أمام كل تلك المشاهد الرهيبة كان سيكفي نورالدين زازا الضغط على زر جهاز التلفزيون ليتوقّف عن رؤية وجوه شعبه المذبوح ولكنّه بالرغم من تسمّره على السرير عاجزاً ومنهكاً فلم يتوقّف لحظة عن متابعة أحداث العالم والكورد والتضامن معهم حتّى آخر نفحة أوكسجين يستنشقها وأصر على أن لا نطفيء الجهاز...

أدرك نورالدين زازا، لكنّه لم يكن يعلم بعد، المراحل النهائية من مرض السرطان الذي قاومه لثلاث سنوات ومع هذا فقد واصل رغماً عن ضعفه ووهنه الكبير قبل عشرة أيّام تدريسه في جامعة لوزان وللعام السابع عشر على التوالي «متحدّياً» ومتغافلاً معاناته.

يقول بأنّه سعيد بعودته إلى بيته في بوسينيي بعد بضعة أيّام فهو يؤمن بمعجزات الفيزيوتيرابي (الوسائل الطبيعية والبدنية) التي سمحت له قبل عام من هذا التاريخ بالعودة إلى المشي بعد إجراء عملية جراحية خطيرة في عموده الفقري.

لقد تعوّد نورالدين زازا ومنذ الصغر على السير بالإتّجاه المعاكس وضدّ الكل، ضدّ توقّع بعض الأطبّاء وحتّى ضدّ نفسه والسبب يعود إلى أنّ التحدّيات ـ الحياة ضدّ الموت ـ المفروضة على البشرية للصراع من أجل البقاء قد فُرضت على الكورد بشكل أقسى وأعنف. وحيث يمكن إيجاز كل مسيرته بين كوردستان تركيا وسويسرا بتحدّيات وبخوض صراع من أجل أن تنتصر الحياة والحقيقة.

لقد عاش في سويسرا منذ عام ١٩٧٠ وتمكّن أثناء إقامته الدراسية بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٦ من بناء علاقات صداقة وثيقة وحصل في عام ١٩٨٨ على الجنسية السويسرية وقد أحبّ النظام السياسي الهيلفيتي الذي إعتبره نموذجاً يمكن تطبيقه في الشرق الأوسط من أجل مصلحة جميع شعوبه.

...في تلك الأيّام من خريف عام ١٩٨٨ أصبحت كوردستان صباه من خلال المكالمات الهاتفية لشقيقاته ولأبناء إخوته وأخواته أكثر تواجداً وحضوراً أمامه حيث أنّ طفولة كوردستان تركيا مع ألوانها وعبيرها وحكاياتها ومآسيها تدفّقت من جديد عبر أصوات أقربائه الباقين «هنالك».

لقد عاش نورالدين زازا سنواته العشرة الأُولى في كوردستان تركيا وإستقرّ لاحقاً فيها بين أعوام ١٩٦٧ و ١٩٧٠ بعد غياب طال أكثر من ثلاثين عاماً منتظراً خلال ثلاث سنوات نتائج عمليات الدمقرطة السياسية ولكن خابت آماله وإضطرّ إنقاذاً لرأسه من المقصلة وتخلّصاً من مطاردة الشرطة اللجوء إلى سويسرا في عام ١٩٧٠ وقد إلتقيت به فيها عام ١٩٧١.

وعلاوةً على ثقافة نورالدين زازا الواسعة فقد إمتزجت لديه الصفات الإنسانية والنبل والنقاوة الفكرية حيث أنّه بالإضافة إلى حفظه عن ظهر قلب قصائد لإيلوار وناظم حكمت وإلى تقديسه لفيكتور هيغو وموزار فقد عرف خصوصاً كيف يصغي ويتمعّن في المشاهد اليومية للطبيعة وينبهر أمام تغريد الطيور وثمار أشجار بوسينيي ويتأمّل غابات منطقة الفالي وسماء إنغادين وهو يتلذّذ بالحاضر وينتشي بكل شيء جميل.

وبالرغم من تواجده سواءاً في سويسرا أو في أي مكان آخر من العالم فكوردستان هي التي سكنته ونادته وإنتهت إلى الإمساك به ثانيةً.

وكيف ـ بعد سنوات السجن والتعذيب والطفولة المعذّبة بالإبعاد والنفي وبسجن إخوته وأبيه وأعمامه ـ سيقدر (سنقدر) على العيش بسلام في سويسرا المحايدة الناعمة بينما يعاني الكورد بإستمرار من القمع والإضطهاد في تركيا والعراق وإيران وفي سوريا وحتّى الصحافة ساكتة لا تنبس غالباً بكلمة؟

وكيف يمكن نسيان جلسات التعذيب بينما بقيت الآثار على جسدك رغم مرور أكثر من عشرين عاماً؟

تلك الآلام المتكرّرة التي تؤلم كتفك حينما تشتد البرودة والناجمة عن (سياط) المائة جلدة التي ألقاها رجل مكلّف بالتعذيب على الجسد في سجن المزّة بدمشق وتكشيرة الجلاّد التي تنغص لياليك وتحيلها إلى كوابيس.

في الحقيقة أن حياته الماضية لا تختلف عن حاضره بل يمكننا القول بأنّهما تتوحّدان.

هل يمكنني القول هنا بأن دائرة إهتمام نورالدين زازا لم تكن محصورة بكوردستان؟ وبأنّه لم يحتفظ أبداً بالحقد والغيض؟

أنّ كل أنواع الظلم كانت تثيره وتغيظه ولم ينظر إلى قضية بتعاطف وإهتمام أكبر

من القضايا الأُخرى طالما تعلّقت الأُمور بالكرامة الإنسانية المهدّدة وللشهادة أذكر بأنّني رأيته يبكي حينما سمع فرنسية ناجية وهي تروي حكاية هيروشيما ورأيت قلقه وإضطرابه امام روايات الشيليين والرومانيين وحكاياتهم تحت التعذيب فبالنسبة لنورالدين زازا لم تكن هناك إنتهاكات لحقوق الإنسان أحدها أكثر قبولاً من غيرها. فإذا كان يفكّر بوجوب إحترام هويّة اليهود والفلسطينيين والفيتناميين والتيبتيين فقد كان من حقّه التفكير على الأقل بالكورد أيضاً، فهؤلاء الكورد اليتامى المنبوذين على الارض يستحقّون ذات الإهتمام.

هؤلاء الكورد الذين تم نسيانهم غالباً ـ «الواقع السياسي Realpolitique» يفرض ـ من قبل سياسيين وقد دافع بلا كلل عن القضيّة في الصحافة وخلال مؤتمرات في أوقات لم تشغل الكورد الصفحات الأُولى للصحافة اليومية وفي النهاية رغم تبدّد أوهام نورالدين زازا بخصوص الإرادة الحقيقية للغرب والأُمم المتحدّة لإعادة الحق إلى الشعب الكوردي فقد بدى عليه الحزن الشديد والأسى بل اليأس أمام الإنشقاقات والإنقسامات بين الكورد وأمام سلوك بعض قادته ومسؤوليه بالسير في طريق الضلال والتعصّب والجهل.

كان يؤمن بفضائل الحوار وبنظام ديموقراطي على الطريقة الهيلفيتية (الكونفيدرالية السويسرية) وليس بلغة القوّة والعنف ومنذ ٧ تشرين الأوّل من عام ١٩٨٨ جرت تغييرات وحدثت تطوّرات في العالم تحمل في طيّاتها بذوراً للأمل وكذلك للمجهول.

فبسبب حرب الخليج أصبحت القضيّة الكوردية معروفة اليوم بشكل أفضل ولكن هل أنّ ذلك سيساعد على حلّها وهل أنّ شعبه سيحصل يوماً على حق الإعتراف بحقوقه الأكثر أساسية وأوّلية؟

بعد إكتشافي لكوردستان العراق في شهر تشرين الأوّل من عام ١٩٩١ ومن ثم في مايس من عام ١٩٩٢ رغبت الإعتقاد بأن لكوردستان مستقبل مشرق ومتألّق.

ولكن يظهر بأنّه على الرغم من إقامة نظام عالمي جديد فأنّه لا يزال للجبن والنفاق مستقبلاً...

«طالما إستمرّوا في سحق الكائن البشري والقيام بإضطهاده في كل مكان عبر العالم فأنّ البشرية سوف لن تجد غداً أفضل.»

بهذه العبارات كان نورالدين زازا ينهي ذكرياته الشخصية المطبوعة في هذا اليوم.

وأؤمن مثله اليوم بأنّه حتّى إذا كانت المعركة خاسرة مسبقاً فلا ينبغي الإستسلام والكف عن القتال لأنّ الكفاح ملازم للبشر ومتداخل في تكوينه.

هذا هو الدرس الذي تعلّمته من نورالدين زازا.

جيلبيرت فافر زازا

بوسينيي ١٨ مايس عام ١٩٩٣

كوردستان تركيا

من السحر والجمال إلى الرعب والخوف

الولادة والطفولة حتى سن العاشرة

الحياة اليومية لعائلة كوردية

الفردوس الأرضي للعائلة

عادات وتقاليد الشعب الكوردي في تركيا

وضع كورد تركيا في ظل الامبراطورية العثمانية وعهد مصطفى كمال

القمع والإضطهاد

ولدت إبان العهد العثماني في مدينة تشم منها رائحة النحاس، مدينة واقعة على منبع دجلة وسط منطقة جبلية رائعة: كوردستان تركيا حيث يمر وادي فسيح وعميق وسط مسقط رأسي مادن (الأسم الذي يعني بالعربية معادن) ويفصلها إلى قسمين.

لا زلت أتذكّر جوّها المشحون الذي تفوح منه رائحة المناجم ولا زلت أتذكّر بأنّ تلك المعادن (إضافة للنحاس كان هنالك الرصاص والكروم والذهب) تصبغ الجداول والوديان باللون الأخضر والأصفر أو الأزرق الفيروزي. كنت أبقى في مكاني لساعات أُتأمّلها قبل أن تصب في نهر دجلة. كما أتذكّر بشكل خاص شتاءاتها القارسة وذلك لأنها كانت جاثمة على أرتفاع أكثر من ألف متر مقابل جبل طوروس. إعتادت مادن على شتاء قطبي بحق فمع منتصف شهر تشرين الثاني يجتاحها برد جاف تصاحبه رياح عاتية تجمّد الينابيع والسواقي والبحيرات والأنهار. في كانون الأوّل وكانون الثاني تغطّي المدينة والجبال المحيطة بها طبقة سميكة من الثلوج. وبالكاد يتوقف سقوط الثلوج فتعصف الرياح السوداء (بايي ره ش) كانسةً القمم الجبلية وكاسحةً أعماق الوديان وتجاويف الأشجار وحتّى الجدران عبر منافذ وشبابيك المنازل على شكل أعاصير وزوابع. في شهر شباط "الشباط المجنون للأمصار العليا" هكذا

يسمّونها فالبرد كان يتضاعف مرّة وأحياناً إلى ثلاث مرّات لتصل الدرجة بسهولة إلى ٣٠ وحتّى إلى ٤٠ تحت الصفر. وتستمر الحال مع ظهور عواصف ثلجية ترافقها رياح قادمة من سيبيريا ـ بعد عبورها للقوقاز ـ لأيّام طويلة تكاد لا تنتهي.

مرّ شهر شباط خاص لا يزال عالقاً في ذهني حيث انّه في ذلك الشتاء سقطت الثلوج بكمّيات إلى درجة أنّها غمرت العديد من المنازل فللعبور من مسكننا ـ الواقع تحت شجرة توت وفوق تل بالمنطقة المرتفعة من المدينة ـ إلى دار الضيافة إضطررنا المرور عبر نفق ثلجي أمر والدي بإنشائه ليبقى على إتّصال مع ضيوفه.

كان هذا الشتاء إستثنائياً في قسوته وطوله حيث هلكت فيه نصف مواشي كوردستان وفي بعض مناطقها بلغ الجوع بالبقرة بحيث تقتات من روثها.

وقد وُلدتُ في ليلة من " ليالي ذلك الشباط المجنون للأمصار العليا " في الساعة الواحدة بعد مخاض ومعاناة الولادة القاسية على والدتي حيث إشتد خفقان قلبها وتردّت صحّتها (كانت تعاني ومنذ سنوات من أمراض قلبية).

في تلك الفترة لم يكن في مادن بعد ـ نفوسهاعشرين ألف نسمة تقريباً ـ طبيب يحمل شهادة علمية. وأصبح أخي الأكبر أوّل مادني يحصل على شهادة الدكتوراه في الطب من إسطنبول في الوقت الذي كانت مدينتنا تفتخر بإمتلاكها لأفضل مجبّري العظام والمولّدات ومن أشهر القابلات كانت هناك واحدة معروفة بإسمها الكوردي نار خاتون المنحدرة من التجمّع اليوناني الكبير والمزدهر الذي إستقر في مادن منذ نهاية القرن الثامن عشر. وبعد أن ساعدت في ولادة إخوتي وأخواتي الأربعة أحبّت حضور ولادتي أيضاً.

لكن كيف الوصول إلى الدار بعمرها المتقدّم بينما العاصفة الثلجية تهب بشكل جهنّمي والمرور عبر طبقة ثلجية يتجاوز سمكها خمسة أمتار؟

كانت مادن تجهل في حينها التزحلق والنعال الجليدية المستعملة في الأجزاء الشرقية من كوردستان.

ولأن الوقت كان يمضي بسرعة فقد إضطر كوسما، وهو واحد من أقوى وأصلب خدمنا، على حملها في النهاية على ظهره والقيام بفرش سجّاد من الصوف عرضه متراً ونصف المتر وطوله تسعة أمتار ومن ثمّ حال عبور نار خاتون عليه يقوم الرجال بطويه

وفرشه من جديد أمامها ولكن الأشق من كل ذلك هو حصول العملية عبر الليل والسواد الحالك في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل والعاصفة الثلجية لم تخف بعد حدّتها وعنفها.

وبعد مرور ساعة تمكّنوا من إجتياز الثلاثمائة متر...فوصلت نار خاتون إلى البيت في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وهي منهكة وخائرة القوى وقد هرع نحوها كل مَنْ في الدار (الخدم والجيران والعمّات والخالات) لتدفئتها بحرارة المنقلة.

لقد فتحت عيناي على الدنيا في حوالي الساعة الخامسة صباحاً ولم يجازف أحدهم بإيقاظ والدي وإعلامه بالخبر وهكذا لم يعرف بولادتي إلاّ حينما جاء يتحقّق من الحالة الصحية لوالدتي وحينما رفعت الأخيرة بطرف من غطائها لتريه وليداً ممتلئاً أشقراً غارقاً في نوم هادىء وعميق بجانبها. داعبني والدي على خدّي بطرف من أصبعه وطبع قبلة على جبين والدتي ومن ثمّ إستعجل بالخروج للذهاب إلى دار الضيافة. وفي المساء أهدى والدتي قطعة ذهبية مربوطة بخاتم. كان هذا كل ما جرى بالنسبة لي بينما خلّفت ولادة إخوتي الآخرين إحتفالاتٍ كانت تدوم لسبعة أيّام بنهارها ولياليها...حيث يقوم والدي بدعوة الموسيقيين والراقصين وبتنظيم مهرجانات الفروسية وإعداد الولائم لآلاف المدعوين. لكن تلك الأحداث جرت قبل الحرب العالمية الأولى في الفترة التي كانت مادن بشكل عام وعائلتي بشكل خاص تسبح في نعيم الترف والسعادة. أمّا أنا فقد ولدت على أعقاب أربع سنوات من الحرب المدمّرة التي أدّت إلى تفتيت الإمبراطورية العثمانية وجعلت مصير كوردستان مجهولاً تماماً حيث أنّه في إتّفاقية فرساي حاول وفد يقوده شريف باشا إقناع القوى المنتصرة بإنشاء دولة كوردية مستقلّة بينما كان مصطفى كمال يسعى إلى تحرير منطقة إيجة الأناضولية من قبضة اليونانيين وطرد الانكليز والفرنسيين والطليان الذين إحتلّوا جزءاً من تركيا خارج البلاد. وقد قام هؤلاء بإحتلال قسم من أراضي جنوب وجنوب غربي تركيا فالفرنسيون بسطوا سيطرتهم على كيليكية وعلى مناطق من مرعش وعين تيب وأُورفة وقد كانت فرنسا تفكّر بالتحديد وبضغط من اللاجئين الأرمن في سوريا بإنشاء دولة أرمنية على هذه المناطق التي يسكنها الكورد بأغلبية ساحقة من الجهة الشرقية وعلى سيليسية المسكونة من قبل الترك من الجانب الغربي.

إنّ سياسة مصطفى كمال كانت تقلق الكورد بقدر قلقهم الناجم من أطماع الأرمن بشمال كوردستان ولكن رغم ذلك فقد أبدى بعض القوميين الكورد إستعدادهم بأن يتفاهموا مع التنظيمات الأرمنية من أجل إنشاء دولة أرمينيا ودولة كوردستان المستقلّة وقد إتّفقا على أن يقوم ممثّلو الطرفين بعرض مطالبهم في إتّفاقية سيفر التي كان من المنتظر تداول مسألة مصير الشعوب المتواجدة في الإمبراطورية العثمانية فيها.

لكن الحركة القومية الكوردية لم تكن بعد قوي الأمر الذي إستغلّه العسكري النابغ والميكيافيلي مصطفى كمال فقيّم بحدسه وبسرعة الفوائد التي يمكن أن يجنيها من تطلّعات وآمال الكورد فأبلغهم بالخطر المحدّق بالخليفة وأقنعهم بأنّ التفاهم الكوردي - الأرمني الذي جرى في باريس تُعتَبر خيانة وأغراهم بفكرة حصولهم على حكم ذاتي في كوردستان ضمن إطار تركيا جديدة محرّرة من محتلّيها الأجانب وبأنّ الانكليز، كما كان يعتقد، سيدعمونه لتحقيق ذلك،.

وقد إقتنع الكثيرون من الكورد بأقواله وصدّقوه بحيث أنّ الكتائب المتطوّعة الأُولى تشكّلت من كورد أرضروم وقارس وفان وبتليس، المدن التي كان يطمع فيها الأرمن وجمع حوله أكثر من ستين من زعمائه لمواجهة القوميين الكورد الساعين إلى إيجاد حل دولي للقضية الكوردية بالإعتماد على الدعم الانكليزي. أنّ مشروع تأسيس الدولة الكوردية لم تكن تغيظ انكلترا...التي إحتلّت كوردستان العراق (الغنية بالبترول) والتي قامت بتقديم بعض الوعود للعرب بالرغم من توقيعها على إتّفاقية مع فرنسا لتقسيم الشرق الأوسط !

في الحقيقة، أنّ إستراتيجية البترول والشرق الأوسط بشكل عام لم تغر لوحدها إنكلترا وإنّما أغرت روسيا المظفّرة في ثورتها البلشفية التي كانت تدعم حركة مصطفى كمال بكل قواها أيضاً. ولكن بما أنّ فكرة زيادة التأثير السوفياتي على هذا الجزء من العالم لم تكن خبراً مفرحاً لإنكلترا (وكذلك الحال لفرنسا وللولايات المتحدّة) فهل أنّ إنكلترا كانت ستفضّل المضي على تحقيق " مبدأ حق تقرير الشعوب لمصيرها "؟

هذه هي النقطة المهمّة التي كان يتساءل بشأنها الكورد.

عند ولادتي كانت كوردستان تعيش إذاً وضعاً مأساوياً حقيقياً فالمناطق الشمالية كانت مسرحاً للمعارك بين الروس والعثمانيين وأصبحت مدمّرة حيث إضطر سكّانها

إلى الهجرة والنزوح نحو جنوب وغرب البلاد والقسم الباقي من كوردستان كان يعيش ركوداً إقتصادياً تامّاً. ففي مادن لم تعد مداخن معمل صهر النحاس تدخّن والبطالة اصابت الغالبية العظمى من المواطنين حيث إلتحق العاطلون عن العمل من القرى المجاورة بعوائلهم أو توجّهوا إلى أماكن أُخرى بحثاً عن الرزق فإزداد عدد الفقراء والمحتاجين يوماً بعد يوم. لكن لكبريائهم أبوا إظهار عوزهم وفاقتهم. أنّ العادات والتقاليد الجارية كانت تفرض على النبلاء والمتيسّرين البحث للكشف عن أكثرهم عوزاً من بين المرضى والمعاقين والأرامل واليتامى بوجه خاص والقيام بإعانتهم بصورة سرية.

وقد كان والدي يقوم عند مجيء الليل وحلول الظلام ـ الناس ينادوه بالولي ـ بوضع أكياس الطحين على عتبة أبواب منازل العوائل المعدمة وقد إحتفظ بهذه العادة إلى يوم وفاته في عام ١٩٣٣، السنة التي أمّمت فيها السلطات التركية كل الموارد المعدنية للبلاد وحثّت الفنّيين على القيام بإعادة تشغيل مصانع إستخراج وصهر النحاس في مادن.

كان سلوك أبي يميل ظاهرياً إلى التعالي والصمت ولكنّه كان إنسانياً وكريماً جداً حيث يحترم ويعطف حتى على الحيوان وقد رأيته يرفع قدمه ليتجنّب سحق نملة! فبينما كان إقطاع وبرجوازية ذلك الزمن يتعطّشون للتعلّم والدراسة ويبهرهم كل ما يأتيهم من إسطنبول وأوروبا فقد إحتفظ والدي بروحه الإنتقادية ولم ينجرف يوماً وراء التيار. كان يعشق الأدب التقليدي والفارسي المائل إلى التصوّف ويشجّعنا على إنتهاج سبيل الدراسة دون أي تردّد رغم ريبته من بعض المسالك الحضارية.

ـ العربة هي من إختراع الابليس، أطلق هذه الكلمات يوماً بعد تعرّضه لحادث سيّارة.

ولم يشاهدوه يضع يوماً أقدامه فيها بعد ذلك...

إنّ الغرفة التي كان يشغلها في الطابق الثاني من المنزل كانت بمثابة معبد لا يحق لنا دخولها بغيابه. في أحد الأيام وعمري حينذاك كان بين ثلاث أو أربع سنوات تجاوزت القيد فتسلّلت إلى الغرفة وسرقت منها خنجراً موضوعاً في صندوق زاهي كنت قد قمت بمعاينته. إكتشف أبي الواقعة دون أدنى شك ولكنّه تحفّظ ولم يذكرها لأنّه كان يكره الشجار ويتحدّث نادراً مع أطفاله...كان من النادر أن يتناول الطعام على

طاولتنا وحينما يفعل فبصمت وسرعة دون أن ينظر إلينا ومن ثمّ يعود إلى دار الضيافة ليلبي إحتياجاتها وقد أُعتُبر الضيف في دارنا كشخصية مقدّسة وبما أنّه لم يكن هناك بعد في مادن فندق فالراغب والمالك لدار الضيافة من أهلها يقوم بإستقبال الزوّار ويقدّم لهم الطعام والمبيت.

كانت دار ضيافتنا على مسافة بضع مئات من الأمتار عن موقع سكننا وتقع الصالة الشرقية المغطاة بالسجّاد لإستقبال الزوّار في عمق الدار. حيث يجلس أبي على الحافّة اليمنى ويمكث لساعات مداعباً مسبحته ومستمعاً أو متحدّثاً إلى ضيوفه. كان الناس يجلسون على الأرض المفروشة تبعاً للموقع الإجتماعي الذي يشغله والعمر فالضيوف بجانبه أو قريباً عنه والكل يخلعون أحذيتهم على عتبة الباب. كان على الأطفال وحتّى على الخدم أن يجلسوا على الفرش رغم أنّه لم يكن غالباً في وسع الأخيرين الإستراحة حيث كنت تراهم واقفين طوال النهار ينتظرون تقديم الشاي والقهوة أو الطعام بينما يتحدّث أبي عن السياسة أوالفلسفة مع ضيوفه. والنساء يجهدن في المطبخ بإعداد وجبات الطعام. وأحياناً حينما "يغزو" بعض الضيوف ويصلون بأعداد كبيرة (يأتون برفقة خدمهم وخيولهم) لم تكن كل نساء المنزل قادرات على مواجهة الموقف فتضطرن على طلب النجدة من القريبات والجيران...

وفيما يخصّني، فلم أتردّد على دار الضيافة إلاّ نادراً ومع ذلك لا زلت أتذكرّ تلك الحكاية التي سردها ثلاثة من الكورد بعد عودتهم من مصر حيث ذهبوا إليها لزراعة القطن. كانوا يظهرون لي وكأنّهم قادمين من كوكب آخر...أتذكّر بأن والدي كان يسألهم عن الظروف المعيشية في مصر وعن سياسة الملك وحال الشعب المصري.

كانت شقيقاتي ينمن في الطابق الثاني وأمّا أنا فقد كنت أبيت مع والدتي. كم كانت جميلة بعيونها السوداوتين الواسعتين وشعرها الحريري الناعم وكم كانت في ذات الوقت قاسية ومتشدّدة تجاه أطفالها ولا سيّما تجاهي، الصغير الذي لا يمكن وصف حدود تعلّقه بها.

في كل ليلة وبينما هي غارقة في النوم كنت أستيقظ لأنزع عنها الوشاح الذي يغطّي رأسها وأطويه في كرة أشد عليه بيداي الصغيرتين على قلبي إلى صباح اليوم التالي. حين إستيقاظها من النوم كانت مجبرة على إنهاك نفسها لإفلاتها من قبضتي.

ـ ترين، وهي توجّه كلامها إلى إحدى شقيقاتي، هذا الصغير يحبّني بلا حدود. أنّه سيموت بعدي كآبةً وحزناً.

وعلى مقربة من غرفة والدتي كانت هنالك حجرة أنتشي على الدوام بعطرها حيث علاوة على أغطية وفراش الضيوف كنّا نودع فيها الرمّان والتفّاح!

لقد كان أعمامنا وعمّاتنا بالإضافة إلى ججّو، الأرمنية الصغيرة التي أنقذناها من المذابح، ينامون في الطابق الثالث وأمّا الخدم فقد كانوا يبيتون في غرفة تابعة لدار الضيافة.

حينما يشتد البرد، في الشتاء، ولم تكن حرارة المدافيء الخشبية المشتعلة في كل غرفة كافية لتدفئتنا كنّا نتجمّع حول المنقلة التي كنت انفر من حرارتها الخانقة وأُفضّل دائماً شتاءاتنا ويعلم الله كم كانت عنيفة وباردة!

ورغم سمك الثلوج الذي كان يبلغ أحياناً ثلاثة أو أربعة أمتار وجهلنا للعبة التزحلق على الجليد فقد كنّا نجتمع دائماً وسيلة للتزلّج عبر صواني نحاسية كبيرة كما كنت أُحبّ القيام بتنظيف السطوح بواسطة مجارف خشبية عملاقة.

ولكن بالرغم من تفضيلي لفصل الشتاء فقد كنت أنتظر بفارغ الصبر إستقبال نوروز، اليوم الذي تشاهد فيه الصغار والكبار، الشيوخ والمرضى وهم يتركون المدينة للإحتفاء باليوم الجديد في الريف.

كان الشتاء يدوم ويستمر أحياناً إلى ١٥ آذار ولكن تجد دائماً يوم ٢١ من هذا الشهر يوماً رائعاً حيث تبدأ الشمس بالظهور وتبدأ الثلوج بالذوبان. كان نوروز بالنسبة لنا مناسبة للعودة إلى الريف ولا سيّما للإلتقاء بالحمير والخيول التي إفترقنا عنها في الشتاء...ولكن هجرتنا المعتادة من المدينة وعودتنا إلى منزلنا الريفي لم تكن تبدأ إلاّ في شهر حزيران حيث يستمر النقل والإنتقال على مدى عدّة أيّام متتالية على ظهر بغالنا المسكينة وحين الإقامة تلتحق بنا الكلاب الكوردية والضارية والفخورة بنفسها التي كنّا قد أودعناها لدى مزارعينا لمرافقتنا إلى شهر تشرين الأوّل.

ـ هذه الكلاب، كان يردّدها بإستمرار «والدي»، لا أبادلها بعشرة من رجال الشرطة...

فألتقي من جديد بكورجين، هذه الحارسة الرائعة التي كانت تحوم وتدور لوحدها في كل ليلة سبع مرّات حول ضيعتنا لتثبيط عزيمة الغرباء وقد ذاع صيتها بحيث لم يتجرأ غريب الإقتراب من أراضينا لكن كورجين كانت تعشق أيضاً النزهة والتجوال في الجبال فوجدت نفسها يوماً أمام مجموعة خنازير برّية قامت بإفتراسها.

أمّا بولات الذي كان حارساً لا بأس به فقد بدأ يتشرّد ويفضّل التسكّع في شوارع مادن بدلاً عن حراسة الضيعة وإعتاد على عدم الإلتحاق بنا إلاّ في عز الليل وفي أحد الأيّام رأيناه يعود في منتصف النهار وهو مطأطئ الرأس وقد نبش في الأرض قليلاً ومن ثمّ خرّ صريعاً عليها.

ـ لقد سمّموه، ردّدت عمّتي، وهي ترى الزبد الأخضر يخرج من شدقه.

مات بولات فبكيناه بقدر بكائنا على كورجين ووارياناه تحت التراب قرب النهر ولضخامة جسده فقد إضطررنا إلى شد أقدامه لنقله على مسافة عدّة مئات من الأمتار.

كما أتذكّر كورا الفظّة يوم عثرت على قطّة وحشية وقرّرت إضطهادها حيث كانت تطاردها خلال عشرة أيّام من شجرة إلى شجرة حتّى المساء إلى أن تعبت وإضطرت النزول منها وحينها لم ترفق بها كورا فقفزت عليها ومزّقتها.

ومن بين القطط ـ قطّة وان المعروفة بشعرها الصوفي الطويل الناعم ـ كنّا نملك حارسة رائعة حيث تخرج لمرافقة جيراننا إلى عتبة أبواب منازلهم ومن ثمّ تعود بخفّة إلى الضيعة.

ولكّنها لم تكن أيضاً محظوظة بدورها حيث رأيناها تعود بعد ظهر أحد الأيّام من الحقل وتمسك بفمها حيّة صفراء فصرخنا فيها:

ـ سوف تميتك، ارميها!

ولكنّها لم تستمع إلينا أو لم تفهمنا فإبتلتعها وأرضعت صغارها وبعد ذلك بساعات ماتت ولم يسلم من ذات المصير أيٌّ من صغارها.

لم تختصر الحياة في الضيعة بالأحداث المأساوية أو الحزينة فحسب وإنّما كانت تعني أيضاً بالنسبة لي: التنزّه في الجبال وصيد الحجل والسباحة (في الواحات التي

يشكّلها النهر) والحرّية.

إنّ الفضل في إمتلاكنا لهذا الفردوس الأرضي يعود إلى آبائنا وأجدادنا، قبل هذا اليوم بأكثر من قرن تمّ إستدعاء جدّنا الأوّل، ابن رئيس عشيرة شاديان لتقلّد مسؤوليات في مادن فمنحوه لقب أفندي الذي كان حصراً على الأمراء والعلماء وعيّنوه حاكماً إدارياً للمدينة. وحين وصوله إلى مادن لاحظ بأنّها في حالة مزرية. أنّ هذه المدينة التي كانت مزدهرة قديماً في عهد الإمبراطوريات الحيثية والآشورية والميدية والسلجوقية وغيرها، أصبحت الآن بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكّانها ثلاثة آلاف نسمة. وقد إستوجب عليه أن يواجه منذ البداية إعادة الحيوية إلى مناجم النحاس غير المستغلَّة منذ قرون فباشر جدّنا بالبحث عن العمّال والمختصّين في أطراف مادن وفي مدن أبعد منها داخل كوردستان ولكّنه أدرك بعد حين بأنّه عبثاً يفعل لأنّ غزوات المغول والتركمان والمقاومة الحامية للإمارات في مواجهة البيزنطيين وبعدهم العثمانيين قد دمّرت وأفرغت كوردستان من مواطنيها.

ولكن حينما أعلموا جدّي عن وجود عوائل يونانية غنية في تريبيزونت المنحدرة من مستعمرة سيلوب التي تشكّلت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد والمعروفين بعملهم في مجال النحاس وعن إعلان هؤلاء إستعدادهم للقدوم إلى مادن والعمل في إستخراج مناجمها الغنية أسرع بمساعدة السلطات العثمانية في تنظيم نقل وترتيب سكن لإقامة خمس مائة عائلة يونانية في مادن. وقد كان من بينهم علاوة على الإختصاصيين في النحاس معماريون وبنّائون ومهندسو طرق وجسور وخيّاطون وإسكافيون فباشروا على الفور ببناء بيوت حجرية متينة من طابقين أو ثلاثة حسب الطراز التقليدي لبيوت مادن ذات البلاط المرمري المائلة إلى اللون الأخضر كما إعتمد إبراهيم أفندي على معارف ومهارة العمّال الكورد القادمين بأعداد هائلة من القرى المجاورة لبناء المنشآت العامّة والمدارس والطرق والجسور.

وفي عام ١٧٩٢ تم إستخراج النحاس وصهره وبيعه عبر شركات أهلية مقابل دفع ضرائب للدولة وبعد مرور بضع سنوات أصبحت مادن تبيع آلاف الأطنان من النحاس المتميّز بنقاوة كبيرة ممّا أدّى إلى توسّع المدينة وإرتفاع عدد سكّانها ليتجاوز أربعين ألف نسمة من السكّان وهم يتمتّعون بمستوى إقتصادي وثقافي راقي. ولكثرة أعداد

شعرائها ومفكّريها وموسيقييها وخيّاطيها بدأت مادن تثير الإعجاب وبدأت تستقطب السوّاح والزوّار لنظافة حمّاماتها الشعبية وكرومها وبساتينها التي أشغلت كل حيّز من الجبل والأطراف المحيطة بها بعد أن كانت جرداء ومفتقرة للوسائل الضرورية.

أنّ نجاح جدّي الأكبر في مشروعه أثار في ذات الوقت حفيظة الحسّاد الذين لم يتردّدوا بطعنه والوشاية به لدى الباب العالي بحيث لم تتأخّر السلطات في إخطاره خلال عام ١٨٣٠ بالقدوم فوراً إلى إسطنبول ولكن لتمتّعه بشعبية كبيرة رفض إبراهيم أفندي الإمتثال للأمر وإستقال من الوظيفة ممّا قاد السلطات إلى إصدار فرمان ضدّه بحجز أمواله وتهديد عائلته والمباشرة بمحاصرة مادن بقوّة مؤلّفة من ١٠٠٠٠ رجل مجهّزة بالمدافع.

ولمنعهم من تدمير ما بناه خدع جدّي الأكبر قوّات السلطان محمود حيث أنّه غادر المدينة متنكّراً بزي الدراويش (ليفلت من أمر السلطان) وأدرك اليمن حيث توفيّ فيه وحيداً ومجهولاً.

لكن جهده لم يذهب هباءاً حيث أنّه بعد مرور شهرين من رحيله وضعت زوجته التي مكثت في مادن مولوداً نابغاً وشجاعاً باسم مصطفى وقد ربّاه جدّه من أُمّه وحينما أدرك الأخير عمر البلوغ أحيا ما بدأه إبراهيم أفندي وجمع الثروة بحيث إستطاع رويداً رويداً إعادة شراء كل ممتلكات والده وذاع صيت مصطفى الذي كان موهوباً منذ الولادة بحيث أنّنا نذكر من بين إكتشافاته المتعدّدة إختراعه لوسيلة جديدة في صهر النحاس وقد عُرِف عنه بأنّ هيكله كان ضخماً وقيل عن طربوشه بأنّه كان يكفي لإحتواء رأسين...

أمّا جدّي إبراهيم (ابن مصطفى) الذي أصبح حاكماً لمادن فقد كان سيّداً بحق لا يرتدي غير ربطات العنق ويستورد أزرار سوار قمصانه من فرنسا كما أنّه قام بتعيين مربّي لخدمة والدي.

ولم يكتف بأن يكون بارزاً كموظف إداري فحسب وإنّما برع أيضاً في فن إستخدام الأسلحة ونال سمعة طيّبة في ميدان فن الفروسية.

كما أنّه نجح في توفير جو الرفاهية والتجانس بين الطوائف الكوردية واليونانية والأرمنية والتركية لمادن ولكن وللأسف الشديد حين إشتعال فتيل الحرب العالمية الأولى

فأنّ سياسة الشبيبة التركية في إسطنبول بالتوازي مع سياسة القوى التي قرّرت تفتيت الإمبراطورية العثمانية حطّمت الأواصر ومزّقت التجانس والإنسجام بين الطوائف في مادن.

في عشية الحرب العالمية الأولى صمّمت المنظمّات الأرمنية مساعدة الروس لكسب الحرب، وهو القرار الذي أثار غضب الألمان فقام الأخيرون وتساندهم في المهمّة الشبيبة التركية بإعداد خطّة لإبادة الأرمن القاطنين داخل حدود الإمبراطورية الألمانية وباشروا في تنفيذها إعتباراً من عام ١٩١٥ واستمرت لحد عام ١٩١٨ وقد لجأت سلطات اسطنبول خلالها إلى وسائل متعدّدة وجميعها شيطانية لتحقيق هدف إبادة شعب بأكمله وأنّ أي مواطن عثماني أظهر أدنى بادرة للإمتعاض أو الإشمئزاز من هذه العملية السياسية أُعتبر خائناً يتم إدانته والحكم عليه بأقصى العقوبات. وبالرغم من هذه التهديدات فقد دفع الكثيرون من الكورد بأموالهم وحتّى بأرواحهم لحماية الطائفة الأرمنية في مدنهم ومناطقهم وإحتضانهم بين قبيلتهم وقد كانت مادن واحدة منها وجنّبت أرمن المدينة وحشية الجنود والجندرمة ومجرمي الحق العام الذين أطلقت السلطات سراحهم إستثناءاً لهذه الغاية.

وفي عام ١٩١٩ ساعد الكورد المواطنين الأرمن باللجوء إلى سوريا وخلال هذا التاريخ بالذات إستقبل أهلي الفتاة الأرمنية اليتيمة ججّو التي كان اسمها ماجدة وإحتضنوها.

عند مغادرة أرمن مادن لم تعد حارتهم غير اكداس خراب ودمار وأمّا الطائفة اليونانية فقد بقيت في مادن إلى يوم التوقيع على إتّفاقية لوزان التي نصّت على ترحيل الطوائف بين تركيا ـ التي أصبحت كمالية ـ وبين اليونان وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا. بعد هذا الإتّفاق إضطر يونانيو مادن مغادرة منازلهم الجميلة وضيعاتهم وبساتينهم الرائعة في ضواحي المدينة وكذلك القيام في نفس الوقت بوداع أصدقائهم الكورد. وحين الوصول إستقر البعض منهم في اليونان وذهب آخرون إلى أمريكا أو إلى أماكن أخرى. لقد إضطر السايس كوسما على الهجرة أيضاً بالرغم من أنّ كلّ العائلة كانت تقدّره (ولا سيّما نحن الأطفال) وقد كنت معجباً بحركاته الفروسية ومنذهلاً من القرار إذ أنّه حينما علم بوجوب تركه لمادن كاليونانيين الآخرين لم يكن

وقعه أقل تأثيراً ممّا كان عليّ ولم يكن راغباً على الإطلاق بالذهاب إلى وطن يجهله.

ـ كوسما، يا كوسما إمكث معنا! إذهب وأخفي نفسك في الجبل إلى أن ينسوك ومن ثم نحن نحاول ترتيب أوراق هوّية جديدة لك. إبقى معنا يا كوسما!

وفي عشية مغادرة التجمّع اليوناني لمادن تنكّر كوسما في زي فلاّح كوردي وذهب يتخفّى بين الاشجار الواقعة في الجهة العليا من الضيعة التي نمضي فيها صيفنا ولكن لم يمر وقت طويل حينما إكتشفته الجندرمة التركية وأمرته على الإلتحاق بالقافلة اليونانية.

توسّلنا من الجندرمة ونحن نبكي بأن تترك لنا كوسما وصرخنا في وجههم:

ـ أنّه يرغب البقاء معنا فلماذا تجبروه على المغادرة؟ أخلوا سبيله!

ولكنّهم لم يستمعوا إلى توسّلاتنا وإضطرّ كوسما اللحاق بالقافلة وهو يذرف الدموع مدراراً. لم نسمع بعد هذا التاريخ بأخباره أبداً ومنذ ذلك اليوم لم يعد بيتنا سعيداً كما كان.

خلال الفصول الجميلة للسنة كانت ضواحي مادن شبيهة بالفردوس. توارثنا من جدّنا الأكبر وبشكل خاص ثلاث قطع كبيرة من الأراضي فحقلان منها كانا يقعان على طرفي دجلة ويمتدّان إلى مجرى النهر وعلى بُعد معيّن أحدهما عن الآخر فالأقرب إلى المدينة كان يقع على الضفة اليمنى ويحمل اسم " بستان الطاحونة " لأنّ جدّنا ركّبَ فيه طاحونة ماء. أنّ مساحة " بستان الطاحونة " لم تكن إعتيادية بالنسبة إلى المنطقة الجبلية: طولها كيلومتران وعرضها مائتي متر يفصله جدول مائي يسقيه بكرم عن حقول الكروم ولهذا فأنه كان صالحاً لكل أنواع الزراعة ومن بينها الخضراوات وأشجار الفواكه والزينة والبناء. أنّ أشجار الحور البيضاء تشكّل في كوردستان مصدراً خصباً للدخل سواءاً للفلاّح أو للملاّك. أتذكّر حينما كانوا يقطعوها ويقشروها في الصيف ومن ثمّ حينما يأتي الربيع التالي ويرتفع منسوب المياه فيرموها في دجلة لتحملها حتّى مدينة بغداد. أنّ المياه الطينية للنهر خلال شهري نيسان ومايس كانت مغطّاة بجذوع أشجار الحور إلى درجة أنّه حين وصولها إلى المنعطفات الضيّقة للمجرى كانت تتكدّس وتبقى عالقة بالجدران الصخرية فتخلق " تزاحماً " هائلاً ويتراكض حينها بعض العمّال المختصّين في هكذا وسائل للنقل نحو الجذوع المغمورة

حاملين بأيديهم عصى طويلة لفصلها عن بعضها. وقد كانوا أثناء إنهماكهم في العمل يطلقون صرخات نقشعر رعباً لسماعها ولكن المشهد كان يثير إعجابنا أيضاً فنمضي ساعات طويلة ونحن نتأمّل الجذوع الطافية يتقاذفهاهيجان المياه.

أنّ " بستان الطاحونة " كان يؤجّر مبدئياً لشخص على مدى خمسة أعوام، شخص يقوم بأداء وظيفة الطحّان والبستاني في آن واحد. لازلت أتذكّر الأب الذي كان ذو هيكل ضخم ولحية كثّة، كما كان شعره وأكتافه مغطّاة على الدوام بالطحين ولا يهدأ له بال أبداً كما أتذكّر أبناءه الثلاثة ذوي البنيات القوية والصامتين على الدوام وهم ينهمكون بقطع الأشجار وبقطف الثمار أو بيعها في سوق مادن.

إنّ " بستان الطاحونة " كان يفتخر بشكل خاص بثمار توته الأبيض وأمّا بستاننا الآخر الواقع على ضفة دجلة وفي موضع أعلى منه فقد كان يدعى " نافورات الماء ". في الحقيقة، أنّ الجبل الذي تنبع منه مياه السقي كان وعراً ومنحدراً إلى حد كبير وقد تمكّن أجدادنا من توزيع المياه المتدفّقة على عشرات النافورات حيث تقذف كلٌّ منها إلى علو أكثر من متر. كانت هذه النافورات تضفي مسحة من الجذل والجمال على حوض مبني بالمرمر حيث أنّها كانت تثير الفضول والإعجاب من جهة وتوفّر للمكان جوّاً رطباً دافئاً من جهة ثانية. ولمّا كان الطريق الرئيسي لمادن يمر من أعلى هذا البستان وكان هنالك ممر ضيّق يربط الطريق بنافورات الماء ففي الصيف كان معظم المسافرين المارّين عبره سواءاً الراجلين منهم أو الراكبين على الخيل أو في العربات يعرجون عبر الممر لإرواء عطشهم والإستراحة في ظل أشجار الدلب المحيطة بنافورات الماء.

لقد إشتهر هذا البستان بأشجار تين ممتدّة على صفّين وعلى طول مائتي متر وكنت تجد ثمرتها سوداء على شكل إبريق لها مذاق لذيذ كما أنّ هذا البستان كان أيضاً مؤجّراً بدوره ولكن بشروط خاصّة حيث أنّه بالإضافة لدفع الإيجار كان على المؤجّر أن يجلب لنا في كل مساء كمّية من الثمر (ولا سيّما في الأيّام التي نستقبل فيها عدداً كبيراً من الضيوف). وعلاوةً على ما سبق فقد كان من حقنا، نحن الأطفال، وبعكس " بستان الطاحونة " قطف الكمّية التي نشتهيها من الثمار.

وأخيراً فأنّ البستان الثالث كان مكاناً لتصيّف عائلتي أيضاً وكان يقع على بعد ثلاثمائة متر في الشمال الشرقي لبستان " نافورات الماء " ويشرف على الطريق

الرئيسي لمادن وعلى بساتين الجيران المحصورة بين الطريق ودجلة. وكانت هنالك بساتين أُخرى معلّقة في السماء على السفوح المقابلة. إنّ هذا البستان الذي كنّا نمر عليه في كل صيف كان يحتوى على حوضين كبيرين فالذي يقع قرب المنبع المقسّم إلى قسمين لتزويدهما بالمياه كان محاطاً بالخضرة والأزهار ولذا أطلقنا عليه تسمية " بستان الحوض المُزهر بالورود ". كانت أرضه في بعض المواقع وعرة جداً وتنتهي في جهته العليا بكتل صخرية حادّة بحيث أنّك حينما تنظر إليها من الأسفل أو من بعيد تبدو لك وكأنّها تماثيل عملاقة. وما عدا شجرتي دلب فأنّ أشجاره كانت أقل عمراً من أشجار البساتين الأُخرى وتعثر فيه على كل الأصناف المثمرة وغير المثمرة التي من الممكن زرعها في بلدان مناخها بارد شتاءاً. أنّ شجرتي الدلب كانتا تغطّيان منزلنا والحوض وفناء الدار وقد كنّا نضع في الصيف أسرّتنا تحت أغصان الشجرتين العملاقتين لأنّ مناخ المنطقة الجاف في هذا الفصل يسمح بالمبيت خارج المنزل وقد خصّصوا لنا، نحن الأطفال، سريراً خشبياً كبيراً من الممكن وضع خمسة أفرشة أحدهما جنب الآخر عليه ولكنّه كان عالياً جداً بحيث نضطر على إستخدام سلّم للوصول إليه. وفي شهر أيلول حينما تبدأ الأمطار بالهطول يضعون خيمة عملاقة فوق هذا السرير وكم كنت أستمتع، وأنا صغير، الإصغاء إلى صوت قطرات المطر الكبيرة وهي تلامس نسيج الخيمة...

وعلى بُعد مائة متر نزولاً كانت تقع دار الضيافة المتّكئة على الجبل أيضاً وتملك فناءاً واسعاً. كان أبي يمضي أُمسياته فيها مع الضيوف أو مع الزوّار القادمين من البساتين الأُخرى وفي الليل يجلبون لهم الأسرّة أو يضعون أحياناً فراشهم على الأرض مباشرة والضيوف الذين لم يكونوا يستحبّون أشعّة الشمس الصباحية يلتجئون إلى الداخل لأنّ الأشجار المحيطة بدار الضيافة لم تكن مرتفعة بما يكفي لتظليل الفناء.

أمّا دواب ضيوفنا ـ غالباً خيول ـ حيث أنّه بعد إطعامها الشعير الممزوج مع التِبن أو البرسيم اليابس كانت تستريح بين جذوع أشجار التوت. أنّ الأيّام التي كان ضيوفنا يتركون دوابهم في الحقل ويذهبون مشياً على الأقدام إلى المدينة كانت بمثابة عيد بالنسبة لي فحينما لا أعثر على ابن عم كنت أُنادي رفاقي من الحقول المجاورة واقترح عليهم نزهة على ظهر خيول جميلة وسريعة. وبحجّة إقتياد الحيوانات لإرواء ظمئها في

دجلة كنّا ننتهز الفرصة لإجراء المسابقات وإطلاق عنان الفرس إلى أن تنهك وبعد ذلك لكي لا نثير إنتباه صاحبها من غيابنا كنّا نسرع إلى غطسها في النهر وغسلها ومن ثمّ الإعتناء بتجفيفها ومشطها بالفرشاة لمحو أي أثر لتصبّب العرق.كما كنّا نعشق أيضاً اللعب مع الجمال التي تصل إلينا في فصل الخريف والقادمة من كوران، السهل الشاسع الواقع قرب ديار بكر الذي نملك فيه أكثر من عشرة آلاف هكتار من الأرض. حيث أنّه في كل عام وبعد الحصاد يأتي إلينا مزارعونا وهم يحمّلون محصولهم على ظهر الجمال لبيعه في مادن وبعد تحريرها من الأحمال كان المزارعون يقومون بإقتيادها إلى بيتنا وربطها في الاسطبل المخصّص لدواب الضيوف. كنّا نخشى الإقتراب منها في البداية ومن ثمّ حينما إكتشفنا بأنّها حيوانات مسالمة ووديعة زال حاجز الخوف بيننا وبعد نجاحنا في تقليد صرخات وكلمات الجمّالين الموجّهة لها كنّا نجدها تركع أمامنا فنصعد على ظهرها ونجبرها على النهوض. ولكن عندما تنهض الجمال فأنّها تباشر برفع قوائمها الخلفية ومن ثمّ تنتصب فجأة على أقدامها الأمامية حانية مؤخّرتها بالتدريج ما جعلنا نجازف بالإنزلاق والسقوط في كل مرّة نصعد على ظهرها تقريباً. أنّ هذا الإحساس الممزوج بين الخوف والجرأة والإبتهاج كان مثيراً وبديعاً بحيث نعيد العملية عشرات المرّات...

وفي أحد الأيّام ضايقت أحد الجمال إلى حد حاول عضّي من ذراعي ولكن لحسن الحظ لم يفلح في قضم سوى قطعة من قميصي وأقنعني بتركه يعيش في سلام. وثمّة أشياء أُخرى كانت تثير إهتمامي من بينها الكلار وهو نوع من السرداب نحفظ فيه المأكولات الضرورية لفصل الشتاء الصعب الذي كنّا خلاله مقطوعين عن العالم. ما أروع المكان! لقد تم ترتيب أواني فخارية وقوارير مصبوغة بالأخضر اللمّاع كالخزف الصيني فيه بنظام وبشكل جمالي وهي حاوية على الكسمة (الحلوى) والدوشاف (الدبس) والعسل والكبيس والفليفل والجبن الأبيض المغمور في الماء المالح وأمّا القوارير الوردية فقد كانت تحوي الملبّن والعقودة وبعض المأكولات الكوردية الأُخرى اللذيذة الشهية. وقد وضِعوا هذه القوارير فوق رفوف خشبية على طول الحائط على علو متر ونصف المتر عن الأرض وإذا إشتهيت الحصول على وجبة منها فكان عليك إستخدام سلّم صغير وعند وصولك إلى حافّة الرف ترفع الغطاء الخشبي قبل أن تمد يدك داخل القارورة المطلوبة. وكلّما تناقصت الكمّية كلّما كان عليك مد اليد أكثر فأكثر.

كان الأمر في متناول أيادي الكبار الذين تصل أياديهم إلى القاع بينما الحال لم تكن كذلك بالنسبة للأطفال وقد جرّبت حظّي في أحد أيّام الشتاء حينما لاحظت بأنّ باب الكلار كان مفتوحاً فدخلت السرداب بدون إستئذان ججّو ووضعت السلّم الصغير أمام الجرّة التي تحتوي على ملبني المفضّل، غطست فيها إحدى يداي ومن ثمّ الثانية فوقعت في قاع القارورة وشعرت بأنّني أختنق وحينها صرخت:

ـ النجدة، النجدة أنقذوني!

بدأ الأوكسجين يقل رويداً رويداً وإشتدّ الضغط على عنقي.هل أنا في طريقي إلى الموت داخل القارورة؟ لم يستجب أحدهم لندائي. وأخيراً إستجمعت آخر قواي وصرخت من جديد:

ـ ججّو، ججّو!

وبالكاد أنهيت صرختي الأخيرة فإذا بي أشعر بأنّ أحدهم يجرّني من أرجلي. لقد سمعت ججّو الصرخة القادمة من الأعماق.

ـ بالتأكيد ثمّة من ضاع بين الثلوج...تساءلت مع نفسها وخرجت للإستكشاف وللتأكّد ولكن كم كانت دهشتها كبيرة حينما رأت سيقاني تخرج من الجرّة. كنت أختنق فقادتني بسرعة لإستنشاق هواء الحديقة وهي تذرف سيلاً من الدموع.

لم يكن مطبخنا المجاور للسرداب أقل سحراً حيث كانت هناك رفوف عملاقة على طراز المكتبات تغطّي حائطاً كاملاً منه نضع عليها أوعية وقدور تحتوي على آلاف الكيلوغرامات من الطحين. وبما أنّ الحرارة المنبعثة من المدافيء والموقد الخشبي العالي لم تكن كافية لتدفئتنا فقد كنّا نتناول وجبات الطعام في الطابق العلوي وفي الصالة حينما لم يكن عددنا كبيراً أو في المطبخ. وأحياناً بالكاد نباشر في تناول الطعام فإذا بهم يسحبون الصحون من أمام الأطفال.

ـ لقد وصل إلى البيت ضيوف...

فكنّا نضطر إلى ترك اللحم والأطباق المخصّصة لنا مبدئياً والإكتفاء بغذاء زهيد. لم يشغل اللحم إهتمامي مطلقاً فمنذ «حكاية الجدي» كنت أكتفي في غذائي فقط بالفواكه تقريباً وإليكم السبب:

في أحد أيّام الصيف قدم إلى الضيعة شخصيّة مهمّة بمرافقة ستة عشر رجلاً.

ـ مالذي يجب تقديمه لهم؟ تساءلت والدتي.

ذخائرنا كانت قليلة فتذكّر فوراً أحدهم الجدي الصغير الذي كان قد أهداه أبي لي وقد تمكّنوا من إبعادي عنه بمختلف الحيل والمكائد.

ـ هيّا اتركه، قال لي جمال البغّال، أتركه، سأركبك على ظهر الحصان.

على ظهر الحصان! لم أفهم غير هذه الكلمة ولحقت صديقي جمال بوداعة. حين عودتي لم أجد للجدي أثراً. لقد ذبحوه ليصنعوا منه وليمة فأخذت أضرب الأرض بأقدامي وأصرخ.

ـ لا، لا ماذا فعلتم بجديي؟ لماذا ذبحتموه؟ أُريد جديي.

لم يجب أحدهم على ندائي ولم يسعفني لا دموعي ولا صرخاتي وحينما وضعوا لحم الجدي الصغير أمامي إنهمرت دموعي بشكل مضاعف وبدأت أحس بالقرف والإشمئزاز ومنذ هذا اليوم وإلى حد السادسة عشرة من عمري لم أكن أستسيغ إلتهام قطعة لحم واحدة بينما أنتظر دائماً وبفارغ الصبر وصول موسم الفواكه والخضراوات. نعم، الفواكه والخيار كانت تسد الفراغ تقريباً وتكفيني...

كانت بساتيننا مثل جنّات عدن تنمو فيها فواكه غير معروفة في مناطق أُخرى من كوردستان: إثنان وثلاثون فصيلاً من الكروم والتوت بنوعيه الأسود والأبيض، الحلو والحامض، وعدّة أنواع من الجوز والفستق والتين واللوز الناعم والحلو ولكل فصل ونوع صفّه والمربّع الخاص به. كنت أعشق التنزّه بينها والجري حول أشجار الدلب القديمة وشم كل ذلك العبق والعطر والتلذّذ بثمارها!

ولكن الفردوس الأرضي لطفولتي لما كان رائعاً وسحرياً بالرغم من أشجاره وكرومه وبالرغم من ممرّاته الصغيرة وسواقيه لولا حيواناتنا: خمسون بقرة تقريباً وأربعون معزة وأعداداً من الجديان والقطط والكلاب والبغال والحمير والخيول. كان على المزارعين الإعتناء بالحيوانات بينما الرعاة يتم إختيارهم من بين أطفالهم لرعي الماعز والغنم وأمّا مهمّتي فقد كانت محصورة في حراسة الجديان الرائعة والوديعة.

حينما بلغت الخامسة من العمر قدّر أبي بأنّ عمري يساعدني على الإهتمام بحمار

فأهداني جحشاً صغيراً لطيفاً سمّيته «بوزو» نسبةً إلى لونه الرمادي وأصبح بوزو إعتباراً من هذا اليوم يشغل المرتبة الأولى من إهتماماتي. أنّ إنتباهي ومشاعري كانت موجّهة نحوه ففي كل مساء قبل ذهابي إلى غرفة النوم كنت أتأكّد من مأواه إنْ كان مريحاً أم لا إنْ كان أمامه ما يكفي من الأكل والماء أم لا وبأنّ لا شيء يعكّر صفو ليله. لم يحق لأي شخص آخر المس به أو الركوب على ظهره وقد كنت أثور أحياناً لأنّنا نأكل الرز في حين لا يحق لبوزو غير الشعير الممزوج بالتبن وقد حدث مراراً بأن أسرق قدراً كاملاً من الرز لتقديم حصّة له. وكلّما بحّ صوته ووجدته يلاقي صعوبة في النهيق كنت أهتاج وأبحث له عن البيض ليشربه نيّئاً فعسى ولعلّ يستعيد صوته ليصبح واضحاً وقويّاً.

بدأت أصعد على ظهره بفضل نصائح السايس الذي صادقته ففي الصباح كنت استيقظ مبكّراً وأندسُّ في سرير جمال ولا زلت أتذكّر رائحة العرق التي كانت تفوح من جسده ولكنّني كنت أُفضّل التكوّر والإلتصاق به. أنّ هذا الفارس صاحب الشارب الشامخ الذي يقود البغال بمهارة وجرأة كان بطلي وطالما عاتبتني أُمّي على ذلك قائلة:

ـ نعم هذا الذي تريده، ترغب في أن تكون حمّاراً أو بغّالاً!

وأنا لم أكن أُبالي بإنتقادات والدتي بل كنت أُواصل نزهتي مع بوزو الذي أصبحت هائماً به، بجحشي الصغير...إلى اليوم الذي إكتشفت فيه الخيل. لقد كان عمري تسع سنوات والفصل صيفاً فذهبت بمصاحبة والدي إلى برماز (سهل صغير بين مادن وإيلازيغ يقع على إرتفاع ١٢٥٠ متراً عن مستوى سطح البحر، محاط بجبال ويحاذي بحيرة مالحة)، وهو يركب حصاناً وأنا على ظهر حماري.

بينما نحن راجلين للإستراحة تحت ظلال أشجار حور قرية أهدى رجل لأبي مهراً رائعاً عمره ثلاث سنوات وبعدما تفحّصه والدي من جميع الجهات ومن ثمّ أطلق:

ـ هل ترغب الاستغناء عن حمارك بوزو والحصول على هذا المهر؟

ـ أرغب الإحتفاظ ببوزو، أجبته، لكنّني أعتقد بأنّني كبير بما يكفي للصعود على ظهر الحصان. هذا المهر يعجبني.

ـ طيّب، خذه من لجامه وأجري بسرعة نحو عمّك الكبير ليعيرك سرجاً وخطاماً.

رأيت وجه عمّي الكبير منوّراً بعيون زرقاوية ضاحكة وبريئة كبراءة الأطفال. كان قد إجتاز الخامسة والسبعين من العمر ولكن الحيوية البادية عليه تثير الإعجاب والدهشة كما لا يفارقه سيف طويل مطرّز بأحجار كريمة أبداً وكان معروفاً بروحه المرحة. لقد كان ينتمي إلى جنس الأسياد ويسكن قرية كويري سور حيث أنّه إلى بجانب الفلاحة كان يهتم بتربية الأغنام فيملك منها عدّة آلاف من الرؤوس يرعاها فوق الهضاب والمرتفعات الخضراء لشمال شرق كوردستان وفي الشتاء يعيد الأغنام إلى الإسطبلات للإعتناء بها.

وكان يملك أيضاً أكثر من نصف درّينة من الخيول الأصيلة وكذلك الكلاب الكوردية الحقيقية، كلاب ضخمة إلى درجة يكفي نباحها لإبعاد وهروب الذئاب التي تنوي الإنقضاض على قطعان مواشيه.

حتّى أنّ واحداً من كلابه كان عاصياً ومشاكساً للجندرمة بشكل خاص فحالما يراهم يقتربون من القرية وبندقيتهم الألمانية الطويلة على أكتافهم يجن ويهتاج غضباً. وفي أحد الأيّام مرّ واحد من رجال الشرطة أمام بيت عمّي فخاف إلى درجة أنّه حاول توجيه فوهة البندقية عليه لكنّ الحيوان أوقعه أرضاً قبل أن يتمكّن من إطلاق الرصاص فأسرع الرعاة لنجدة الشرطي الجريح...وقد قام الأخير بتسجيل دعوى فإستدعوا قريبي مع الكلب إلى المحكمة وأدانوه بدفع غرامة مالية وأمّا الكلب فقد خرج حيّاً وإستوجب مراقبته بصرامة أكبر.

في ذلك اليوم الصيفي وجدت عمّي الكبير جالساً تحت ظل صف من صفوف أشجار الصفصاف على حافّة إحدى قنوات الري ومحاط بعدد كبير من الفلاّحين بعضهم جالسون على الأرض والبعض الآخر واقفون. حالما وصلت قربه رفع رأسه نحوي وأخذ يقيس المهر ويتمعّن فيه من إذنيه إلى حوافره وتحت حوافره وبعد ذلك سألني:

ـ قل لي يا باشا هل هذا الفرس الجميل يعود لك؟

ـ نعم لقد إبتاعه لي أبي.

ـ ونِعم ما فعله يوسف ولكن خذ حذرك، أنّه أصيل جدّاً ولكنّه يبدو عصبياً نوعاً ما. حينما تصعد على ظهره كن دائماً على حذر وإلاّ فستقع في مفاجآت معه.

ـ ولا يهمّك يا عمّي، أعرف كيف أُداريه.

لقد تكلّف أحد الخدم حالاً بتجهيز فرسي وبعد فترة وجيزة عدت إلى أبي. سلكنا طرقات تمر عبر الحقول وتؤدّي بنا إلى الطريق المبلّط الذاهب إلى مادن وكان الأخير عريضاً في المنطقة السهلية ولكّنه يضيق فجأةً ويصبح متعرّجاً بعد مسافة ثلاثة كيلومترات حال مروره في مضيق دجلة. حتّى بداية المضيق لم نلتقي بغير بعض المطايا ولكن حينما لاحظت الطريق خالياً أسرعت وتقدّمت على والدي. كنت أسبح في بحر من السعادة ومسروراً بسيطرتي على الدابّة فنسيت العالم الخارجي تماماً وبعد حين جريت به في منتصف الطريق المعبّد ولكن على حين غرّة زمّر خلفي منبّه سيّارة بصوت حاد بحيث لم أقدر حتّى على الإلتفات ورائي فتفاجأ حصاني ووقف قائماً على حوافره الخلفية هائجاً وجامحاً وبدأ يرفس بسرعة جنونية. فوقفت منتصباً على الرِكاب وشدّدت الضغط على جنباته ومن ثمّ سحبت بكل قواي عنان الفرس وأنا أسمع والدي صارخاً:

ـ نورو، نورو، إنتبه!

فهاج فرسي أكثر. لم أستسلم لليأس وسحبت اللجام أكثر وبقوّة...فإنكسر. تشبّثت بعرق حصاني وتمكنّت من الإحتفاظ بهذه الهيئة على مسافة عدّة كيلومترات إلى اللحظة التي إنقطع فيها الحزام المثبّت للسرج في منعطف حاد للطريق. طار معي السرج وقُذفت في أعماق هاوية على بعد مائة متر من الطريق كما أصبح جسدي مغموراً بكامله في مياه دجلة بينما إستقر رأسي على كومة رملية. تصوّر والدي بأنّي فقدت الحياة فصرخ ثانية وأمّن حصانه لدى فلاّح وبعد ذلك قاده السائق الذي سبّب الحادث على الفور بسيّارته وبحثا عنّي بجد وعناء فعثرا بعد حين على اللجام ومن ثمّ وقعا على حزام السرج في قارعة الطريق ولكنّهما لم يعثرا لا على الفارس الصغير ولا على فرسه! وفجأة سمعا أنّات وآهات قادمة من الوادي وقد كانت صادرة عني وأنا فاقد لوعيي. حينما فتحت العينين وجدت نفسي طريحاً على الفراش في مستشفى مادن. فقام أخي الكبير نافذ الذي كان يترأس البلدية ورئيساً لأطبّاء مستشفى مادن بتزويدي بالأوكسجين بينما كنت أهذي:

ـ أين هو الفرس؟

بعد ذلك بلحظات وضعوني على نقّالة وأخذوني إلى منزلنا في مادن ومن ثمّ إلى

بستاننا حيث كنت في المساء أركض وكأنّني لم أمر بأي حادث...

لم تتخلّل طفولتي الأحداث السعيدة والممتعة لوحدها وإنّما بعد قيض الصيف في شهر تمّوز تبدأ الأمطار بالهطول في حدود منتصف آب وحينما نصل إلى شهر تشرين الأول تهب ريح الشمال بعنف وقوّة. أنّ العبير الطيّب لموسم قطف الكروم ينبّئ بالعودة إلى المدرسة...

كان عمري خمس سنوات حينما أرسلني والداي إلى مدرسة أهلية وقد كنّا نجلس فيها على سجّاد مفروش على أرضية الغرفة ونشكّل نصف حلقة حول المعلّم الذي كان يعتلي منصّة مريحة مغطّاة بسجّاد رائع. لا تزال في خيالي صور تلك الطيور المنقوشة على هذا السجّاد وأتذكّر كم كانت تلهينا عن دروسنا...كان معلمّنا رجلاً متقدّماً في العمر وذو وجه بشوش مغطّى بلحية جميلة. كنت أكنّ له الكثير من العطف والإحترام وقد كان والداي يكافئَانَهُ على تعليمه لنا ويشاركون في مصاريف تدفئة قاعة الصف عبر تموينه بكمّيات من الخشب. كان معلّمنا رجلاً طيّباً وأحياناً حينما يلاحظ أحدهم يهمس أو يوشوش كان يهدّده بعصا طويلة ويضربه برأفة على قمّة رأسه بحنان وليس بقساوة وعندما ينوي بعض التلاميذ الذين قام بتأنيبهم الذهاب لدى آبائهم للإشتكاء منه كانوا يجيبونهم:

ـ بارك الله يداه! فلتكن الجنّة مأواه!

كل الآباء كانوا يعتبرون المعلّم شخصاً مقدّساً فأليس هو صاحب المعرفة وأليست مهمّته هي نقلها إلينا؟ كان يعلمّنا الألف باء بصبر لا حدود له وفقاً للمنهج المتعارف عليه في المدارس القديمة حيث يدعونا إلى الإنشاد بصورة جماعية سواءاً على إيقا ع بطيء وممل أو بطرب وشجية فالأمر كان يعتمد علينا...

كان زملائي في الصف من أبناء الموظّفين الترك والكورد.

في ذلك الزمن كان من الطبيعي أن تكون كوردياً لأنّ الكل عثمانيون ولم يكن هنالك تمييز بين العرب والأتراك والكورد وفضلاً عن ذلك فقد كنّا أطفالاً لا نفكّر بغير اللهو والتسلية.

وفي خريف نفس هذه السنة تدهورت صحّة والدتي السيّئة أصلاً أكثر فأكثر فلم ندّخر جهداً للعناية بها ومعالجتها ولكن الأحداث المأساوية التي كانت تهز كوردستان

بصورة عامّة وعائلتنا بشكل خاص لم تكن بطبيعتها عاملاً مساعداً على تهدئة حالتها...وكل هذا بسبب ميكيافيلية مصطفى كمال فبالرغم من فضل الكورد عليه والحصول على دعمهم للإنتصار على اليونانيين والفرنسيين والطليان وبالرغم من قطع وعد رسمي بمنحهم حكم ذاتي كامل في إطار الجمهورية التركية فقد أقنع إنكلترا بالتحالف معه وتمكّن في عام ١٩٢٣ من إستبدال معاهدة سيفر بمعاهدة لوزان ومن الإنقلاب عليهم وتبنّى موقف عدائي صريح تجاه أي شكل من أشكال الإستقلالية الذاتية الكوردية. وبسرعة أضحى الشعار الذي طالما تم رفعه والمناداة به «تنتمي تركيا إلى أُمّتين: الكورد والترك» منسياً...وقاموا بسحب كل الأشرطة السمعية التي كانت تمجّد مآثر وشجاعة الكورد أثناء حرب الإستقلال من السوق والتي كانوا يستمعون إليها حتّى في برلمان أنقرة ومنعوا تداولها كما قاموا بحل البرلمان ورأينا بأن هنالك في المجلس الجديد أعضاء برلمانيون ترك يمثّلون المناطق الكوردية وأغلقوا المدارس الكوردية وقاموا بتوقيف العديد من البرلمانيين الكورد وإحالتهم إلى المحاكم العرفية. إنّ هذه العودة إلى الأفكار الطورانية التي كانت تنادي بها الشبيبة التركية قبل الحرب أقلقت الوطنيين والشخصيات الكوردية النافذة ولا سيّما كل أُولئك الذين كانوا قد تعاونوا مع مصطفى كمال. ولقطع الطريق أمام هذه السياسة التمييزية كان لا بد من تنظيم مقاومة كوردية على الحال وقد قام الأمير خالد بك جيبري وهو أحد رؤساء عشيرة جيبران القوّية في مقاطعة موش بأداء هذه المهمّة بنشاط وحيوية.أنّ هذا الرجل المثقّف والوطني المتحمّس أحاط نفسه بالمثقّفين والضبّاط العسكريين وفي فترة وجيزة تمكّن من إستقطاب نخبة من الشخصيات المعروفة والبارزة لجزء كبير من كوردستان وجاب مبعوثوه كل أطراف البلاد لجذب أكبر عدد ممكن من المؤازرين والمؤيّدين وتم تحديد تاريخ الإنتفاضة في يوم ٢٥ آذار ١٩٢٥، لكن قبل ترتيب جميع الإستعدادات الضرورية تدخّلت الصدفة في تسارع الأحداث وإنطلقت الإنتفاضة مبكّراً يوم ٧ شباط على أعقاب مشاجرة وصدام حرّضتها سلطات أنقرة بين فصيل عسكري تركي وبين رجال الشيخ سعيد بيراني، هذا الرجل الحكيم والمُعتَبَر في شمال وشمال غرب كوردستان وقد أقسم يمين الولاء للمقدّم خالد بك. كان يقطن في أرضروم وأصله من بالو ويؤدّي في كل ربيع زيارة لمقبرة أجداده. مثّلت عائلته قطباً مهمّاً من الطريقة النقشبندية (الطريقة الدينية الإسلامية) وحظيت بإحترام عدد كبير من الكورد وكان

قادراً على تعبئة قوى بشرية كبيرة. حال مغادرة الشيخ سعيد لأرض أرضروم تضاخم الموكب الذي كان يرافقه ليتجاوز العدد حين وصوله إلى بالو العشرة آلاف شخص.

وقد عسكر الشيخ سعيد ورجاله في تلك السنة في بيران، المدينة الصغيرة الواقعة على مسافة خمسين كيلومتراً من دياربكر وعلى بُعد مائة كيلومتر من بالو. خرج تقريباً كل الأهالي وذهب لإستقبالهم وهم يحملون الهدايا. وشعرت السلطات التركية بالذعر (العالمة بالإستعدادت الكوردية) من هذه الحماسة الشعبية تجاه الشيخ سعيد فقام قائد الجندرمة التركية بالإسراع في إعتقال البعض من مرافقيه قاصداً سجنهم في بيران بحجّة تهجّمهم علنياً على حكومة أنقرة. وبالكاد بعد إخراج هؤلاء من المعسكر قام قائد الجندرمة بقيد أياديهم وأمر شرطته بجلدهم. حينما علم الشيخ سعيد بالخبر قرّر عدم التدخّل ولكن رد فعل المعسكر المتأثر بالأحداث الجارية كان عنيفاً حيث باشر مناصرو القائد الكوردي برفع السلاح ولكن لتهدئة الأمور وتجنّب الأسوأ قام الأخ الصغير للشيخ سعيد، الشيخ عبدالرحيم، بقيادة وفد من عشرة رجال للتفاوض مع قائد الجندرمة التركية لكنّ الأخير هدّده فوراً بالإعتقال.

ـ يجب أن تملك أسباباً موجبة لإعتقال الناس، ردّ عليه الشيخ الشاب.

ـ إن الأسباب هي مصلحة الدولة أجاب الضابط التركي المتغطرس وهو يعطي إشارة إلى جنوده بالقبض على مخاطبه.

لكن قبل أن يتحرّك الأخيرون قام رفاق عبدالرحيم بقتل الشرطيين فهرب قائد الشرطة وأنذر أنقرة:

ـ بدأت الثورة الكوردية!

عند تلقّيه لهذا الخبر نحّى مصطفى كمال «النساء وقناني الخمر» جانباً وإستعاد وعيه. جمع وزراءه وطالبهم بإتّخاذ إجراءات صارمة لغرق «العصابات الكوردية» في بحار من الدماء. رفض فتحي أوكيار، رئيس وزرائه «تلطيخ أياديه بالدماء البريئة للشعب الكوردي الصديق».

ولكن لتحقيق هدفه كان مصطفى كمال بحاجة إلى رجل حديدي وجلاّد فظّ القلب ولم تكن حاشية أتاتورك خالية من أُناس من هكذا فصيل. في الواقع كان هنالك مدنيون وعسكريون متعطّشون لتقلّد مناصب ذات مسؤولية ومن بينهم شخصية أثبتت جدارتها

سواءاً كجنرال أو كدبلوماسي حيث كان قد إنتصر في معارك عديدة سواءاً عسكرية أو دبلوماسية: عصمت إنانو العائد أصله إلى ملاطية بكوردستان. أنّ إنتصاره على اليونانيين أعطى إسماً لعائلته وأمّا أهم إنتصاراته في الدبلوماسية فقد كان (إستبدال معاهدة لوزان بمعاهدة سيفر التي قضت على آمال الكورد في الإستقلال) والذي كان سبباً لمنحه منصب رئيس الوزراء من عام ١٩٢٣ وإلى عام ١٩٢٤.وبعد ذلك لنفور إنانو من سهرات الفجور التي إعتاد عليها الدكتاتور إبتعد عنه للإهتمام بحياته العائلية.

لقد قيل الكثير عن عصمت إنانو المشهور «بعصمت الأطرش»، مثلاً، كان بكل بساطة دبلوسياً وبأنّ سبعة ثعالب كانت تتجوّل في رأسه دون أن يلتقي أحدهما بالآخر يوماً وبأنّه كان أيضاً حقوداً وجشعاً.

كرئيس للوفد التركي في معاهدة لوزان كان عصمت إنانو قد صرّح: «تركيا تخص الشعبين التركي والكوردي» و «لهذين الشعبين ذات الحقوق وذات الواجبات في هذا البلد...». في الواقع، تلك الألفاظ الجميلة كانت تهدف إلى محو نصوص معاهدة سيفر وإلتزاماتها الرسمية في ما يخص إنشاء دولة الكورد المستقلّة عن الذاكرة. وقد عيّن مصطفى كمال هذا الكيزلينغ (فيدكون كيزلينغ، سياسي نرويجي أيّد النازية وأصبح رئيساً للحكومة بعد الإحتلال الألماني) على رأس الحكومة التركية بهدف قمع الكورد.

ومن ثمّ حذّر المواطنين الأتراك ودعاهم لحمل السلاح:

ـ حياة تركيا في خطر. إنكلترا تدعم الكورد وتجهّزهم بالمال والأسلحة، كان يصرخ في البرلمان.

فباشر رئيس وزراءه بالعمل على إستئصال «الجزء الفاسد» من جسد الأُمّة التركية. أصدر أمراً إلى والي بتليس ليقوم بدعوة المقدّم خالد بك جيبري بحجّة النقاش معه «حول مستقبل كوردستان» ومن ثمّ بإعدامه في باحة قصره رمياً بالرصاص. لقناعته بعدالة القضية التي يدافع عنها ووثوقه بالنبرة الصادقة لرسالة الوالي لم يتردّد خالد بك على مرافقة الجندرمة العشرة الذين تم إرسالهم إليه كحرس شرف ولم يخطر على باله مطلقاً بأن يطلب من بعض حرّاسه مصاحبته لأنّه لم يكن مطّلعاً على حادثة بيران ولم يكن يعلم شيئاً بما تحيكه أنقرة من دسائس ضدّ الكورد.

حينما أدركوا باحة القصر دخل رئيس عرفاء الحرس بسرعة لإعلان وصول المدعو.

ـ اخرج وليدخل لوحده، أمر الضابط المسؤول عن مفرزة الإعدام. دخل خالد بك إذاً لوحده في باحة القصر القديم للأُمراء الكورد من سلالة شرفخان. عندما أُغلقت البوّابة الكبيرة وراءه خطى بضع خطوات نحو مركز فناء القصر وأخذ يجول بنظره على أبراج السور فرأى في كوّاتها فوهات المدافع وهي مصوّبة بإتّجاهه حينذاك أدرك بأنّه وقع في كمين فنوى التراجع نحو البوّابة لكن ما أن تحرّك فإذا بعشرات البنادق تقذف النار على جسده وتغربله بطلقات الرصاص التي جعلت خالد بك يخر صريعاً على البلاط المرمري للباحة ومن ثمّ تمّ دفنه سرّاً في نفس اليوم دون إبلاغ عائلته.

وفي ذات اللحظة أمر مصطفى كمال الفرقة العسكرية الرابعة المتمركزة في دياربكر بالتوجّه نحو بيران والقيام بسحق «التمرّد الكوردي المحرَّض من الأجنبي» كما أعلن النفير العام.

بعد مرور الحادث الذي أدّى إلى مقتل شرطيَين تركيَين بقليل ـ وهروب ضابطهم ـ أدرك الشيخ سعيد بأنّ الحكومة لن تتوقّف عند هذا الحد وبأنّها سوف تستخدم كل قواها لإيذائه وإيذاء رجاله. لقد بلغ عمره ثمانين عاماً وإذا به يتحوّل من عالم جليل ورئيس لطائفة دينية إلى قائد سياسي وعسكري ولأنّ معظم رفاقه كانوا مسلّحين فلم يجد أيّ صعوبة في توزيعهم ضمن تشكيلات عسكرية وفي القيام بوضع رجال متمرّسين أثبتوا شجاعتهم وحسّهم القيادي. ومع ذلك لم يتمكّن أي ضابط محترف الإلتحاق بالشيخ سعيد لأنّ البعض كان قد تم إرسالهم من قبل المقدّم خالد بك في مهمّات عبر كوردستان وإلى غرب تركيا والآخرون، الأكثر عدداً، كانوا يمكثون داخل جدران دياربكر، المدينة المشهورة بأسوارها الهائلة ولم يكن بوسعهم الإتّصال بالعالم الخارجي إلاّ عبر مداخل أربعة وحين الاحساس بالخطر فقد كانت تُغلق ويتم على الفور تنظيم الدفاع خلف وفوق تلك الأسوار.

في يوم الحادثة بين قائد جندرمة بيران وبين رجال الشيخ سعيد أسرعت السلطات المدنية والعسكرية لدياربكر إلى سحب رجالها إلى داخل المدينة وإلى إغلاق الأبواب وحظر دخولها على أيٍّ كان أوالخروج منها وهكذا تم تجريد مئات الضبّاط والأطبّاء والمهندسين والمحامين وآخرين من المثقّفين الكورد من حق الإلتحاق بالحركة القومية المسلّحة ولكن بالرغم من هذا الإجحاف فأن المواجهات التي دارت في بيران بين القوّات

التركية وبين الكورد كانت لصالح الأخيرين ممّا أجبر الجيش التركي على الإنسحاب بسرعة ودخول دياربكر تاركاً خلفه قتلاه ومعدّاته في ساحة المعركة وإتّخذ موقفاً دفاعياً فوضع مدافعه ورشّاشاته الثقيلة على السمك العريض للأسوار والأبراج المثقوبة. كانت هذه الأسلحة خلال أكثر من خمسة أشهر تهزّ وترجّ المدينة بقرقعاتها وإنفجاراتها المتوالية وبعد إندحار الفرقة الرابعة للجيش التركي إستولت القوّات الكوردية على كل دوائر المحافظات والقائمقاميات في ولايتي دياربكر وإيلازيغ.

وأنّ الذي دخل مادن كان المتحمّس المقدام الشيخ عبدالرحيم، الأخ الصغير للشيخ سعيد حيث هربت الحامية قبل وصوله بفترة وجيزة وفرّ الموظّفون الكبار من أصول تركية متنكّرين بزي الفلاّحين الكورد نحو الغرب عبر ممرّات جبلية بينما إلتجأت زوجاتهم وأطفالهم إلى بيوت وجهاء وأشراف المدينة.

لا زلت أتذكّر بيتنا الذي إمتلأ بنساء ناحبات وهنّ يتوسّلن من أبي للتدخّل لدى الشيخ عبدالرحيم من أجل أزواجهن فبعضهن يتشبثنَ بمعطفه وأُخريات يسجدن بين أقدامه.

ـ أحمينا يا أفندي، نتوسّل إليك! لا تدع رجال الشيخ سعيد يذبحوننا، كنّ يصرخن.

فيسعى أبي إلى تهدئتهن:

ـ لكن لا أحد يتحامل عليكم وقد أخطأ أزواكن بهجر وظائفهم وفرارهم. كان عليهم البقاء في دوائرهم والإستمرار في عملهم فالكورد كانوا مسرورين بذلك لأنّهم لا يضمرون حقداً ضدّ الشعب التركي وأنّ الحافز لإنتفاضتهم هو إرغام أنقرة على إحترام إلتزاماتها تجاه الحكم الذاتي لكوردستان ضمن إطار الدولة التركية.

كان يتحدّث بلهجة رصينة وهادئة. في الواقع، وجد والدي نفسه أمام صراع ممزّق لأنّه كان في أعماق ذاته عثمانياً ومواطناً لدولة مشتركة ترفض كل خصوصية إثنية وقومية وعلاوة على ذلك فلم تعجبه الطريقة التي تمّ بها قيادة الإنتفاضة. كانت الحركة تفتقر إلى قادة كفوئين وأمّا المقاتلون فقد كانوا أساساً من المتطوّعين وبالرغم من إتقانهم فن إستخدام البندقية والخنجر فقد كانوا يقاومون ويعصون أي فكرة تتعلّق بالإنضباط والتشكيل العسكري أو السياسي. ونظراً لإنتصاراتهم العسكرية فقد إلتحق رويداً رويداً بصفوف المنتفضين عناصر مريبة ومشبوهة ـ مغامرون ونهّابون ـ وهكذا

بدأت ظاهرة نهب المخازن والمستودعات من هنا أو هناك وإنتهاكات وتجاوزات مبنية أساساً على إنتقامات شخصية فوصل الحد إلى قيام بعض المغامرين بإغتيال الضبّاط والجنود الأتراك الذين يسلّمون أنفسهم إليهم طوعاً. أنّ هذه الحوادث المؤسفة كانت تزعج أبي الملتزم بالعدالة والنظام وتقلقه للغاية ولا سيّما حينما رأى بأنّ إختيار المسؤولين المكلّفين بإدارة المدن والأرياف المحرّرة لم يكن موفّقاً على الإطلاق بل يؤسَف عليه بحيث تم تعيين قدري أفندي حاكماً على مادن، أنّ هذا الرجل المعروف بإنتهازيته وحبّه للمكائد والدسائس وكذلك بفخفخته وبسلوكه وطبعه المتقلّب فرض نفسه بلا مقدّمات «ناطقاً بأسم الحركة القومية الكوردية» ووصل به الحد إلى أن يطالب بالإستقلال التام لكوردستان وإزالة كل ما يمثّل الترك عن الوجود.

بعد سحق إنتفاضة الشيخ سعيد صدر حكم الإعدام على قدري أفندي أيضاً وبينما كان الجلاّد يضع الحبل على رقبته صاح بأعلى صوته: «عاشت الجمهورية التركية!» ولكن هذا التغيير في الإتّجاه لم يسعفه ولم يزح الموت عنه ولا عن آخرين من الكورد.

إنّ تهوّر أنقرة في تحريض وإثارة العداوة بين الترك والكورد شجّعت الأخيرين ودفعتهم إلى إرتكاب أخطاء لا تعد ولا تحصى وهكذا فبعدما إستولوا على المدن الصغيرة لولاية إيلازيغ وديار بكر قرّر «إستراتيجيو» الشيخ سعيد الإستيلاء على ديار بكر نفسها...وقد حشّدوا خلال شهور عديدة خيرة قوّاتهم حول أسوار المدينة بقصد إرغامها على الإستسلام أو إيجاد وسيلة للدخول إليها ومن ثمّ الإستيلاء عليها من الداخل وكل ذلك بلا مدافع ولا دبّابات ولا طائرات وفي مواجهة قلعة يدافع عنها جيش محترف مجهّز بكل أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة! أنّ المتطوّعين الكورد الذين تمكنّوا من دخولها إمّا قُبِض عليهم أو قُطِعت رؤوسهم. ولإبراز معنوياته وتثبيط عزيمة السكّان كان الجيش التركي يقوم بوضع الرؤوس المقطوعة على أوتاد يطوفون بها في أنحاء المدينة لأيّام كاملة.

وهكذا فبدلاً من توجّه الكورد لإخضاع بقيّة كوردستان وتشكيل إدارتهم الخاصّة كنت تراهم ينهكون قواهم أمام أسوار ديار بكر بينما كان مصطفى كمال و «عصمت الأطرش» يفكّرون ويعملون بمهارة ويبحثون عن كيفية القضاء على الثوّار وإنهاء وجودهم وقد وضعوا تحت أيديهم السلاح الأمضى والأكثر خطورة ألا وهو تحريض

البعض من الكورد ضدّ البعض الآخر. وقد نجح العثمانيون في الماضي على إزالة وتدمير الإمارات الكوردية بإستخدام هذا التكتيك من خلال وضع حاجز لتطوّر البرجوازية الكوردية والقيام بتشجيع تفتّت وإنشطار العشائر ومن ثمّ التحريض لإعلان الحرب فيما بينها.

كان مصطفى كمال يعرف الكورد وكوردستان بشكل جيّد وفي سرّية مطلقة إتّصل مع زعماء العشائر الكوردية الكبيرة وبعث إليهم برسائل ودّية يمجّدهم فيها وينعتهم «بإخوتي الأعزّاء». وأرهبهم من خلال تقديم الشيخ سعيد لهم كعميل لإنكلترا، « أنّ هذا العدو السافل» الذي لم يدّخر جهداً لتفتيت وتحطيم الإمبراطورية العثمانية. وبدأ يتملّق بهم فنعتهم بالنبلاء والشجعان ووصف مدى تعلّقهم بالإسلام ووعدهم الأرض والسماء فيما إذا ساندوه في كفاحه ضدّ «الخائن الدنيء» الشيخ سعيد. لقد كان بليغاً إلى درجة أنّه نجح في إقناع عدد كبير من زعماء العشائر والشخصيات البارزة بالتحالف معه فسلّحهم وأرسلهم لمقاتلة الشيخ سعيد وبالتوازي مع ذلك فقد تفاهم مع فرنسا، القوّة الإنتدابية في سوريا، لكي تسمح له بنقل قطعاته عبر خط السكك الحديدية الفاصل للحدود التركية والسورية تجاوزاً لإتّفاقية أنقرة لعام ١٩٢١ الموقّعة بين فرنسا وتركيا التي كانت تحرم صراحةً إستخدام هذا الطريق لأغراض عسكرية. وهكذا تم جلب عشرات الآلاف من الرجال إلى أُورفة وماردين ومن هناك تم إرسالهم إلى مناطق القتال فوجد الكورد أنفسهم محاصرين من جميع الجهات ولإفتقارهم إلى الكوادر المحترفة وإلى المساعدة الخارجية فلم يتحمّلوا القتال لأكثر من بضعة أشهر وحينما إقتنعوا بالهزيمة إستسلموا للقوّات التركية الواحد تلو الآخر.

وقد عرفت كوردستان تركيا إعتباراً من تاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩٢٥ الأيّام الأكثر قتامة وسواداً في تاريخها حيث تم تدمير «كوردستان» بالحديد والنار وتعذيب وقتل رجالها وإحراق قراها وإتلاف محاصيلها وخطف نسائها وأطفالها ومن ثمّ القيام بإغتيالهم. إنّ أتراك مصطفى كمال كانوا يذبحون الكورد بوحشية وفظاظة شبيهة لتلك التي أظهرها أتراك السلطان أثناء قمع وإضطهاد اليونانيين والأرمن والبلغاريين.لقد أرسل مصطفى كمال بمحاكمها العسكرية الخاصّة التي يسمّونها «بالمستقلّة» التي اصدرت أحكاماً عسكرية فورية بشنق ونفي وسجن آلاف الأشخاص. وقد جمعوا

النساء والأطفال الذين واجهوا الجيش التركي وقاوموه بشراسة في باحات المنازل وقام الجنود برميهم ورشّهم بالرصاص ولم يسلم حتّى المثقّف الذي تعاطف بصورة أو بأُخرى مع الثورة الكوردية من المصير المأساوي حيث قاموا بتقطيع وبتر أجساد عشرين منهم إلى أشلاء ووضعوهم في أكياس ومن ثمّ قذفوهم في بحيرة وان.

كما قاموا في مادن بإعتقال حوالي ثلاثين شخصاً ومن بينهم والدي وأخي الكبير وعمّي وابن عم بعيد آخر، عثمان أفندي، الذي إرتكب جريمة إعلانه عن تمنّياته «بالنجاح» للشيخ عبدالرحيم حين وصوله إلى المدينة. وقد إقتادوهم في ليلة باردة جداً إلى بيران وفي اليوم التالي لوصولهم أخذوهم وأياديهم مغلولة بسلاسل طويلة إلى الساحة العامّة أمام الناس المجتمعين وأرغموهم على الإعتراف بمشاركتهم ودعمهم للثورة وأجبروهم على سب وشتم الشيخ سعيد وحينما أصرّ الضابط بأن يعترفوا بجريمة التعرّض للسلطة وبأن يقوموا بإهانة الشيخ سعيد لم يستطع ابن عمّنا عثمان تمالك نفسه فصرخ:

ـ المجد والخلود للشيخ سعيد ولتحيا الثورة!

إنذهل الضابط من ردّ الفعل ـ وكان يخشى تضاهرة شعبية ـ فأمر بإعادة المعتقلين فوراً إلى السجن حيث قاموا بضربهم وإهانتهم وعند مجيء الليل طلب الضابط من جنوده بربط عثمان على جذع شجرة في ساحة السجن كما أمرهم بسكب الماء على جسده إلى أن تتبلّل كل ثيابه ومن ثمّ تركه على حاله في ليلة كان البارومتر يشير إلى خمس وثلاثين درجة تحت الصفر وفي الصباح تحوّل ابن عمّي إلى قطعة جليد...

أنّ خبر هذا الموت الفظيع أرعب سكّان مادن ولا سيّما عوائل المعتقلين وبدأوا يتساءلون هل أنّهم ينتظرون ذات المصير أم أنّ السلطات ستسخدم ضدّهم وسائل أشنع؟

كان هذا بداية الجحيم. أنا وعمري ست سنوات لم أكن قادراً على إستيعاب كلّ شيء ولكن لم أعد أرى أو أسمع سوى الرعب والخوف. كانت والدتي تبكي ليلاً ونهاراً ولم تعد الناس تجرأ الحديث عن كوردستان. أصبحت متيقّناً بأن ثمّة أمور غير طبيعية وخطيرة تحدث حيث أنّنا في المدرسة أصبحنا مجبَرين على القول بأنّنا أتراك كما أنّ المناقشات السياسية في البيت توقّفت.

في كل يوم وفي كل لحظة كنّا نتألم ونرتجف خوفاً على مصير والدي وأخي وعمّي ونتساءل هل أنّهم يُعذَّبون ويُهانون أيضاً وهل يا تُرى بالإمكان رؤيتهم مرّة أُخرى؟ كانت العائلة تنتظر مستقبلاً قاتماً ولم نعد نسمع بغير الكورد المقتولين وكنت تجد قرى كاملة محروقة هنا وتعثر في مكان آخر على جثث لأطفال صغار.

وأتذكّر في ليلة بأنّني سمعت صرخات مرعبة حيث أيقظتنا صرخات غير إنسانية لا يمكن تحمّلها فتساءلنا هل من الممكن بأن تكون لحيوان يتألّم ويعاني بهذه الطريقة الفظيعة؟ وفي اليوم التالي إنكشفت الحقيقة فالصوت المسموع كان يعود إلى كورد يتم تعذيبهم بالرغم من وجود وادي عميق وعريض يفصل بيتنا عن القصر الحكومي المجاور للسجن حيث لأرغامهم على الوشاية برفاقهم يقوم الموظّفون الترك بغرز حديد ساخن حدّ الإحمرار في خدودهم...

كان لكل صباح نصيبه من الأخبار السيّئة وكان الخبر الطازج الجديد الذي أثار الرعب بين المواطنين هو مطالبة السلطات للكورد بتسليم أسلحتهم المملوكة بالرغم من الحرية المطلقة التي كانوا يتمتّعون بها في هذا المجال.

وفي ذهني، لا زلت أرى جدران غرفة والدي المفروشة والمليئة بأسلحة قديمة، بسيوف ذهبية وفضّية طُرِّزت مقابضها بالأحجار الكريمة. كانت الغرفة بمثابة متحف تتكدّس فيها جواهر إحتفظت بها عائلتي وحافظت عليها منذ قرون، جواهر نتمسّك بها مثل تعلّقنا بحدقة عيوننا ومع ذلك فأن الضغوط الحكومية دفعتنا إلى الإفتراق عنها...كما أصدرت السلطات التركية بعد ذلك قراراً جديداً: كل كوردي يجدونه وبحوزته إية طلقة رصاص أو حشوة بارود يتم إعتقاله بلا رحمة كما يتم تعذيبه ونفيه. إنّ هذا الأمر أثار هلعنا لأنّنا حين قيامنا بفحص وتفتيش الأدراج والدواليب عثرت شقيقتي كولجين على حشوات لبندقية صيد فأسرعت إلى رميها في الموقد الخشبي وبعد لحظات تذكّرت بأنّ الحشوات لم يتم إستخدامها بعد.

ـ تمدّدوا على الأرض، صرخت والدتي.

كنّا ننتظر إنفجار الخراطيش وإنهيار المنزل ولكّنها لم تنفجر لأنّ الكبسولات كانت قد إحترقت قبل الأوان ولم نسمع بأكثر من صوت قرقعة خفيفة، كان هذا كل الذي حصل!

كانت الحركة الدائبّة في منزلنا في تلك الفترة شبيهة بخليّة نحل حيث كنت ترى دخول وخروج نساء وأطفال وأقرباء ومناصرون وجيران وأصدقاء قادمون من الأحياء البعيدة ولم يتوقّف الذهاب والإيّاب لحظة ولا زالت صورة زوجة عمّي المعتقل حاضرة أمامي بطولها ووقارها وهي محاطة ببناتها الخمسة وتمسك بيدها إبنها الوحيد صاعدين درجات مدخل بيتنا مع بناتها الناشطات والمتحرّكات عادةً وهنّ جادّات ومهمومات في هذه المرّة. كانت النساء يقمن بإطلاق الصراخ والعويل وينتفن الشعر.

ـ ماذا سيحصل لنا، يا رب، إذا سجنوا وقتلوا مدافعونا وأنصارنا؟ كيف من الممكن توبيخ سيّد مثل يوسف أفندي وتهديده بالموت؟ أنّه لم يؤذّ حتّى نملة في حياته، أنّه نهاية الدنيا، بالتأكيد نهاية الدنيا، وهنّ يصرخن وينتحبن وأصدقاء العائلة يحاولون تهدئة والدتي:

ـ يا خانم، أنّ حال زوجك لا يشبه حال يوسف أفندي لأنّه حرص دوماً على الإبتعاد عن الأحداث وقد إستقبل لديه حتّى نساء وأطفال الموظّفين الترك كما أنّ لديه مكانة وموقع إجتماعي. سوف ترون، من الآن وحتّى عشرة أيّام قادمة، سيتم إطلاق سراحه وأنّ الأتراك سيقدّمون له الإعتذار.

ـ إذا لم يجدوا شيئاً يلومونه عليه فسيحاكمونه على مركزه ومكانته الإجتماعية، هذا ما كانت تردّده أُمّي التي هزّها إغتيال عثمان في وجدانها.

هكذا، كانت الأيّام تمضي بطيئاً، بطيئاً جداً في جوٍّ مليء بالقلق والحزن. وبعد مرور وقت معيّن، سئمت من عدم رؤية أبي ففكّرت بزيارته وحال إتّخاذي للقرار ركبت على ظهر بوزو وتوجّهت نحو السجن. أتذكّر وكأنّ الحدث قد جرى بالأمس... فتح الحارس البوّابة الثقيلة قليلاً فظهر والدي وحيداً وحزيناً وحينما لمحني أصبح أكثر صغراً وإمتلأت عيناه بالدموع وقد أحببت تقبيله لكنّ الحارس منعني من ذلك وإنغلقت البوّابة الثقيلة دون أن يقدر أبي على النطق بكلمة وحيث غادرت المكان على ظهر بوزو وأنا أبكي بكل جوارحي...

لم يعد في المنزل سوى شخص واحد (عدا الخدم) سوى عمّنا الشجاع نافي، شقيق والدي الصغير المعروف باسم صوفي وقد كان خجولاً ومتحفّظاً ويجهل كلّ شيء عن الحيَل والمكائد الإدارية والسياسية وقد توجّب عليه تحمّل مسؤولية كل معاملات وشؤون

والدي وفي ذات الوقت الدفاع عن نفسه أمام الدسائس الشيطانية للحكومة. كانت فظاعة محاكم الإستقلال تتعاظم يوماً بعد يوم وأنّ المحاكمات الفورية لهذه المحكمة الإستثنائية وقراراتها والعقوبات التي نطقت بها وأمرت بتنفيذها على عجل خلقت جوّاً من الرعب والهلع. وفي مقابلاته مع الصحافة كان علي صائب، رئيس محكمة الإستقلال لدياربكر، يمجّد نفسه ويتباهى «بتزيينه للمشانق برؤوس المتمرّدين».

ولم يطلق هذه الكلمات جزافاً على الإطلاق، ألم يقم علي صائب بشنق ٥٥ قائداً للثورة بعد مرور شهر على إعتقالهم ومن بينهم الشيخ سعيد، زعيم الثورة وهو في الثمانين من عمره؟ وبدلاً عن تسليم أجساد الشهداء إلى عوائلها قامت السلطات التركية بتكديس الجثث ودفنها في مقبرة جماعية، قرب المشنقة مقابل المدخل المعروف باسم «باب الجبل». لقد كانت المحكمة تكتفي بإضبارات قديمة وتقارير الشرطة أوالوشاة العاديين للمطالبة بإعدام أطبّاء ومحامين وشعراء وعلماء دين.

أنّ الشهيدين اللذين لن ينساهما الشعب الكوردي اليوم ويخلّد ذكراهم بشكل خاص هما الدكتور فؤاد من دياربكر والمحامي (حاجي أختي) من ليجيه. حيث أنّه في عشية إستشهاده تمنّى الدكتور فؤاد إستقبال زوجته في حجرة معزولة من السجن فتم تلبية أُمنيته وأمّا بخصوص أختي فحينما وصل أمام المشنقة وجّه كلامه إلى السلطات التركية قائلاً بهدوء وسكينة:

ـ أنّكم بقتلنا تقومون بتحطيم العلاقات التاريخية والعاطفية بين الكورد والأتراك. أنّكم ترتكبون خطيئة هائلة وإعلموا بأنّ الشعب الكوردي سوف لن يتأخّر في الإنتقام منكم. وفي اللحظة التي وضع فيها الجلاّد الحبل على رقبته صاح:

ـ عاشت كوردستان!

فتهجّم عليه الجنود وبدأوا يضربونه بحرابهم بعنف وشراسة وقد تحمّل ألمه بإباء ورفع أختي رأسه ومن ثمّ صرخ بكل قوّته:

ـ عاشت جمهورية الكورد القادمة ولتسقط...»

قبل أن ينهي جملته سحب الجلاّد فوراً الكرسي الصغير من تحت أقدامه وبقي أختي معلّقاً في الهواء... كانت دماؤهُ تسيل أمواجاً وهو يشهق ويسلّم روحه على المشنقة.

بلا أدنى شك لو أنّ محكمة الإستقلال إستمرّت في عملها ومسيرتها لإزداد عدد الشهداء وقُضي على الكثير من الكورد ولكن الإنفعال وردّ الفعل الذي خلّفته الإعدامات العشوائية والموقف الشجاع للضحايا دفعا قادة أنقرة إلى التفكير وإعادة النظر فتم إرسال تعليمات سرّية إلى علي صائب تطالبه بعدم إصدار أحكام الإعدام إلاّ في حالة توفّر الدلائل والإثباتات وتناديه بالحد من قسوته وصرامته. أنّ هذا التوجّه السياسي الجديد أدّى إلى نتائج من بينها إختفاء المشانق في دياربكر وتم تخفيف الحكم الصادر بحق المثقّفين المتّهمين بنفس «جرائم» الدكتور فؤاد والمحامي أختي إلى عقوبات تمتد من ١٥ سنة سجن إلى الحكم المؤبّد. ولكن بالتوازي مع هذه الليونة في الموقف السياسي بدأ يظهر بعد فترة وجيزة الإبتزاز والفساد داخل الجهاز القضائي إلى درجة تمكّن علي صائب من تكديس ثروات طائلة وذلك عن طريق إخفاء وإزالة الوثائق والمستمسكات لبعض المعتقلين أو إتّهام آخرين بجرائم كانوا أبرياء منها تماماً.

كان والدي معروفاً كعثمانلي فهل بمقدور علي صائب العثور على ملامة يؤآخذ بها شقيقي الكبير الذي كان يرفض دائماً الإنتماء إلى أي تنظيم كوردي؟ وبالرغم من أنّه لم يعد سهلاً على السلطات التركية، بعد التعليمات الجديدة التي أتتها من أنقرة، إعتقال القوميين الكورد أو ممارسة الإساءة ضدّهم فأنّ التعسّف والتعدّي قد إستمر.

لقد تم إعتبار القوميين الكورد «أخطاراً كامنة» ولهذا إستوجب بكل بساطة سواءاً إزالتهم عن الوجود أو الإحتفاظ بهم في السجن لأطول فترة ممكنة أو تلفيق تهم بهم وكان قاضي التحقيق لدى محكمة الأستقلال يأمر المعتَقَلين بإتّهام بعضهم البعض بجرائم كانوا بعيدين عنها تماماً: كتسليم الأسلحة للشيخ سعيد أو الإشتراك في الثورة أو إغتيال الضبّاط الأتراك أوغير ذلك...ولأنّ أبي وأخي وعمّي كانوا يرفضون هذه الإتّهامات بشدّة فقد حاول الموظّفون الأتراك العثور على شهود زور بل وحتّى أنّ محافظ مادن لم يتردّد بتهديد أخي ريزو البالغ ١٨ عاماً للقيام بالشهادة ضدّ والدنا ولكن مصير هذا التكتيك كان الفشل أيضاً وعند ذلك لجأ الأتراك إلى الترهيب حيث قاموا بنقل شقيقي المعتقل في دياربكر إلى سجن بيران الذي إشتهرت جندرمته بالعنف والسادية. وحيث أنّه بعد منتصف الليل بقليل كانوا يقودون السجناء فجأة إلى الساحة فيعصبون عيونهم ويمدّدونهم على الأرض ومن ثمّ يقومون بتهديدهم بالإعدام

فوراً إذا لم يعترفوا بجرائمهم ويقوم الجنود أحياناً بإطلاق النار في الهواء أو على بعد بضع سنتمترات من المعتقلين بهدف إرهابهم ومع ذلك لم يستسلم أحدهم ممّا دفعهم إلى نقل المعتقلين المادنيين إلى دياربكر لمقابلة السجناء المدانين بأحكام ثقيلة. وقد قام قاضي تحقيق الجمهورية بتقديم وعد بمراجعة دعوى أُولئك القادرين على تقديم دلائل تثبت تعاون المادنيين معهم...فعسى ولعلّ يقتنع البعض من هؤلاء ويباشروا في ممارسة هذه اللعبة القذرة ولكن حين مواجهتهم للمعتقلين المادنيين حافظوا على صمتهم المطبق بل وحتّى أنّ بعضهم إنفجر باكياً ولم تحصد السلطات التركية من جديد غير الخيبة والفشل.

وبعد مرور عشرة أشهر على وصول المادنيين إلى دياربكر إنتقلت محكمة الإستقلال إلى إيلازيغ وتقرّر بأن أي معتقل لم يستطع القضاة إصدار الحكم بحقّه لعدم العثور على دلائل كافية ضدّه يتم تحويله إلى السجن المركزي لإيلازيغ، مركز الولاية الواقع في غرب مادن.

كنّا في شهر شباط، أي في شهر العواصف والرياح العاتية للأمصار العليا حينما تسرّبت أخبار تقول بأنّ هنالك ثلاثين معتقلاً يحرسهم خمسون شرطياً على ظهر الخيول قد وصلوا إلى سجن مادن. لقد أثار الخبر ضجيجاً غير إعتيادياً ليس فقط بين العوائل التي يهمّها هذا الخبر وإنّما أيضاً بين كلّ السكّان فأصبح دار ضيافتنا مركزاً لحركة لا تتوقّف لحظة وقد كنت أرى شقيقي ريزو يخرج منها ويجري بسرعة للقاءآت لاتنتهي مع والدتي وتمكّنت أكثر من مرّة واحدة من مباغته محشوراً في الزوايا المظلمة من بيتنا وهو يدمدم مع أفراد العائلة ولا سيّما مع حسن، الشاب المتين الذي كان يخدم لدينا كبغّال، بل وحتّى رأيت حسن في وقت مبكّر من صباح أحد الأيّام وهو يسير مشياً على الأقدام بإتّجاه إيلازيغ عبر الطريق الجبلي المغطّى بطبقة ثلجية طرية سمكها أكثر من مترين. كنت أحس بأن ثمّة أمور خطيرة تجري لكنّني لم أتجاسر مفاتحة الموضوع مع أحد.وفي ١٨ شباط ١٩٢٦ إنتظرت مادن عبثاً أسراها الأشراف وقد قامت النساء بإعداد ضلوع الخرفان المحشية والرز باللوز والبقلاوة و وغيرها من الطبخات الخاصّة بالمنطقة... كانت عوائل المعتقلين قلقة من إستعجال الحكومة في إتّخاذ قرار بشأنهم وكانت تتساءل هل أنّ نيّة السلطات هي قتلهم على الطريق أم أنّها

تقوم بتعليقهم على المشانق التي بدأوا برصّها ونصبها في إيلازيغ؟ أنّ القلق والإضطراب أثّرا على والدتي إلى حد الجنون بحيث قرّرت الذهاب على الفور للتأكّد من مصير زوجها وابنها الكبير وكانت مستعدّة للسكن في إيلازيغ لجعل حياة أقربائها «مستساغاً» في السجن وبالطبع لتسعى في ذات الوقت إلى إطلاق سراحهم.

وبالرغم من ضعف قلبها وإختلال الأمن في تلك الفترة فأنّها لم تدّخر جهداً ولم تبالي لا بصحّتها ولا بممتلكات عائلتها لإنقاذ أعز ماتملك في العالم من الموت والسجن. لكن فصل السنة وحالة الطرق ووسائل المواصلات لم تكن عواملاً مساعدة لسفر إمرأة مريضة وقد تمكنّا بصعوبة وبجهد من إقناعها بتأجيل السفر والسماح بإرسال ريزو لتأدية المهمّة في إيلازيغ. وقد وعدنا أخي بأنّه، في حال إذا طالت المحاكمة، سيقوم بإستئجار بيت في أطراف السجن تقيم فيه والدتي لاحقاً وفي اليوم التالي لإجتماعنا غادر متدثّراً بمعطف فرو سميك على ظهر أجمل جواد في إسطبلنا بإتّجاه إيلازيغ وعاد منها بعد أسبوع ليخبرنا بأنّ والدتي ستقيم في إيلازيغ لفترة بمرافقة فريق من الطبّاخين والخدم لإعداد الأكلات التي يشتهيها والدي وشقيقي الكبير. كنت أعلم وبفرح بأن أُختي التي تكبرني بثمان سنوات، كولجين الشابّة والمثقّفة المرهفة في المشاعر وذات الحاسّة التربوية الفطرية، هي التي ستتكفّل بعنايتي أثناء غياب والدتي. لم تسافر والدتي حالاً وإنّما بحثت أوّلاً عن مبلغ وفير ومعتَبَر من المال حيث إلتجأت إلى خزّان والدي وإلى مدينينا ومستأجري مخازننا ودكاكيننا وفنادقنا وشققنا ومستودعاتنا وإلى مستغلّي مطاحننا وحقولنا وأراضينا وبالرغم من إقتناعها بأنّ المبلغ الذي جمعته يكفي لتلبية الإحتياجات فقد فكّرت كذلك ببيع قسم من مجوهراتها أيضاً. لم تكن المسألة المالية هي الموضوع الوحيد الذي يشغل بالها فقد كانت تقلق كثيراً بشأننا ولزيادة تطمين نفسها بأن كلّ شيء سيسير أثناء غيابها على ما يرام فلم تكف عن إرشاد أبناء وبنات الأعمام البالغين والأصدقاء المقرّبين وكذلك عقلاء وحكماء الحي بحيث أنّ النصائح والتوجيهات والتوصيات التي كرّرتها على أُختي الكبرى وعلى عمّي نافي وكل أفراد الأُسرة لا يمكن عدّها وحسابها.

ـ تصرّفي بذكاء وكوني جديرة بتحمّل المسؤوليات ولا تنسي بأنّك بعمر الزواج، كانت تردّدها أُمّي لكولجين.

ـ نعم بالتأكيد، إطمئنّي سوف تسير الأمور بشكل جيّد، وهي تهدّيء من قلقها.

ومن ثمّ بحثت بعد ذلك على حوذي تثق به وبعربته وخيوله للمغامرة في هذه الفترة من السنة على طريق مادن ـ إيلازيغ: وهو طريق ضيّق ومتعرّج يسير بمحاذاة وديان عميقة وجرف حادّة ويمر عبر جسور خشبية «مؤقّتة» عديدة ومعروفة بكثرة حوادثها. طالبنا الرجل القوي الذي عثرنا عليه بعد البحث المضني بخمسة أمثال الأجور العادية وعلاوة على ذلك فرض علينا تأجير خدمات عاملين يقومان بكنس الثلوج في المواقع المزعجة من الطريق فوافقنا على جميع شروطه.

وفي يوم مشرق، عند عودتي من المدرسة علمت بأنّ والدتي يرافقها ريزو وجمال قد سافروا بعربة تجرّها أربعة خيول. لقد سافرت بلا وداع ولا قبلة...فركضت باكياً نحو غرفتها وناديت ججّو بكل قوّتي لتفتحها لي على الفور. وحسبت الدقائق القليلة التي أستغرق صعودها من الطابق الأرضي إلى الطابق الثاني وكأنّها لا تنتهي وأخيراً وصلت وبيدها رزمة المفاتيح.

ـ إفتحي لي هذا الباب حالاً، صرخت وأنا أدقّ الأرض برجلي.

ـ إهدأ واسمعني جيّداً، ردّت عليّ بحنان. إذا سافرت أُمّك أثناء وجودك في المدرسة فلأنّها كانت تخشى الحزن ولا تتحمّل البكاء عند إفتراقها عنك...وقد كانت قلقة جداً بشأنك وأوصتنا بأن نهتم بك قدر الإمكان.

ـ لا أرغب في معرفة أقوالها، أجبتها، أُحب بكل بساطة رؤية غرفتها.

ـ طيّب، طيّب، سأفتح لك هذا الباب ولكن شريطة أن تعدني بأن لا تأخذ منها شيئاً.

ـ أعدك. فقط اتركيني أدخل.

فتحت ججّو الباب ودخلت غرفة أُمّي فوجدت السرير خالياً ورميت بنفسي رافعاً الأغطية وتمدّدت كما شممت الشراشف والوسائد لأستنشق رائحة والدتي وقد بحثت بلا جدوى عن الوشاح الذي إعتادت على وضعه فوق شعرها لأشدّه على قلبي وأخيراً مسكت بزاوية من الشرشف وإحتضنته. لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا على هذا الحال لكن أتذكّر بأنّني كنت أذرف دموعاً ساخنة على الشراشف وأنا أصيح:

ـ أُمّاه، أُمّاه، عودي بسرعة، عزيزتي أُمّاه!

وبعد حين سكن غضبي فنهضت من السرير وجريت لألعب أمام المنزل...

مرّت بضعة شهور بلا حادث وفي المدرسة كنت مثابراً جداً في عملي. وقد كان المعلّمون المشعوذون من خرّيجي المدارس العلمانية لغرب تركيا يحاولون تلقيننا الأيديولوجية الكمالية: أنّ الجمهورية التركية التي أسّسها مصطفى كمال، من أعظم الأبطال في التاريخ على الإطلاق، هي البلد الديموقراطي الأوّل والأكثر تطوّراً في العالم ولا يقطنها غير الشعب التركي.

ـ أنتم لستم كورداً، يردّدونه علينا، الكورد ليسوا سوى همجاً وقطّاع طرق يعيشون بين الجبال.

كنّا مجبرين على القول بأنّنا أتراك وحرّم علينا التحدّث بغير اللغة التركية ولأنّ الآباء كانوا ينصحون أبناءهم بطاعة المعلمّين كلّياً والإستماع إليهم بلا إكتراث لما يقولونه فلم تجد تلميذاً واحداً يجرؤ على مجادلتهم. وحتّى إذا كان صحيحاً بأنّ الأغلبية من التلاميذ كانوا يتظاهرون في الصف وكأنّهم يفتخرون بالإطراء والإطناب فقد بقوا كورداً في قرارة أنفسهم. لقد تواجد في صفوف التلاميذ المتقدّمين من كانوا يستقبلون نظريات المعلمّين بحماس حقيقي ويميلون إلى مصطفى كمال فكانت إدارة المدرسة تبادر إلى تدليلهم وتشجيعهم على الوشاية برفاقهم المتكلّمين باللغة الكوردية أو المتحدّثين بسوء عن مصطفى كمال. ولحسن الحظ أنّ عدد هؤلاء التلاميذ كان قليلاً جداً ويتم الكشف عنهم بسرعة فيُحتَقَرون ويُهمَلون وأحياناً يُضرَبون حتّى من قبل رفاقهم فتهرع المدرسة حينذاك إلى إسعافهم ونجدتهم عبر إتّخاذ إجراءات صارمة بحق من إعتدى عليهم وخلق أصناف متنوّعة من المشاكل لهم. أمّا بالنسبة لي فحين عودتي إلى المنزل لم أكن أنبس ببنت شفة لأحد عن الجو السائد في المدرسة. وكان الوقت يمضي هكذا والعائلة تعمل كل ما في وسعها لتجعل حياتي سعيدة.

من وقت لآخر كانت تردنا أخبار سيّئة لزرع القلق والإضطراب حيث كنّا نسمع بأنّ محكمة الإستقلال دائبة على أداء وظيفتها في إيلازيغ وأنّها أرسلت مئات من الكورد إلى المقصلة وكنّا نسمع الحديث أيضاً عن علي حيدر الذي كان نقيباً شاباً في الجندرمة كان قد خدم سابقاً ضمن فريق الحرس الخاصّ لمصطفى كمال فأرسلوه إلى كوردستان لإهانة الكورد وتعذيب من يراه خطراً على أمن الدولة.

وقد إعتاد هذا الجلاّد الفظ على شتم وتحريض المعتقلين الكورد وكان يختار السجناء بالصدفة غالباً، يختار رجال كبار في العمر ولا سيّما الوجهاء فيبصق في وجوههم، يصفعهم على الخد، يلقيهم على الأرض ويدوس عليهم بأقدامه وكنّا نرتعش كلّما مرّ في خاطرنا تصوّر بأن يلتقي هذا الرجل الفاقد للضمير بواحد من أهلنا يوماً وبأن يفعل بهم ما فعله بهؤلاء...

بدأت عطلة الصيف ووالدتي كانت لا تزال غائبة بدأت أصناف من الفواكه التي كنت أعشقها بالنضوج: الكرز والخوخة الخضراء والمشمش ولا سيّما التوت الأبيض ذي البريق اللؤلؤي والمذاق العسلي. كانت سعادتي تبلغ إلى مداها الأقصى حينما أتسلّق على أغصان أشجار توتنا العملاقة وأقطف التوت الناضج المعرّض لأشعّة الشمس...وفي مساءٍ من تلك المساءات الرائعة لشهر حزيران وعلى أعقاب الجري والقفز والسباحة وبعد إلتهام تلك الثمار إلى حد التخمة برفقة أحد أبناء عمّي، نزلت إلى الجهة المنخفضة من الحقل للعودة إلى مادن وبينما أقفز على ظهر حماري ركض نحوي جارنا، حسن أفندي.

ـ إنتظر يا باشا، إنتظر، لدي خبر مهم أُحب إعلامك به، صرخ في وجهي.

فسلّمت الحمار لابن عمّي وحالما وصلت إليه جرّني بين أحضانه وطبع قبلة على جبيني قائلاً:

ـ ولمرّة أُخرى يبدو بأنّ عضواً من عائلتكم هو الذي رفع رأسنا وقامتنا فإذهب إلى البيت واخبرهم بأنّ شقيقك الأكبر، الدكتور، قد لقّن علي حيدر درساً لن ينساه. سوف لن يجرأ بعد اليوم التعرّض للمعتقلين فأركض إلى مادن لتعلمهم بالخبر وكن في حفظ الله!

حينما وصلت إلى مادن رأيت بأنّ الخبر قد إنتشر في كل مكان كما لاحظت بأنّ الكل سعداء في المنزل بالحادث ولم نعلم بالتفاصيل الدقيقة إلاّ بعد مرور أسابيع عديدة...

يبدو بأنّه في اليوم السابق للحدث كان علي حيدر قد تعرّض إلى أبي وطالب بجلبه إليه وعندما حضر أمامه قام بجر لحيته وإهانته بهذه العبارات:

ـ أنت والهيئة التي تتصنّعها من خلال هدوئك الأولمبي لتبرهن بأنّك تنتمي إلى

الأسياد. يبدو بأنّك تتحدّانا على الدوام ولكنّني أُحذّرك بأنّك لن تسلم من العقاب وبأنّنا عاجلاً أم آجلاً سنحصل على البراهين الدامغة حول معاداتك للأُمّة التركية وحول نشاطاتك التخريبية.

ـ إذا إمتثلت للحقيقة، ردّ عليه والدي، فلن تحصل على أي دليل لإدانتي.

ـ إخرص يا كوردي ياقذر! خاطبه الضابط التركي وهو يترك المكان.

لقد تعوّد أخي على مشاهدة والدي محبوباً من الآخرين ومعزّزاً ومحترما منهم فتأثّر من صميم قلبه على تصرّف علي حيدر تجاهه وصمّم الإنتقام منه. وقد تمكّن من الحصول على قضيب حديدي يهشّم به رأس العسكري الشرير فيما إذا تحرّش في اليوم التالي بوالده. كان قد وضع القضيب في مكان أفشى به لرفاقه المعتقلين الذين قرّروا إخفاءَهُ لتجنيبه من المصائب.

وفي اليوم التالي حينما وصل علي حيدر إلى السجن تهجّم من جديد على والدي. أحسّ أخي بأنّ المشهد سيتم تكراره فخرج خلسةً من الصفوف وذهب باحثاً عن «سلاحه» وحينما لم يجده هاج كالمجنون وجرى راكضاً نحو الضابط ووجّه له صفعة قويّة أوقعت مبعوث مصطفى كمال على الأرض فهاجم حينذاك السجناء الآخرون أيضاً على علي حيدر وأخذوا يضربونه بقبضاتهم ويركلونه بأرجلهم ولم يتدخّل الجنود الحرّاس، الكل كانوا كورداً وبعضهم مادنيون، إلاّ في الدقائق الأخيرة لينقذوا مسؤولهم من الموت المحقّق.

وعند إجراء التحقيق على حادثة السجن ألقى الجنود الذين قدّموا شهاداتهم المسؤولية على علي حيدر ونعتوه بالمعذّب والسادي. وقد أرسل أخي بدعم من الحرّاس وتعاطفهم معه برقيات إلى مصطفى كمال وإلى رئيس مجلس النوّاب والجمعية الوطنية في أنقرة. كان للدرس التأديبي الذي لقّنه للنقيب علي حيدر وللبرقيات المرسلة مردودات إيجابية بحيث أنّ علي حيدر لم يعد يزور السجن وبعد مرور عدّة أشهر على مجريات الحادث عادت محكمة الإستقلال إلى دياربكر للإقامة فيها من جديد كما أدّى هذا التغيير إلى نقل معتقلينا من إيلازيغ إلى دياربكر وقد علمنا هذه المرّة يوم وساعة مرورهم بمادن مسبقاً وأفتُرِض حصوله بحدود الظهر في منتصف شهر تشرين الثاني...وفي اليوم المحدّد توجه قسم كبير من السكّان مشياً على الأقدام لإستقبال

الموكب. حينما وصلنا بموازاة «بستان النافورات» منعتنا الشرطة من التقدّم أكثر ولكنّهم أفهمونا بأنّ السجناء سوف يترجّلون للإستراحة على حافّة المسبح الكبير للبستان فأسرعت بالذهاب للقائهم لأنّني إشتقت إلى رؤيتهم والقيام ببذل الجهود لإطلاق سراح أبي وأخي. ظهر عند إقتراب الساعة المحدّدة عدد كبير من العسكر الراكبين على ظهر الخيول والمدجّجين بالإسلحة وهم يحيطون بمركبات ثقيلة مصاطبها مكشوفة وقد لمحت من بين القاعدين عليها خيال والدي فبدأت أصرخ بكل قواي وأنا أُلوّح بيدي:

ـ بابا، بابا!

كان عمري ست سنوات ونصف وقترب منّي الشرطي الذي تواجد في الواجهة مهدّداً وأمرني بالسكوت:

ـ ممنوع هكذا نوع من المظاهرات، وهو يكشّر بأنيابه، وإلاّ فسأضع القيد على معصمك أيضاً.

كان مظهره وإسلحته واسلوب حديثه عدوانياً إلى حد جعلني ألتزم الصمت وأبكي. وأمر الجنود الجمع الغفير بعدم الإقتراب من موكب المعتقلين والبقاء على بُعد مئات الأمتار من المجموعة كما منعوا الأطفال من الذهاب لمعانقة آبائهم وإخوتهم وأعضاء آخرين من عوائلهم وحرّموا على المعتقلين النظر بإتّجاهنا ولكن ذلك لم يمنعنا من مشاهدتهم وهم مغلّلين إثنان إثنان بقيود مشدودة ومربوطة بسلسلة حديدية طويلة كان يمسك بطرفها شرطي يحمل مرتبة أعلى.

وقد نزلوا إلى البستان عبر الممر الضيّق الذي يقود إلى المسبح وهم مقيّدون بهذا الشكل ولم يتم تسليم كل المأكولات والهدايا التي جلبتها العوائل إلى السجناء لأنّ الجيش تحجّج بأنّه من الممكن إخفاء «أدوات خطيرة» فيها ولم يتلقّوا سوى المشروبات والمأكولات التي أحضرّها لهم مساعد والي مادن وقائد جندرمتها وأنّهما بالطبع كانا فوق كل الشبهات...

في اعقاب مرور ساعة أخطرونا بترك المكان والعودة إلى منازلنا وقامت الشرطة بمطاردة المعاندين والبطيئين في الحركة بوحشية وقساوة ووصل الحد بهم إلى إستخدام السياط ضدّ النساء والفتيات اللواتي إستصعب عليهن مفارقة عيونهن

للأزواج والآباء وفي النهاية بقلوب مكسورة وبصدور ضيّقة وعيون دامعة قرّر الحشد العودة إلى البيوت.

مرّ شهر حينما عادت والدتي إلى مادن وقد ساءت حالتها الصحّية بشكل عام ولكن بعد الإستراحة من تعبها نادتني وفحصتني بعيونها من أخمص القدمين إلى قمّة الرأس ومن ثمّ قبّلتني قائلة:

ـ يبدو بأنّهم إعتنوا بك بصورة جيّدة، يا صغيري، أنا سعيدة جداً بأن أجدك بصحّة جيدة. شقيقتك كانت بمستوى ثقتي بها ولا يمكنني سوى التعبير عن الثناء والشكر لها لإهتمامها بك إلى هذه الدرجة...

وبالكاد إنتهت من تلفّظ هذه الكلمات تراخت يداها على جسدي وتجمّعت قطيرات من العرق على وجهها الذي أمسى قرمزياً ومن ثمّ هوى جسدها بهدوء على الأريكة. لقد غابت عن الوعي من جديد فهرعت عمّتي وشقيقتي ونساء أُخريات كنّ قد قدمن لتحيّتها بمناسبة العودة وهرولن نحوها وشرعن في تدليك يديها وقدميها ومنطقة القلب وفي دفعها إلى إستنشاق الهواء. حينما إستعادت وعيها بعد ساعة أخبرتنا والدتي بأنّ إغماءاتها ومنذ فترة بدأت تتكرّر وتشتدّ وتطول أكثر من السابق وقد احزنتنا هذه الحالة وأثقل بشكل متزايد الجو الذي كنّا نعيشه في المنزل.

مرّ الشتاء والصيف هكذا وقلوبنا مليئة بالغم والقهر والقلق والخوف. كان الجهازان القضائي والبوليسي مقتنعان تماماً ببراءة والدي وشقيقي ولكنّهما لجئا إلى الإبتزاز لنهب المزيد من أموالنا فإضطرّت والدتي وعمّتي على عرض مجوهراتهن للبيع وأُجبرنا الوضع على الإفتراق بأسى ومرارة عن فرسينا والتخلّي عن الجواد سيكلاوي لأنّنا كنّا بحاجة، لإنقاذ والدي وأخي، إلى مبلغ مالي ضخم.

وأثناء ذلك كان قد باشر مصطفى كمال «ثورته» لتغيير السلوك والعادات وفرض الثقافة «الغربية» على تركيا. فبعد منعه إرتداء الطربوش والعمامة وفرضه للكسكيت والقبعة جبراً قرّر زعزعة بنيان وواقع المجتمع الكوردي عبر تعرّضه إلى واحد من أقدس التقاليد المتأصّلة فيه: إغلاق دار الضيافة. إنّ التخلّي عن هذه العادة أمر غريب ولا يمكن تصوّره بالنسبة للشعب الكوردي لذا كان عليه وبأيّ ثمن مخالفة مطالب أنقرة والإستمرار بفتح أبواب دور الضيافة. لكن وضع عائلتنا لم يكن يسمح لنا بتحدّي

المراسيم الموقّعة من مصطفى كمال فسارعنا بالنتيجة إلى إغلاق دار الضيافة وتسريح الخدم المكلّفين بالإعتناء به. أنّ الناس الذين إعتادوا على إرتياد دار ضيافتنا لم يكونوا يقبلون «بإستسلامنا» و «عجزنا» بل وحتّى «بخيانتنا» والكثيرين منهم وبّخونا حينما وجدوا باب دار ضيافتنا مغلقة.

وأتذكّر رد فعل المقدام قورك آغا، أحد وجهاء قرية كويري سور، أنّ هذا الصقر القروي المعروف بشجاعته ومشاكساته مع الحكومة كان يتردّد غالباً إلى مادن ويقيم لأسابيع كاملة في دار ضيافتنا وكان رجلاً صريحاً وعفوياً. حيث أنّه خلال شبابه وأثناء إحدى مشاجراته مع أنداده أُصيب برصاصة في عنقه فأنقذه جرّاح ماهر من إيلازيغ من الموت ولكن أصبح صوته مخنوقاً أجشّاً ولهذا كانوا ينادونه «بقرك آغا» ـ حلق آغا ـ وكان إسمه الحقيقي عزّت. في أحد الأيّام وبينما كنت ألعب أمام الميوانخانة (دار الضيافة) شاهدت قورك آغا يدفع البوّابة التي تقود إلى فناء المنزل ولأنّه لم يكن معتاداً على إيجادها مسدودة بالقفل فدفعها بعنف لكن الباب الكبير المصنوع من شجرة الجوز لم ينفتح فإستدار نحونا وتعرّف عليّ من بين الأطفال فناداني قائلاً:

ـ أخبرني أيّها الأفندي الصغير هل يوجد أحد هنا؟

ـ لا، أجبته بتضايق.

ـ والخدم أليسوا هناك لفتح الباب لي؟

ـ لا، غادروا.

ـ غادروا، كيف؟

ـ سرّحناهم.

ـ هل قد إرتكبوا مخالفات؟

ـ لا أبداً، لأنّنا وبأمر من الحكومة أغلقنا الميوانخانة (دار الضيافة).

ـ ماذا تقصد بذلك يا أفندي؟ هل أغلقتم دار ضيافتكم؟ ألا تستقبلون الضيوف بعد الآن؟ هذا مستحيل أو هل أنّكم فقدتم الصواب بحق؟

ـ لا ينبغي أن تنزعج يا قورك آغا لم يكن لنا بد من ذلك. أنّ الحكومة هي التي فرضت الأمر علينا.

ـ طالما أُسرتكم على قيد الحياة لا ينبغي غلق دار الضيافة وحتّى إذا كان الأمر صادراً من الخالق أعوذ بالله. هذا ضعف لا بل أقول تخاذل من قبلكم أمّا أنا فسأكسر الباب وأدخل وهو يصرخ.

فأسند صدره العريض والقوي على الباب ودفعه بكل قوّته رافعاً قبضته الحديدية إلى الأعلى ولكن جهوده ذهبت سدىً لأن عشرة أقوياء من أمثاله لن يستطيعوا خلع النصب العملاق الذي صنعه نجّار أرمني من دياربكر. واصل قورك إغا على بذل جهوده لدقائق أُخرى ومن ثمّ حينما إقتنع بعدم الجدوى إستدار وغادر المكان ساخطاً يدمدم:

ـ هذا تخاذل! لو كان يوسف أفندي طليقاً لما أطاع القرار الشرير لأنقرة. إنّ الميوانخانة (دار الضيافة) هي دار أجدادنا إنّها مثل بيوت الله لا يمكن غلقها، إبتعد عنّا وهو ينطق بهذه الكلمات...تأثّرت من رد فعله ولم يبقَ لدي أي حماس بالإستمرار في اللعب فتركت رفاقي لأروي الحادث لوالدتي التي أصغت إليّ بهدوء قبل ان تشرع في البكاء.

ـ قورك إغا محق في رد فعله ولكن ماذا كان بوسعنا أن نفعل. فلنصلّي كي ينزل الباري تعالى على مضطهدينا العقاب الذي يستحقّون، تنهّدت والدتي وهي تكفكف الدموع عن عيونها.

في نهاية الربيع ومستبدّونا كانوا لا يزالوا يتحكّمون في السلطة تلقّينا فجأةً أخباراً سارّة بالنسبة لأُسرتنا فالفدية الضخمة التي دفعتها والدتي لرئيس محكمة الإستقلال ووسطائه نجحت في تليين موقفهم حيث أعلمونا بأنّهم سيعيدون النظر في إضبارات أبي وشقيقي الكبير وعمّي وبأنّه ستتم محاكمتهم في أقرب فرصة ممكنة و «بطريقة رحيمة ومتساهلة» رغماً عن براءة الثلاثة من كلّ ذنب...

في حوالي منتصف شهر حزيران وكعادتنا في كل سنة إنتقلنا إلى البساتين فمرّت النهارات الجميلة لبداية الصيف ونحن ننتظر بقلق: هل سيقومون في النهاية بمحاكمة أقربائنا؟ لماذا لم يطلقوا سراحهم؟ متى بإمكاننا رؤيتهم؟ مرّ هذا الشهر مليئاً بالتساؤلات وأخيراً تلقّينا برقية في العاشر من تمّوز من شقيقنا ريزو يعلمنا بأنّ أبي وأخي الكبير وعمّنا تمت تبرأتهم وأطلقوا سراحهم وفي ١٥ تمّوز سيصلون مادن في حدود الظهر! بَدَت لنا أيام الإنتظار الخمسة بأنّها أزلية لا تنتهي وكانت قلوبنا تخفق

من الفرح وتمنعنا من النوم كلّما فكّرنا بأنّنا سوف نراهم أحياء وطلقاء.

وفي صباح الخامس عشر من تمّوز صعدت ودون إخطار أحد على ظهر فرسنا البيضاء وسلكت طريق دياربكر. بعد مسيرة ساعة كنت قد أبتعدت عن مادن بمسافة خمسة عشر كيلومتراً وحينما لم أرى أحداً يأتي أوقفت مسيرتي وبدأت أبحث عن مرج تقتات منه دابّتي وتستريح. وأنا على الطريق لمحت ينبوعاً صغيراً فلم يبقَ أمامي غير نزول منحدر طفيف لأجد نفسي تحت ظلال شجرة صفصاف لم تطالها بإعجوبة الشراهة القاتلة للمعزات. وبينما أنا أتمعّن الفرس في ظل هذه الشجرة وهي تقتات بلذّة وشراهة العشب الطازج والطري للمرج سمعت ضجيج محرّك سيّارة فقفزت وتوجّهت لا إرادياً نحو الطريق الذي بلغته بسرعة الريح ولكنّ السيّارة كانت قد إختفت وراء المنعطفات. بالتأكيد، لابد وأنّها تلك التي تحمل ابي...فعدت بسرعة نحو الفرس وإنطلقنا بسرعة جنونية نطارد العربة التي أوقفها السائق بعد عشر دقائق فخرج منها بسرعة أحدهم. كان ذلك أبي! أبي العزيز الذي اشتقت إليه وإفتقدته خلال ثمانية عشر شهراً من السجن...إرتمى على رقبتي وأخذ يقبّلني طويلاً وقد رأيته يجهد لحبس الدموع التي ملأت عيونه ويمنعها من السيلان.

ـ هل أنت لوحدك جئت للقائنا؟ إستفسر منّي بحزن.

ـ نعم يا بابا لأنّ أُمّي لم تحبّذ إبلاغ أحد بخبر وصولك، كانت تخشى بأن يثير إستقبال الجمع الغفير حفيظة السلطات، قلت له ذلك بنبرة مكسورة.

ـ نعم حقّاً؟ أجاب مبتسماً بعيون صغيرة ولكن ما أرقّها ووداعتها.

في غضون ذلك نزل أخواي الإثنين أيضاً من السيّارة وقبّلاني كما لاحظت بأن ريزو ظهر عليه الإرهاق الشديد وإزدادت نحافته وشحب وجهه الأبيض الناصع. لقد كدّ وجاهد لمساعدة وإنقاذ أبي وأخي الكبير خلال إعتقالهما وهي مهمّة شاقة وصعبة على شاب في الثامنة عشر من عمره...

وقد دعاني لإحتلال مقعده في العربة لأنّه كان يرغب ترويض رجليه على ظهر الجواد فلبّى أُمنيتي بمصاحبة أبي وأخي الكبير. إنطلقنا بصمت وحينما وصلنا أمام الممر الذي يسير نحو بستاننا تفاجأنا بوجود جمع غفير من الناس يتهافتون عليه وهم قادمون من البساتين المجاورة وكنّا نتساءل عن كيفية معرفتهم بنبأ وصول

أهلنا...تجّمع هنا الرجال والنساء والأطفال بملابسهم الزاهية المخصّصة لأيّام العيد وكانوا يصيحون بصوت عالي:

ـ عاش يوسف أفندي! عاش الدكتور نافذ! مرحباً بعودتكم!

وهو يحيّيهم بساعديه المرفوعتين وحاول والدي إفهامهم بأنّ هذه التظاهرة ليست في محلّها بل الأحرى بهم السكوت والكف عن ذلك ولكن حماسة الجماهير تصاعدت أكثر فأكثر ووصلت إلى ذروتها حينما إخترق إثنان من جيراننا ياليل ومندو آغا صفوف الحشد وهم يمسكون بقرون كبشين وتقدّما، أحدهما بإتّجاه والدي والأخر نحو أخي الكبير وعندما أصبحا على مسافة أمتار منهم أشارا إلى القصّابين الذين رافقوهما طوعاً بذبح القرابين بين أقدام «الناجيَين الإثنين من المشنقة». وبلمح البصر طرح الرجلان الكبشين أرضاً ووضعا قدماهما اليمنى على بطن الحيوانين وهما يحاولان السيطرة عليهما وشل الحركة ومن ثمّ بعد سحبهما لسكّينين كبيرين من حزامَيهما العريضين وضعاها على رقبة الكبشين فتدفّقت الدماء لتصبغ الأرض بلونها وسلّم الكبشان روحهما بعد بضع رعشات. أنّ كل هذه المظاهر لم تسعد أبي بل بالعكس أزعجته وإعتبرها وحشية.

ـ ما كان ينبغي أن يفعلا هذا، وهو يصرخ.

لكنّ الجمهور المقتنع بأنّه يؤدّي فرائضه للمولى عبر تقديم القربان كان في ذروة سعادته وأغمرت ترنيمة هلاهل النساء المسنّات البهجةً والغبطةً في قلوب الحاضرين الذين لم يكونوا قد عبّروا عنها منذ أمد طويل.

وأثناء ذلك كانت والدتي التي إنتقلت إلى الساحة الأمامية تنتظر زوجها وولدها المدلَّل بفارغ الصبر فقبّلت أُمّي أوّلاً كتفَي والدي تبعاً للتقاليد الكوردية ولم يستمر عناقهما طويلاً لأنّها كانت على عجل لإحتضان ولدها البكر نافذ فردّ الأخير وهو يذرف دموعاً ساخنة بتقبيل وجنتي أمّه التي كانت تدمدم:

ـ آه نافذ، يا نافذ! أنت على قيد الحياة وأنت بقربي! لا تهجرني يا ولدي، لم يبق من عمري غير القليل فتصرّف بحيث تكون أيّامي الأخيرة مغمورة بالهناء. إبقى في مادن، إبقى بيننا!

ـ لا تبكي يا أُمّاه، لا تبكي يا أُمّي العزيزة الغالية سوف أدرس الأمر بجدّية إذا كانت

الإقامة في مادن ممكنة وإلاّ فأنّ دياربكر ليست بعيدة من هنا ويمكنني رغم سوء حالة الطرق زيارتكم في كل خمسة عشرة يوماً.

ـ كلاّ، وهي تتوسّل، أُريد أن أراك كلّ يوم بجانبي!

ـ نعم يا ماما، هدّئي من روعك ودعيني أمسح دموعك إن عيناك الجميلتان ورموشهما الطويلة الحزينة خُلِقت للسعادة وبذر البهجة والسرور وليس للأسى والألم والغم، فلنضحك الآن وندع الزمن يرتّب الباقي!

هدأت والدتي ورجعت إلى الواقع اليومي وهمومها في الإشراف على إعداد الطبخ والتأكّد من حسن إستقبال الزوّار الذين توافدوا للتعبير عن سعادتهم وتقديم تهانيهم بعودة أهلنا بعد قضاء حياتهم عاماً ونصف العام في السجن وقد إستغلّ البعض هذه المناسبة لإستشارة أخي الطبيب حول أمراضهم وآخرون كانوا يتوسّلون إليه بالإقامة في مادن. قدِم إلينا الزوّار من كل حدب وصوب مشياً على الأقدام وعلى ظهر الحمير والبغال أو على ظهر خيولهم وبالنسبة لي وجدت بأنّ الفرصة مثالية لإختيار أفضل فرس أصعد على ظهرها وأجري بها سريعاً على الطريق المعبّد ودعوت رفاقي الصغار من البساتين المجاورة للمشاركة في هذه الفعّاليات...

إستمرّ مجيء وذهاب الزوّار خمسة عشر يوماً وبعدها بفترة أعلمنا أخي الكبير عن نيّته بالعودة إلى دياربكر حيث تتواجد عيادته الطبّية ويشغل وظيفةً رسمية في بلديتها.

وبعد مضي شهر من مغادرته حصلت تغييرات كبيرة في الحياة السياسية للبلاد حيث قرّر مصطفى كمال وبضغط البعض من معاونيه دمقرطة النظام واللجوء إلى وسائل أُخرى عوضاً عن القمع والإضطهاد لتتريك الكورد فأُعلِنت عن قوانين إنتخابية جديدة وفي ١٥ تشرين الثاني من عام ١٩٢٧ جرت الإنتخابات البلدية في عموم تركيا.

تحولت مادن من قائمقامية إلى محافظة وتمّ النظر بإعادة تنظيم إستغلال نحاسها في أقرب فرصة ممكنة و إلحاق قسم داخلي بالمدرسة الإبتدائية للبنين بهدف إستقبال أطفال القرى الكوردية الذين لم يسمعوا بكلمة تركية واحدة في حياتهم بعد إخلائه من أطفال المدينة لحساب هؤلاء القرويين الذين يتم إيواءَهم وإطعامهم وكسوتهم وتربيتهم مجّاناً وتعليمهم اللغة التركية كلّ صباح مثلما يتم تلقينهم «عظمة وتفوّق» الشعب التركي...

ولكن هذه التجربة لم تستمر لأكثر من بضعة أشهر بسبب الإفتقار إلى التمويل من جهة ولقناعة السلطات بأنّ هذا السلوك لن يصبح الدواء الناجع لمحو الشعب الكوردي بشكل سحري من جهة ثانية حيث أنّهم لاحظوا بأنّ هؤلاء الكورد الصغار بالرغم من سرعة تعلّمهم للّغة التركية فقد إستمرّوا يتحدّثون بالكوردية ويقاومون أي عملية غسل دماغ...

أمّا بخصوص الإنتخابات البلدية ففي اللحظة التي سمع بها أهلنا عاهدوا أنفسهم بأنّهم لن يدّخروا جهداً لإنتخاب شقيقي البالغ ٣٢ عاماً رئيساً لبلدية مادن. وقد قدّم أخي نفسه كمرشّح وبشكلٍ ما رغماً عن إرادته، ولكنّه بقي في دياربكر ولم يشارك في الحملة الإنتخابية المستعرة بسبب الأساليب التي إستخدمتها الحكومة لفرض مرشّحها.

وفي مساء ١٦ تشرين الثاني أُعلنت النتيجة بإنتخاب أخي رئيساً للبلدية وبإنتخاب تقريباً كل أعضاء المجلس البلدي الذين كانوا من حزبنا. أمام الواقع المفروض عليه إضطرّ أخي ترك دياربكر والإقامة في مادن وهذا ما أسعد والدتي وفي مساء أحد أيّام تشرين الثاني وصل نافذ إلى الدار بينما كنّا نائمين فقفزنا من الفراش وتفاجأنا بوجود فتاة شابّة سوداء، قويّة البنية وهي واقفة أمامنا كشجرة صفصاف وتحدّق فينا بذهول...

في الروايات التي كنّا نستمع إليها قبل ذهابنا إلى الفراش كانوا يحكون لنا غالباً عن الأبطال والبطلات السوداء اللواتي كنّ يمثّلن الطاعة والطيبة والوفاء ولكن لم يصادف أن رأيناهم لحماً ودماً فكنّا مشدوهين ومنذهلين. وقد بادرت شقيقتي عِفّت الجريئة في هكذا مواقف والأكبر منّي عمراً بثلاث سنوات بسؤالها بغنج ودلال:

ـ من أنتِ ومن أين تأتين؟

إنشرحت أسارير الشابّة السوداء وأجابت بإبتسامة عريضة وخجولة كشفت عن صفّين جميلين من الأسنان البيضاء وبلهجة تركمان دياربكر:

ـ يسمّوني بيرلانت وأنا قادمة من دياربكر.

ـ وهل توجد سوداوات كثيرات مثلك في دياربكر؟

ـ نحن بحدود عشرة ومن عائلة واحدة، يُقال بأنّ أصلنا من السودان، ردّت عليها الشابّة السوداء.

ـ وهل تمكثين معنا؟ سألتها بدوري.

ـ أنا لن أتخلّى عن الدختور بك، أحب أن أخدمه إلى نهاية عمري. كدت أموت فأنقذني وطالما أراد الإحتفاظ بيّ فسوف أبقى في خدمته وإذا سكن معكم هنا فسأكون سعيدةً بالإهتمام بكم أيضاً، أنا أُحبّ الأطفال كثيراً.

رغبت بيرلانت الإستمرار في حديثها ولكن دخلت أُختي الكبرى، كولجين، إلى غرفتنا ماسكة بيدها إمرأة ممتلئة في الأربعينات من العمر ولها عينان واسعتان لامعتان وبقسمات وجه منتظمة وبشرة شديدة البياض.

ـ هاهي طبّاخة شقيقنا، أنّها تُدعى مقبولة باجي كما أعرف الآن الكثير عنها وسوف تسعدكم كثيراً إذا أخبرتكم بأنّها مختصّة في إعداد المفتونة والنوريا.

و فعلاً أثبتت مقبولة بعد ذلك جدارتها فأوكلتها والدتي مسؤولية الطبخ التي لم تكن وظيفة سهلة وبسيطة بسبب كثرة الضيوف والزوّار. أمّا بيرلانت فلطبعها المرح وصبرها الطويل وقوّتها الجسدية العجيبة فقد أصبحت رفيقة اللعب المثالية بالنسبة لنا.

بعد إنتخاب أخي رئيساً للبلدية من قبل الشعب كلّفته السلطات لإدارة مستشفى مادن أيضاً فباشر عمله على الفور. كان وضع مادن يرثى له في جميع الميادين حيث أنّ النشاطات في مناجمها كانت متوقّفة تماماً وإستولت الدولة على مواردها في كل البلد وكانت تبحث عن وسيلة نموذجية عصرية لإستغلالها. وقد تم تأسيس «إدارة لإستغلال مناجم نحاس مادن» ووضعوها تحت إشراف مهندس مختص فقام هذا الأخير بإستقدام مهندسين ألمان وبلجيكيين لإنجاز دراسات بشأنها ولكن بإنتظار المباشرة في الأعمال وجدت مادن نفسها غير قادرة على تحسين الوضع المعاشي الصعب لأهاليها لأنّ أولويتها إقتصرت على الحصول على الرأسمال وعلى تهيئة الكوادر ولكن لحسن حظّها فقد بعثت إليها أنقرة بوالي يتميّز باللطافة والتفهّم وذو نيّة صافية كما أنّه بفضل إصراره وجهوده إستطاع إقناع وزارة الداخلية بتسليف بلدية مدينتنا مبلغاً كبيراً من المال. وقد باشر أخي العمل أوّلاً في الأساسيات فجنّد العمّال لقطّاع الصحّة وخدمة المياه من بين الأهالي وإستقدم الكفوئين والإختصاصيين في المدنية. لم تكن الكهرباء معروفة في تلك الفترة حتّى في مدن أكبر وأهم من مادن ومع ذلك فقد فكّر أخي بتوفيرها لمدينته ولكن الدوائر العليا أفهمته بأنّ تركيا لا تملك سوى

مبالغ ضعيفة من العملة الصعبة خصّصتها لإستيراد إحتياجياتها الحيوية الأوّلية...

بحث نافذ طويلاً عن موقع مناسب وصالح للمستشفى لأنّ البناية القديمة التي هجروها أصبحت خراباً وأخيراً إقترح عليه ابن قدري أفندي، هذا الوطني الذي شنقوه في دياربكر، داره بطوابقه الثلاثة ومجّاناً كما عثر أخي على مساعد له في شخص مضمّد حاصل على دبلوم والمدعو كمال المشهور بأنفه الطويل وأمّا بالنسبة لأليف، الأرملة ذات المواهب المتعدّدة فقد أصبحت ممرّضته وقام أيضاً بتجنيد شابّين فتى وفتاة كانا قد أنهيا دراستهما الإبتدائية كتلميذين في التمريض وجنّد أخيراً العريف السابق علي، مجبّر العظام كمعاون له لمعالجة الخلوع والكسور.

وقد كان علي ظاهرة فريدة في نوعه حيث كان يلم فطرياً بكل تفاصيل الهيكل البشري فبالرغم من قصوره في التعليم كان يكفيه وضع يده على العظم المسبّب للألم ليتمكّن من تمييز الصدع عن الإلتواء وتمييز الخلع عن الكسر وبعد التشخيص يقوم بعلاج الإصابة وكأنّ الأمر لعبة أطفال بالنسبة له.

في أحد الأيّام إنخلعت قدمي اليمنى فشدّها بحبل وأدارها إلى ان عادت إلى وضعها المعتاد وقد كنت أصرخ بكل صوتي ولكن بعد مرور ساعات من الألم والعذاب شعرت بالراحة وفي اليوم التالي كان قد إختفى التورّم والإنتفاخ تقريباً وتمكّنت بعد المعالجة بثلاثة أيّام من الجري والقفز كالماعز. كما حصل أيضا بأن يقوم علي بوصف أدوية أيّام زمان جدّاتنا ولكنّها ذات تأثير سحري عجيب فمثلاً حينما كنت أُعاني من آلام في ساعدي أوصاني بتضميده بالزبيب الأسود المجفّف بعد فصله من الحبوب ومزجه بالزبدة وقد فعلت وأصبحت في أعقاب يومين متعافياً تماماً ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحد بل أنّ شهرته تجاوزت حدود مدينة مادن نفسها منذ اليوم الذي إنتهى مجبّرنا من معالجة أحد رفاقنا من كسر في حوضه.

حيث أنّه بعد ظهر أحد الأيّام وبينما كنّا نلعب قفز مصطفى من على سطح منزل إرتفاعه متران وبسبب تبلّل الأرض إنزلقت أقدامه وتهشّمت عظام حوضه من الجهة اليمنى، حاول الفتى الوقوف على أقدامه ولكّنه إنهار باكياً فتطوّع أحد المارّة لإرجاع مصطفى إلى المنزل وحينما حمله على ظهره تجمّدنا من رؤية رجله اليمنى وهي تهتز وتتمايل يميناً ويساراً وكأنّها بلا عظام.

كان مصطفى يتيماً من جهة أبيه فإستدعت والدته الشجاعة والمدبّرة لحالها على الفور العريف علي الذي باشر بفحص الكسر وأعلن:

ـ لقد تكسّرت عظامه بشكل جدّي ولكن كوني على ثقة فسوف أُعالجه!

فأوفى المجبّر بعهده بحيث أنّه بعد مرور شهر على الحادث عاد مصطفى إلى المدرسة متّكئاً على عكّازات إستغنى عنها بعد شهر وتعافى تماماً. وقد تعدّدت مآثر ومعجزات علي المجبّر بحيث أنّ كل أهالي مادن كانوا سعداء بتكليف أخي له لأداء وظيفة طبّية.

وبموازاة وظيفته ونشاطاته المتعدّدة فقد كان نافذ يفكّر في كشف المواهب المستورة لأبناء الشعب الكوردي والمساهمة في تطويرها وصقلها سواءاً في ميدان تجبير الكسور أو ميادين المهن الحرفية أو الموسيقية. وبينما يسير بإتّجاه تحقيق أحلامه لم يترك أيّة مناسبة دون أن ينتهزها لخدمة بلده وشعبه حيث أنّه بعد القيام بوضع المستشفى على الخط الحديدي قرّر تطوير ينابيع المياه وتشييد الجديد منها. كانت بعض الجسور المشيّدة على الوادي في الجهة السفلى من المدينة معرّضة للإنهيار فأمر بترميمها والمباشرة ببناء جسر جديد. وقد تجمّع المهندسون والبنّاؤون والعمّال وباشروا عملهم بحيوية ونشاط لكنّ الحكومة جمّدت التسليف كما قامت بإجراء تعديلات إدارية فصارت مادن قائمقامية بعد أن كانت محافظة وبأمر صادر من أنقرة تم إلغاء وظيفة رئيس البلدية المُنتَخَب مباشرة من الشعب في الأقاليم الكوردية كما تم إلغاء القسم الداخلي المخصّص لأبناء فلاّحي مادن وضواحيها من الكورد...

في بداية صيف عام ١٩٢٨ ترك شقيقي مادن للإقامة من جديد في دياربكر...كان الأمر بمثابة ضربة لمادن وصدمة لعائلتنا ولا سيّما بالنسبة لوالدتي. أنّ تواجد أخي في مادن أنعش الحياة في المنزل سواءاً من خلال تنظيمه المتواصل للولائم أو إستقباله لمواكب الزّوار كما أنّ قربه لوالدتي شجّعها في الواقع على نسيان مرضها حيث لم نعد نسمعها تتذمّر أو ترثي على حالها وغابت إغماءاتها تماماً خلال كل هذه المدّة. وللأسف ففي لحظة رحيل أخي ساء وضعها وبدأت أزماتها تتعاقب فمن البكاء والنحيب تدهور حالها ليصبح تشنّجاً وخفقاناً سريعاً في القلب وإرتفعت وتيرة هذيانها وغيبوباتها وطال وقتها ولم يكن أخي متواجداً هناك للعناية بها ومعالجتها...فإضطررنا إلى إستدعاء طبيب ألماني خاضع لفريق الفنيين والمهندسين الألمان في مناجم مادن بموافقة

خاصّة. وقد جاء إلى بيتنا على ظهر حصان وحينما رأيناه، أنا وأُختي عفّت، من فوق وهو يسلك طريق البستان لم نقدر على تمالك أنفسنا من الضحك لأنّه كان طويلاً إلى حد إختفت الدابّة تحته كما أنّه لم يكن قادراً على وضع أقدامه في الركب فترى رجلاه المتراخيتان تتدلّيان وتكنسان الأرض وبما أنّ وضعه لم يكن مريحاً على السرج فقد كنّا نراه يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال وأحياناً ينحني فجأةً فيعطي الإنطباع بأنّه قد فقد التوازن فيتراكض السائس المرافق نحوه لمساعدته ومنعه من السقوط.

ذهبنا لنحيّيه ولاحظنا بأنّ بريق قطرات العرق يضيء وجهه المحمرّ. كان لون شعره كستنائياً فاتحاً وعيناه زرقاء سماوية كما كان مرحاً وطيّباً ولكونّه إلتقى بشقراوتين فقد ردّ على تحيّتنا ضاحكاً باللغة الالمانية لكنّنا لم نفهمه فإستفسر منّا بلغة تركية مكسّرة:

ـ هل أنتما ألمانيان؟

ـ لا، لا، نحن من مادن، أجابته عفّت بسرعة.

ـ حسناً، ردّ علينا الطبيب الألماني وهو يتأرجح على الفرس التي لم يسيطر عليها بعد، ومن ثمّ هتف قائلاً وهو يتأمّل الأطراف:

ـ عظيم! بساتين رائعة! لا يمكن لإنسان أن يَمرض هنا!

ـ نعم، نعم بالتأكيد لا يمكن، ردّت عفّت، ومع ذلك فأنّ والدتنا مريضة جداً وتحتاج إلى مساعدتك. فمن فضلك، إستعجل بالذهاب لرؤيتها ومعالجتها.

ـ أمرك على رأسي، أجاب الأجنبي على الطريقة الشرقية وهو يستغرب النبرة المتسلّطة والمتوسلّة في آن واحد لشقيقتي.

حال وصوله أمام المنزل بدأت صيحات إعجابه تتعالى وهو يستنشق نسمات الهواء الباردة القادمة من المسبح المظلّل. كانت والدتي ممدّدة على أريكة في الايوان الذي يعبره ماء الينبوع المغذّي للحوض فتوقّف الطبيب على حافّة الماء حائراً للحظة وهو يتمعّن بسرعة في أطراف الموقع وبعد تحيّة خجولة إقترب من أُمّي وفحص نبضها وإسترقّ السمع لخفقان قلبها ومن ثمّ طرح عليها العديد من الأسئلة بلغة تركية غير مفهومة وإنهى معاينته بوصف أدوية ينبغي إعدادها في دياربكر لأنّ مادن كانت

محرومة في وقتها من صيدلية. لقد إستغرق وصول الأدوية ثلاثة أيّام وتناولت والدتي الأدوية حسب إرشادات الطبيب الأوروبي ومع ذلك لم تتحسّن على الإطلاق صحّتها بل تردّت أكثر فأكثر بحيث لم تعد تتناول الطعام وتفضّل البقاء لوحدها وكل ما كانت تتمنّاه هو حضور إبنها البكر بجانبها، ولكنّ الأخير الغارق في مشاكل إقامته المجدّدة في دياربكر لم يكن قادراً على الغياب عن هذه المدينة لأنّ السلطات التركية إعتبرته شخصاً غير مرغوب فيه بالإضافة إلى منافسة الأطبّاء الذين جاءوا إليها وأقاموا فيها أثناء تواجده في مادن وينتظرون الفرصة المناسبة للقضاء عليه.

وما عدا إبنها البكر فأنّ الشخص الذي فضلّته والدتي على الآخرين كان ججّو التي كانت تخدمها بإخلاص ونكران ذات لم تجدهما لا لدى أطفالها ولا لدى شقيقتها وللقيام بمجازاتها فقد كافأتها أُمّي قبل وفاتها بكل مجوهراتها الباقية. إنّ هذا التصرّف من أمّي لم يرضِ أُختي الكبرى وإنّما جعلها تخرج عن طورها كلّما قام واحد من أفراد الأُسرة بتذكيرها.

ـ لا أجد سبباً لغيرتك، ترد عليها والدتي بصوتها المخنوق وتؤكّد بأعصاب ثائرة على موقف أُختي كولجين التي كانت تستمتع أحياناً بمشاكستها. يجب أن تدركي بأنّ هذه الفتاة تستحق أكثر ممّا أترك لها. كما أترجّى بأن يقوم والدك بإسعاد روحها يوم زواجها من خلال تخصيص مهر يليق بها. أنّها من العائلة مثلما أنتِ.

في الحقيقة، كانت والدتي متشدّدة جداً تجاه أُختي كولجين وتنتظر منها بأن تصبح الفتاة المثالية للعائلة، بأن تصبح طبّاخة جيّدة وخيّاطة ومطرّزة وموسيقية وإمرأة مثقّفة. وفي العديد من المناسبات أثبتت أُختي المسكينة جدارتها لتكون «الزوجة المثالية» ولكن في ميدان الموسيقى فقد بقيت تثير الشفقة بالرغم من إصرار أُمّي التي بحثت لها عن أفضل الأساتذة من الكورد والترك والأرمن واليونانيين لتطوير قابلية كولجين في الكمان والعود لكنّها ظلّت قاصرة في تعلّمها وغير مقنعة في مستواها وكلّما رغبت والدتي الإستماع إلى أدائها حين لعب مقاطع من موسيقاها المفضّلة فقد كانت تخيب أملها وتثير الأعصاب وعبارات التوبيخ.

ـ لا ينبغي أن تحقدي علي وتتذمّري بإستمرار منّي، كانت أُختي تردّد لها وهي باكية بحرارة، لأنّني لم أُصنع للموسيقى ولا حول لي أبداً في ذلك.

لم يحالف الحظ والدتي ولم تهنأ لا برؤية إبنتها الكبرى مبدعة في اللعب على آلة الكمان ولا بحضور زواج أطفالها لأنّ حالتها الصحّية في صيف عام ١٩٢٨ تدهورت أكثر فأكثر وباتت تعيش تحت رحمة نوبات عنيفة من الغيبوبة تستمر لساعات عديدة ممّا خلق جوّاً عائلياً ثقيلاً مليئاً بالكآبة والحزن إلى درجة إنّنا لم نعد قادرين على التحدّث فيما بيننا إلاّ همساً وحتّى في أبعد نقطة من البستان كي لا نزيد من عذاب المريضة العزيزة ولا نمس بمشاعر الحب والتقدير التي نكنّ لشخصها.

في تلك السنة قطفنا الكروم بصمت وأعددنا المأكولات التقليدية بسرعة إستعداداً للشتاء وفي منتصف تشرين الأوّل تركنا الحقل للعودة إلى مادن وبتحوّط وحذر وضعنا والدتي على نقّالة.

وفي صبيحة يوم ٢٨ تشرين الأوّل تردّت صحّتها أكثر وإزداد قلقنا بحيث لم يخرج الأطفال من المنزل وبعثنا ببرقية لأخي نطلب منه المجيء بأسرع وقت ممكن ولكن لتواجده ساهراً على مريض في منطقة بعيدة عن دياربكر لم يصله الخبر. وعاد الألماني لفحص والدتي فبدى عليه الشرود كما أنّ نظراته كانت تنبّئ بأمر جدّي وخطير. أخرج الطبيب من محفظته محقنة ونظّفها ومن ثمّ كسّر رأس قارورة الحقن وسَحب المحلول بالإبرة وبعد ذلك غرزه ببطء في إحدى يدي والدتي ذات اللون الحليبية ومن ثمّ قام بدلك قدميها ولم تمر سوى دقائق معدودات فإذا بنا نرى أُمّي تفتح عينيها وتغلقهما هامسةً:

ـ آه نافذ! يا نافذ!

وواصلت في قفل عينيها للتلذّذ أكثر بسعادتها وهي واثقة من أنّها تتحدّث مع ولدها المحبوب فقالت:

ـ شكراً لقدومك يا ولدي! آه كم أنا سعيدة برؤيتك، بالتحدّث إليك، بلمسك قبل وداعي لهذا العالم! إقترب منّي كي أُداعبك مثلما كنت أفعل حين طفولتك. لا زلت أتذكّر بأنّك كنت تعشق مداعبة الشعر وكلّما صعدت على السرير فبالكاد ألمسه كنت تنام. إقترب يا ولدي، إقترب منّي!

ولأنّها لم تسمع ردّاً فقد قامت ببذل جهود هائلة لرفع رأسها ومن ثمّ نظرت حولها وفتحت واسعةً عينيها ولكن كم كانت خيبتها كبيرة حينما شعرت بغياب إبنها وتواجد الطبيب الألماني وتلعثمت ببضع كلمات من الإعتذار والتقدير ومن ثمّ هوت خائرة على

الوسائد وقد إرتبك الطبيب الألماني وحاول مواساة والدتي وهو يخاطبها:

ـ يا خانم إبنك صديقي، إستحال عليه الحضور ليسهر عليك ولذا دعاني لأحل مكانه والإعتناء بك وقد جرّبت كل ما يسمحه لي علم الطب الحالي. والآن كل ما أطلبه منك هو أن لا تستسلمي للمرض وإنّما تحتفظي بمعنوياتك وسترين بأنّ كلّ الأمور ستعود إلى مجاريها...

كان لزيارة ونصائح الطبيب الألماني تأثير إيجابي كبير على صحّة والدتي حيث أنّها ومنذ أيّام عديدة لم تكن قد ذاقت شيئاً وفي ذلك اليوم ظهراً أكلت الرز وشربت اللبن بشهية كما تناولت كمّية قليلة من مربّى التفّاح وعادت إليها روح المرح والدعابة فتمازحت مع المحيط والحاشية وبحدود الساعة الواحدة بعد الظهر عبّرت عن رغبتها بالنوم قليلاً وطلبت منّا تركها لوحدها. مكثت بجانبها وأنا أتصفّح موسوعة للأطفال أرسلها لي صديق للعائلة من إسطنبول وكانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر حينما فزّت والدتي من النوم وهي مهتاجة بصورة غير إعتيادية وتهذي صارخة:

ـ الموت! الموت! إنّه هنا أمامي، على الأريكة! ومن ثمّ مدّت يدها نحو المكان المذكور ووجّهت كلامها «للموت» وكأنّها تتحدّث مع كائن حي:

ـ لا، لا تأتيني الآن! دعني أرى أطفالي أوّلاً ولا سيّما نافذ متوسّلة منه بإلحاح.

وحينما رأيت هذا المشهد خرجت راكضاً وأنا أُنادي.

ـ يا كولجين، عفّت، ججّو، يا عمّة وكلّ الآخرين هلمّوا بسرعة فحالة أُمّي محرجة.

ومن ثمّ عدت إلى سرير أُمّي دون أن أنتظرهم فرأيتها قد تمدّدت على الفراش من جديد وأغلقت عينيها وهي تدمدم بكلمات غير مفهومة.

ـ فصرخت بكل قواي ماما، ماما!

بقيت جامدة لا تحس بندائي ورأيتها تفتح فمها كطير جريح مصاب حدّ الموت شهقت بعد ذلك من جديد بصورة مسموعة ولثلاث مرّات وهي تلفظ اسم ولدها البكر:

ـ نافذ، نافذ، نافذ!

ومن ثمّ توقّفت عن الحركة.

ضائعاً، ألقيت بنفسي على رقبتها وأنا أشهق بالبكاء.

ـ لا يا ماما لا تهجرينا، أمكثي معنا لا يا ماما أمكثي معنا!

لا أدري كم من الوقت بقيت هكذا بين ذراعَي والدتي التي فارقت الحياة ورحلت عنّا...لكنّني لا زلت أتذكّر ججّو وهي تأخذني بين ذراعيها مردّدة:

ـ إذا واصلت على البكاء بهذا الشكل فستقع مريضاً، هيّا، ينتظرك أصحابك الأطفال لتلعب معهم، هيّا إلتحق بهم ولا تفكّر بأيّ شيء!

لم أُنفّذ أمر ججّو بل ذهبت سريعاً لأجد أبي في دار الضيافة.

ـ بابا، يا بابا، وأنا أصرخ، لقد فقدت أُمّي وأصبحت يتيماً.

وهو يسمع كلماتي إنفجر والدي باكياً وشرع يتمتم:

ـ يا إلهي، لو ماتت أُمّك فأنا اليتيم، أنا اليتيم البائس بحق.

كانت تلك من المرّات النادرة التي تحدّث فيها معي...ومن ثمّ دون أن يعيرني إنتباهاً توجّه مسرعاً إلى البيت وهو يجر بلحيته ويلطم على صدره قائلاً:

ـ أُه يا إلهي، لقد ضعت وهلكت. كانت (مؤمنة) أساس المنزل، يا رب أُفوّض أمري إليك وأتوكّل عليك، يا رب ألهمني القوة والصبر وارشدني.

وأنا أرى رد فعل والدي أحسست تماماً بالحيرة والإرتباك ولمت نفسي على إعلامه بالخبر الفظيع. كنت أتساءل مع نفسي، لقد تعوّدت دائماً على رؤية هذا الإنسان وقوراً وصارماً فلا بد أن يكون حزنه وإنهياره لخبر وفاة والدتي دليلاً على مدى حبّه وتعلّقه بها. نسيت غريزياً ما أصابني من مأساة فأخذت بيده وتلعثمت مرتجفاً:

ـ لن تكون وحيداً يا أباه فنحن معك! سوف تهتم كولجين بالمنزل وقد كانت خلال سنوات مرض والدتي هي التي تدير كلّ شيء فيه وكذلك هناك أيضاً العمّة وججّو...

حينما أحسّ والدي بحماسي وإندفاعي في الحديث معه توقّف لحظة وبدأ يحدّق فيّ بعيونه المليئة بالدموع وإنحنى نحوي ليطبع قبلةً على جبيني ويقول:

ـ يا بُنَيّ ما تتفوّه به هو الحكمة بعينها لقد غمرني الإنفعال وأراك تعيدني إلى الواقع والصواب. كانت أُمّك إمرأة فريدة وإستثنائية لكن ماذا عسانا أن نفعل أمام القدر. لا بد للحياة أن تستمر ولنسعى بحيث يكون مأتمها عظيماً ولتبقى ذكراها حيّة في قلوبنا!

تركني أبي على هذه الكلمات أمام المنزل وأسرع بخطاه يصعد إلى الغرفة التي ترقد

فيها الجنازة التي نزل منها بعد لحظات، إستدعى جمال وأمره بالبحث عن الطبيب الشرعي. بعدها بقليل وصلت إمرأتان مختصّتان «بغسل الموتى» وإثر الغسل نقلوا نعش أُمّي إلى دار الضيافة ووضعوها على طاولة في صالة الإستقبال الكبيرة فتناوب العشرات من قرّاء القرآن يتلون عليها آيات من القرآن الكريم طوال الليل وإستمرّوا حتّى ظهر اليوم التالي وقد تجمّع في هذه الساعة حشد هائل من الناس سواءاً في داخل أو في خارج دار الضيافة.

منذ اللحظة التي أخرجتني ججّو من غرفة والدتي لم يسمحوا لي بالعودة لرؤيتها ولكن قبل أن يرفعوا نعشها عن الطاولة ويحملوها للمقبرة إستطعت الإقتراب منها لأُلقي عليها آخر نظرات الوداع ومن ثمّ أبعدني الخدم وقادوني إلى البيت. راقبت عبر إحدى نوافذ منزلنا نعشها الطافي فوق عدد كبير من الأيادي التي كانت تتزاحم للتعبير عن تقديرها للراحلة وإعتزازها بعائلتها والفوز من خلال إجلالها للتقاليد والأُصول الدينية بالأجر الإلهي وتوارى الموكب الحاشد في منعطف طريق كأمواج بحر هائج تخطف الجسد المنطفيء لإمرأة عمرها أربع وخمسين عاماً أحبّتها وإحترمتها مدينة بكاملها.

وحال تواري النعش تحوّل البكاء الصامت للنساء والفتيات الشابّات والأطفال المجتمعين في المنزل إلى عويل وصرخات ممزّقة وبحكم تواجد المقبرة الجديدة على مسافة بعيدة فأن الذين رافقوا والدتي إلى مثواها الأخير لم يعودوا إلاّ في وقت متأخّر من النهار وبدأ بعد ذلك تقاطر الناس للتعبير عن تعاطفهم ومواساتهم. وفقاً للتقاليد الكوردية فإنّ الأقرباء والأصدقاء والجيران يتحمّلون خلال اسبوع مسؤولية إطعام أهل الميت وقد قدّموا لنا صباحاً وظهراً ومساءاً أغلى المأكولات وأطيبها في أواني نحاسية كبيرة مغطى بغطاء مع الخبز والمعالق والمشروبات غير الكحولية وبالأخص اللبن.

بعد إختفاء والدتي أصبح والدي أكثر إنطواءاً على نفسه وكذلك أكثر إحساساً بآلام ومآسي الآخرين فإختصرت همومه ومشاغله الرئيسية في البحث عن العوائل الفقيرة المحتاجة لكي يساعدهم وكان يغمر قلوبهم الفرح والأمل حينما يضع أكياس الطحين والبطاطس والفاصوليا وأكوام الخشب على عتبات بيوتهم وقد وصل به الأمر أحياناً إلى أن يحرّمنا من الذخائر التي تعوّدنا عليها كالعنب والتين المجفّفين ليقدّمها إلى

معوّزي المنطقة وقد تمنّيت في أحد الأيّام تناول تلك الثمار المجفّفة فتأسّفت على إثارة إنتباه والدي حول الموضوع:

ـ في المدرسة يأكل زملائي الثمار المجفّفة كما هو الحال في كل سنة ولا أدري لماذا في هذا الشتاء لا نملك منها في البيت...

أجابني والدي وبنظرة عصبية مخيفة:

ـ قوارير الكيلر مليئة بمختلف المنتجات اللذيذة والمغذّية فحاول أن تكبح جماح أنانيتك وتفكّر قليلاً بأولئك الأطفال الذين لا يملكون شيئاً طيّباً يمضغوه. لقد تنازلت في هذه السنة عن نصيبنا من عنب وتين حقولنا في قرية كاليش فكن سعيداً بما فعلت ولا تأتيني شاكياً من هكذا تفاهات!

أنّ النبرة الهادئة والجدّية في كلامه جعلتني أضطرب إلى درجة هرعت لأحتمي بين ذراعَي أُختي الكبرى، كلجين، التي أصبحت السيّدة الأُولى في المنزل.

ـ كآخر مولود للعائلة أنت بمثابة الهدية التي تركتها والدتي لنا وسوف أعمل المستحيل كي لا تفتقد إلى الحنان وتكون سعيداً في حياتك، كانت لا تتوقّف عن ترديدها لي في كل مناسبة.

وقد وفت كولجين حقيقةً بوعدها وعشت خلال سنة كاملة اسعد أيّام طفولتي كما أثمرت حمايتها و «رعايتها» بحيث عبرت المرحلة الإبتدائية في المدرسة وعمري عشر سنوات فتوجّب علينا التفكير بعد ذلك بمتابعة دراستي الثانوية في دياربكر لأنّ هذه المرحلة الدراسية لم تكن موجودة في مادن.

وفي احد أيّام نهاية شهر ايلول ودّعت أبي وشقيقاتي وججّو وجمال وحماري والخيول والأصدقاء ومادن مع جبالها ووديانها باكياً لأُقيم لدى أخي الكبير وأعيش معه. أنّ ما علق بذهني خلال التسعة شهور التي أمضيتها في هذه المدينة هو ذكرى أيّام سوداء تخلّلتها نادراً لحظات سعيدة خاطفة. كان منظر دياربكر كئيباً بحق وذلك لكونها محاصرة من كل الجهات بأسوار وعلى غرار جدرانها كانت بيوتها مبنية بأحجار بازلتية سوداء كما أنّ شوارعها كانت ضيّقة ومتعرّجة وحتّى فناءات بيوتها من الداخل كانت مفروشة بتلك الأحجار.

وقعت المدرسة التي تردّدت عليها بين بعض العمارات المتواجدة خارج أسوار المدينة، بين دار المعلّمين وبين مستشفى المدينة الوحيد. كانت البنايات الثلاثة تلامس تقريباً حافّة المنخفض الذي يجري نهر دجلة على مسافة بضع مئات الأمتار منه...لقد كان منظرها أقل تعاسةً عن غيرها ـ بيضاء مع سقوفها المبنية من قراميد حمراء ـ ولكن الجو السائد في المدرسة كان حزيناً بسبب التوتّر والخصام بين أبناء الموظّفين من أصول تركية وبين أطفال دياربكر وضواحيها ونتيجة لسعي المدرسة الحثيث في فرض سياسة التتريك على الكورد والتي حرّمت عليهم التلفّظ بكلمة «كورد» والتحدّث بلغتهم بصورة مطلقة وفي اليوم الذي فوجيء فيه تلميذ من الصف الثالث وهو يتحدّث بالكوردية تم إستدعاءه من قبل المدير.

ـ ألم نخبرك بأنّه لا ينبغي في تركيا التحدّث بغير التركية وأنّ إستعمال أيّة لغة أُخرى ممنوعة منعاً باتّاً عليكم؟

ـ أعلم بذلك، ردّ عليه بحري، ولكن الكوردية هي لغة آبائي وأجدادي فليست هناك أيّة قوّة في العالم قادرة على ردعي من إستخدامها، أنّها أقوى منّي ولن أُبالي بقوانين المنع. قام مجلس الإنضباط بعقد إجتماع طارئ وقرّر طرد بحري على الفور من المدرسة.

وقد تواجد من بين الهيئة التدريسية مدرّسون من أصول كوردية ولكنّهم كانوا يعطون إنطباعاً بأنّهم أتراك أكثر ممّا هم كورداً وأُستاذي المفضّل كان المدرّس العجوز للتاريخ الذي تميّز ببراعته وموهبته في سرد تاريخ البابليين والآشوريين والفرس وشعوب قديمة أُخرى بلهجته التركمانية الدياربكرية القوّية. وأمّا تحسين بيك، مدرّس الرياضيات الطويل والبدين، المتغطرس الذي كان يضع يديه دائماً في جيوبه والسجارة معلّقة بين شفتيه فقد كان يوحي بأنّه جلاّد أكثر ممّا هو أُستاذ وقد كان مهووساً في إعطائنا مسائل تتجاوز طاقاتنا ومستوانا ويحرمنا من أوقات الإستراحة بين المحاضرات بل وحتّى من وجبة طعام الظهر فيما إذا لم نفلح في إيجاد حلّها وقد كان تحسين بيك يفتخر ويتبجّح بأنّه من مؤيّدي مدرسة «التربية الحديثة» التي أدخلها مصطفى كمال ونادى بإعتمادها في تركيا...

لقد بدأ في هذا العام ١٩٣٠ فصل جديد من حياتي...والذي أصبح حاسماً لعائلتنا

وللكورد بأجمله وكذلك بالنسبة لي فبمبادرة من ممدوح سليم، الكوردي المنحدر أصله من فان والحاصل على شهادة بكالوريوس في القانون والعلوم السياسية، وبالتنسيق مع بعض مثقّفي تركيا بتشكيل تنظيم سياسي في سوريا هدفه إستقلال كوردستان: «خوي بوون» كما أنّه وفي نفس هذه السنة حاول أعضاء هذه الحركة وبمساعدة الارمن المرور إلى تركيا لتنظيم عمل مسلّح ضدّها وقد نجحوا على إرسال أحد أعضائهم، إحسان نوري، ضابط الأركان القديم للجيش التركي إلى جبل أرارات. لقد سمح شاه إيران الذي كان يعادي مصطفى كمال بسبب نزاع حدودي معه لإحسان نوري بالعبور عبر إيران لإحتلال موقع في السفح الغربي لجبل أرارات ومنه إستطاع بعد فترة وجيزة في إنهاك القوّات التركية كما تمكّن من جذب العديد من الزعماء الكورد الضحايا للقمع الكمالي والإلتحاق به. كما أنّ الفرنسيين من جانبهم عاهدوا بالتغاضي عن ذلك وبعدم الإعتراض لتصرّفات خوي بوون ولكن الكورد السوريّين الذين كان من المفترض بهم دعم نوري لتحرير كوردستان لم يساعدوه بما يكفي لتحقيق الهدف. ولكن تصالح الفرنسيّون مع الأتراك وتغيّرت سياستهم وأمّا الشاه رضا الذي أقسم على حياديته حينما تنازل له الأتراك في مسألة النزاع الحدودي فتح أبواب إيران وعبرت القوّات التركية عبر أراضيه لمحاصرة الكورد فيها...

أحسّ مصطفى كمال بعد الفشل الذي حصده خوي بوون بأنّ أياديه أصبحت طليقة وبأنّ المجال أصبح أكثر إنفتاحاً أمامه من أيّ وقت مضى للمباشرة في معاقبة الكورد بفظاظة فقام بحرق المئات من قرى المناطق القريبة من أرارات مع سكّانها من النساء والأطفال والمرضى وفي ترحيل مئات الآلاف من الكورد إلى غرب تركيا وتوزيعهم على القصبات بين المواطنين الترك، أي القيام بتوجيه كل خمس عوائل إلى قرية.

وإعتباراً من هذه اللحظة أصبح كل كوردي مثقّف يُشك بتعاطفه مع الحركة القومية الكوردية معرّضاً لصواعق سلطات أنقرة التي أصدرت مرسوم ـ قراراً بنقل جميع الموظّفين الكورد البارزين إلى المناطق التركية وقد وقع العديد من الكورد المارسين للمهن الحرّة فريسة وضحايا لهذه السياسة وأصبح أخي الكبير هدفاً وعدواً مكروهاً من السلطات التركية.

وقد أصبحت كوردستان تركيا في تلك الفترة كأي بلد محكوم خاضعة لإدارة خاصّة

مقرّها في دياربكر ويرأسها المفتش العام إبراهيم تالي المرتبط مباشرة بمصطفى كمال والذي كان طبيباً وصديقاً شخصيّاً لمصطفى كمال ومنتمياً إلى العقيدة الطورانية بحماس وإندفاع رغم إنحدار أصله من دروز منطقة حلب كما كان قاسياً وفظّاً يعاقب كلّ الكورد «المشبوهين» في حملهم لمشاعر قومية وكان يكفيه بأن يتحدّث أي مثقّف كوردي باللغة الكوردية أو يغنّي بها أو يستمع إلى موسيقاهم بل وحتّى إذا لم يكن عضواً في «البيت التركي» لكي يقوم بإتّهامه فوراً بمعاداته للترك ونعته بالقومي الكوردي الخطير الذي يستلزم القضاء عليه بأقرب فرصة ممكنة.

وقد كان هناك من بين الموظّفين الذين نقلهم إبراهيم تالي إلى غرب تركيا مادنيان صديقان مقرّبان من أخي الكبير وهما شوكت زلفي، أُستاذي القديم لمادّة اللغة الفرنسية في ثانوية دياربكر وعارف عبّاس، المهندس الزراعي ومدير الشؤون الزراعية في جنوب شرق تركيا فقاموا بنقل شوكت زلفي إلى أدنة وعارف عبّاس إلى أنقرة ولكونهما موظّفين رسميين فقد إضطرّا على إطاعة الأوامر الصادرة من وزارتيهما ومن ثمّ وجّه إبراهيم تالي إنتباهه نحو أخي و «إقترح» عليه مغادرة دياربكر والإقامة في غرب تركيا.

ـ سوف أُعيّنك بوظيفة مهمّة في المدينة التي تختارها...

فردّ عليه أخي رافضاً إقتراحه بأدب معلّلا تفضيله العمل لحسابه الخاص وبأنّ عيادته مستقرّة في دياربكر وقد بذل جهداً كبيراً لتكوين زبائنه ومن ثمّ فأنّه ليس هناك من سبب يدعوه لمغادرة مدينة إختارها بمحض إرادته.

ـ ما إقترحته عليك إعتبره بمثابة نصيحة أُسديها إليك، ردّ عليه بمكر.

كان أخي آنذاك يسكن في أحد منازل دياربكر الكبيرة مع باحة داخلية واسعة ومدخلين يطلاّن على شارعين قائمين متقاطعين.

بعد مرور بضعة أيّام على لقائه مع المفتّش العام قاموا بنصب شرطي على كل مدخل للمنزل...إقتصرت مهمّتهما على المراقبة والمطالبة بأوراق الهوية لكل زائر وعلى السعي الحثيث في إقناع المرضى بعدم المجيء إلى عيادة أخي للمعالجة.

ـ لماذا تأتون لإستشارة هذا الطبيب وليس طبيباً آخر؟

ـ لأنّه طبيب ماهر جداً، كان الزوّار يجيبونهم.

ـ وحتّى إذا كان جيّداً فلا تذهبوا إليه للمداواة وإلاّ فأنّكم تجازفون بإثارة المشاكل لأنفسكم، يحذّرهم الشرطيان.

لكن المرضى لم يكونوا يأبهون بتهديداتهم وإستمرّوا على الذهاب إلى عيادته أو اللجوء إلى الإستشارية وكلّما كان يتنقّل أخي لمعاينة مريض فأنّ الشرطة كانت تتعقّبه وتسجّل بعناية أسماء الذين يحتاجون إلى خدماته. أنّ هذه التصرّفات كانت تزعج الناس أكثر ممّا تخيفهم ممّا دفعت السلطات إلى إستخدام وسائل أكثر وحشية وقد باشرت الشرطة في إلقاء القبض على كل مريض يعيد زيارته والقيام بإقتياده إلى المركز لإخضاعه إلى الإستجواب والعنف ولا يقومون بإخلاء سبيله إلاّ مقابل تعهّد مكتوب بتغيير الطبيب فإضطرّ أخي على كتابة طلب إحتجاج أرسله إلى سلطات أنقرة يذكر فيه بأنّ تلك التصرّفات تخالف الدستور الجمهوري وتنتهك الحقوق الأساسية للفرد ولكّنهم لم يجيبوه وإستمرّت الشرطة في مخالفاتها وإعتداءاتها على المرضى.

ولأنّ الوضع كان يتّجه يوماً بعد يوم نحو الأسوأ فلم يبق بدّ أمام أخي سوى مواجهة خيارين: إمّا الإذعان لمقترحات إبراهيم تالي أو الهروب من البلد واللجوء إلى الخارج وحينذاك فأنّ أقرب الدول وأكثرها ترحيباً كانت سوريا لأنّ الفرنسّيين لم يكتفوا بإستتباب الأمن والسلام في الجزيرة المسكونة بأغلبية كوردية حضرية وإنّما كانوا يشجّعون أيضاً كل المعارضين للنظام الكمالي بالإقامة فيها والقيام بإستغلال أراضيها التي بقيت بوراً. أنّ عشرات الآلاف من الكورد والأرمن والكلدان والسريان واليهود المستكردين قاموا بتقديم سواعدهم وأموالهم وعلمهم لأهل المنطقة الذين لم يحتاجوا لغير سنوات معدودات لكي تصبح الجزيرة كاليفورنيا سوريا...

وعلى شاكلتهم فأنّ الوضع أغرى أخي ولكنّه كان يفكّر بأي حيلة يستطيع مغادرة تركيا والوصول إلى بلد إستوردت له فرنسا «الحرّية» و «الديموقراطية» للتنفيس عن نفسه؟...

وفي أعقاب مناقشات طويلة مع صديقيه عارف عبّاس وشوكت زلفي اللذين أغرتهما الفكرة أيضاً قرّر أخي «عبور الخط» والمطالبة بحق اللجوء من الفرنسيين وقد فكّر بتنفيذ مشروعه حين إستدعائه من قبل المفتّش العام وإبلاغه بمغادرة المدينة.

ـ لم يعد لك حق بالبقاء هنا. إذا رغبت التخلّص من الهموم والمشاكل فغادر من المناطق الكوردية بمحض إرادتك.

ـ جيّد جداً، أجابه أخي، أعطني وظيفة في غرب تركيا وسأذهب إلى هناك.

وفي اليوم التالي تم نقله إلى إزمير. وافق أخي ورفاقه وإنصاعوا لمقترح المفتّش العام لأنّهم فكّروا بأنّ إجتياز الحدود لإستنشاق هواء الحرّية سيكون أسهل عليهم إعتباراً من المدينة الجديدة...أمّا أنا وعمري عشر سنوات ونصف فلم أكن ملمّاً بخطّتهم بل كنت أعلم فقط بنقلي إلى ثانوية في إسطنبول.

ـ ولكن لماذا يبكي أخي ريزو؟ كنت أتساءل مع نفسي.

بالطريقة التي كان يتصرّف بها أخي الكبير كنت أخمّن حدثاً غير إعتيادياً ولكنّني لم أكن قادراً على تحديد الأبعاد وتقدير الأهمّية...

بعد ذلك بأيّام تواجدنا في قطار يتّجه نحو «إسطنبول» على خط حديدي محاذي لسوريا وقد كان أخي وأصحابه يتبادلون الحديث بينهم بإقتضاب وغرابة وأنا ألصق أنفي بزجاج النافذة راصداً المناظر الطبيعية. كنت أحس في الواقع بدخولي إلى عالم جديد فالرجال الذين كنت ألمحهم يضعون الطرابيش الفاسية والكوفية والعقال على رؤوسهم «المظاهر المنحرفة» التي حرمّها أتاتورك على الشعب. كنت أستمتع بالتمعّن في هؤلاء الناس الغرباء وبتأمّل تلك المناظر الطبيعية الجديدة وأخيراً عند حلول الليل توقّف القطار في محطّة وإلتحق بنا مدير المحطّة الأرمني في الكافيتريا الذي عقد إجتماعاً سرّياً غريباً بادل فيها الحديث مع أخي وأصدقائه فخمّنت بأن ثمّة مغامرة غير طبيعية تُنسج ولكن لم أكن قادراً على تفسير معنى كل تلك الهمسات.

ـ نورالدين، هل تعرف إلى أين تذهب؟ سألتني زوجة عارف عبّاس التي لم تشاركهم في النقاش.

ـ أنا؟ بالتأكيد إلى إسطنبول، أجبتها بهدوء وأنا جالس أمام كأس الليمون.

ـ أ حقّاً؟ ضحكت بعصبية، حسناً ها قد وصلنا إلى إسطنبول!

ولم تكد تنهي جملتها فإذا بها تنفجر في البكاء فبكيت بدوري لأنّني إكتشفت في محاورة لأخي مع مدير المحطّة بأنّنا لم نكن نتواجد في ضواحي إسطنبول وإنّما قرب

حلب، في سوريا!

ـ كيف، ثرت مهتاجاً، ألم تكن وجهتنا إسطنبول، لماذا لم تذهبوا إليها؟ أنتم كذّابون! أنا، أُريد العودة إلى البيت!

حاول أخي إقناعي ومواساتي.

ـ ولكن هنا، سأقوم بتسجيلك في أفضل المدارس الفرنسية وسوف تتعلّم اللغات وتتثقّف و ستصبح رجلاً!

أمّا أنا فلم أقتنع بكلامه وإنّما شعرت بالحنين إلى مادن، إلى بوزو وإلى البستان وأحسست باللوعة لرؤية أشجارنا وكرومنا وشقيقاتي وأخي ريزو...

وتصاعد بقربي عويل وصراخ زوجة عارف عبّاس وبعد مرور دقائق توقّف بإشارة من الأرمني باص صغير أمامنا ليقودنا نحو حلب التي وصلنا إليها في منتصف الليل. لا أعلم كيف تمكّنت من النوم وفي اليوم التالي أسمعني عارف عبّاس الذي جلب معه كرامافون ومجموعة من الإسطوانات أُغنية تركية ـ كوردية ممنوعة في تركيا:

«أيّها الكورد الشجعان، هذا يومكم

إسحقوا العدو

وأطردوه من ترابكم الوطني...»

وعند سماعي للأُغنية نسيت حزني وبدأت أُردّد حتّى إيقاعها الموسيقي...

سوريا

حلب دمشق والجزيرة

وضع كورد سوريا في عهد الإنتداب الفرنسي

الوعي القومي

حياة كورد الجزيرة

الكفاح اليومي لطبيب كوردي ضدّ المشعوذين والجهل والمرض

أولى النشاطات القومية الكوردية

التسلّل من قطار يسير على بقعة أرض تركية محصورة بين الأراضي السورية

تجربة الزراعة

لا شك في ذلك أنّ حلب كانت أقل جمالاً عن مادن بسبب إفتقارها إلى الاشجار والوديان والخضرة وإلى بوزو...ولكن مجال الحرّية فيها كان أوسع بالنسبة للكورد حيث أنّه كان يحق لنا الغناء والإستماع إلى الموسيقى والأنغام المنوعة في تركيا.

و إستسلمت رويداً رويداً إلى الواقع وتأقلمت مع جو حلب وإنتهيت بتعودّي عليها والإعجاب بها. وقد أثارت هيئة أزياء عامّة الشعب في شوارعها إنتباهي حيث أنّ البعض كانوا يرتدون العباءات وآخرون يرتدون سراويلاً واسعة مع عمامات متنوّعة وأحذية حمراء بنهايات مقلوبة كما أثارني الحشد المبرقش والمتحرّك لساحة بال الفرج ولا زلت أتذكّر صراخ الباعة المتجولين لترويج بضائعهم والحمّالين الذين كانوا يضعون أحمالاً ثقيلة على ظهورهم وهم يطلقون الصيحات لفسح المجال أمامهم وكذلك سائقو العربات وهم يفرقعون سياطهم على ظهر الخيول. لقد كان بمثابة عالم جديد أكتشفه وكان من أروع مفاجآتي إكتشافي لشوارع حلب وهي مبلّطة و حين عبوري لأحداها لم أتمالك نفسي فصرخت:

ـ ها هي المدينة المثالية للدرّاجات الهوائية!

وسريعاً كنت أمضي معظم ساعات النهار في قيادة الدرّاجة في شوارع حلب...

وأعيش برفقة أخي وأصحابه مساءاً ولم تفتني أيّة نظرة من نظراتهم الحزينة ولكنّني كنت أجهل سببها لأنّنا لم نكن مطاردين هنا ولا يعذّبوننا كما كان الحال في تركيا فيا روعة الحياة هنا، كنت أُردّدها مع نفسي، وأخيراً بدأنا نعيش في الهدوء والأمان...

في الواقع، أنّ الحقيقة لم تكن مطلقة كما كنت أتصوّر حيث أنّه حال وصول أخي وأصحابه سارعوا في تقديم طلب إلى الفرنسيين للحصول على حق اللجوء السياسي ولم نشك لحظة بأنّ فرنسا ستستقبلنا برحابة صدر وتقدّم لنا كافّة أنواع التسهيلات للإقامة في سوريا ولكن توقّعنا بأنّ القوّة الإنتدابية العظمى التي إختارت بيروت كمقر لمفوضّيتها العليا ستدعمنا بل وحتّى ستساندنا لمواصلة نضالنا من أجل تحرير الشعب الكوردي.

ولكن السياسة الفرنسية تجاه الكورد كانت تتموّج تبعاً لحال العلاقات المتبادلة مع تركيا وكنّا نجهل تفاصيلها...حيث أنّه بعد مرور أسبوع على تقديم الطلب جاءنا ردّ لا يمكن تصديقه ومرعب حقّاً: أنّ المفوضية العليا ترفض طلب اللجوء وتعلن لنا عزمها على تسليمنا للإتراك وذلك «من أجل توثيق أفضل العلاقات بين الدولتين» وأنّ أنقرة تصر على تنفيذ هذا الطلب.

ـ كيف يمكن لسياسة هكذا دولة عظمى الإنحدار إلى مستوى يتم فيه سحق وإنتهاك المبادئ الإنسانية المعترف بها والمُنادى بإحترامها على الصعيد الدولي؟ كان يردّده أخي. لقد خدعتنا الدعاية التي وصفت لنا بأنّ فرنسا هي بلد الحرّية والمساواة والأُخوّة...

ـ ماذا سيفعل الفرنسّيون بنا، هل يتجرّأون فعلاً على طردنا؟ كان يتساءل أصدقاؤنا.

ـ ولكن ثمّة قوانين دولية تحرم تسليم اللاجئين السياسيين، كان أخي يستطرد في حديثه.

أنّ التهديد بطردنا أثار الرعبَ في نفوسنا لشهور عديدة وأخيراً بفضل تدخّل كورد سوريا ومساندة أصدقاء أرمن لدى المفوضّية الفرنسية العليا وكذلك بعد إقتناع الأخيرة بأنّنا غادرنا تركيا لأسباب سياسية حينئذٍ سمح لنا الفرنسيون بالبقاء في سوريا.

وبدأنا نتنفّس هذه المرّة أو نكاد...حيث أنّه إفترض علينا العثور على وسيلة لكسب

خبزنا وأنّ وزارة الصحّة حرّمت على أخي الذي كان قد أكمل دراسته الجامعية في إسطنبول ودمشق في عهد الإمبراطورية العثمانية (يؤكّد دبلومه بأنّه يستطيع ممارسة المهنة على كل أراضي الإمبراطورية وبضمنها سوريا) وبأن يحق له ممارسة مهنة الطب في سوريا ولكن الأمر إستدعى إجراء إختبارات جديدة وقد رأيته يحبس نفسه لأيّام عديدة في غرفة الفندق وهو يراجع الكتب التي حملها معه من تركيا وبعد مضي اسبوع تمكّن من إجتياز الإمتحان والنجاح في الإختبار كما حصل على الموافقات الضرورية بفتح عيادة طبّية في أيّة مدينة يختارها من سوريا. وقرّر أخي بعد إستشارة أصدقائه من الكورد والأرمن فتح عيادة إستشارية في حلب وعثر على شقّة في شارع خندق الواقع في الطريق الرئيسي الذي يقود إلى المدينة فعلّق على مدخل البناية لوحة تذكر إسمه وإختصاصه (الأمراض الزهرية والأطفال) وتشير إلى أنّ نصفي نهار الجمعة والأحد مكرّسان لمراجعة الفقراء مجّاناً كما قامت عائلتي زلفي وعبّاس بإستئجار بيت في محلّة الاسواق وأمّا أنا فقد سجّلوني كتلميذ في القسم الداخلي «الارض المقدّسة» العائد إلى مدرسة فرنسية يديرها الرهبان الفرانسيسكان ومعروفة بكونها «الأفضل» في المدينة.

أنّ دير «الأرض المقدّسة» القديم كان يقع في قلب الأسواق وقد كان في الوقت نفسه ديراً للراهبات ومدرسةً تعليمية ولكي نبلغه كان ينبغي علينا المرور بالعديد من الأزقّات الضيّقة المتعرّجة وعبور الأسواق المسقّفة والمكشوفة. حينما كنت ترى بوّابته المصنوعة في القرون الوسطى وفناءاته العريضة الطويلة يخيّل إليك بأنّه سجن قديم. وقد كانت قاعاته الدراسية متواجدة في سراديب مظلمة بحيث عندما تملأ السحب سماء المدينة كان يستحيل على أيٍّ كان الرؤية بشكل واضح بدون مصباح كهربائي.

في كل صباح كان ينبغي علينا تناول الأكل بسرعة في مطعمه المحاذي للمرافق الصحّية والمتكوّن من قدح شاي أسود وبارد ومن قطعة خبز وفي الظهر والمساء نتناول معكرونة مغموسة في مرق عجيني نجد فيه أحياناً بضع قطع من اللحم الدسم إلى درجة أنّ رؤيته لوحده كانت كافية لسد شهيّتي...بينما يتدافع زملائي نحوها بشراهة لا متناهية.

ـ كيف تقدرون على هضم هكذا طعام سيّء؟ سألتهم.

ـ حينما تمضي شهوراً وسنيناً هنا، أجابوني، فستفعل مثلنا.

ـ لا أتصوّر بأنّني سأكمل شهراً هنا، قلت ذلك مع نفسي.

لم يكن غذاء «الأرض المقدّسة» لوحده هو الذي كان يثير إشمئزازي وإنّما المدرسة نفسها كانت تضجرني بلا حدود. وبما أنّني لم أكن أجيد الفرنسية فقد وضعوني مع طلبة المرحلة التحضيرية أي بين أطفال في الثامنة أو التاسعة من العمر وقد أُجبِرت على قضاء وقتي في إعادة تكرار عمليات الجمع والطرح الحسابية الصبيانية وأُرغِمت على «تطوير» فرنسيتي تحت إشراف مدرّس حلبي عجوز يتحدّث فرنسية نغماتها عميقة وخشنة كعربية حلب. وقد تراءى لي بأنّي أخسر وقتي عبثاً...كما أنّني أصبحت لعبة ـ ضحيّة لأحد المشرفين، أخونا هنري الذي كان بقامته الطويلة الملفوفة بروب الرهبنة الفرنسيسكانية ولحيته البيضاء الكثّة وبعصاه الاسطورية المصنوعة من القصب يبدو رهيباً ومرعباً لتلاميذ القسم الداخلي وقد حدث بأن يستخدم السوط في ضرب التلاميذ لأتفه الأسباب إلى حد إدمائهم ولا زلت أتذكّر حدثاً وقع في اليوم الثالث لوصولي إلى «الأرض المقدّسة» فبعد قيامه بضرب طفل بعمري بوحشية أمره بأن يجثو لمدّة ساعة فوق بلاط الساحة على ركبتيه وتحت رحمة الطقس الجليدي لشهر تشرين الثاني.

وقد إستهدفني في الأُسبوع الثاني. حيث أنّه في كل مساء كان الأخ هنري يراقب صعودنا إلى قاعة النوم ولأداء دوره يقف في أعلى الدرج وذات مساء كنّا على مقربة منه، بدا له بأنّه يسمع أصواتاً فقذف أخونا هنري عصاه بإتّجاهي لتقع على ظهري وقد خال لي بأنّه إنقطع إلى نصفين فأطلقت أنيناً أوقف مسيرة التلاميذ.

ـ هيّا تقدّموا، صاح أخونا هنري بصوته الأجش ملوّحاً بعصاه.

لم يجرؤ احدهم بالإستفسار عمّا جرى وتوجّه التلاميذ بصورة آلية نحو أسرّة نومهم...كنت مضطرباً لأنّني لم أعتاد على الضرب في المدرسة حيث أنّه خلال كل حياتي المدرسية لم أتلقّ سوى صفعتين من معلّم الرسم في الثالث إبتدائي من معلّم كنّا نكنّيه «بعديم الأصبع» لأنّه فقد سبابته اليمنى حيث أنّه في أحد الأيّام وبينما كنت منهمكاً برسم وردة رسمها على اللوحة صفعني بقوّة.

ـ ولكن لماذا، ما هو الخطأ الذي إرتكبته؟ قلت له باكياً.

بعد عودتي إلى المنزل لم أرتأي إعلام عائلتي بالذي جرى ولكن بعد الحادث بأيّام

كرّر «عديم الأصبع» فعلته وفي ساحة المدرسة هذه المرّة فتركت الصف وخرجت من الساحة عابراً الرواق الطويل للمدرسة وسلكت مباشرةً طريق المنزل وقد وجدت والدتي في المطبخ.

فقلت لها وأنا أبكي:

ـ لا بد من حمايتي من «عديم الأصبع» وإلاّ فأنّه سيقتلني يوماً. لا أعلم ما الذي يريده منّي إذْ أنّه قام وللمرّة الثانية بضربي وقد عزمت على عدم إعلامكم في المرّة الأُولى ولكن اليوم أعاد الكرّة ولم أعد أطيق التحمّل لأنّه يبدو بأنّه حاقد على شخصي.

وبعد إصغاء والدتي لي بهدوء رأيتها تصعد إلى غرفة أبي الذي نزل سريعاً وهو يتذمّر ساخطاً:

ـ هكذا إذاً، ينوي الإنتقام من ولدي لأنّني قبل أيّام رفضت شراء إحدى لوحاته التي إقترحها علي، سأذهب لأُريه كيف نؤّدب المربّين!

أطلق هذه الكلمات وأخذني من يدي لمرافقته فوصلنا المدرسة ودخل فوراً إلى مكتب المدير طالباً منه إستدعاء «عديم الأصبع» حالاً.

ـ إهدأ يا أفندي! إهدأ ما الذي حصل؟ بدأ المدير يتوسّل إليهِ.

ـ لقد قمت بتربية أطفال آخرين دون أن أمسّهم يوماً، ردّ عليه والدي، واليوم تنظر إليهم الناس كمثال للأدب والأخلاق فبأيّ حق ولأي سبب يتهجّم «عديم الأصبع» على ولدي؟ أُريده أن يحضر لتبرير فعلته ويقدّم إعتذاره لصغيري.

ـ لا أعلم ماذا تقصد يا أفندي فإهدأ واحكي لي عن الذي حصل لإبنك.

طلب منّي أبي حينئذٍ بأن أروي مشكلتي مع معلّم الرسم للمدير الذي إستمع وإستفسر من والدي فيما إذا كان يعرف «عديم الأصبع» شخصياً.

ـ أعرفه بشكل سطحي منذ فترة قصيرة ولكن لابد من الإعتراف بأنّني لم أره منذ اليوم الذي رفضت فيه شراء إحدى لوحاته.

ـ آه، ها هو إذاً مفتاح السر! إستدرك المدير. أنّ «عديم الأصبع» فنّان موهوب ولكنّه يتصوّر بأنّ أعماله مبدعة تقترب من الكمال ويحسب بأنّ كل من يرفض له عملاً كأنّه إهانة أو تجريحاً لشخصه فيبحث عندئذٍ عن وسيلة للثأر بشكل أو بآخر وبما أنّه لم

يستطع الوصول إليك فقد صوّب إنتقامه نحو ولدك. أنّني أعرف كبرياءَه وطبعه الهائج وأعتقد بأنّه من المفيد إستدعاءَهُ للحضور هنا ولكن كن على يقين بأنّه من الآن فصاعداً سيتصرّف بأدب تجاه ولدك.

لقد وافق والدي على إقتراح المدير وفعلاً بعد هذه الواقعة أصبح «عديم الأصبع» تجاهي وديعاً كالحمل وبعد مرور عام طالب بنقله.

وقد تذكّرت وأنا أبكي بعد ضربة عصا أخونا هنري في تلك الليلة بحلب حكايتي مع «عديم الأصبع» فكم تمنّيت بأن أكون قرب والدي كي أقدر على مناداته للإسعاف والنجدة ولكي يعطي درساً عن الأدب لهذا «المربّي الجلاّد»!

ولكن وا أسفاه كنت متواجداً في «مدرسة ـ سجن»، ليس في مادن وإنّما في مهجع بارد وكئيب بعيد عن أبي بمئات الفراسخ...وقد بكيت طويلاً في الليل وبعد الإرهاق والتفكير غرقت في نوم عميق معلّقاً آمالي بأن ربّما أخونا هنري لم يختارني كهدف شخصي.

وقد صدمتني لا مبالاة تلاميذ القسم الداخلي في اليوم التالي وعدم إستفسار أيٌّ منهم عن سبب صرختي ولا حتّى صديقاي الكورديَان المعرّبان في الواقع وقد كان أحدهما حفيداً لإبراهيم باشا المشهور بإنتصاره على الشمّر وبسبب أُمّه العربية فقد كان رأسه شبيهاً برؤوس البدو كما قام بوشم وجهه كرجال قبيلة والدته ولم يكن يتوقّف عن الإستهزاء بي كلّما إفتخرت بهويّتي الكوردية...أمّا الثاني، طلعت الذي كان أكبر منّي في السن فقد إنحدر من عائلة كوردية معروفة في قامشلي ولكن ترك نفسه ينجذب نحو العقيدة الكمالية أثناء سنوات دراسته في إسطنبول ومنذ ذلك الوقت تخلّى عن كورديته ولكونه يتحدّث بلغة تركية معقولة ومتفتّحاً على الآخرين فقد ساعدني على إغناء مفرداتي باللغة الفرنسية.

وقد لجأت إليه وفتحت له قلبي حول حادثة اليوم السابق:

ـ لا ينبغي فوران دمك على هكذا حدث، قال لي وهو يهز أكتافه، أنّ كل التلاميذ في هذا المكان يمرّون بما مررت عليه ولا سيّما مع أخونا هنري.

ـ ولكن لا يمكنني القبول على ضربي أنا ولا سيّما إذا وقع الأمر بدون سبب صرخت وعيوني مليئة بالدموع.

ـ آه! سترى كيف تتعوّد كالآخرين، أجابني ببرودة وعاد نحو أصحابه ليتسلّى معهم.

وبعد مضي أيّام وعلى ذات الدرج تكلّم طفل أمامي وقفز أخونا هنري بسرعة البرق نحوي ومسكني من ظهري، فرفعت عيناي نحوه وإحتججت.

ـ لا، لا لست أنا...

ـ أُسكت وتقدّم، صرخ في وجهي وهدّدني بعصاه.

فسكت وإستمررت في الصعود إلى المهجع باكياً وفي تلك الليلة إستحال عليّ النوم.

ـ يا إلهي أين وقعت؟ كنت أتساءل مع نفسي متضرّعاً من المولى تعالى مساعدتي بالخروج من هذا الجحيم في أسرع وقت ممكن.

كنت عازماً على رؤية أخي في اليوم التالي لأروي له تعاستي ولكنّه لم يأتِ فطلبت من طلعت أن يساعدني على صياغة جملة بالفرنسية: «أمس مساءاً، ضربني أخونا هنري حينما سار بنا إلى قاعة النوم.» وحفظتها عن ظهر قلب وذهبت لأقرع على باب المدير فإستمع هذا بوجهه المحبوب المبتسم وأنا أتقطّع في تلفّظ كلماتي.

ـ ماذا يقول؟ سأل بإستغراب المدرّس العلماني الذي كان يرافقه.

فقمت بترديد جملتي ببطء وتأنّي وأجابني المدير وهو يراقبني عبر نظّارته المؤطّرة باللون الذهبي.

ـ حسناً، سأنظر إلى الأمر.

نزلت وإرتحت للمهمّة التي عهدت على نفسي بأدائها ومنذ هذا التاريخ تخلّصت بإعجوبة من ضربات أخونا هنري الذي إستمرّ مع ذلك ينظر إليّ بحقد وعداء. ولكن رغم هذه التغييرات التي حصلت بشأني فلم تصبح المدرسة أقل بشاعة أمام عيني لأنّها لم تكتفِ بحجزنا فحسب وإنّما جعلتنا كسجناء نعيش بين جدرانها السميكة كما فرضت علينا الخروج بعد ظهر كل يوم أحد في مسيرة نصطف خلالها كالعسكر بمرافقة الرهبان ولا يزال مشهد نزهتنا عالقاً في ذهني ونحن نمشي ثلاثة ثلاثة ويضع كلّ منّا على رأسه قبعة تحمل شارة ذهبية ونرتدي زيّاً موحّداً أزرق اللون...

كان يستحيل على طفل مثلي لا يجيد التكلّم بالفرنسية ولا بالعربية ولا يملك صديقاً على طفل معتاد على الجري بالحصان والدرّاجة التحمّس لنزهات «الارض المقدّسة»...

لحسن الحظ في نهاية الأسبوع الثالث تلقّيت زيارة أخي وشوكت زلفي وقد إنفجرت بالبكاء حال رؤيتهما.

ـ ولكن قل لي ما الذي حصل؟ إستفسر منّي أخي مذعوراً.

ـ لم أعد أرغب بالبقاء هنا، ولا سيّما كتلميذ في القسم الداخلي، قلت ذلك متلعثماً عبر دموعي.

ـ ولكنّك في أفضل مدرسة بحلب، حاول أن يواسيني زلفي، وإذا تم تسجيلك في هذه المدرسة فلكي تتعلّم الفرنسية بسرعة ولا تخسر وقتاً طويلاً للدخول في المرحلة التي تناسب مستواك.

ـ لا يمكن لأيٍّ كان التعلّم في مؤسّسة تجوّع وتضرب على الدوام، مؤسّسة نشعر فيها بالسأم والملل وندرس مع تلاميذ الصف الأوّل إبتدائي، ارجوكم أخرجوني من هنا وإلاّ فسأهرب، توسّلت إليهم.

ـ إبق على الأقل إلى نهاية هذا الفصل الدراسي، إقترح أخي، ومن الآن إلى ذلك الوقت يمكننا البحث عن مدرسة أُخرى.

ومع ذلك لم تنقطع دموعي عن الجريان.

ـ هيّا، أصبر لعدّة أسابيع أخرى، إستطرد بنبرة وديعة وحازمة في آن واحد، وشيئاً فشيئاً تتعلّم اللغة وتتعوّد على محيطك الجديد، بالأحرى أنظر إلى كل هذه الهدايا التي حملناها لك وفي الأُسبوع القادم سنعود بمجموعة أُخرى، هيّا إمسح دموعك وعد إلى كتبك!

بعد مرور بضعة أيّام أصبت بنزلة معوية لأنّ قاعة المنام لم تكن مدفّأة وفي الليل أحسست بآلام حادّة ترافقها الحمّى وبسبب عبوري للقاعة لعدّة مرّات والنزول والصعود للذهاب إلى المرافق الصحّية المنبعث منها روائح كريهة والواقعة وسط فناء المدرسة فقد تردّت حالتي الصحّية وهبطت معنوياتي أكثر وفي اليوم التالي رفضت بعناد الخروج من الفراش وطالبت بحضور طبيب. لاحظ أخونا المرّض بأنّ درجة حرارتي إرتفعت إلى الأربعين فذهب بسرعة ليبحث لي عن مشروب مستحضر من قبله وأوصاني بشرب ثلاثة كؤوس يومياً. أنّ توعّكي والخوف من تفاقمه نظراً للظروف

المخيّمة في «الأرض المقدّسة» دفعني إلى الفرار وكان المخرج الوحيد الممكن يمر عبر المدخل الكبير ولكن كلّما سُنحت لي فرصة الذهاب إلى السكرتارية أو إلى ردهة الإستقبال وجدتها محروسة من قبل حارس ضخم وفي ذلك اليوم جاءَتني فكرة بالذهاب لفحص الموقع ولحسن حظّي كان أحد مصراعَي الباب مفتوحاً وخالياً من أيّ حارس فقلت مع نفسي.

ـ لابد وأن تراكض كلّهم على أقداح شاي العصرية.

فنزلت الدرج حينذاك بهدوء منطلقاً نحو الحرّية وسالكاً الطريق دون أن يكون هناك أي مطارد يتعقّب أثري أو أيّ عابر سبيل يهمّه أمري! أبتعدت عن «الأرض المقدّسة» ثمّ إختفيت وسط الجمع الصاخب للأسواق وبعد حين صعدت الدرج الذي يقود إلى شقّة أخي بخفّة ودخلت في غرفة الإنتظار حيث وجدت فيها مساعدته الأرمنية التي كانت تعاونه في دياربكر فأضاءَت المصباح الكهربائي لتتعرّف على وجهي.

ـ أراك شاحباً ويبدو عليك الإرهاق فما الذي فعلوا بك في هذه المدرسة؟ قل لي بسرعة أيّها الصغير!

ـ أوه، ما فعلوه ليس بالأهمّية، قلت لها، أنّه نزلة برد ولكنّها لازمتني منذ عدّة أيّام.

ـ لا تقلق، سوف يشفيك أخوك فوراً، طمأنتني.

كنّا لا نزال هناك حينما فتح أخي الباب وملامحه تدل على الدهشة والإنقباض.

ـ ما الذي دفعك إلى ترك المدرسة في منتصف الأُسبوع؟

ـ منذ عدّة أيّام وأنا مريض وبما أنّ المدرسة لم تقم بمعالجتي جيّداً فقد هربت، أجبت عليه.

ـ هكذا إذاً وبلا خجل تتجاسر بالقول بأنّك هربت، صرخ في وجهي، هيّا وضّح لي ما تقول!

بعد سماعه لروايتي أصرّ أخي على عودتي إلى المدرسة حالاً.

ـ قبل أن تجبرني على العودة إليها لا بد وأن تعالجني أوّلاً.

ـ أنّ ما يقوله صحيح، تدخّلت المساعدة، يبدو بجلاء بأنّ هذا الطفل مريض.

وبينما توجّهت المساعدة نحو «الأرض المقدّسة» أدخلني أخي إلى عيادته وفحصني

طويلاً ومن ثمّ حرّر ورقة يصف فيها تركيب دواء يقوم بإستحضاره بنفسه في الصيدلية وعند عودته ناولني ملعقة منه ومن ثمّ أمرني بالذهاب إلى الفراش وفرض عليّ عدم تناول غير الشاي ورزّاً بلا زبدة.

بعد مضي ساعة رجعت المساعدة من المدرسة وأخبرتنا بقلق وعصبية بأنّ المدير أمر بإجراء تحقيق لتحديد الأسباب الحقيقية لهروبي وأمّا أخونا هنري والحارس فأنّهما معرّضان لعقوبات قاسية.

عندما شفيت تماماً أمرني أخي بالعودة كتلميذ داخلي إلى «الأرض المقدّسة» الشيء الذي رفضته بصورة قطعية فإضطرّ أخي في النهاية على الذهاب إلى المدرسة مع صديقيه المادنيَين لشرح موقفي لمديرها الذي رضخ لإرادتي وعنادي ولكنّه إمتنع عن إسترجاع المبلغ المدفوع للقسم الداخلي...

أنّ الوضع الجديد كنصف تلميذ في القسم الداخلي كان يناسبني وأمّا بالنسبة لأخي فأنّ الأمر كان يأخذ من وقته حيث أنّه لم يترتّب عليه إعداد أكلي فحسب وإنّما الإهتمام بي في أوقات الفراغ أيضاً ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً بالنسبة إليه لأنّه بعد مرور شهر قرّر ترك حلب للإقامة في دمشق تحت ضغط وإلحاح الكورد في دمشق وكان هنالك عامل آخر دفعه إلى هذا الخيار: أنّ الوضع الميئوس الذي كان يعيشه كلٌّ من عارف عبّاس وشوكت زلفي بالإضافة إلى وجوب البحث عن وظيفة لهما التي لم يعثرا عليها في حلب. ولحسن الحظ لم تكن تكاليف الحياة المعيشية عالية في سوريا في تلك الفترة حيث أنّ الليرة السورية المضمونة من بنك فرنسا كانت تعادل ١٠٠ قرشاً «أو ٢٠ فرنكاً» وكيلو اللحم بدون عظام يكلّف ١٢ قرشاً والسكّر أربع قروش والرز خمسة قروش للكيلو وإستشارة واحدة عند الطبيب كانت تكلّف خمسين قرشاً.انّ الراتب الشهري لعشرات الآلاف من المستخدمين والموظّفين لم يكن يتجاوز عشرة أو خمسة عشر ليرة بينما يحصل الموظّفون الكبار على سبعين أو ثمانين ليرة سورية والمتميّزين منهم كانوا الضبّاط السوريين االمنخرطين في أفواج المشرق (قوّات مؤلّفة من مواطني البلد الأصليين المتطوّعين تحت إشراف المفوّضية الفرنسية العليا في لبنان وسوريا)، فملازم أوّل بسيط متخرّج من المدرسة العسكرية لحمص يستلم مائة ليرة سورية بعد قضاء سنتين دراسيتين فيها ودون أن يكون حاصلاً على شهادة

البكالوريا وهذا المبلغ كان يمثّل ثروة في ذلك العهد!

ومع ذلك فالعملات كانت نادرة ويصعب كسبها لأنّنا كنّا نعيش في عز أزمة الثلاثينات كما أنّ الأغلبية الساحقة من السكّان كانوا من الفلاّحين ومن برجوازية المدن المؤلّفة من عوائل مرتبطة بالأرض ومحتفظة لإقطاعيتها والمصانع الكبيرة لم تكن متواجدة تقريباً وبالمقابل فأنّ الصناعات الحرفية بجميع فروعها كان لها تاريخ عريق وتقاليد تمتد لآلاف السنين ولكنّها لم تكن قادرة على منافسة المنتجات الصناعية الفرنسية واليابانية وغيرها ووقع الكثير من ممارسيها في البطالة.

إنّ السوريّين المقتصدين والقوميين كانوا يقاومون بإستبسال السياسة الفرنسية التي كانت تهدف إلى جعل سوريا سوقاً مفتوحة للمنتجات الفرنسية وأنّ المدن السورية الكبرى كانت واعية ويقودها تجمّع شعبي وقد أظهرت الكتلة القومية غالباً مناهضتها لسياسة القوّة المنتدبة سواءاً بغلقها للمخازن أو توقّفها عن النشاط الإنتاجي وكذلك إستخدام وسائل النقل الشعبية.

في صباح أحد أيّام نهاية شهر كانون الأوّل ١٩٣٠ صعدنا القطار الذاهب إلى «الشام الشريف» («دمشق المبجّلة») مثلما يسمّيها العثمانيّون. وقد سارت هذه الرحلة وكأنّنا نعيش حلماً حيث لا زلت أتذكّر أعمدة بعلبك العظيمة التي توقّفنا أمامها للحظات خاطفة كما أرى وجه نظام الدين كيبار، عم ممدوح سليم الذي إستقبلنا في محطّة قطار دمشق ولا تزال النغمة الموسيقية لحوافر الخيول التي كانت تجر عربة إلى الحي الكوردي بعد منتصف الليل بقليل ترن في مسمعي. فهاهي بعد كوردستان تركيا وحلب صفحة جديدة تُفتح أمامنا...

وفي اليوم التالي، لاحظت بأنّنا نتواجد في منزل قديم وكبير تحيط به بساتين ولايبتعد كثيراً عن واديتي الصغيرة، وهو منزل يعود إلى أحد وجهاء وقادة كورد دمشق، أحمد آغا زلفو الذي كان طويلاً في القامة وذو عيون زرقاوية داكنة وحاجبين عريضين. كان المنزل يقع في الحي الكوردي على جبل قاسيّون في الشمال الشرقي للمدينة وقد بلغ تعداد سكّانه في تلك الفترة أربعين ألفاً وحين الدخول إلى المدينة من الجهة الشرقية ولحد ساحة جسر نحّاس فأنّ الناس لم يكونوا يتحدثون فيما بينهم بغير اللغة الكوردية ومن جسر نحّاس لحد ساحة شمدين آغا كانوا يجيدون اللغتين

الكوردية والعربية ولكنّهم يفضّلون التداول بالثانية وأمّا من شمدين آغا ولحد الشيخ محي الدين فأنّه بالرغم من إعتزاز السكّان بإنتمائهم للكورد فقد أضاعوا لغتهم تماماً ولم يكونوا يتكلّمون بغير العربية.

وبالنسبة لمنزل علي آغا زلفو فقد كان يقع وراء جسر نحّاس، أي ضمن القاطع الذي ظلّ كوردياً بشكل رسمي. حينما وصلنا إليه كانت صالة الإستقبال مليئة بأعداد كبيرة من وجهاء الحي ومن المنفيين، ما عدا المغتربين والكورد الموضوعين تحت الرقابة الجبرية، ومن بين ضحايا السياسة الفرنسية المؤيّدة لتركيا إلتقينا بمحمّد وأكرم وقدري جميل باشا من دياربكر الذين لجأوا إلى سوريا قبلنا بسنوات كما إلتقينا من كوردستان تركيا بحاجو آغا رئيس عشيرة هفيركان مع أبنائه حسن وجمال وجاجان وكذلك بالأمير جلادت بدرخان، الشخصية الكبيرة ذات اللحية الصغيرة، الذي ينحدر من آخر إمارة كوردية لمنطقة بوتان في كوردستان تركيا.

كنّا نسكن في الجناح المخصّص للضيوف وأمّا الجناح الآخر المسكون عادةً من قبل أُسرة علي آغا زلفو فقد كان مخصّصاً لحاجو الذي حمّل عائلته وخدمه مسؤولية إعداد الأكل لكل المنفيين المتواجدين في المنزل ولهذا فقد كنّا نجتمع وعددنا يتجاوز أحياناً العشرين فرداً على مائدة الضيوف وينظم إلينا في كل مساء تقريباً علي آغا زلفو ووجهاء الحي وهم يرتشفون القهوة العربية أو الشاي ويتناولون الملبّس الدمشقي والفواكه ويتحدّثون عن العلم اللغوي والسياسة والفلسفة وعن موقف الفرنسيين تجاه الكورد والترك والعرب...

وقد مرّت تلك الأُمسيات الطويلة بينما يتعمّق وعيي بقوميّتي الكوردية كما بدأت أُراجع لغتي وأتمرّد أمام الظلم المُمارس ضدّ شعبي فخلال شهر كنت أُعاشر ليلاً ونهاراً كورداً إستثنائيين يشربون ويأكلون وينامون جنبا إلى جنب حيث كان بمقدورك أن ترى بينهم أحفاداً لأُمراء وباشوات وأبناءاً للبرجوازية والإقطاعية الكوردية التقليدية وتكتشف فيهم من أكمل دراسته العليا وجاب العالم وآخرون من عاش المغامرات واللحظات المأساوية سواءاً في السجون أو أمام المحاكم التركية.

ومن بينهم لا زلت أتذكّر حمزة بيك من ميكس وهو كوردي من تركيا أمضى عشر سنوات في السجن لأنّه قام بنشر مؤلّف للشاعر القومي الكوردي الكبير في القرن

السابع عشر، أحمدي خاني، كما أتذكّر أيضاً أكرم وقدري جميل باشا اللذين كانا يدرسان في الجامعات السويسرية حينما إستدعتهما الإمبراطورية العثمانية للعسكرية وأمّا المتميّز من بين كل تلك الشخصيّات في بيت اللاجئين وأكثرهم بروزاً فقد كان حاجو آغا الذي كان رجلاً ذو قامة طويلة وسحنة فاتحة وعينين زرقاويتين كما تميّزت حركاته بالإتّزان والهيبة لإنحداره من عائلة آغا قادت عشيرة هيرفيكان المتمركزة في منطقة ميديات، شرق مادن، وقيامه بألف مغامرة ومغامرة.

كان لايزال حاجو جنيناً في بطن أُمّه حينما قُتل والده بيد إبن عم يُدعى سرخان وكان جلبي والد القاتل هو الذي يقود العشيرة في ذلك الوقت. بعد مرور خمسة عشرة عاماً على هذه الجريمة كبر حاجو وأخذ بثأره من سرحان فقتله وفرّ إلى الجبال فطارده رجال جلبي ليلاً ونهاراً خلال أكثر من خمس سنوات ولكن تمكّن حاجو من الإفلات من ضرباتهم وكمائنهم. وخلال شتاء قارس وبارد بشكل إستثنائي لم يعد يتحمّل الحياة في كهوف الجبال فوضع روحه بين يديه وتسلّل في عزّ الليل إلى القرية وولج صالة إستقبال دار ضيافة عمّه جلبي ومن ثمّ إرتمى بكل قامته بين أقدامه مادّاً له رقبته فإتّجهت يد جلبي غريزياً نحو خنجره ولكن حينما إستدرك وعيه وتأثّر ببناعة وجرأة إبن أخيه قام بسحب يده من الخنجر وأمر حاجو بالنهوض والجلوس بجانبه ومن ثمّ خاطبه قائلاً:

ـ أنّك خُلقت للحياة وليس للموت وأعفيك إلى الأبد عن مقتل إبني كما أمنحك يد إبنتي وبعد موتي ستكون خليفتي لزعامة العشيرة فهيّا إسرع لإبلاغ والدتك التي لاتنقطع عن البكاء والصلاة من أجلك وغداً تأتي معها للإحتفال بخطوبتكم...

أصبح حاجو بعد ذلك رئيساً قديراً للعشيرة وإمتلك شعبية أقلقت السلطات العثمانية بحيث قرّرت إلقاء القبض عليه وإبعاده عن المنطقة. قام حاجو الذي كان أُمّياً بإنتهاز الفرصة أثناء أسره في أدنة لتعلّم القراءة والكتابة بالتركية وفي بداية سنته الثالثة من السجن بحث عن وسيلة للفرار وقد فلح في ذلك حيث تمكّن من السير مشياً على الأقدام عبر الجبال ليلاً ونهاراً إلى أن أدرك قريته...

كنت مشدوهاً وانا أصغي إلى حاجو حاكياً لنا بلا إنفعال قصّة شبابه.

وثمّة كوردي آخر أثار إعجابي وإحترامي: علي آغا زلفو النصير والراعي لفن وآداب

الحي الكوردي الذي قام بإسكان عائلته المتفرّعة الكبيرة وتكديسها في مسكن صغير بحي السروجة لكي يكون قادراً على إيواء الكورد المنفيين. وقد كان علي آغا زلفو بطوله البالغ ١,٨٥ متراً وأكتافه العريضة يبدو وكأنّه رياضي كما بدت تقاطيع وجهه وكأنّها مرسومة بحد شفرة الحلاقة وبشعره الأشقر كان يعطيك إنطباعاً بأنّه ينتمي إلى أحد شعوب شمال أوروبا وقد حباه الله بالجمالين المادّي والأخلاقي. لقد قدِم أجداده الأوّلين من كوردستان تركيا بالعهد العثماني وجمعوا الثروة من خلال عملهم كمموّلين عامّين لجباية الضرائب في أكبر المناطق تمرّداً وعصياناً لولاية دمشق ومع مرور الزمن تمكّنت عائلة زلفو من إمتلاك قرية لا يمكن تقدير قيمتها على صعيد خصوبة أراضيها وسعة مراعيها وبفضل المناخ السائد فيها فقد كانت تمر عليها آلاف المواشي وتقتات من عشبها صيفاً وشتاءاً إلى حد التخمة.

أنّ علي آغا زلفو كان رجلاً نزيهاً ومخلصاً في الصميم ووفيّاً لوطنه سوريا ومقابل ذلك يضع كرامته والمصلحة العامة فوق مصالحه المادّية ففي عام ١٩٢٥ حينما إنتفضت سوريا ضدّ تجاوزات القوّة المنتدبة قام بقيادة متطوّعي كورد محلّته وألحق خسائراً جسيمة بالقوّات الفرنسية كما أنّه في الوقت الذي إستسلم فيه القادة الرئيسيّون للإنتفاضة فقد واصل قتاله لإنهاك جيش الإحتلال في أكثر مواقعه الحسّاسة ولم يتوقّف إلاّ بعد الحصول من الفرنسيين على تعهّدات واضحة ودقيقة.

وقد سُمح لهذا الإقطاعي الكوردي الدخول على الشخصيات السياسية البارزة للبلد سواءاً الذين كانوا في السلطة أو في المعارضة دون أن يطرق عليهم الباب وإنتهى الفرنسيون أنفسهم بإحترام وتقدير فروسية هذا الإنسان الأُمّي تقريباً.

لقد كان كريماً في بيته الواقع في الحي الكوردي وحميمياً في إستقبال الضيوف وسهلاً في المعاشرة ولكن لم نسمح لأنفسنا البقاء في منزله إلى الأبد ولهذا فقد كنّا جميعاً نبحث عن مسكن لإستئجاره وأثناء ذلك سجّلوني في المدرسة الأبرشية وإنتهت على إثر ذلك نزهاتي الطويلة في شوارع وطرقات دمشق ولم يعد المجال سانحاً أمامي بالتوقّف في مخازن الحلويات والفواكه ولم أعد أسمع صرخات الباعة المتجوّلين التي كانت دائماً تثيرني وتبهرني...

وقد تمكّن أخي من العثور على بيت في حي عرنوس الواقع بين المحلّة الكوردية

ومركز المدينة والقيام بإستئجاره والذي لم يكن بعيداً عن المدرسة الأبرشية ومؤلّفاً من خمس غرف تتوزّع على طابقين ومحاطاً بفناء صغير مكشوف ومن جهته اليمنى توجد مضخّة ماء تعمل يدوياً وحوض صغير كان ينبغي علينا ملئهُ بالماء يومياً سواءاً لتزويد المرافق الصحيّة أو للغسل والتنظيف. وقد كان من النادر في ذلك العهد بأن تجد بيوتاً دمشقية مجهّزة بالماء الجاري ولذا كنت تصادف فلاّحات مسنّات وَهُنّ يحملن صفائح الماء أو الجرّات على رؤوسهن لتزويد الاهالي بالمياه الصالحة للشرب.

إنتقلنا أنا وأخي وكذلك عارف عبّاس وشوكت زلفي إلى هذا البيت ولكن لم يدم تجمّعنا في المسكن طويلاً لأنّ عارف عبّاس عثر على وظيفة في حسكة، مركز ولاية الجزيرة، وتم إيفاده كإختصاصي في مكافحة الجراد وللقضاء على هذه الحشرة الآفة فقد إكتسب خبرته من تجربة طويلة في المناطق الكوردية بتركيا التي عانت من ذات الكارثة وأنّ المنطقة المرسل إليها كان يسكنها الكورد أيضاً ولم تكن تفصلها سوى حدود مصطنعة عن الأراضي الكوردية الأخرى.

وبعد أسبوعين من المغادرة إلتحق به شوكت زلفي لإشغال منصب السكرتير للجمعية الخيرية الكوردية في الجزيرة ممّا أجبر أخي على إعادة تنظيم المنزل فإستقدم طبّاخة كوردية تدعى أُم علي التي كانت مطلّقة وأُمّاً لطفل وحيد وقد نجحت في خلق جو عائلي داخل المنزل. إنّ هذه الإمرأة والأُم الإستثنائية كانت قد حدّدت هدفين في حياتها لتحقيقهما: خدمة أخي وتربية إبنها ممدوح ليصبح إنساناً محترماً وذو شأن وقد إستطاعت الوفاء بعهدها حيث أنّها عاملتني كأُم حقيقية خلال أكثر من عشرين سنة قضتها في بيتنا.

كما فتح أخي بموازاة عيادة عرنوس مكتباً وسط الحي الكوردي الذي كان يذهب إليه بعد ظهر كلّ يوم وأمّا أنا فقد كنت سعيداً بالتردّد على (الاعدادية الفرنسية) العلمانية في دمشق التي كانت في طريقها إلى التوسّع عبر إنشاء بناية ضخمة في شارع بغداد على مسافة بضع مئات الأمتار عن منزلنا وقد سئمت من المناهج «التربوية» للمؤسّسات الدينية...

وبحدود منتصف آب تم إكمال البناية وبعد ذلك بإسبوعين داومت في الأعدادية الفرنسية التي أمضيت فيها العديد من السنوات بفرح وأمان ولكن رغم حياة أخي

المريحة والرغيدة فأنّه لم يكن راضياً عن مصيره في دمشق والعمل فيها وقد كان يتساءل مع نفسه هل أنّه ترك بلده وعائلته وأصحابه للتنعّم بتلك الإمتيازات؟ تمنّى نافذ مساعدة شعبه ومن ضمنهم بالتأكيد كورد دمشق ولكن ما شغل باله بشكل خاص كان أولئك المتواجدين في الجزيرة، الأكثر عدداً، الذين كانوا يعانون من البؤس والجهل والمرض والظلم فأصبح من الواجب عليه أن يكون بينهم ولكن لا الفرنسيّون ولا السوريّون كانوا يسمحون بذهابه إلى الحدود التركية كطبيب مستقل لأنّهم كانوا يخشون ضغط وإحتجاجات أنقرة والقوميين العرب.

وفي أحد الأيّام جاء إليه كوردي من دمشق يعمل في وزارة الصحّة وقال له:

ـ أحمل إليك خبراً سعيداً. أنّ منصب الطبيب الشرعي لمدينة عين ديوار الواقعة على الحدود السورية ـ التركية أصبح لتوّه شاغراً وأنّ أيّ طبيب لن يقبل بالذهاب إليها حيث أنّ السابق كاد أن يُقتل من قبل السكّان بسبب محاولته إغتصاب إمرأة فأنصحك بعرض ترشيحك دون تأخير وأنا على يقين بأنّهم لن يرفضوه.

ولم ينتظر أخي طويلاً لأنّه كان قد تعرّف على المنطقة قبل إلحاقها بسوريا من قبل الفرنسيين وخدم فيها كطبيب عسكري برتبة كابتن أثناء خدمته الإلزامية في جيزري، في هذه المدينة الكوردية من تركيا القريبة من عين دوّار ولعدم وجود منافس له فقد تم إختيار ترشيحه وتحقيق حلمه ومنحته السلطات فترة ثلاثة أشهر لزيارة المنطقة والكشف عن إحتياجاتها الطبّية ووضعها الصحّي. وقد باشر نافذ عمله أثناء العطلة الصيفية وأوكلني لأكرم جميل باشا، هذا الرجل الحيوي ذو الصبر الطويل الذي كان قد إستأجر لتوّه في سعسع أراضي يملكها أحد وجهاء الحي الكوردي وكم كانت سعادتي كبيرة بالخبر. كان أكرم جميل باشاً شخصاً مربوعاً ولكن بهيكل رياضي ويملك وجهاً طفولياً بشوشاً. قبل إنطلاق شرارة الحرب العالمية الأُولى كان يدرس في المدرسة البوليتيكنيكية في لوزان ولكن الحرب أجبرته على تركها قبل الأوان ومع ذلك إستمرّ في الدراسة بالمراسلة وواصل إهتمامه بالكتب التقنية المتنوّعة وكانت الزراعة الميكانيكية إحدى هواياته. ولأنّ الفرنسيين كانوا قد منعوه من الإقامة في الجزيرة التي إمتلك فيها أراضي شاسعة فقد إختار ضواحي دمشق لتطبيق ما تعلّمه نظرياً في ميدان الزراعة وهنالك أصبح الرائد في إدخال الجرّارة إلى سوريا وكان الفلاّحون

القادمون من أصقاع بعيدة يتسابقون في التعبير عن إعجابهم به ولمسه وإطلاق صرخات الفرحة والدهشة كلّما رأوا سكّة محراث الجرّار المجنزر وهي تحفر بعمق وتقلب التراب.

كما وضع صاحب حقول سعسع تحت تصرّف أكرم بيك أيضاً بيتاً جميلاً مصنوعاً من حجر اسود منحوت وواقع فوق مرتفع: كان هنالك مجرى صغير ينبع من قلب جبل حيرمون ويجري بهدوء راوياً حقول القرية ومشكّلاً في مواضع معيّنة بحيرات زاخرة بالأسماك والضفادع وبأفاعي المياه العذبة. كان بمثابة فردوس صغير حقيقي وكنت أجوب وأجري راكضاً عبر الحقول وراكباً الحمير والخيول، أصطاد السمك وأتسلّق حتّى الجبال بحيث بدا لي وكأنّني أعيش من جديد أيّامي الماضية الرائعة في مادن ومع بوزو...وقد مرّت الأيّام سعيدة إلى اليوم الذي سقطت فيه من على شجرة وتكسّرت ساقي فنقلوني من مستشفى إلى مستشفى وكنت لا أزال ممدّداً حينما عاد أخي من مدينة جزيري فأخذني بين ذراعيه والدموع تملأ عينيه ومن ثمّ همس.

ـ أنا آسف على تركك وحيداً هنا ولكن الرحلة كانت طويلة ومرهقة جداً.

لقد وافق نهائياً بالمنصب المقترح عليه من قبل السلطات وقد تمكّن من الإلتقاء في عين دوّار حتّى ببعض أصدقائه القدامى فإستعجل بإستئجار منزل فيها وتعرّف هنالك أيضاً على الممرّض الذي سيعاونه في مستوصف الدولة وكنت أُلاحظ نفاذ صبره للعودة وتسنّم الوظيفة الجديدة وأمّا بالنسبة لي فقد تقرّر بأن أواصل دراستي في مدرسة دمشق العلمانية...

ونحو ١٥ حزيران دعاني أخي لقضاء العطلة معه في عين دوّار وكان الطريق الأقصر والأقل إرهاقاً للذهاب إلى الجزيرة هو ركوب سيّارة أجرة جماعية حتّى حلب ومن ثمّ إستخدام القطار حتّى نصيبين التي يتوقّف فيها خط السكك برلين ـ إسطنبول ـ حلب ـ بغداد وبعد ذلك نؤجّر تكسياً للركّاب من قامشلي إلى عين ديوار أي لمسافة ١٢٠ كيلومتراً ولكن بسبب مرور الخط الحديدي عبر أراضي واقعة تحت سيطرة السلطات التركية فأنّ ركوب القطار كان يشكّل خطراً بالنسبة لي ولهذا لم يبقَ أمامي سوى خيار السفر بالباص الذي يربط دمشق بدير الزور والمار عبر تدمر، هذه المدينة المعروفة بكثرة مواقعها الأثرية وعاصمة الملكة زنّوبيا وهذه المسافة كانت تستغرق يوماً ونصف

اليوم بالباص. وعند ترك دمشق مساءاً فبالإمكان الوصول إلى دير الزور الواقعة على حدود الجزيرة في اليوم التالي ظهراً. لم يكن الطريق معبّداً سوى لمسافة ثلاثين كيلومتراً والباقي ليس سوى أخاديد رسمتها عجلات الباصات وعربات النقل في الصحراء وقد حصل غالباً بأن يكون الطريق مطموراً تحت الرمال على مسافة كيلومتر أو كيلومترين فيضطرّ السوّاق إلى البحث عن مسالك أُخرى تمكّنهم من مواصلة الرحلة وقد حصل مراراً أيضاً بأن تتيه العربات في الصحراء معرّضة بذلك مسافريها إلى مخاطر قاتلة فيضطر الطيران الفرنسي حينذاك إلى التدخّل للعثور على المفقودين وقد كانوا ينجحون أحياناً في عملياتهم وأحياناً أُخرى لا يعثرون على غير أجسادهم الخامدة والفاقدة لنبض الحياة عطشاً أو جوعاً أو بسبب عدم مقاومتهم للبرد تبعاً لفصول السنة أو لتعرّضهم إلى عواصف رملية لا ترحم.

وفيما يخصّني، قطعت هذه المسافة لعدّة مرّات ولم أواجه فيها عقبات تذكر بإستثناء مرّة واحدة حينما ضلّ سائقنا إتّجاه الطريق وبدأ يدور حول نفسه في الصحراء ولكن لحسن الحظ كان معنا بدوي فأنقذنا وقد رأيناه ينظر إلى النجوم المتلألئة في السماء ويرشد السائق إلى الإتّجاه الصحيح...

إنّ المسافة الموجودة بين دور الزور وحسكة، عاصمة الجزيرة، هي ١٦٠ كيلومتراً وبين حسكة وقامشلي ٩٠ كيلومتراً. وعند الوصول إلى حسكة كنت منهكاً وجسدي مغمور بالطين فأنزل في غالب الأحيان عند عبّاس الذي إستقرّ فيها كتاجر بعد نجاحه في عملية إنقاذ المنطقة من الجراد.

لقد تألّفت الغالبية العظمى من سكّان المدينة من السريان الأرثودوكس والكاثوليك والارمن (الكاثوليك والأرثودوكس) وأقلّية صغيرة جداً من موظّفين منحدرين من دمشق أو من بعض المزارعين القادمين من دير الزور. إنّ القبائل العربية المتواجدة على الأطراف كانت لا تزال من البدو الرحل ويتنقّلون بين فرعي نهر الفرات والخابور وجنجخ. وعند الخروج من المدينة والتوجّه نحو الشمال فأنّك تصل وسط البلاد الكوردية حيث تجد قراهم المنتصبة فوق المرتفعات والتلال والتي لا تعدو في كونها أكثر من تراكمات لأبنية مصنوعة من القرميد الخام دُمِّرت وعُمِّرت من جديد على مرّ العصور.

وقبل الآن بعشرين سنة كانت ارض الجزيرة لا تزال مرتعاً مثالياً للخيول العربية

حيث أنّ جزء كبير من تربتها لم تكن صالحة للزراعة وإنّما تُستخدَم كمرعى وهكذا فقد كنت تراها في الربيع وهي مفروشة ببساط أخضر وموشّحة برسوم متنوّعة في الألوان تسرح وتتجوّل قطعان المها والغزلان البرّية التي كنّا نقوم بصيدها عبر مطاردتها بالخيول أو بالسيّارة بين أعشابها العالية.

ولكن لنعد إلى رحلتنا...فإذا كنّا نحتاج إلى ساعتين ونصف الساعة لقطع مسافة أل ٩٠ كيلومتراً الموجودة بين حسكة وقامشلي في الصيف ففي الشتاء يتحوّل الطريق إلى فرش طيني موحل. وبعد قطع مسافة مائة كيلومتر إعتباراً من قامشلي وإلى الشرق أي بإتّجاه عين ديوار فأنّ التضاريس تأخذ شكلاً خاصّاً حيث بعد المرور عبر سهل قاحل ندخل أرضاً وعرة حفرتها مجاري المياه وكستها أحجار ضخمة وفي بعض المواضع صخور بازلتية. أنّ هذه المنطقة البركانية الخامدة ومنذ عصور سحيقة تخفي في باطنها ثروات اسطورية...أمّا الهضبة التي بنيت مدينة عين ديوار على حافّتها القريبة جداً من تركيا فقد كانت معروفة باسم ديشتا هيسينان (سهل الحديد) والسبب في ذلك يعود إلى لون أرضها وكذلك لأنّه تم يوماً إستخراج الحديد منها في الزمن القديم.

قبل وصول الفرنسيين لم تكن عين ديوار سوى قرية كوردية صغيرة مؤلّفة من ثلاثين مسكناً مبنية على حافّة وادي فتركها الفرنسيّون على حالها وأنشأؤا في الجانب الايمن من الوادي في عام ١٩٢٦ الركائز الأساسية سواءاً البنايات الإدارية منها أوغيرها لقائمقامية دجلة ومن ثمّ فتحوا باب الحدود واسعاً لإستقبال الكورد والسريان والأرمن القادمين من تركيا وشجّعوهم للإستقرار في المنطقة وإكتساب الجنسية السورية ولكن، في الحقيقة، أنّ الذين قدِموا تشكّل من بضع آلاف شخص من بينهم ملاّكين كورد كبار أُنتُزعت أراضيهم من تركيا وأُلحقت بسوريا. وبعد مرور زمن قصير توسّعت القرية وتحوّلت إلى بلدة يقيم فيها طبيب كما تم إفتتاح مكتب للبريد ومدرسة وسوق ومقهى بل وحتّى مسرح فيها وبموازاة ذلك تم إنشاء مدينة أكبر منها في جهتها الشرقية على طريق قامشلي ـ عين ديوار وحملت إسم القرية الموجودة: ديرك (كنيسة صغيرة) وتابعة إدارياً إلى عين ديوار ولكن لقربها من الثكنات العسكرية فقد كانت أكثر نشاطاً وحيوية من عين ديوار.

في سفرتي الأولى إلى عين ديوار وصلتها مساءاً وفي ظلام دامس وقد وجدت باب منزل أخي مفتوحاً وسمعت نباحاً أجشّاً لكلب فتذكّرت حينذاك بأنّ أخي قد أخبرني في

رسالة بأنّه تلقّى كلباً كوردياً حقيقياً من أحد معارفه وسوف يقوم بإهدائه لي وتطرّق في الرسالة أيضاً إلى حصان...فكنت متلهّفاً لرؤية تلك الحيوانات ودون أن أنتظر من يأتي لإستقبالي أسرعت بالدخول في فناء البيت فنبح الكلب بكل قوّته وإنتصب على قائميه ومن ثمّ إنطلق إلى الأمام وكأنّه ينوي تحطيم قيده والإمساك بخناقي وعلى الفور تخيّلت كلاب مادن أمامي...ها هوذا الكلب الذي وعدني به أخي وأصبحت بعد هذا أكثر تلهّفاً لرؤية الحصان. بعد أن عانقني أخي أمسك بيدي وقادني عبر فناء آخر على ضوء مصباح جيب إلى أن وصلنا أمام بيت سكني صغير مهدّم في بعض أجزائه ومن ثمّ توجّه نحو الغرفة اليسرى وأضاءها فرأيت حيواناً يقتات الطعام ويرفع برأسه نحونا ومن ثمّ يطلق صهيلاً خفيفاً.

ـ هل رأيتها؟ بادرني أخي.

ـ نعم، أجبته، والقلب يخفق، أنّها جميلة.

ـ لحظة، سأقوم بتركيز الضوء عليها.

رأيت حينذاك مهرة رائعة بجمالها وقوائمها العالية، مهرة رشيقة وعصبية هائجة مع بقعة بيضاء طويلة وسط جبينها.

ـ نعم، أنّها تعجبني ولكن ينبغي رؤيتها في وضح النهار وحينما أركب على ظهرها.

وأضفت على الفور:

ـ أنّها لنا، أليس كذلك؟

ـ للأسف لا، ردّ أخي، ولكنّها تبقى هنا كلّ الصيف بشرط أن تعتني بها جيّداً وأن تنتبه إلى نفسك حينما تصعد على ظهرها. أنّ هذه المهرة الأصيلة تعود إلى صديق أعارها لنا.

ومن ثمّ أمسك بيدي ليأخذني إلى أصدقاء يتناولون العشاء عنده وقد كنت ألتهم الأكل منتشياً وكم تمنّيت البقاء طوال الليل قرب هذه المهرة...

وقد تواصلت المناقشات على المائدة ولا سيّما حول قائمقام عين ديوار الذي كان موظّفاً دمشقياً بسيطاً منحه الفرنسيون منصباً لإدارة منطقة بأكملها. كان هذا البخيل الذي ينتمي إلى فصيل خاص قد صمّم على صرف أقل ما يمكن من راتبه الضخم

والإقتصاد بالحد الأقصى حيث أنّه قام بشراء منزل يؤجّره ب ٢,٤٠ ليرة شهريا وإستأجر منزلاً آخر بليرتين...وكان ضيوفنا يحكون بأنّ الموظّفين قرّروا دعوة بعضهم البعض للوليمة بالتناوب وبأنّ القائمقام ذهب يأكل لدى كل زملائه وحينما جاء دوره تهرّب ومنذ ذلك اليوم إستبعدوه ولم يدعوه إلى أيّة وليمة ولكنّه كان يحضر ربع أو نصف ساعة قبل الأكل لدى صاحب الدعوة لكي يضطر إلى دعوته أيضاً. وفي إحدى المرّات نظّم الموظّفون وكل وجهاء المدينة حفلة صيد في دجلة تبعتها نزهة أكل في الهواء الطلق وقد دعوا إليها كلّ الناس ما عدا القائمقام الذي لم يتحمّل هذا الإهمال فدبّر لنفسه حصاناً ودليلاً وبرفقة إثنان من أطفاله، فتى وفتاة ١٢ و ١٠ سنوات ووصلوا إلى موقع الحفلة وهناك تحجّج بأنّ عقربة لدغت إبنته وبأنّه جاء إلى أخي ليفحصها.

لم يعثر نافد على أي أثر للّدغ ولكنّه شخّص أثاراً للإبر وبينما كان أخي يفحص الفتاة جلس الأب والإبن أمام سمك كبير قد إنتهوا توّاً من شوائه وحينما بدأ الضيوف يأكلون وصل كابتن فرنسي كان مدعواً أيضاً وعندما نهض الحاضرون إحتراماً له والقيام بتحيّته إنتهز القائمقام المناسبة وهمس في آذان أطفاله:

ـ هيّا إجلسوا وإستمرّوا على الأكل، هيّا لا تضيعوا الفرصة!

أنّ هذه القصّة وحكايات أُخرى كثيرة كانت تروى بأدق تفاصيلها جعلتني أسهر إلى وقت متأخّر من الليل وعند إنسحاب الضيوف صعدنا على سطح المنزل بسلّم صغير لنمضي ليلتنا في أسرّتنا المغطّاة بالناموسيات. أنّ حرارة الطقس الشديدة ضايقتني فلم أقدر على النوم إلاّ بصعوبة...حيث أنّه في جنوب الجزيرة كلّما إقتربنا من الصحراء كلّما أصبح الطقس أكثر برودةً ولكن في المناطق الحدودية القريبة من جبال كوردستان تركيا فأنّ حرارة النهار تستمرّ حتّى وقت متأخّر من الليل ولا يبرد الجو إلاّ بحلول الصباح. ولم استيقظ إلاّ بعد صعود حرارة النهار أي بحدود الساعة الثامنة وإمتطيت الفرس للسباحة في نهر دجلة الواقع على مسافة كيلومترين من البيت وتدريجياً أحسست بأنّ الحر يجفف بشرتي. حينما وصلت وحيداً مع فرسي إلى ضفاف النهر لم أجرؤ على إلقاء نفسي في مياهه المزبّدة والمتدفّقة بسرعة فصعدت على ظهر المهرة ولاحظت بأنّها قد تبلّلت من العرق وكأنّها إشتركت في مسابقة طويلة للحواجز. وفي الأيّام اللاحقة إخترت الساعات الأخيرة من النهار للوصول إلى النهر

والشروع بالجري مع دابّتي سريعاً على ضفافه أو بالسباحة في المواضع الهادئة والساكنة منه.

حيث أنّه في تلك الساعات المتأخّرة من النهار كان تل عين ديوار يبسط ظلّه على أجزاء من النهر وعلى ضفافه وتفقد الحرارة عنفوانها فيستقطب المكان آخرين غيرنا من المتنزّهين والسبّاحين ويأتي إلينا أحياناً أخي برفقة أصحابه الصيّادين ونعود دائماً من تلك النزهات مبلّلين تماماً. وبما أنّ المنزل لم يكن بعد مجهّزاً بالماء الجاري فقد كنّا مضطرّين على الإقتصاد في إستخدامه لأنّ كلفة الحصول عليه كانت عالية جداً والذي كان يتم نقله إعتباراً من النهر بقراب محمولة على ظهر الحمير وبما أنّ هذه العملية كانت تتطلّب جهداً ومشقّة فلم يرتضي سوى أُناس قليلون القيام بها.

إنّ أشجار عين ديوار كما كان الحال في الأجزاء الأخرى من الجزيرة قد تم إقتلاعها بسبب المناوشات والمعارك الدائمية المحرّضة من الترك العثمانيين بين العشائر الكوردية والعربية ولم يعد يجازف الفلاّحون بزرع الكروم فيها وأمّا بالنسبة لزراعة القطن فأنّها لم تكن معروفة بعد.

كان رئيس بلدية عين ديوار، عبدالكريم ملاّ صادق، واحداً من وجهاء الكورد كما كان يملك عشرين قرية في ضواحي المدينة وقد تعرّف عليه أخي في جزيري. لقد كان رجلاً ذكياً ومثقّفاً وكريماً إلى أقصى حد ولكنّه لم يكن يحب العمل فيقضي وقته في لعب الورق وقراءة الروايات وفي الشرب والأكل ومع ذلك فقد تمكّن أخي من إقناعه بتجميع مياه النبع في حوض وإستخدامها في بستان يقوم بإنشائه. ولوثوقه بنجاح الإقتراح وبفائدته فقد إنساق عبدالكريم أفندي وراء المشروع وبإسم البلدية تمكّن من جلب شتلات لفواكه دمشق وتركيا بل وحتّى لفواكه العراق وأمر بزرعها على طرفي الوادي والمباشرة بإروائها بمياه الحوض.

وبعد مرور عامين كنّا نأكل جميع أنواع فواكه الشرق الأوسط من المشمش وإلى التين وأمام هذه الروعة سارع فلاّحو الأطراف في تقليدها وهكذا بعد مضي سنوات قليلة كنت تراهم يبيعون العنب والخوخ في سوق عين ديوار وديرك وقامشلي. وفي عام ١٩٤٥ زرع أخي القطن في الجزيرة الذي أصبح اليوم يشكّل مصدراً رئيسياً للثروة في المنطقة

ولم يتوقّف نجاحه عند هذا الحد بل تمكّن كطبيب الظفر على خوف وتردّد الأهالي المشكّلين بنسبة ما لا يقل عن ٩٠ ٪ من المزارعين أمام الطب الحديث الذي كان يعاديه مجبّرو العظام وإمام الجوامع والمسيحيون واليزيديون وغيرهم ويقومون بتعزيز المشاعر العدوانية لدى المواطنين ضدّ الأطبّاء ولكن بفضل كفاءته وتفانيه في الخدمة، بفضل صبره وإحساسه تمكّن نافذ تدريجياً من إقناع الناس بأنّ علمه أكثر فعّالية من علم خصومه.

عند وصوله إلى عين ديوار حالفه الحظ وتمكّن من التعرّف على مستشار نزيه، الملازم الأوّل الكورسيكي ألفونسي، الذي كان يؤمن بالرسالة الإنسانية لفرنسا وقد تعاطف أحدهما مع الآخر وضمن الكورسيكي لنافذ دعمه ومساندته.

ولم يمض وقت طويل فإذا بأخي يكتشف بأنّه علاوةً على إنتشار مرض الملاريا فأنّ هنالك عدد كبير من حالات السفلس ـ الزهري ـ ولا سيّما في قرى المحافظة القريبة عن القبائل البدوية وبفضل الدعم الذي قدّمه الملازم الأوّل ألفونسي تمكّن عن طريق القائمقام من تبليغ الأهالي ودعوتهم للحضور لإجراء فحص طبّي في مستوصفه وكان أخي على إستعداد للإنتقال من قرية إلى قرية لفحص سكّان القرى البعيدة والبدويين بشكل خاص. أنّ هذه العملية الواسعة في النطاق دامت لعدّة شهور ممّا أتاحت لنافذ الفرصة للقيام بتشخيص نسبة عالية من المصابين بالملاريا والتراخوما والسفلس وبعد التشخيص فأنّ الأمر العاجل بالنسبة إليه كان الحصول على الأدوية الضرورية. كان المستوصف يستلم في كل شهر كمّية كافية من القطرات لأمراض العيون والحبوب لمعالجة الملاريا ولكن محلول النيوسالفرسان، الدواء الأنجع في ذلك الوقت لمعالجة السفلس لم تكن مؤسّسات الدولة مجهّزة به سوى بكمّيات قليلة فسارع أخي بإعداد قائمة عن الأدوية وأرفقها بتقرير مفصّل ومن ثمّ طلب من الملازم ألفونسي بأن يتدخّل لدى وزارة الصحّة وفي أعقاب شهر كان مستوصف عين ديوار غارقاً بصناديق الأدوية ولا سيّما بالنيوسالفرسان وقد تم إستخدام جميع أنواع (الإرشادات والتحذيرات والتهديدات والعقوبات الجزائية) لإجبار السكّان على القيام بالعناية ومعالجة أنفسهم وبعد مضي سنة إنتصر في المعركة حيث أنّ السفلس إختفى تماماً من القرى الكوردية ولكنّه فشل جزئياً في مكافحة هذا المرض مع البدو والسبب يعود إلى تنقّلهم المستمر

وصعوبة الوصول إليهم في أغلب الأحيان.

ومنذ ذلك اليوم لم تنسى عين ديوار أبداً معروف أخي وفضل الملازم ألفونسي اللذان فعلا المستحيل للقضاء على أوبئة رهيبة وأنّ الملازم ألفونسي لا يمكن مقارنته مع أغلبية المدنيين والعسكريين الفرنسيين الذين خدموا في سوريا وقد بدى ناصعاً بأنّه من طينة مختلفة وقد جاهد لمصلحة الشريحة الفلاّحية وسعى إلى تجهيزهم بكل ما قدّمته فرنسا من إختراعات كبيرة وإنجازات للإنسانية.

وفي أحد الأيّام طلب منه كاتب كوردي، مصطفى بوطي، إجازة لفتح مدرسة يكون التعليم فيها باللغة الكوردية فرأى بأنّ هذا المقترح طبيعي جداً وأعطى الضوء الأخضر فوراً دون الرجوع إلى المفوّض السامي في بيروت.

ـ حاول أن تعثر على بناية مناسبة وباشر في عملك فوراً، لا تنتظر الموافقة الرسمية لأنّني سوف أستحلصها لك بأسرع وقت ممكن، كان قد وعده بها.

تشجّع الشاب مصطفى بوطي وواصل عمله التعليمي بحماس ولكن بعد مرور شهر تلقّى ألفونسي الجواب من رؤسائه في بيروت: لا نوافق...أنّ الإلتزامات التي تعهّدت بها فرنسا لدول الشرق الأوسط لا تسمح لها بالتورّط في هكذا «مغامرة»، ردّوا عليه.

ذهب الملازم ألفونسي إلى مصطفى بوطي ليعتذر وعيونه مليئة بالدموع.

ـ إنّ هذا الأمر غريب، وغير معقول إطلاقاً، صرخ مستفهماً، كيف يمكن لحكومتي أن ترفض حقّاً أساسياً وطبيعياً كهذا، حقّ تعلّم القراءة والكتابة بلغتهم؟

ولشعور مصطفى بوطي بالمهانة بعد هذه الحادثة فقد إختفى من المنطقة وإستقر كإمام مسجد في قرية كوردية صغيرة متواجدة في شمال كوردستان إيران وأمّا أخي فقد واصل نضاله وإعتمد على ذات الوسائل التي إستخدمها لمكافحة الأمراض حيث أنّه لم يتوقّف في حثّ أرباب الأُسر على إرسال أطفالهم إلى المدرسة الرسمية.

أنّ إستقرار اخي في عين ديوار أثار دهشة الكثيرين من الكورد ولا سيّما حينما سمعوه يتحدّث بالكوردية...ولازلت أتذكّر صدمة أحمد آغا، أحد رؤساء عشيرة أشيتان في منطقة قامشلي الذي كان يقلّد شيوخ العرب في ملبسهم حيث كنت تراه يرتدي قميصاً طويلاً و «عباية» كما ترى سيفاً طويلاً مرصّعاً بالفضّة يتدلّى على خاصرته

وحينما وجّه كلامه لأخي بعربية فصيحة لكنّها عرجاء ردّ عليه أخي بنبرة قاسية.

ـ تكلّم باللغة الكوردية!

ـ كيف، تساءَل، وهل هنالك أطبّاء كورد في هذه الدنيا؟

ـ نعم بالتأكيد، لأنّني أحدهم...

ـ إذاً، هذا نعمة وهبها الباري تعالى وبعثها إلينا! ردّ عليه أحمد آغا قبل أن يشرح له الألم الذي يعاني منه.

وعلى الرغم من تركيز نافذ لإهتماماته حول مصير الشعب الكوردي والسعي إلى إسعافه من مآسيه والتخفيف من آلامه وتشجيعه لكي يتعرّف على هويّته فأنّه لم يدّخر جهداً لخدمة الأقوام الأُخرى.

وقد سمعت في أحد الأيّام أرمنية عجوز وهي تخاطبه:

ـ أنّك طيّب يا دكتور، أنّك طيّب، أنت طيّب كطيبة مولانا جلّ شأنه!

إنّ هذه الصرخة القلبية الصادرة من شفاه الكوردي أو العربي أو المسلم كانت تنطلق أيضاً من شفاه المسيحيين واليهود.

لقد أقام أخي في عين ديوار حتّى عام ١٩٣٥ حينما تم نقله كطبيب حكومي أيضاً إلى قامشلي التي خدم فيها إلى عام ١٩٣٧ ومن ثمّ لعدم رغبته على مغادرة الجزيرة فقد إستقر كطبيب مستقل وفتح له عيادة إستشارية كما كان الحال في دياربكر أو في حلب ودمشق ونظراً للشعبية التي إكتسبها عبر كل هذه السنين فلم يتجرّأ الفرنسيّون التعرّض له بالرغم من إحتجاج السلطات التركية بل بالعكس كانوا يبعثون إليه بمرضاهم للعناية والمعالجة.

كان نافذ يستقبل مائة مريض يومياً والمحتاج منهم يتلقّى العناية والأدوية مجّاناً حيث أنّه كان يسجّل على أوراق وصفاتهم الطبّية الملاحظة التالية «على حسابي» وأمّا الآخرون فلم يكن يطالبهم بأكثر من خمس ليرات سورية وحين سماعه لإنتقادات أصحابه على الأُجرة الضئيلة لمعاينته كان يرد عليهم بصوت وديع ومقنع:

ـ حينما لا أطالبهم بغير خمس ليرات فأنّني أُسعدهم وأضيف مفعولاً على تأثير الأدوية التي أرشدتهم بتناولها وكطبيب لا يمكن وصف مقدار سعادتي حينما أرى

زوال آلام مرضاي بأسرع وقت ممكن.

ـ ولكن، كان أصدقاءَه يُزايدون عليه، ثمّة أطبّاء قادمين من داخل سوريا أو لبنان يطالبونهم بخمسين ليرة على كل معاينة وعشرين ليرة مقابل قيامهم بمجرّد زرق بسيط لإبرة الكينين...

ـ في الأعوام التي يهطل فيها مطر غزير بالجزيرة تجد البعوضة وسطاً مثالياً للتناسل ولنشر مرض الملاريا وبما أنّ المحصول سيكون وفيراً أيضاً فأنّ المزارعين يقبلون بإستغلال هؤلاء الأطبّاء الإنتهازيين وعديمي الضمير لهم، كان يجيبهم أخي.

ـ يجب عليك التفكير بالمستقبل يا دكتور لأنّ وتيرة عملك لن تكون أزلية...

ـ كلّ يتصرّف بما يملي عليه ضميره، هذا ما كان يهمسه أخي في آذانهم.

وقف أخي بشدّة ضدّ الأطبّاء المشعوذين الذين لم يكتفوا بسرقة الضعفاء من الناس فقط وإنّما أيضاً بالمساهمة في تردّي أوضاعهم والتسبّب في أغلب الأحيان بموتهم ومنهم بل واكثرهم جشاعةً كان «الدكتور» بوغوص الذي كان أرمني الأصل والمعروف تحت تسمية «بوغوص الحمّام» نسبةً إلى الحمّام الذي ملكه في قامشلي بجانب «عيادته الطبّية» والذي كان يدرّ عليه أموالاً طائلة.

إنّ الطبيب الذي سبق أخي قد حاول وضع حد للنشاطات غير المشروعة «للدكتور» بوغوص ولكنّ الأخير ردّ عليه وجعل إستشاراته مجّانية وقام بتعويض ما يخسره عبر رفع أسعار الأدوية التي يصفها ويفرض شراءَها لدى أحد الصيدليين من أصحابه ومن ثمّ حينما هدّده الطبيب بتنفيذ القانون لجأ بوغوص إلى وسيلة أُخرى حيث قام أحد رجاله برمي الفضلات أمام بيته الأمر الذي أرعب الطبيب وجعله يتصوّر بأنّ هذا الشخص لا يتوانى في إستعمال وسائل أكثر فظاظة فأسرع بالعودة إلى دمشق مطالباً النقل إلى مكان آخر.

حينما وصل أخي إلى قامشلي كان «الدكتور» قد تسبّب لتوّه في موت أحد الأغوات من الكورد المعروفين في المنطقة فأجرى تحقيقاً وإكتشف بأنّ «الطبيب الحمّام» كان يجري العمليات دون تعقيم أدواته الجراحية ودون معرفته بعلم التشريح الإنساني وثبت لدى أخي بأنّ الأغا الكوردي مات على أثر إلتهاب ناتج من قيام السيّد بوغوص بعصر دملة ظهرت في صدره وعلِم بعد مرور فترة قصيرة بأنّ هذا الأغا لم يكن الضحيّة

الوحيدة لجهل «الدكتور» بوغوص فأصدر أمراً يطالب «الحمّام» كي يضع حدّاً لجرائمه ولكن بدل المثول أمام المحكمة جاء الأخير يهدّد أخي بمسدّسه.

ـ إسمع يا بارون بوغوص، خاطبه أخي، خلال فترة فوضوية معيّنة وبسبب نقص الوعي لدى الإطبّاء لتحمّل مسؤولياتهم فقد تمكّنتم من العمل بحريّة وجمع ثروة هائلة فإعلم من الآن وصاعداً لن أدع يداك طليقتين وإذا كنت أرمنياً فأنا كوردي. فكّر بما تفعله وأوقف هذه اللعبة كما أنّ حمّامك يدرّ عليك الكثير من المال أليس من الأجدر بك الإهتمام به جدّياً والشروع في تحديثه؟

ترك بوغوص أخي مقتنعاً بصورة قطعية بأنّ مرحلة التسيّب في الممارسات الطبّية داخل منطقة الجزيرة قد ولّت فحاول إضفاء الشرعية على نشاطه من خلال إتّفاقه مع طبيب شاب من حلب وأوكله عيادته الطبّية مع الإبقاء على ذكر إختصاصاته ومع ذلك فقد عاد الطبيب إلى حلب في أعقاب بضع أسابيع حلب ولكن اللوحة المذكّرة لألقابه بقيت عالقة على باب عيادة بوغوص الذي لم يتوقّف لحظةً عن ممارساته عندها تدخّل أخي لدى السلطات القضائية التي لم تتأخّر في إكتشاف خفاياه ومن ثمّ ألقوا القبض على «الدكتور» المشعوذ ولم يقوموا بإخلاء سبيله بالكفالة إلاّ بعد كتابته تعهّداً بعدم الإهتمام بغير حمّامه وأملاكه التي كان قد إكتسبها سواءاً في المدينة أو في ضواحيها.

إنّ هذا العقاب المفروض على «الدكتور» بوغوص أسعد كل طوائف قامشلي وبضمنها الأرمن الذين كانوا من أعز أصدقاء أخي بإستثناء بعض المقرّبين من بوغوص وأنّ المرضى الارمنيين الذين لم يكونوا يتكلّمون بغير الأرمنية يستغربون دائماً كلّما تحدّث معهم بلغتهم.

ـ ولكنّ هذا الطبيب فأنّه أرمني! كانوا يهتفون بإبتهاج.

وبالرغم من كل جهود أخي وأصحابه لجعل حياتي ناعمة ولطيفة فلم أحتفظ بذكريات رائعة عن عين ديوار. فقد كنت، أنا الذي كبرت وسط البلاد الجبلية، أتحمّل بصعوبة الأيّام الطويلة الخانقة والحارّة لهذه الهضبة الخالية من الأشجار لأنّ تلك الجبال ذات القمم العالية كجبل جودي بقيت تحت سيطرة الترك وبسبب تداخل مجموعة من الظروف والصدف فقد تم فصل هذا الجزء من كوردستان عن القسم الذي ضمّته فرنسا إلى دولة مصطنعة من تجمّع أشلاء متنوّعة وأصبحت تسمّى بدولة سوريا. أنّ

واقع فصل تلك الجبال والسهول المغطّاة بالخضرة والبساتين بحاجز سياسي مرسوم ضدّ إرادة الشعب كان يمزّق قلبي فكنت أتأمّلها كلّ يوم خلال ساعات متنهّداً ومتمرّداً على مصيرها.

ـ لماذا لم تتقدّموا بجيوشكم لعدّة كيلومترات أُخرى كي تضمّوا إلى إمبراطوريتكم تلك الجبال الشبيهة بمنطقة الألب ـ سافوا في بلادكم؟ سألت يوماً أحد المستشارين الفرنسيين وحينذاك لأصبحتم مجبرين على إنشاء الدولة الكوردية ولأمست سنداً لكم في الشرق الأوسط.

ـ إنّ السبب في ذلك يعود إلى كليمنصو الذي لم يقم بزيارة كوردستان، ردّ على تساؤلي...

إنّ اللحظات الأكثر تأثيراً على قلبي هي تلك الأوقات التي كنت أستمع فيها إلى الأغاني والموسيقى الكوردية أو حينما كنت أنظر بإعجاب إلى الرقصات الإيقاعية الشعبية في مختلف مناطق كوردستان حيث أنّه في بداية كل أيلول حينما يستعد القرويون بإعداد ذخائر ومؤونة الشتاء يعلن الفولكلور عن نفسه بأشكاله المتنوّعة فعند إجراء عملية تحويل القمح إلى برغل تسمع الأغاني وترى الدبكات الشعبية تتواصل حتّى الصباح ويقومون أحياناً بدعوة أفضل المطربين والموسيقيين المحترفين إلى تلك السهرات وأرقى العازفين على «الناي» أو ناقري الطبل.

إنّ العازفين على الناي كانوا يقدرون على تقليد أصوات حوافر أو صهيل الخيول وكنت تراهم يرقصون على صوت «الزرنا» والطبل ويقوم المشاركون بالرقصة بمسك أيادي أو خواصر بعضهم البعض مرتدين أزياءاً ذات ألوان متعدّدة كما يقومون بأداء إيماءات وحركات تشير إلى أعمال الريف الجماعية. كانت رقصاتهم الفولكلورية التقليدية أو القتالية تعبّر عن مشاعر فرحهم أو ربّما عن نجاتهم من الجو الحارق للحقول بعد تنفيذهم للأعمال الشاقّة فيها.

ويوماً بعد يوم كلّما كنت أكبر يتعمّق شعوري بوجود شعب أو بالأحرى بوجود أُمّة تكوّنت تاريخياً وجغرافياً مع هويّة متميّزة في لغتها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها من جهة وبوجود سياسة تمييزية لا إنسانية تطبّق بحقّها من جهة ثانية ما يدفعني إلى التركيز والإهتمام بخصوصيتها.

كيف يمكنني الجمود والوقوف بلا مشاعر وردّة فعل أمام تمزيق بلد وتشتيت شعب عبر إخضاعه إلى دول أُنشئت بالقوّة وفقاً للمصالح السياسية ـ الإقتصادية للقوى العظمى؟.

الشعب الكوردي غارق في الجهل ومقيّد بنظامه الإجتماعي وهو لا يزال قبلياً بشكل واسع ومكبّل بزعمائه السياسيين والدينيين، أنّ هذا الشعب الذي بقي مزارعاً في هيكله الأساسي لم يكن قادراً على هضم مقدار بؤسه المادّي والأخلاقي لكي يربط مأساته القومية ويعلن إرادته بالخلاص من المحنة فهل أنّ المثقّفين مستعدّون برمي أنفسهم في الحلبة للإنظمام إلى أخي من أجل إيقاظه من السبات؟

إنّ أوّل من تجرّأ على رفع الشعار الوطني وعلى مناداة الشعب علناً للتحرّر من تقاليده ومعتقداته ومذاهبه الدينية كان الملاّ المتعرّي من ثيابه، جكرخوين، هذا الشاعر المبدع الذي كان ينشد شعره في مضايف الأغوات وفي المقاهي والساحات العامّة وهو ينادي شعبه بالتوحّد لتحرير وطنهم. لم يتحرّك الفرنسيّون أو على الأقل لم يرتأوا مهاجمتهم بشكل مباشر بل وحتّى قاموا بفسح المجال أمام جلادت بدرخان لكي ينشر جريدة هاوار التي إستمرّت في الصدور لثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيّام...حتّى اليوم الذي ثارت فيه السلطات الفرنسية المنتدبة على الكورد! وذلك بسبب: ثورة الكورد في عام ١٩٣٧ وبدعم من القوميين السوريين المكافحين من أجل إستقلال بلدهم فإتّخذت إجراءات قسرية ضدّ الكورد بشكل عام وضدّ مثقّفيهم الوطنيين بشكل خاص وقامت بإلقاء القبض على أكثر من عشرة منهم وبنفيهم إلى تدمر ودمشق وقد كان من بينهم عارف عبّاس الساكن في ديرك آنذاك وقد كنت مقيماً عنده حينما تم تحديداً نفيه فإضطررت على تمديد إقامة «إصطيافي» في هذا المكان كي أسهر فيه على عائلته.

وقد كان يزورنا في كلّ يوم أشقياء فاسدون من الطائفة السريانية وهم يعملون لصالح المخابرات الفرنسية ويقومون بإرهابنا وتهديدنا بالموت كلّما سمعوا برفضنا على مغادرة ديرك...

وفي أحد أيّام نهاية صيف عام ١٩٣٧ جاء أخي يبحث عني وقد كنّا نسير بتاكسي خاص نحو قامشلي حينما أوقفنا ثلاثة أشقياء مسلّحين.

ـ ماذا تريدون؟ سألهم أخي الذي عرفهم لأنّه كان قد قام بمعالجتهم لمرّات عديدة.

ـ بأن تسمحوا لنا بالصعود في سيّارتكم حتّى قامشلي، أجاب رئيسهم المعروف بكنيته الساخرة «بورو» نسبةً إلى لون بشرته القرمزية وهو سرياني من أزاخ.

ـ لم يبقَ لدينا للأسف مكان.

ـ أوه، سوف نتدبّر أمرنا، ردّ الإثنان الآخران وهما يفتحان أبواب السيّارة.

وقد كنّا برفقة قومي كوردي يُدعى عفدي تيلو المعروف بشجاعته والذي كان يرفض التنقّل بدون مسدّسه الموزر أمّا أنا فقد كنت جالساً على المقعد الخلفي وأمسك بين ساقَي الإثنتين بندقية صيد أخي. حينما رأى مهاجمونا هذه الأسلحة التي لم يشكّوا بوجودها في أيّة لحظة إرتعدوا ومع ذلك فقد حاولوا مراراً الصعود في التاكسي ولوضوح نيّة هؤلاء القتلة فقد سحب تيلو سلاحه وأمر الرجال الثلاثة بأن يقلّدوه ممّا أجبر الشقاة على الإبتعاد عن السيّارة معتذرين وعلى إعطاء إشارة للسائق بمواصلة طريقه.

ـ يا تُرى ما هي الفكرة التي مرّت في خاطرهم؟ إستفسر تيلو من أخي بعد سيرهم لبضع كليلومترات.

ـ الأمر بسيط، بعد صعودهم في السيّارة كانوا يجبرون سائقنا على التوجّه نحو الجنوب في منطقة صحراوية ويطلقون بضع رصاصات على رؤوسنا ويتركون جثثنا للنسور وبنات آوى ومن ثمّ يهرعون للحصول على المكافأة الموعودة...

وفي عام ١٩٣٧ أُضيفت لصعوبات كورد الجزيرة النابعة من المنازعات السورية ـ الفرنسية مآسي منطقتين أُخريتين في كوردستان تركيا أولّها في ساسون، الزاوية الجبلية التابعة لمقاطعة سيرت والتي قادت فيها أُسرة علي يونس مقاومة عنيفة ضدّ الجيش التركي لمدّة إثنتا عشرة سنة ولكنّها توقّفت بعد تكبيدهم للقوّات التركية خسائر جسيمة. وعلى إثر ذلك نزحت إلى سوريا ستّون عائلة بزعامة عبدالرحمن، الإبن البكر لعلي يونس، الذي كان أُمّياً ولكن خبيراً في الفنون الحربية ودبلوسياً موهوباً بحيث أنّ الأتراك كانوا يصفونه «بالعقل المفكّر لساسون». حيث أنّه بعد فقدانه لخمسة من الإخوة ولأكثر من نصف أفراد عشيرته في القتال تمكّن من فتح ممر له ويعبر الحدود إلى سوريا مع النساء والأطفال والباقين من رجاله الشجعان ولكن حينما طلب حق اللجوء السياسي من الفرنسيين واجه رفضاً من القوّة المنتدبة التي قامت بنفيه إلى

دمشق وتشتيت رجاله من خلال توزيعهم على العديد من قرى الجزيرة الكوردية. وفي دمشق حينما وجد عبدالرحمن نفسه محاطاً بمثقّفين كورد يجيدون لغتهم بطلاقة كعثمان صبري قرّر تعليم نفسه وبدأ يخرج كلّ صباح كأي تلميذ مدرسي يجتاز الأزقّات الضيّقة للحي الكوردي وهو يتأبّط كتبه ودفاتره تحت الذراع للذهاب إلى عثمان صبري وكرّس بحماس ومثابرة كل طاقته ووقته لتطوير قابلياته بحيث تمكّن بعد مضي عدّة أشهر من القراءة والكتابة باللغة الكوردية تبعاً للأبجدية اللاتينية التي وضعها الأمير جلادت بدرخان بيسر وسهولة وبعد مرور فترة وجيزة بدأ يكتب القصص والقصائد وقد تجاوز عمره ٥٧ عاماً.

وقد وقعت بعد النهاية الحزينة لساسون مأساة ثانية في نفس هذه السنة في ديرسم (الأرض البرونزية). إنّ هذه المنطقة الجبلية التي تحتل مساحة واسعة من الشمال الشرقي لكوردستان تركيا مغطّاة بغابات من أشجار البلّوط الألفية تمنع الدخول إليها وجعلتها شبيهة بجزيرة مستقلّة خارجة عن السيطرة المباشرة للإمبراطوريات الكبرى والقوى التي إستقرّت في الشرق الأوسط.

حيث أنّه بعد فشل الرومان والسلاجقة والبيزنطيين تحطّمت على صخور ديرسم أنياب العثمانيين في العديد من المرّات بحيث إضطرّوا في النهاية الموافقة على منح العشائر الإثنتا عشرة التي تعيش فيها حكماً ذاتياً كاملاً أمّا مصطفى كمال فبعدما ألغى نظام السلطنة وأسّس الجمهورية لجأ إلى المكر والخديعة لجعل ديرسم بعيدة عن الإنتفاضات التي إنطلقت في مناطق أُخرى من كوردستان حيث قام بتوجيه دعوة إلى سيّد رضا، زعيم تحالف العشائر، للمجيء إلى أنقرة وقد إحتفى به وإستقبله إستقبالاً ملكياً ومن ثمّ إصطحبه إلى البرلمان عارضاً عليه كرسي رئاسته وقد إستمرّ عطفه عليه حتّى عام ١٩٣٧، هذا العام المصيري الذي استطاع فيه مصطفى كمال القضاء على المقاومة الكوردية إذْ في بداية هذه السنة طالب من زعماء العشائر وعلى رأسهم سيّد رضا الذي بلغ السبعين من عمره الإتّصال بالمراكز العسكرية القويّة المتخندقة حول ديرسم والقيام بتسليم آسلحتهم وأرفق طلبه أمراً بإغتيال العديد من المثقّفين والقوميين الكورد.

لقد تولّى أتاتورك ترتيب مسألة ديرسم بنفسه كما خوّل واحداً من أكثر جنرالاته

وقاحةً وصلفاً، عبدالله باشا، الصلاحية العسكرية والإدارية في المناطق الكوردية فوقع إختيار هذا الجنرال الذي أصبح قائداً لكل القوّات العسكرية التركية وكذلك آمراً للطاقم المدني المتوزّع عبر كوردستان تركيا على مدينة إيلازيغ كمركز لعملياته وقام بجمع أكثر من مائة ألف رجل مجهّزين بأحدث الأسلحة العصرية في ذلك الوقت لشن هجوم على الكورد وقد باشرت طائراته في قصف القرى المهجورة التي لم تبقَ فيها سوى النساء والاطفال والشيوخ كما قام الجنود الأتراك بسد مداخل المغارات التي لجأت إليها مئات النساء والأطفال هرباً من الضربات الجوية بالكونكريت المسلّح.

وقد أكّد لي صحافي تركي، أصبح اليوم دبلوماسياً في أحد البلدان الأوروبية الغربية، إلتقيت به في بيروت عام ١٩٦٣ وإعترف بأنّه تمكّن من إلتقاط صور فوتوغرافية لأحد أنهار ديرسم وهو مليء بالجثث ولكن شهادته لم ترى النور مطلقاً لأنّه وبينما كان نائماً في أحد الأيّام سارع نقيب من الجيش التركي بإتلاف فلم الإدانة...

إنّ الفظاعات التي أُرتُكبت في ديرسم لم يتم معرفتها في الخارج إلاّ بفضل مثقّف كوردي تمكّن من الفرار بجلده والنجاة من المذبحة بلجوئه إلى سوريا، نوري ديرسملي، الذي كان طبيباً بيطرياً وواحداً من أصدقائنا وبسبب غضب الزعماء السوريّين على الأتراك آنذاك بخصوص مطالبتهم بلواء الأسكندرونة فقد شجّعوا الصحافة على نشر فضائح ووحشية الجيش التركي والتحدّث عن المقاومة البطولية لكورد تركيا.

وقد عنونت جريدة القبس على صفحتها الأولى «أنّ الكورد مقاتلون بالولادة»...

ولشدّة تأثّري بالأحداث الجارية في كوردستان تركيا أعددت مذكّرة حول السياسة التركية تجاه كورد تركيا بشكل عام وكورد ديرسم بشكل خاص ومن ثمّ توجّهت على راس وفد مشكّل من التلاميذ الكورد الذين يدرسون في الإعدادية الفرنسية بدمشق ومن عدد من طلبة الحي الكوردي نحو بعض السفارات لتسليمها نسخة منها فإستقبلنا في كل مرّة مضيفونا بحفاوة وإستمعوا إلينا ووعدونا بتقديم شكوانا إلى حكوماتهم ولكن في الواقع لم يكترث العالم بمأساتنا حيث أنّ إنكلترا التي كانت آنذاك قوّة عظمى فضّلت عدم الإفراط بتحالفها مع تركيا لمواجهة القوّة المتصاعدة لألمانيا الهتلرية وضغطت على فرنسا كي تتنازل عن لواء الأسكندرونة لتركيا ضاربة إرادة الإغلبية من سكّانها في عرض الحائط.

وقد أصبح تشكيل وفدنا نقطة إنطلاق، في نهاية عام ١٩٣٧، لنشوء أوّل جمعية طلاّبية كوردية، هيفي (أمل) التي لم يتجاوز عدد آعضائها خمسة عشر عضواً. لم يدم عمرها سوى عاماً ونصف ولكنّها علاوةً على المذكّرات والملاحظات التي وزّعتها على السفارات وسلّمتها إلى جمعية الأُمم فقد نجحت في تنبيه ونشر الوعي القومي وسط شبيبة كورد سوريا حول ضرورة التنظيم وفي التشجيع على تشكيل النوادي الأدبية والرياضية وكذلك المنتديات والأحزاب السياسية السرّية التي أدّت في عام ١٩٥٧ إلى تأسيس الحزب الديموقراطي الكوردي لسوريا.

وقد تحمّلت ديرسم خلال عامين كاملين حرباً شاملة، حيث أنّهم عزلوها عن بقيّة كوردستان وجعلوا مصيرها بعيداً عن أنظار المجتمع الدولي كما باشروا في إشعال النار وإتلاف مئات آلآلاف من الهكتارات من غاباتها وفي ذبح سكّانها المدنيين بلا رحمة وشفقة ووضعت السلطات التركية في نهاية آب من عام ١٩٣٨ حدّاً نهائياً لإستقلالها حيث أنّها إلتجأت إلى أشكال جديدة من القمع والتعذيب فأعدمت كل الزعماء الكورد الذين تجاسروا يوماً بتقديم الدعم والمساندة لها كما ملأت السجون المجاورة لمدن إيلازيغ وزينجان وسيواس وملاطية بالنخبة من المقاتلين الكورد ومن بقيّة الشعب الذي تجاوز عدده مليون روحاً وقامت بنفيهم إلى غرب تركيا وتوزيعهم على القرى والمدن ومن ثمّ أعلنت ديرسم «منطقة محرّمة» بحيث أنّه بالرغم من المرارة التي كانت تعصر قلوب السكّان من الجيل الجديد فلم يعودوا إليها إلاّ بعد فوز الحزب الديموقراطي في عام ١٩٥٠ .

أمّا بالنسبة لي فقد إنذهلت من الويلات والمآسي التي حلّت بشعبي وعند إنطلاقة شرارة الحرب العالمية الثانية قرّرت البقاء وسط الكورد وحاولت تثقيفهم وتنظيمهم إستعداداً للتغييرات المتوقّعة في الوضع السائد بمنطقة الشرق الأوسط فالأمر كان واضحاً حيث أنّ خارطة الشرق الأوسط لم يتم رسمها بعد الحرب العالمية الأولى سوى على إثر مساومات ظهرت بأنّ جميعها كانت كارثية ولغير صالح الكورد الذين ضحّوا بأنفسهم من أجل إعلاء شأن الشعوب الأُخرى في المنطقة وأصبحوا قرباناً لمصالح القوى العظمى العليا. كان لابد لنا من التفكير هذه المرّة كي لا نترك سبيلاً لمفاجآت الآخرين وإنّما نحاول إستغلال الفرصة ونفرض حقوقنا الأساسية المشروعة. أمّا أخي

الذي لم يكن متّفقاً مع طريقتي في رؤية الأُمور فقد كان يحبّذ بأن أواصل دراساتي في مجال الطب ويحثّني على إنهائها أوّلاً قبل الإنخراط في العمل السياسي وبسبب عنادي فقد إضطرّ في النهاية الرضوخ والقبول على مضض ولكن دون أن ينسى نصيحتي بالإعتدال والطلب منّي بأن أمضي عاماً قربه قبل العودة إلى الجامعة.

في تلك الفترة كانت المدارس الحكومية المتبنّية للغة العربية في تعليمها سواءاً في قامشلي أو في القرى والنواحي والأقضية المحيطة بها نادرة جدّاً ولكن بموازاة ذلك فأنّ المدارس الأهلية، الإبتدائية والمتوسّطة، الخاصّة بالطوائف الدينية ولا سيّما بالأقلّية الأرمنية والسريانية كانت منتشرة في الحسكة وقامشلي وبإمكان بناتها الشابّات أيضاً مواصلة دراستهن في مدرسة تديرها الراهبات وفيما يخص الكورد فأنّ الرقم كان صفراً!...

وبالرغم من عدم وجودها فقد ولدت نواة صلبة من القوميين الكورد حول الأديب جكرخوين في قامشلي وكذلك أيضاً في القرى المحيطة بها بفضل تحريض الأغوات والملالي وكذلك بفضل طلبة الفقه الإسلامي الذين كانوا يتابعون دراساتهم في المدارس الدينية وقد كنت أُشارك الشعراء الشعبيين والملالي والطلبة والشباب في إثارة وهزّ مشاعر الشعب الكوردي من أجل إيقاظه من السبات العميق.

لقد كان تأثير قصائد جكرخوين على هذا الشعب المالك لخزين هائل من التقاليد الأدبية والفولكلورية شديداً جدّاً حيث أنّه كان يكتب قصائداً ويلقيها بشكل غنائي على الطريقة الهوميرية ولأوّل وهلة كان الفلاّحون يتصوّرون بأنّ هذا الرجل الواقف منتصباً على كرسي وسط ساحة عامّة وهو يمجّد ماضي الشعب الكوردي، يرثي حاضره ويتنبّأ له مستقبلاً مشرقاً (شرط أن يكون موحداً ومكافحاً) ،مختل عقلياً وبأنّه قد هرب من مستشفىً للمجانين فكم من المرّات سمعتهم ينعتوه بالمجنون ويتأسّفون على شباب هذا الرجل الواقف أمامهم!

ـ من المؤسف حقّاً أن يُصاب شاب وسيم مثله بإختلال في عقله! كانوا يردّدون وهم يهزّون رؤوسهم.

كان الشاعر بالنسبة للشيوخ الظلاميين والإقطاع يمثّل خطراً ينبغي على الشعب القضاء عليه بأسرع وقت ولكن زالت الشكوك والعداءات ضدّه شيئاً فشيئاً ليحل محلّها

شعور بالتعاطف معه والإعجاب به وبفضل الدعم الواسع الذي تلقّاه من الشعب بدأ الذين يحفظون أشعار جكرخوين عن ظهر قلب يزداد عِددهم إلى درجة بدأ الشيوخ والأغوات أنفسهم يستمتعون بالأبيات الشعرية الساخرة بهم والمقوّضة لسمعتهم.

وبالرغم من عدم رضى الموظّفين والقوميين العرب ومزاجهم السيّء فقد كان الفرنسيون يسمحون لنا بممارسة النشاطات الأدبية والموسيقية وأداء الدبكات كما لم يعترضوا على تنقّلاتنا عبر القرى الكوردية وعلى عرض نشاطاتنا القومية أمام الفلاّحين الذين كنّا نقيم بينهم أسابيع طويلة ونشاطرهم الزاد القليل كما نتحمّل حرمانهم ومعاناتهم ووضعهم البائس ونحاول توعيتهم وإثارتهم للتمرّد من أجل التحرّر من العبودية والخنوع ولكن بسبب عودتهم من أعمال الحقول منهكين وجهلهم بكل ما يجري من أحداث في العالم وبسبب جهلهم والإنقياد في أغلب الأحيان كالعميان وراء زعمائهم الوقتيين والروحيين فأنّ رد فعل مستمعينا لم يكن في البداية إيجابياً على الإطلاق حيث أنّهم لم يكترثوا بالقصائد والأناشيد الوطنية وإنّما كانوا يستهزئون من إيماننا بكوردستان الحرّة والمستقلّة وآخرون يتذمّرون من عباراتنا القاسية الطاعنة لشيوخهم فيخاطبونا:

ـ أنتم الشبّاب والمتعلّمون من أهل المدن تحاولون خلق المشاكل لنا. نحن سعداء بقدرنا ومصيرنا طالما نملك لقمة عيشنا اليومية ولا نقبل من أحد منعنا من تأدية الفرائض الخمسة للصلاة، نحن مسرورون هكذا ولا نطالب بأكثر من ذلك. نتوسّل منكم بأن تبعدونا من المشاكل بأفكاركم المعادية للدين أو للدولة.

ومن ثمّ يستطردون:

ـ أنتم الحضريون لا تتجرأ السلطات التحرّش بكم بينما نحن، الفلاّحون، إذا أعلنّا عن مشاعرنا الوطنية الكوردية فسوف توجّه الشرطة مطارقها على رؤوسنا.

ـ نحن لسنا معادين للدين على الإطلاق، كنّا نردّ عليهم للتوضيح، بل نطالب بتطبيق مبادئه حرفياً وبأن لا يصبح وسيلة للإستغلال وسيادة الظلام. «أطلبوا العلم ولو في الصين» كان يردّده نبيّ المسلمين ولكنّهم وبإسم الدين يتركونكم تعيشون في الجهل. أنّ القرآن يؤكّد بأنّ «المؤمنون إخوة» بينما تسعى الدول المسمّاة بالإسلامية بكل قواها إلى إستعبادنا بل وحتّى إلى إبادة الكورد عن بكرة أبيهم سواءاً كانوا مسلمين أو يزيديين

أو مسيحيين. أمّا بالنسبة للدولة السورية فأنّها أُصطنعت من قبل قوّة أجنبية وفُرضت بالقوّة على الكورد ومع ذلك فليست لدينا أيّة نيّة بتقويضها وإنّما كل ما نريده هو إن تأخذ خصوصيتنا بنظر الإعتبار وفي نهاية الأمر تحترم إرادتنا. نحن، بكل بساطة، نسعى إلى إيقاظ الشعب بأكمله وتوعيته بواقعه وإبراز إرادته لإقرار الإعتراف بهويّته وإحترام حقوقه المشروعة ولا نريد أيّ شيءٍ آخر غير ذلك!

كانوا يلوذون بالصمت أمام حججنا ومنطقنا الرصين المجرِّد لكل سلاح دفاعي أو يهمسون:

ـ نعم، ربّما أنّكم مصيبون ومن ثمّ فأنّكم لا زلتم شباباً أمّا نحن فقد إنتهينا وعلى عتبة أبواب القبر، إنّ هذا الأمر يمنعنا من متابعة المسيرة معكم ولكن نطالبكم بمواصلة المهمّة وسوف نصلّي من أجل نجاحكم.

وهكذا فبالرغم من المعارضة الوحشية أحياناً والتهديدات المدوية لبعض الأغوات المتواطئين مع السلطات فأنّ عدد الفلاّحين الكورد الواعين بشخصيتهم القومية والمتحمّسين بالتقرّب إلينا كان يزداد يوماً بعد يوم.

كان الحي الكوردي في دمشق الذي يعيش فيه عدد كبير من المثقّفين والطلبة وسطاً مثالياً لنشر أفكارنا فقمنا بتأسيس جمعيات ثقافية ورياضية فيه لكي يقدر الأُدباء على ممارسة عملهم ويتمكّن النحويون الكورد من تدريس اللغة الكوردية بكل حريّة وفي عام ١٩٣٩ قمنا بتشكيل فريق لكرة القدم يحمل اسم «كوردستان» وقد شارك بإنتظام في المباريات التي كانت تنظّمها الأندية الرياضية الدمشقية وفاز في عام ١٩٤٠ بالبطولة وأثار حماساً شعبياً كبيراً بحيث حضر مبارياته شباب قادمون من قامشلي لتشجيع لاعبيه وأنّ الحدث المثير في مبارياتها كان صياح آلاف المتفرجّين وسط دمشق وبكل قوّتهم «هيّا يا كوردستان! هاجم يا كوردستان! عاشت كوردستان!» إلى درجة أنّ الصحافة التي كانت تروي تفاصيل المباريات كتبت عنواناً على صفحتها الأولى «كوردستان: الفائزة».

إنّ هذا الإستعراض كان كافياً لإطلاق السفارة التركية في دمشق عنان شراستها وممارسة ضغطها على السلطات الفرنسية والسورية لكي تضع حدّاً «للمظاهرات المعادية للترك بفعل تمجيد كوردستان» فأسرع السوريون والفرنسيون إرضاءاً لسلطات

أنقرة وتلبيةً لمطالبها في إرغام كل جمعياتنا على وقف نشاطاتها ولم تكتفي أنقرة بهذا النصر فحسب وإنّما بعد تحقّقها من أنّ المشاعر القومية الكوردية قد إنتشرت في منطقة جبل الأكراد، شمال حلب، فقد سارعت إلى زرع ضابط من المخابرات الخاصّة متخفّياً بزي زعيم ديني كوردي تحت اسم «شيخ إبراهيم» فيها. لقد أعلن هذا الرجل بعد نجاحه في إستقطاب عدد كبير من المريدين حوله حرباً بلا رحمة على أغوات المنطقة وعلى عوائلها ومناصريها وفي أعقاب بضعة أشهر إندلعت نيران الحرب الأهلية في كل المنطقة الجبلية التي كان يسكنها أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة وبدلاً عن تدخّل الجيش لإخماد نار الحرب ووقف المجزرة إرتأت السلطات الفرنسية تكليف الشرطة السورية بالمهمّة ولكن لقلّة عدد أفراد هذه القوّة وعدم تجهيزها بالأسلحة الملائمة إضطرّت بعد فترة وجيزة على الأنسحاب من ساحة المعركة وهي مفكّكة تماماً تاركة بذلك الطرفين يتقاتلان بلا رحمة ولا شفقة.

إنّ هذه الحرب التي وقعت بين الأخوة إستمرّت لفترة سنتين حيث أنّها بدأت في عام ١٩٣٩ وسبّبت مقتل أكثر من ١٠٠٠٠ ضحيّة وهلاك منطقة مزدهرة كما أنّها زرعت بذوراً لكراهية عميقة بين المواطنين وأمّا الشيخ إبراهيم فبعدما أنهى مهمّته إختفى بغموض دون أن يترك عنواناً ولم يُعرف مطلقاً من كان بحق وماذا أصبح...

بعد إغراق النظام الكمالي (لأنقرة) الإنتفاضات الكوردية لكوردستان تركيا في بحار من الدماء بدأ يراقب في كل مكان أدنى هيجان كوردي ويتدخّل فيه سواءاً بشكل مباشر أو غير مباشر ولذلك أصبح المناضلون الكورد النازحين من تركيا وكذلك من حاملي الجنسية السورية بشكل رسمي معرّضين في كل لحظة للوشاية والتجريم بتهم باطلة والمطاردة من قبل الحكومة التركية تحت مسمّيات «مجرمي الحق العام» أوللتحرّش والخطف والإغتيال. كان الكبار ينصحوننا بالحذر والسرّية وأوصوني بأن لا أُخاطر يوماً بالصعود في القطار للذهاب من قامشلي إلى حلب والعكس بالعكس لأنّ قسماً كبيراً من هذا الخط الحديدي يقع تحت الرقابة التركية ولو فعلت فسأكون معرّضاً إلى عواقب وخيمة ومع ذلك فقد قادتني الظروف يوماً إلى الصعود في القطار الذاهب من حلب إلى قامشلي. وقد جرى ذلك في ٢٠ نيسان من عام ١٩٤٢ بعد قضاء عشرة أيّام محصوراً في أحد فنادق حلب. كنت قادماً من بيروت عبر دمشق وأحمل

معي العديد من الحقائب المملوءة بالملابس والكتب والجرائد والمجلاّت والصور والهدايا وقد كنت مجبراً للوصول إلى قامشلي بأسرع وقت ممكن. وكانت هنالك تاكسيات وباصات تعمل رحلات مكوكية على خط حلب والجزيرة مروراً بدير الزور على نهر الفرات ولكن الأمطار التي لم تنقطع عن السقوط منذ شهر قد حوّلت الطرق غير المعبّدة إلى مستنقعات طين ووحل بل وحتّى إلى بُرك مياه تغمر أي سيّارة تجازف بالمغامرة.

نصحني العديد من معارفي السوّاق السفر بالقطار وكان يتواجد في فندقي عدد كبير من أهالي قامشلي الذين جاؤوا إلى حلب لتسيير أعمالهم، بعضهم لبيع المحاصيل والمنتوجات الزراعية والحيوانية للجزيرة وآخرون لتجديد مخزون محلاّتهم من الأقمشة والأحذية والشاي والقهوة والسكّر والصابون كما أنّ غالبية هؤلاء المسافرين الكورد والسريان والأرمن والعرب واليهود لم يكونوا مجهولين بالنسبة لي وأنّ البعض من هؤلاء كان قد نسج علاقات قويّة مع أخي ومنهم شاب سرياني كاثوليكي، جورج إزميرلي الذي سكنت عائلته بجوار منزلنا في قامشلي. كان إزميرلي يهتم بتربية الحيوانات وبيع المواشي التي يجلبها شهرياً بالمقطورات إلى حلب ويبيعها لتجّار الجملة في المدينة. عند وصولي إلى الفندق كان قد نجح توّاً في عملية تجارية مربحة فحمل بالنتيجة معه رزمة من الأوراق النقدية السورية داخل كيس مغلق ويستعد للعودة بقطار قامشلي فألح بأن أُرافقه.

ـ لست مشتاقاً أبداً للتعذيب والمعاناة كالكورد الآخرين في السجون التركية، قلت له.

ـ صدّقني، وهو يحاول إقناعي، ستجري الأمور بلا مشاكل كما جرى في المرّة السابقة حيث أنّ الشرطة التركية لم تطلب منّي حتّى هويّتي الشخصية ولكن إذا أرادوا، بالصدفة، إزعاجك فأنّك كما ترى أحمل معي أموالاً كثيرة وببضع عشرات من الليرات، فلنقل مائة بأقصى حد، يمكننا شراء هؤلاء الموظّفين الجياع والفاسدين.

ـ ولكن أحمل في حقيبتي كتباً وجرائد باللغة الكوردية حول الكورد فكيف ستكون ردّ فعلهم حينما يكتشفوها؟

ـ ليس لديهم متسع من الوقت للنظر إلى الكتب كما أنّ أغلبية رجال الكمارك التركية يجيدون بالكاد القراءة والكتابة ولكن بما أنّك تملك عدداً من الحقائب وكتباً أُخرى فحاول أن تخفيها بين تلك بحيث يختلط الحابل بالنابل...

وفي النهاية أقنعتني حجج جورج إزمرلي وعلاوةً على ذلك فقد كنت مستعجلاً للوصول إلى قامشلي وقرّرت القيام برحلة المخاطر...

كان القطار بعرباته القديمة ذات النوافذ والمصابيح الملوّنة بلا إهتمام يبدو نحساً وقبيحاً في آنٍ واحد ويخال إليك بأنّه قد مر بساحات المعارك وكانت مقطورة الدرجة الثانية التي كنّا نتواجد فيها تشبه عربات أفلام الكاوبوي.

جلسنا، أنا وجورج، مقابل زوجين من المعلمّين وعرفنا لاحقاً بأنّهما آتيان من قيصري وينويان الإلتحاق بديرك، إحدى القائمقاميات التابعة لماردين في كوردستان تركيا. في الساعة الرابعة بعد الظهر أُعطيت إشارة مغادرة القطار وبدأت القاطرة البخارية تهز موكبها وسط صرير حديدٍ تصمّ الآذان وتقذف الدخّان نحو السماء، نافخة وصافرة. بعد الوصول إلى جسر الفرات دخلنا في الأراضي التركية عند حلول الليل فتم إشعال مصابيح ملوّنة بالأزرق القاتم تضيء بالكاد مقصورتنا وبعد حين رأينا مفتّشون أتراك يدخلون إلى المقطورات حاملين معهم مصابيح جيب طويلة. كان موظّف الأمن ورجل الكمارك برفقة شرطي يتباهى بمسدّسه الموزر وعندما وصل موظّف الأمن قربنا تعرّف على صاحبي الذي أخرج الأخير خرطوشة من السيكاير الانكليزية من محفظته وخاطبه قائلاً:

ـ أحمل لك هديّة.

ـ حقّاً؟ شكراً، سآخذها بعد قليل، ردّ عليه مبتهجاً.

كنت قد أخرجت بطاقة هويّتي وأمسكتها بيدي لتقديمها ولكنّه إكتفى بهز رأسه قائلاً:

ـ حسناً، حسناً، شكراً.

إبتهجنا بعبورنا للمأزق بهكذا يسر وسهولة فقرّرنا الذهاب فوراً إلى مقطورة المطعم وطلبنا أفضل ما لديهم. إنّ الإضاءة العادية للمقطورة ونظافة أغطية المائدة والسلوك المهذّب للكادر المؤلّف من يوناني إسطنبول شحّذت شهيّتنا فتوالت أطباق المشهّيات واللحوم والأجبان والحلويات بهدوء وتمهّل ترفقها خمور تراس وتتخلّلها قصص وطرائف. كنّا قد وصلنا إلى مرحلة إحتساء القهوة حينما إقترح رفاق الرحلة من المعلّمين الجلوس معنا على الطاولة فحاولنا إثارة مواضيع للنقاش معهم ولكن صمتهم أجبرنا على تقديم الشراب لهم لحل عقدة لسانهم وشيئاً فشيئاً بدأ المعلمّان ينفتحان

ويطرحان علينا عدداً لا متناهياً من الاسئلة حول نشاطاتنا والحياة الإقتصادية في سوريا وحول أسعار المواد المتداولة ومن ثمّ يقارنوها مع تلك الموجودة في تركيا ويستغربون من رخصها وعدم إنتشار المجاعة في سوريا رغم تواجد الجيشين الفرنسي والإنكليزي على أرضها.

ـ لماذا هذا الذهول وهل هناك مجاعة في تركيا؟ سألته بسذاجة وكأنّني أجهل واقعاً معروفاً على طول الحدود السورية ـ التركية.

مئات الجنود والفلاّحين كانوا يعبرون الحدود يومياً لإيجاد ما يقتاتونه من سوريا...

ـ لسوء الحظ، أجابت المعلّمة، إضافة لإعلان التعبئة العامّة في عام ١٩٣٩ التي حرّمت الريف من الأيدي العاملة فأنّ محاصيل حبوب «الشرق» أتلفتها حشرات السونة كلّياً في السنوات الأخيرة.

ـ ما الذي تقصديه «بالشرق»؟ لم أتمالك نفسي فطرحت سؤالي.

ـ الشرق، واصلت المعلّمة، هو الجزء الذي يشمل ملاطية وإيلازيغ وديار بكر وماردين وأُورفة وسيرت وهكاري وفان وغيرها من تركيا.

ـ و ماهي الخصوصية التي تتميّز بها هذه المحافظات؟ سألتها من جديد.

ـ لا وجود لأي خصوصية على الإطلاق، أنّ حالها كحال المحافظات الأُخرى لبلدنا، أجابوني بعصبية كلّ من الزوج والزوجة في آنٍ واحد.

ـ يبدو لي بأنّه تاريخياً وحتّى العثمانيون بذاتهم أعطوا لهذه المنطقة تسميةً خاصّة، أليس كذلك؟

ـ كانوا على الدوام يشكّلون جزءاً لا يتجزّأ من تركيا، ردّ الإثنان بصوتٍ واحد، بإستثناء أنّهم كانوا يسمّونها الولايات الشرقية سابقاً واليوم يسمّونها «الشرق» و «الجنوب الشرقي» للبلاد.

ـ ولكن على الخرائط العثمانية رأيت مخطّطاً مرسوماً بحروف كبيرة ولاية كوردستان والناس كلّها تعرف بأنّ «الشرق» و «الجنوب الشرقي» يدلاّن على كوردستان لأنّ هذه المنطقة وبكل بساطة يسكنها الكورد، قلت وأنا أرفع صوتي رغماً عنّي.

ـ أنّ كلمات «كورد» و «كوردستان» لاتوجد في معاجمنا، ردّ مخاصمونا بحدّة، أنّها

ليست سوى إختلاقات صادرة من أعداء الأُمّة التركية الواحدة التي لا تقبل القسمة على نفسها. ثمّة مغامرون يحرّكهم الأجانب أرادوا إستغلال هذه العبارات ولكّننا لقّناهم دروساً لن ينسوها أبداً واليوم أصبح البلد محصّناً من كل دسيسة من هذا النوع، أضاف المعلّمان.

ـ نعم ولكنّكما كمعلّمين ستواجهان غداً أطفالاً في ديرك لا يتكلّمون بغير الكوردية فكيف يمكن خدمة بلدكما وأنتما تنكران هكذا حقائق؟ تجاسرت بسؤالهما.

ـ هذه «الكوردية» التي تتحدّث عنها ليست سوى لهجة تركية خاصّة، كما هو الحال في جميع بلدان العالم فأنّ لتركيا لغة رسمية وهنالك أيضاً لهجات ولغات محلّية واقليمية ستزول بمرور الوقت وإنتشار التعليم، أجاب الزوج بنبرة فيلسوف مجتهد.

ـ لو كانت الكوردية لهجة متفرّعة من اللغة التركية الفصحى فأنّها ستزول فعلاً كما ذكرت ولكنّ الواقع يقول بأنّ الكوردية هي لغة تختلف كلّياً بقواعدها وفولكلورها وأدبها الخاص بها ما يجعل إزالتها صعباً ولا يمكن إبدالها باللغة التركية وكلّما إشتدّ ضغطكم عليها أكثر فستواجهون مقاومةً وعداءاً أكبر من الشعب، حاولت أن أوضّح له.

توقّف القطار وأنا ألفظ هذه الكلمات حيث وصل إلى محطّة تل الأبيض فنهض المعلّم موجّهاً نحوي نظرات عيونه الرمادية ـ الخضراء وأطلق في وجهي:

ـ يا حسرة عليك، أنّك تجيد اللغة التركية بِطلاقة بينما أراك تدافع عن هكذا قضيّة سيّئة.

ومن ثمّ أخذ بيد زوجته وخرج من مقطورة ـ المطعم.

ـ لم يكن ملزماً عليك بالتحدّث مع هؤلاء الناس بهذا الأُسلوب، وبّخني صديقي جورج، لأنّ الأمر لم يكن ضرورياً أوّلاً ومن ثمّ فنحن لسنا في سوريا وإنّما في تركيا.

ـ لا بد من هزّ قناعتهم، قلت، وإلاّ فأنّ السياسة التي خطّها مصطفى كمال ستصبح إنجيلاً إلى الأبد.

ـ نعم بالتأكيد أنت على صواب ولكن عليك توخّي الحذر...

عند الإنتهاء من المحاورة أمرنا بأن يأتونا بمشروبات أُخرى لنسيان الحدث وإستعادة بهجتنا ولكنّنا إنتظرنا عبثاً ولاحظنا بأن القطار قد تأخّر بالإنطلاق فعاد

جورج إلى المقصورة ليرى أين صار المعلّمان فأخبره أحد مسافري قامشلي بأنّه شاهدهما يتوجّهان نحو بنايات المحطّة، في الجانب التركي.

ـ يا تُرى لماذا إختارا النزول هنا؟ كان عليهما تغيير القطار في الدرباسية للذهاب إلى ماردين ومن هناك إلى ديرك...

فحيّرتنا علامات الإستفهام وأثارت قلقنا.

ـ إشرب ولا تفكّر بالأمر! قال لي جورج وهو يرفع بكأسه.

كنّا نشرب آلياً ولكن بقلق وكأنّنا نشعر بوقوع ما لا يحمد عقباه وبدأت الثواني والدقائق تمر طويلة وثقيلة والقطار لا يزال ساكناً لا يتحرّك وأخيراً بعد توقّف دام أكثر من أربعين دقيقة إهتزّ الموكب وتحرّك القطار من جديد.عاد جورج ليبحث من جديد عن الزوجين وحينما لم يجد لهما أثراً في عربتنا ذهب يبحث عنهما في العربات الأُخرى وأثناء غيابه أخذ رجل ذو هيئة معقولة مقعداً خلفي وبعد ذلك بلحظات إستدار جانباً وخاطبني بأدب:

ـ أعذرني إنْ أزعجتك. يبدو لي وكأنّني إلتقيتك في مكانٍ ما ولكن لا أعرف بالضبط أين، فهل جرى ذلك في قامشلي؟ أنّك تعيش في هذه المدينة أليس كذلك؟

تذكّرت حينذاك بأنّني كنت قد أخبرت المعلمّين بأنّني أسكن في قامشلي.

ـ نعم، أكّدت له، وكنت أضغط على نفسي كي أظهر له نفسي بشكل طبيعي في قدر المستطاع، إنّها مدينتي حقّاً.

ـ فإذاً، واصل الرجل كلامه، لا بد وأنّني رأيتك هناك وقد كنت أُمارس في العام الماضي مهنتي في نصيبين وأمرّ غالباً على قامشلي لتناول الطعام في مطعم غربيس.

ـ من المحتمل جداً لأنّني أرتاد هذا المطعم كثيراً.

فواصل مخاطبي حديثه:

ـ ألم تلقي فيه خطاباً نارياً باللغة الكوردية بمناسبة نوروز في العام الماضي؟

ـ نعم ما تقوله صحيح، أجبته.

ـ آه، نعم بالضبط، كان الأمر في ذلك المكان حينما إلتقيت بك ولابد من الإقرار بأنّهم هتفوا لك بحماسة وأعطيتني إنطباعاً بأنّك خطيب متمرّس ومتعوّد على الحديث مع

الجمهور وكيفية وعظهم، أنا لست مخطئاً أليس كذلك؟

ـ بين حينٍ وآخر يحدث بأن أتحدّث مع الجمهور.

ـ أليس لك أخ طبيب، إنْ لم أكن مخطئاً، وله سمعة طيّبة في قامشلي؟

ـ بلى ولكن أخبرني، قلت له أخيراً وقد نفذ صبري، ما هو قصدك من كل هذه الأسئلة؟

ـ أوه، لا أقصد أي شيء، هتف مجاوباً، ولكن وجهك لم يكن غريباً علي فسمحت لنفسي بالإقتراب منك لأتأكّد. سامحني إذا أزعجتك. أودّعك وربّما إلى لقاء آخر في مطعم غربيس بقامشلي!...

وبعد أن حيّاني بالطريقة العسكرية الألمانية إستعجل بالخروج من مقطورة ـ المطعم.

لإقتناعي ووثوقي بأنّ الشرطة التركية تحبك شيئاً ضدّي فكّرت في مغادرة القطار والبحث عن وسيلة للعبور إلى سوريا بعيداً عن مرأى السلطات التركية وفي المحطّة اللاحقة هرعت نحو أحد أبواب الخروج الذي كان يقف أمامه شرطي تركي وبيده بندقية بحربة فمنعني من مغادرة العربة وأطلق في وجهي كلمة «ياساك» ـ ممنوع ـ فأسرعت نحو المخرج الآخر ورأيته محروساً من قبل شرطي آخر يماثل الأوّل كما أنّه أطلق: «ياساك» العبارة المعروفة للجندية التركية.

لم يبقَ أمامي سوى العودة إلى مقعدي وإنتظار التطوّرات التالية بقلب منقبض...

وبعد تحرّك القطار مجدّداً بدقائق عاد جورج نحوي يحيط به ضابط وجنديَين مسلّحَين. أمرني الضابط بأن أتبعهم إلى المقصورة وأنزل من هناك حقائبي ومن ثمّ ألتحق بهم، توقّف بعد ذلك أمام مقصورة البريد وأمر ساعي البريد الشاب بإخراج كل الحقائب منها.

ـ ولكن أين أضعها؟ تمتم الأخير مرتجفاً.

ـ أينما تريد، دبّر أُمورك، أجابه الضابط متذمّراً.

ـ نعم، نعم سيّدي الضابط، أطاع الساعي المسكين، سأجد لها حلاً في مكان آخر، أعتقد بأنّه من الممكن وضعها في المقصورة المجاورة.

بعد أن صفّ الضابط الجنديَين أمام باب مقصورتنا بدأ يفتّشنا فوجد عند جورج

رزمةً من الأوراق المالية صادرها على الفور ومن ثمّ قام الضابط بتفتيش جيوبي متصوّراً بأنّه ربّما سيعثر على سلاح ناري وحينما لم يجد شيئاً بدا عليه الإرتياح وإكتفى بأخذ هويّتي الشخصية السورية وكذلك بطاقتي كمذيع كوردي في راديو بيروت. وبينما يفتّش جيبي قبل تفتيش البنطلون وقع يداه على قدّاحة رائعة تعمل بالبنزين أهداها لي صديق من دمشق فتأمّلها الضابط كمن يحسدها ومن ثمّ أعادها لي. يبدو بأنّ الساعي شاهدها أيضاً حيث بعدما غادر الضابط أتاني متوسّلاً بأن أبيعها له.

ـ أنّها هديّة والهديّة لا تُباع، قلت له بصرامة وحزم.

لم يصرّ على ذلك أكثر ولكنّه لم يفقد الأمل بإمتلاكها...

كان جورج جالساً مغتاظاً وغارقاً في تفكير عميق في مقصورة البريد وأنا أقف متّكئاً تقريباً على النافذة وأتمعّن في الرواق: الجنديَين الواقفَين كالوتد والساعي البادي عليه ملامح الطفل العنيد والحالم بقدّاحتي.

وأنا أتأمّل هذه اللوحة أستعدت شيئاً فشيئاً رشدي وأحسست بخطورة الموقف ومن ثمّ تذكّرت محنة رشاد في دياربكر وبدأت أراه يمر أمامي وأرى جسده الهزيل عند عودته من قامشلي وقلت مع نفسي:

ـ لا، لا ينبغي الوصول إلى هذا الحد، لا ينبغي علي البقاء هنا، لا بد من تحرير نفسي من مخالب الغستابو التركي قبل أن يداهمني الوقت.

قاموا بضرب رشاد وتعذيبه في سجن دياربكر طوال أربعين يوماً وقد ساعده حارس كوردي تعاطف معه بقدر إمكانياته ليبقى صامداً وحيّاً على قيد الحياة حيث ناوله فتات الخبز عبر الفتحات الموجودة في أسفل باب حجرة سجنه. وفي اليوم الذي زار الوالي السجن للتفتيش إستغرب حينما سمع صوت صرخات حادّة فطلب رؤية هذا الرجل المعذّب بهذه القسوة فقدّموا إليه رشاد الذي لشدّة ولكثرة ما ضربوه إسودّ ولم يبقَ من جسده سوى الجلد والعظام.

كنت أفكّر به كثيراً في ذلك اليوم وهو يقف أمام رجال الشرطة الأتراك فكنت بالنتيجة محقّاً في خشيتي بأن يأخذوني إلى تركيا التي هجرتها رغماً عن إرادتي وعمري لم يكن قد تجاوز بعد عشر سنوات وكنت أعرف الأسباب التي تدفعهم إلى

التعامل معي بذات الطريقة...ولكن كيف الخلاص من الطوق الذي كنت أحس بتصاعد ضغطه تدريجياً حول رقبتي؟ بعد تمحيصي ودراستي لجميع الوسائل الممكنة رأيت بأنّ الحل الوحيد المعقول هو أن أرمي بنفسي عبر النافذة والقطار يسير. كنت شاباً رياضياً ومعتاداً على الصعود والنزول من التراموای حتّى وهو يسير بسرعة خارقة ولحسن الحظ كنت أنتعل في ذلك اليوم حذاءاً ذو كعب مطّاطي ناعم. قرّرت إذاً القيام برمي نفسي من القطار متشبّثاً بحافة النافذة وجسدي معلّق في الهواء ومن ثمّ الضغط بقدماي على العربة بقوّة وإلقاء جسدي إلى الوراء للوقوع على القدمين وقد أنجزت عملية الفرار في الواقع بأسرع ممّا حسبت لها من وقت حيث بعدما قرّرت على الفرار وضعت يداي خلف ظهري وتفحّصت وضعية النافذة فأحسست بأنّ للنافذة مصراعَين تنفتحان إلى اليمين وإلى اليسار وكان يكفيني سحبهما بشكل خفيف كي ينفتحا دون صعوبة تُذكَر وحينما إكتشفت ذلك إمتلأت قلبي بالفرحة والبهجة وترسّخ عزمي في الفرار أكثر من أي وقت مضى. سحبت المصراعين بهدوء وتركتهما بالكاد مفتوحين وبفضل العتمة المخيمة على المقصورة لم يكتشف أي أحد هذه العملية وبعد ذلك كان لابد من إيجاد وسيلة لتثبيت الجنديَين اللذَين يحرسان المقصورة في مكانهما لبضع ثواني فمرّ على خاطري التضحية بالقدّاحة ولتنفيذ الأمر أشّرت إلى الساعي.

ـ غيّرت رأيي، خاطبته، أنا مستعد لبيعك هذه القدّاحة.

ـ هل تمزح معي؟ أجابني وهو لا يصدّق ما سمعته أُذناه.

ـ لا، أبداً أبداً، هذه هي.

إستحوذ عليها الساعي وهو مهتاج من الفرح وطلب منّي الثمن.

ـ أراك مغرماً بهذه القدّاحة وأنّك مستعد بإعطائي السعر الذي سأُحدّده لك، قلت له، ومع ذلك لا أتمنّى إستغلالك حيث ثمّة سوريين في الصالة بجانب مقصورتنا يمكنهم تحديد السعر فإذهب إليهم وأطلب منهم قيمة قدّاحة بهكذا نوعية وسأتنازل لك عنها بالسعر الذي يشيرون إليه وربّما بأقل.

للوصول إلى الصالة كان عليه عبور الرواق، أي المرور أمام الجنديَين القائمَين بالحراسة وإخترت هذه اللحظة الحاسمة للقفز من القطار...

ولكن تعامل لاوعيي بصورة مختلفة وسلك إجراءاً آخر.

حيث أنّه بعد مرور عدّة أيّام أعلمني جورج بأنّني فتحت النافذة قبل قذف نفسي في الهواء وكان رأسي يسبق جسدي وكأنّني أغطس في مسبح أو في البحر. تدافع الجنود مذهولين من سرعتي في تنفيذ الحركة للركض ورائي وحاول أحدهم إطلاق النار عليّ عشوائياً في الظلمة ولكن الثاني ثناه عن ذلك:

ـ دعه لمصيره فقد قتله الله!

وقد وقعت على يدَيَّ ورأسي ومن ثمّ نهضت وأسرعت راكضاً بعيداً عن القطار الذي كان يسير بسرعة ٨٠ كيلومتراً في الساعة فتوقّف ومن ثمّ رجع إلى الخلف حتّى موقع سقوطي فعثروا على ساعتي التي وقعت أثناء قفزي وسهّلت مهمّة الشرطة التركية ومن هنالك إنطلق الجنود والشرطة ورجال الدرك لمطاردتي على ضوء المصابيح الكاشفة ولكن أثناء ذلك كنت قد إبتعدت عنهم بمسافة...

بدا لي حين فراري الجنوني فجأةً وكأنّني أسمع أصواتاً وخال لي رؤية أشباح للرجال قربي فإنبطحت لا إرادياً خلف الأحراش وحينما أصبح كل شيء هادئاً ومظلماً نهضت وإنطلقت في السير كالإنسان الآلي وفي أعقاب فترة زمنية قصيرة عاد ذهني إلى العمل تدريجياً ولكن كلّ شيء كان لا يزال غامضاً بالنسبة لي. «أين أتواجد؟ لماذا أتجوّل تحت المطر وفي منتصف الليل بين هذه الحقول بينما كنت نائماً بسكون وهدوء في سرير ناعم قبل وقت قليل؟» كنت لا أنقطع عن التساؤل مع نفسي.

«آه، كنت في قطار والأتراك حجزوني داخل مقصورة وقد هربت من هذا القطار قافزاً عبر النافذة ولكنّ الآن في هذه الساعة أين أنا؟ في تركيا أم في سوريا؟ وفي أيّة منطقة من إحدى هاتين الدولتين أتواجد؟».

وبينما أتساءل مع نفسي وجدت ممرّاً فتبعته وقطرات مطرٍ ربيعيٍ ناعمة ترطّب الليل دون أن تبلّلني كثيراً ولكنّها أيقظتني وساعدتني بالعودة إلى وعيي وبعد مرور دقائق لاحت لي منازل وأشجار، إقتربت من مدينة ولم أكن متأكّداً بعد بأنّني أتواجد في سوريا فأصابني الهلع ولكن لم أتوقّف عن سيري وعلى حين غرّة صرخ أحدهم:

ـ من الذي هناك؟

خاطبني بالعربية فأجبت:

ـ هذا أنا.

ـ طيّب لا بأس، يمكنك المرور.

علمت حينذاك بأنّني في سوريا والقصبة لابد وأنّها عامودة الواقعة على بُعد ثلاثين كيلومتراً من قامشلي.

حينما دخلت المدينة أكثر تأكّد لي بأنّني في عامودة، وهي مدينة كوردية صغيرة لنا فيها عدداً من الأصدقاء والمعارف ومن بينهم كنّا نفضّل عائلة شيخ موس المعروفة بصدقها ووطنيتها النزيهة وكنت أعرف منزلهم ولكن في تلك اللحظات لم أكن قد إستعدت وعيي بصورة كاملة فطلبت من أحد المارّة بأن يدلّني عليه والذي بدا محتاراً لرؤيتي في هذه الساعة المتأخّرة من الليل وسط أزقّة عامودة فسألني:

ـ ماذا حصل؟ يبدو وكأنّ أحدهم قد ضربك فبيت عمّي أمامك تماماً، هيّا لندخل بسرعة وستروي لنا مغامرتك. كانت البوّابة مغلقة والصمت يخيم على الدار فقرعنا على الباب ونادينا وأخيراً جاءنا محمّد علي وفتحها وحينما رآني مترنّحاً أدخلني بسرعة في صالة الضيوف وهيّأ سريري وحالما طرحت نفسي على الفراش حاولت جاهداً أن أشرح له ولإهله عن كل الذي حصل ولكن السقوط كان قد هزّني حيث أصبت بالحمّى وبدأت أهذي بعد حين:

ـ إبتهج الأتراك بإلقائهم القبض عليّ ولكنّني تركتهم في حسرتهم ولن يظفروا بجلدنا و صدّقوني سوف ننتهي بالإنتصار عليهم!...

دام خطابي للحظات طويلة ومن ثمّ تراخيت ونحو الصباح فزّني ضوضاء ولغط جهنّمي من النوم وأيقظني: سارع أخي وعشرة من أصدقائه الأرمن والكورد وآخرين بالدخول في الصالة التي كنت أنام فيها ليتأكّدوا من بقائي على الحياة فرموا بأنفسهم عليّ وعانقوني طويلاً وهم يبكون ولا تزال صورة أخي وصاحب المطعم الأرمني، غاربيس، تمر أمامي وهم يذرفون الدموع كالأطفال ويديرون ظهرهم لي كي يقوموا بتجفيفها سرّاً.

ـ لا داعي للبكاء فكما ترون أنّني حيّ أُرزق وبصحّة جيّدة، قلت لهم.

قفزت من السرير وأنا اتلفّظ هذه الكلمات ولكن لسوء الحظ تراخت ساقاي وسقطت

خائراً فوضعوني على السرير وبدأ أخي يلمسني مسترقاً سمعه للتأكّد بأنّني غير مصاب بكسر. كانت يداي ورأسي ملطّخة بالوحل وتؤلمني معصماي وأصابعي بشدّة ففحصني نافذ بعناية ولم يكتشف كسراً ولا إلتواءاً، كنت أُعاني من كدمات بسيطة وبالنسبة لأصدقائي فأنّ السبب في بقائي على قيد الحياة يعود إلى التدخّل الإلهي والمعجزة الربّانية وأنّ الأمر يستوجب من وجهة نظرهم تقديم أضحية فتعهّد غربيس بتقديم قربان للرب وقام في الحقيقةً بشوي خروفين للمناسبة ولكن الشمس كانت على وشك الشروق ما أجبرتنا على التفكير بالعودة إلى قامشلي وبالرغم من وقوع مجريات الحادث في الليل فقد إجتمع حشد كبير من الناس أمام منزلنا لرؤيتي ومصافحتي بالعودة سالماً.

سارع الأتراك بعد هروبي بفترة قصيرة في إعلام السلطات الفرنسية والإنكليزية بأنّ جاسوساً ألمانياً خطيراً رمى بنفسه من القطار وبأنّه يتواجد على الأراضي السورية فيجب غلق أبواب الحدود والقبض عليه قبل قيامه بتنفيذ أعمال تخريبية وبعد يومين زارني وكلاء من المخابرات الفرنسية والإنكليزية لإستجوابي حول هذا الحادث وحينما رويت لهم حقيقتي بدأوا يضحكون ووعدوني بتقديم مذكّرات إحتجاج للسلطات التركية على «خرقهم لحقوق المسافرين السوريين» كما أنّهم تعهّدوا بالسعي لإسترداد حقائبي..التي فقدتها وإلى الأبد.

أمّا رفيقي في الرحلة، جورج إزميرلي، الذي لم يكن منتمياً إلى الحركة القومية الكوردية فقد إقتادوه إلى ماردين وحبسوه ثلاثة أيّام وبعد إبتزاز ٥٠٠ ليرة سورية قاده الأتراك إلى قامشلي.

وبدأ أهالي الجزيرة وعلى طول الحدود التركية يتحدّثون عن هروبي من القطار خلال شهور طويلة.

وفي ربيع عام ١٩٤٢ قرّرت العمل في ميدان الزراعة لكي أواصل علاقاتي مع الشعب الكوردي وفي ذات الوقت للعثور على سبيل للعيش. لم تكن للأرض قيمة كبيرة في الجزيرة حتّى عام ١٩٤٠ حيث كان بإمكانك إبتياعها بأسعار معقولة جداً هذا من جهة أمّا من الجهة الثانية فأنّ دائرة الحبوب الصالحة لصناعة الخبز والتي أسّستها وقامت بإدارتها السلطات الإنكليزية ـ الفرنسية لسوريا كانت تبيع لمزارعي الرز بذوراً

مستوردة من مصر وأنّ كل من يقدر على إيجاد رؤوس الأموال والحقول القابلة للري بإمكانه المباشرة بزراعة الرز. وثمّة لبناني، م. خبّاز الذي كان مديراً لمصرف سوري ولبناني في قامشلي ورجلاً للأعمال يملك رؤوس أموال ضخمة باشر في إستغلال قسم كبير من الأراضي المحاذية للجزيرة وتمكّن من تحقيق نجاح باهر في مشروعه بحيث لقّبوه «بملك الرز في الجزيرة» وفي اليوم الذي كنت أعدّ نفسي لزراعة أراضينا الواقعة في جلّو صفّان أتاني م. الخبّاز ليقترح الإشتراك معي لإستغلالها وكان يتصوّر بأنّه قادر على إغرائي من خلال إستخدام الكادر المؤهّل والوسائل الكبرى التي يملكها ولكنّني رفضت رفضاً باتّاً لأنّني عثرت على الفلاّحين من الكلدان الكورد (لم يتكلّموا بغير اللغة الكوردية) النازحين من كوردستان تركيا.وقد وضعت تحت تصرّفهم الأرض والماء والبذور بينما هم يتحمّلون كل مايخص العمل ويتم تقسيم المحصول مناصفةً أي ٥٠ ٪ لكل طرف وقد كانت الإمتيازات التي يحصل عليها فلاّحونا فريدة في المنطقة ولا سيّما إذا عرفنا بأنّ زراعة الرز لم تتم عن طريق الغرس وإنّما يتم بذر الحبوب كحال القمح ومع ذلك فلم يكن العمل سهلاً سواءاً حفر قنوات الري أوتعلية حافّات الحقول لجعلها أحواضاً ضخمة مليئة بالماء بحيث يسبح فيها النبات على طول أسابيع.

وقد أتاح لي هذا النشاط أوقات فراغ كبيرة للتجوّل بين القرى وإجراء المناقشات السياسية والإجتماعية والدينية والأدبية سواءاً مع الفلاّحين الكورد أو مع المسؤولين الفرنسيين والإنكليز وكنت أبذل جهوداً مضنية لإقناعهم بالتفكير في القضيّة الكوردية وقد بدأ الفرنسيون والإنكليز من جميع المستويات، من أعلاها وإلى أدناها شأناً وفي كل مكان إعتباراً من عام ١٩٤٣ ينظرون بعين العطف إلى الشعب الكوردي وقد ترجموا هذه النظرة في سوريا عبر زياراتهم للقادة السياسيين والوجهاء وظهر هذا التعاطف جَلياً لا سيّما في العراق الذي إحتلّه الإنكليز منذ عام ١٩١٩ وإبتداءاً من عام ١٩٣٤ قاموا بنفي الشقيقين أحمد ومصطفى البارزاني وكذلك قسم كبير من عشيرتهما إلى البصرة وفرضوا عليهم الإقامة الجبرية بينما شتّتوا الأعضاء الآخرين للأُسرة والعشيرة في الجهات الأربع من العراق بحيث أصبحت منطقة بارزان، معقل البارزاني، خالية تماماً من السكّان وأصدر الإنكليز مرسوماً إعتبروها «منطقة محرّمة».

وفي عام ١٩٤٢ نقلوا البارزانيين من البصرة إلى السليمانية، مركز الحركة القومية الكوردية في العراق، كما كان لهيوا في تلك الفترة، هذا التنظيم السياسي الذي تم تأسيسه حديثاً في هذه المدينة، جذور وفروع عبر كل كوردستان العراقية وتجد من بين كوادره وأعضائه مزارعون وطلبة ومثقّفون وكذلك أيضاً زعماء إقطاعيين وضبّاط يخدمون في الجيش العراقي فأدّى نضالهم السرّي إلى نتيجة حيث تمكّن مصطفى بارزاني مع البعض من رجاله وبمساعدة قيادة هيوا الفرار في عام ١٩٤٣ من السليمانية والوصول إلى منطقته بارزان وفي مهلة قصيرة جداً إستطاع جمع بضع مئات من المقاتلين من عشيرته حوله ومن ثمّ باشر في شن هجمات على عدد من مراكز الشرطة المتواجدة على أطراف مسقط رأسه ولم يلاقي أي صعوبة بالسيطرة عليها والإستيلاء على أسلحتها وأصبح البارزاني قوّة رهيبة فرض على بغداد لائحة من المطالب القومية. وفي حينها كانت ألمانيا قوّة عظيمة ومظفّرة في ساحات المعارك بينما تعامت إنكلترا وأقفلت عينيها أمام الروابط الإقتصادية المعقودة بين تركيا وألمانيا وصمتت كالخرساء حينما سلّمت تركيا إلى ألمانيا مواداً ضرورية في الصناعة الحربية الألمانية.

ولم يقرّر الإنكليز توجيه إنذار إلى تركيا بعدم تجهيزها لمادّة الكروم إلى الألمان إلاّ حينما سمعوا بهزائم الجيش الألماني في الإتّحاد السوفياتي وأفريقيا الشمالية وحينما رأت إنكلترا بأن تركيا لا تعير الإنتباه إلى تحذيراتها بدأت عندئذٍ ترحّب بفكرة الثورة الكوردية وتمنع تدخّل قوّاتها منعاً باتّاً لقمعها كما تركت مهمّة مقاتلة الثوّار على عاتق بغداد وأمّا البارزاني فقد تمكّن من جهته وبمساعدة هيوا من دحر الجيش العراقي والسير نحو أربيل ما أجبر نوري السعيد، رئيس وزراء العراق في ذلك الوقت، على الإسراع في طلب وقف إطلاق النار وتوجيه دعوة للبارزاني بالمجيء إلى بغداد لعرض مطالبه بشكلٍ مباشر. وقد وصل البارزاني إلى بغداد يرافقه وفد كبير وحصل من الحكومة العراقية على الإعتراف بالحقوق الثقافية والإدارية لكوردستان العراق وفي طريق عودته مرّ بكركوك وأربيل وإحتفى به الكورد «كمنقذ لكوردستان».

ومنذ هذه اللحظة رغبت في زيارة العراق لألتقي بالبارزاني وبمسؤولي تنظيم هيوا ولكن بالرغم من تدخّل صديق، عريف إنكليزي، فأنّ السلطات البريطانية في قامشلي

رفضت منحي تأشيرة الدخول إلى العراق قطعياً ما أجبرني على البحث عن وسيلة أُخرى للوصول إليه. كان هنالك عضو متنفّذ في حزب هيوا قد تعرّفت عليه في بيروت حين دراسته للكيمياء بالجامعة الأمريكية ويمر أحياناً من الموصل إلى قامشلي لإدارة أعماله التجارية وفي إحدى زياراته أعلمته بنيّتي فحدّدنا اليوم الذي يأتيني إلى الحدود السورية ـ العراقية ومن ثمّ يقوم بإصطحابي لزيارة البارزاني. مرّت شهور عديدة وكنت على وشك فقدان كل أمل حينما أتاني أصدقاء يسكنون في قرية على الحدود العراقية ليخبروني بأنّ صديقي أمادي ينتظرني لديهم وينوي أخذي معه إلى مسؤولين كورد في العراق فإمتطيت على ظهر جافا فوراً وبعد مرور بضع ساعات وصلت عنده...

العراق ولبنان

إثنا عشر شهراً في السجون العراقية، من الموصل إلى بغداد

إضراب عن الطعام لمرّتين

الحياة اليومية في السجون العراقية

وفي مركز إعتقال العمارة

وسط السجناء الكورد والعرب والأوروبيين

وضع البارزاني والكورد في عهد الإنتداب الإنكليزي

دراسات في بيروت وإفتتاح مدرسة ليلية للكورد اللاجئين في لبنان

كنّا في شهر تمّوز من عام ١٩٤٠ وفي تلك السنة زرعت بضعة أطنان من الرز منتظراً بفارغ الصبر لحظة الحصاد ولكن حينما أخبرني صديقي بأنّه جاء من الموصل ليقودني بنفسه إلى البارزاني وقيادة هيوا لم أتردّد ثانية واحدة ولم أملك الوقت لإستشارة أخي ولا أخذ رأي أصدقائي الكورد الذين كانوا يناضلون معي بخصوص مشروع هذه «الزيارة» ولكنّني في النهاية تركت نفسي منقاداً وراء أمادي. إنطلقنا بالسير في اليوم التالي وقبل حلول الفجر دخلنا بعد وقت قصير إلى الأرض العراقية وفي أعقاب ساعتين وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام شرطيين تصوّرا بأنّنا ألمانيان قد قفزنا بالمظلّة وإختفينا على الفور وراء التلال.

ـ لقد كشفونا ولن يتأخّروا بالعودة مع عدد أكبر من الشرطة للقبض علينا، قلت لأمادي، فلنحاول الرجوع إلى سوريا قبل وصولهم إلينا.

ـ ولكن كيف، سوف لن نصل إلى الحدود وهم قد بدأوا يتعقّبون أثرنا وحالما يلاحظوننا نهرب فأنّهم سيطلقون النار علينا، ردّ صديقي، الأجدى لنا الإستمرار بالسير في طريقنا لنبدو لهم وكأنّنا من المواطنين البسطاء الساكنين في المنطقة.

ـ كنّا نستطيع تدبير أمرنا عبر النقاش معهم ولكنّنا الآن إستهلكنا كل إمكانية

للتفاهم ودياً، أجبت عليه.

فطمأنني أمادي:

ـ لنفترض بأنّهم يلقون القبض علينا فأنّهم لن يحجزوننا لفترة طويلة وكن على يقين سوف لن يتأخّر البارزاني في التدخّل والمطالبة بإطلاق سراحنا.

لم أشاطر أمادي في تفاؤله ولكنّني لم أستطع تركه والعودة لوحدي إلى سوريا. وبعد مرور ساعة أصبحنّا مطوّقين من قبل عشرة خيّالة يرتدون زيّاً موحّداً ويوجّهون بنادقهم نحونا فأمرونا بالتوقّف ورفع أيادينا ومن ثمّ بدأ الرقيب في تفتيشنا ولكنّه لم يثق بصحّة بطاقة هويّتي السورية ولا بصحّة البطاقة العراقية لصاحبي ودسّها في جيبه وفكّ كلاّبة من حزامه وشدّ يدي اليمنى بطوق منها كما شدّ اليد اليسرى لأمادي بواحدة أُخرى ومن ثمّ سار بنا مشياً على الأقدام لمسافة عشرة كيلومترات حتّى المركز ونحن محاطون بالشرطة.

ـ من أنتم؟ ماذا كنتم تفعلون في هذه المنطقة؟ من الذي تعرفوه هنا؟ ما هي أهدافكم الحقيقية؟ سألنا الرقيب.

فأجابه أمادي بأنّه عراقي، وأنّه مدرّس لمادّة الكيمياء في أعدادية الموصل وقد تعرّف علي في بيروت وقال له بأنّنا صديقين حميمين وقد جاء يبحث عنّي ليدعوني إلى زيارة للعراق أمّا بالنسبة لي فأنّ السبب في عدم حملي لجواز السفر يعود إلى العلاقات الطيّبة بين العراق وسوريا وإضافة على ذلك فأنّ زيارتي محدودة جداً في الوقت.بعد إستماع الرقيب إلينا أغلق باب المكتب على نفسه ومن ثمّ غرق في مكالمات هاتفية طالباً التعليمات من رؤسائه وكان يتحدّث بصوت عالٍ جداً بحيث نسمع كل ما يقوله فإستخلصنا من المكالمة بأنّنا سنمضي الليل في هذا المركز البوليسي وفي اليوم التالي سيقتادونا إلى شيفتيك، هذه القرية الكوردية الواقعة على ضفاف دجلة ومن هنالك إلى تلعفر، المدينة التركمانية الواقعة في جنوب غربي الموصل على بُعد ٦٠ كيلومتراً. سنقطع المرحلة الأُولى بطول ١٠٠ كيلومتر على ظهر الخيول والمرحلة الثانية بباص صغير للشرطة. بعد إنتهاء المكالمة الهاتفية أدخلنا الرقيب في فناء مركز الشرطة وباشر بحلّ القيود من أيدينا ومن ثمّ دلّنا على حاجز مظلّل ومغطّى بحصير من القش فذهبنا إليه وتمدّدنا على الأرض خائري القوى من التعب والإرهاق وكان هنالك فلاّح كوردي

من الضواحي يعمل على صيانة المركز وخدمة الشرطة ويقوم كذلك أيضاً بالإعتناء بخيولهم وحينما عرف بأنّنا كورد أشفق على مصيرنا.

ـ لا تخافوا شيئاً، لن يتجرّأوا على المسّ بكم.

وفي المساء قدّم لنا البرغل واللبن والشاي وقد دفعته طيبته إلى جلب غطائين من الصوف لقضاء ليلتنا تحت نجوم السماء وفي وقت مبكّر من اليوم التالي بعد تناولنا لوجبة طعام بسيطة وضعت الشرطة حصاناً تحت تصرّفنا وسلكنا طريق الموصل بحراسة أربعة منهم. وصلنا إلى شيفتيك في حدود الظهر ولكن لعدم وجود مركز للشرطة ولا مطعم ـ مقهى في هذه القصبة قادنا العريف إلى منزل آغا القرية الذي كان يستقبل دائماً كل مسافر يطرق بابه ويقدّم له الضيافة كما كان إبنه معروفاً بمشاعره القومية الكوردية وتلميذاً لأمادي وقد شجّعه للمجيء والبحث عنّي في سوريا ووعده حتّى بالمساعدة ومرافقتي لدى البارزاني ولكن في ذلك اليوم حينما شاهدنا برفقة حرّاسنا تظاهر وكأنّه لا يعرف أمادي وإختفى خلسةً بينما قام الخدم بتقديم الطعام إلينا والإعتناء بالخيول وبعد ذلك بقليل غادرنا إلى تلعفر التي وصلناها عند حلول الظلام فبتنا ليلتنا في أحد مكاتب المعسكر وفي اليوم التالي قادنا باص صغير للشرطة إلى الموصل وبالتحديد إلى بناية المحكمة حيث قام قاضي التحقيق وبعد إستجواب مقتضب قام الأخير بتحرير تفويض لتوقيفنا وكذلك أيضاً لتحرّي منزل رفيقي العراقي. وقد حجزوني في حجرة مغلقة بمفتاح من الجهة الخارجية في الوقت الذي غادر مفوّض قضائي وشرطيَين لتحرّي بيت صاحبي وقد مكثنا، أنا وأمادي، محجوزَين طوال نهارَين وليلَتين في مستودع المديرية العامّة لشرطة الموصل ووجدنا أنفسنا أمام مقاتلَين للبارزاني قامت القوّات العراقية بأسرهما بينما كانا يحرسان في نقطة تُعتَبر ضمن «المنطقة الكوردية» كما أخبرانا بأنّ إنكلترا بعد حصولها على وعود من تركيا بعدم تجهيز الألمان بالكروم بدأت تغيّر سياستها تجاه البارزاني وأنّها في سبيل إعداد الجيش العراقي لبدء المعركة معه.

ـ لن تُعلَن الحرب غداً، أعلمونا، ولكنّنا مقتنعون بأنّ إنكلترا ستقوم من الآن وإلى سنة بتجميع قوّات ضخمة ضدّنا.

إذا صحّت توقّعاتهم، قلت مع نفسي، فأنّ كورد العراق سيفقدون فرصة جديدة

للتمتّع بالحكم الذاتي داخل البلد ومن المحتمل أن يتردّى وضعهم وليس هنالك أدنى شك بأنّ إقامتنا في السجون العراقية ستطول...

بعد مرور ثلاثة أيّام على وصولنا إلى الموصل تم نقلنا إلى السجن المركزي للمدينة وقرّروا لنا المبيت في قاعة مخصّصة للموقوفين والمدانين ولكن قبل ذلك كان علينا قضاء ليلة أو ليلتين في مكان يعتبرونه مطهّراً أي في رواق ضيّق تطل عليه الزنزانات المخصّصة للمحكومين بالإعدام أو المعتقلين الخطرين وقد تواجد في إحداها مجنون قوي البنية كهرقل لا يكف عن الهذيان والصراخ فتارةً يحسب نفسه الملك فيصل وتارةً أُخرى كورن ويلس أو جورج الخامس وحسب الموقع الذي يختاره ينبغي تقديم الولاء والإحترام له...وحينما يستفيق من هذيانه ويعي بأنّه ليس سوى مسجوناً وراء القضبان يبدأ بالشتم والصراخ وقذف كل ما تصل إليه يداه على الحرّاس أو على السجناء الراقدين في الممر وحينما لا يجد شيئاً يقوم بقضاء حاجته ومن ثمّ يملأ يده ببرازه ويقذفه عبر كل طول الممر ولحسن الحظ بتنا في تلك الليلة بالقرب من الباب وكان أمادي وأنا الوحيدين اللذين لم تصيبنا شضاياه وقد رأينا بعد فترة وجيزة دخول ثلاثة من الحرّاس إلى زنزانته والقيام بضربه بعنف إلى أن خرّ هاوياً على أرضيتها وغفى وأمّا نحن فلم نستطع للنوم سبيلاً إلاّ في الساعات الأُولى للنهار.

كان اليوم الأوّل لنا في السجن المركزي مخصّصاً لطبع أصابعنا وأُمور «إدارية» أُخرى وقد قاموا بحجز أموالنا وقص شعرنا ومن ثمّ وضعونا داخل مهجع يبيت فيه (بالأخص) تركمان من تلعفر وضواحيها وإضطررنا النوم في الهواء الطلق فوق أغطية مفروشة على الأرض مباشرةً وغزتني منذ الليلة الأولى قملات شرسة أجبرتني على حك جلدي حتّى الصباح ومنعتني من النوم وعند شروق الشمس حينما نزعت بيجامتي وقميصي تفاجأت برؤية المئات بل الآلاف من هذه الطفيليات وهي تسير داخلها بصفوف متراصّة.

كيف تمكّنت هذه الطفيليات من غزو هذه الأماكن إلى هذا الحد؟

ألم يقوموا بإبادتها أم أنّها سقطت من السماء ليلاً؟ وإعتباراً من هذه اللحظة أصبح همّي وشغلي الأساسي في السجن المركزي للموصل هو قتل القمل حيث كنت أضعها بين أظافر إبهامي وأعصرها ويثير الصوت الناجم من السحق في نفسي نشوة لا يمكن

تصوّرها وكأنّني بفعلي هذا أسحق أعداء الشعب الكوردي، هؤلاء الأعداء الذين كانوا سبباً لآلامي ولا يزالوا وأحياناً كنت أتخيّل القيام برش رؤوس جلاّدي السجناء الذين كانوا يسوّطون بلا شفقة وبلا سبب أبرياءاً وضعتهم الصدفة والظلم الإجتماعي تحت رحمتهم وقد قتلت عدداً لا متناهياً من القمل في هذا السجن الموصوف «بالعصري» بحيث تلوّنت في النهاية إبهاماي بالأحمر...

كان القسم المخصّص للمحكومين يحتوي على معمل للنسيج وورشة للنجارة يعمل فيها بضع مئات من السجناء طوال النهار مقابل أجرة بائسة دينارَين أي (ما يعادل ٢٠ فرنكاً سويسرياً) للشهر ولكن يجب علي الإعتراف بأنّ الأُجور في تلك الفترة كانت متواضعة جدّاً في العراق إذْ حينما سألنا شرطياً عن مبلغ راتبه أجابنا متضايقاً:

ـ خمسة دنانير.

ولكنّه أضاف:

ـ راتبنا مثير للسخرية ولكن «أكو برّاني»...

ونتيجة لإصرارنا:

ـ بالإجمال كم يصل راتبك شهرياً؟

فأجابنا:

ـ بحدود خمسة عشر ديناراً...

ولهذا السبب يندفع الشرطي بصلف ووقاحة نحو الفساد ويتمكّن من الحصول على دخل مناسب بينما نرى السجين سواءاً كان حائكاً أو نجّاراً لا يملك شيئاً آخر سوى الإمتنان لربّه حينما يتلقّى دينارين كأجر شهري لعمله...

أثناء الأيّام العشرة الأُولى لسجننا لم تصلنا (لا لي ولا لأمادي) أي خبر من العالم الخارجي وأخيراً في اليوم الثاني عشر نادوا صاحبي إلى ردهة الإستقبال حيث تمكّن فيها من التحدّث مع والد زوجته لمدّة عشر دقائق وعاد منها بوجه كئيب.

ـ أخبرني والد زوجتي بأن ثمّة عدداً من المحامين الكورد في الموصل قاموا بتقديم طلب إلى السلطات المختصّة للدفاع عنّا أمام المحاكم ولكنّ الأخيرة منعتهم قطعياً من الإتّصال بنا ولهذا فأنّ الكورد المتواجدين خارج السجن قلقون بشأننا ويطرحون على

أنفسهم آلاف التساؤلات بشأن مصيرنا...

في اليوم الخامس عشر نفذ صبري وطلبت من السلطات القضائية والإدارية للموصل عن طريق مدير السجن المثول أمام المحاكم المختصّة لكي تقوم بمحاكمتي وبإدانتي في حال مخالفتي للقوانين وإلاّ فأنّني سأُطالب بعودتي فوراً إلى سوريا ولكن مسعاي لم ينجح فقرّرت حينئذٍ الإضراب عن الأكل لمدّة عشرة أيّام حيث لم أذق خلالها طعاماً وإنّما أكتفيت بشرب القليل من الماء بين حينٍ وآخر وفي اليوم العاشر لإضرابي أمرتني الإدارة بتوضيح الأسباب الموجبة لقراري:

ـ أنّ السبب واضح، قلت لهم، لقد مرّ شهر وأنا أقبع بين الحيطان الأربعة لسجنكم حيث لم يكف القمل عن قضمي وأُعاني من رداءة الأكل والمبيت كما أُعاني بسبب منعكم الأخبار عنّا ومنع الزيارة العائلية. لا يمكن من الناحية القانونية إتّهامي بسوى عبوري للحدود بلا جواز سفر، وأنّ عقوبة هذه المخالفة بموجب قوانينكم هي السجن لمدّة شهر أو دفع غرامة مقدارها خمسة دنانير، أنا أصر على المثول فوراً أمام المحكمة لأنّي لا أرى سبباً لبقائي إلى الأبد في هذا السجن.

تأثّر المدير ذو الهيكل الضخم والشعر الأشيب وذو العيون الواسعة السوداء الضاحكة والشرسة في آنٍ واحد من إنفعالي وإرادتي الصارمة فنهض من مقعده وحاول إقناعي بنبرة أبوية:

ـ إشفق على شبابك. إذا واصلت السير على هذا النهج سيكون الموت أو المرض العضال بإنتظارك حتماً. أعلم بأنّك على حق حينما تذكر نصوص القوانين العراقية بخصوص إرتكاب المخالفة في دخول بلدنا فلو أنّ الأمر يتعلّق بنا لوحدنا لقمنا بتنفيذ القوانين بحذافيرها وحيث أنّه بعد إستلامنا لدانيركم الخمسة نقوم حالاً بنقلك إلى الجانب الآخر من الحدود ولكن للأسف الشديد ثمّة يد قويّة تلوّح سيفاً قاطعاً فوق رؤوسنا وتملي علينا تصرفّنا بأدقّ تفاصيله. وأنّ قلبي يتقطّر دماً حينما أفكّر بأنّ جسدك اليانع يستصرخ الجوع وصدقّني فأنّ وضعك لا يثير أيّة ذرّة من رحمة أسياد هذا البلد الذين قرّروا نقلك إلى بغداد لدراسة حالتك عن كثب. وأذا وثقت بك فلأنّ أصلي كوردي ولأنّني أشفق عليك وستسعدني إذا قرّرت على الفور التوقّف عن إضرابك. ولا تشرب خلال يومين على الأقل سوى الحليب وسأجلب لك منه بكمّية كافية

فالمهم بالنسبة إليك هو إستعادة قواك قبل سلوك الطريق والسير نحو بغداد.

وأضاف متوسّلاً تقريباً:

ـ ستصغي إلى ما قلته لك، أليس كذلك؟

متأثّراً بصدق كلماته قرّرت إطاعته وحقّاً لم يتأخّر المدير بالوفاء بوعوده وإيصالي الحليب وبوفرة وفي صباح يوم ٢ آب أعلمنا سجّانونا بأنّنا سنستقل قطار المساء المغادر إلى بغداد وقد قاموا بوضع القيد على يدي وعلى يد أمادي بعد الظهر ومن ثمّ إقتادونا بحراسة شرطيَين مسلّحَين تحت امرة عريف. وقد كان بإنتظارنا أمام باب السجن حشد كبير من الكورد تحاول الشرطة بكل قوّتها إبعادهم على مسافة عنّا ومع ذلك فقد ملكت وقتاً كافياً لكي أتمكّن من تمييز أحمد بوطي الذي أسّس يوماً وبالإتّفاق مع ألفونسي مدرسةً كوردية في ديرك بينهم ورأيته يحاول بإحدى يديه تجفيف الدموع المنهمرة من عيونه وباليد الأُخرى يلوّح ويرسم لي إشارات التشجيع وفجأة أثارني الماضي الذي ذكّرته نظرة وحزن أحمد وإشتياقه لرؤيتي وتأثّرت لعدم تمكّني من مصافحته والتحدّث إليه وأنا مقيّد ومكبّل بالسلاسل وفقدت أعصابي بحيث بدأت أبكي كالأطفال ولكنّ الدموع التي كانت تسيل بلا توقّف على وجنتاي وتحجب الرؤية عنّي جعلتني أتباطأ في سيري شيئاً فشيئاً فأخذ الشرطي يسحب السلسلة المربوطة بقيدي بعنف شديد بحيث أصبحت على وشك السقوط ما أجبرني على العودة إلى الواقع والإنقياد وراء «سيدّي» بخطى سريعة دون أن أستدير بوجهي كرّةً أُخرى.

تكلّف عريف وشرطيّان في المحطّة لحراستنا فوضعونا في مقصورة من الدرجة الثانية والمحجوزة عادةً للشرطة وبعد إبتعاد القطار عن الموصل قدّمنا سجائر لحرّاسنا وبدأنا نتجاذب الحديث معهم ونسألهم من أين جاؤوا بالتحديد وهل زاروا بغداد يوماً وكم من الوقت سنمضي للوصول إليها وما هو الطقس الذي يسودها في هذا الوقت من الموسم؟

كنّا نتقاسم كلّ شيء بيننا وكأنّنا أصدقاء وبعد مضي لحظة معيّنة إستدار العريف نحو مرؤوسيه وخاطبهم:

ـ يبدو أنّ سجناؤنا (خوش ولد) ومن الخسارة تركهم مقيّدين بهذه الصورة وسأقوم بتحرير أياديهم فماذا تقولون؟

ـ ولماذا لا، هتف الشرطيان، إنّهم سادة وسيعرفون معنى الإحترام الذي نكنّه لهم وتقديره بشكل مضبوط...

ـ بالتأكيد، لا تخشوا شيئاً بهذا الخصوص، سارع أمادي بالرد عليهم تعقيباً.

فسارع العريف الحالم بالمكافأة في حل القيود وأعلن بأنّه مستعد لخدمتنا طوال السفرة وللتعبير عن شكره على نواياه الطيّبة أخرج أمادي من جيبه نصف دينار ودسّه في يده وهو يهمس بين أُذنيه:

ـ وستحصل على مبلغ مماثل حين الوصول إلى بغداد...

وهكذا مرّت سفرتنا بلا هموم وبعد ظهر ٣ آب وصلنا إلى محطّة بغداد وكما إتّفقنا وضعنا في جيب العريف المبلغ الباقي من «الفدية» الموعودة مقابل مجاملته وأنّ ذلك لم يمنعه من وضع الأغلال على أيدينا من جديد ليعبر بنا أرصفة المحطّة.

قادنا الباص البوليسي الصغير مباشرة إلى المديرية العامّة للشرطة ومن هنالك إلى الشعبة المخصّصة للمتّهمين في السجن المركزي ودخلنا بعد فترة وجيزة في واحد من أكبر المعتقلات في الشرق الأوسط وقد قاموا بوضعنا تحت رعاية رقيب مسؤول عن قاطع المتّهمين البالغين فأدخلنا الأخير بسرعة في أعماق ممر واسع وطويل رتّبوا فيه ثلاثة مهاجع وبضع حجرات صغيرة خُصّصت إحداها لتكون مكتباً للسجّانين. إستلم كل واحد منّا بطّانيتين من الصوف وتزاحم السجناء على بعضهم لإخلاء مكان لنا ومن ثمّ قمنا بفرش أغطيتنا على الاسمنت وتهاوينا عليها مرهقين ولاهثين من الحرارة الخانقة إلى أن غرقنا في سبات عميق وسط لامبالاة تامّة من أولئك المبعثرين على الأرض مثلنا.

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر دقّ جرس التجمّع لتوزيع الأكل اليومي المؤلّف من رغيف خبز وقصعة من التمر الطازج. وللحصول على هذا الزاد كان ينبغي علينا الإصطفاف في صفوف منظّمة وأمّا السجين الذي يخالف هذا النظام فقد كان يتلقّى وعلى الفور الصفعات وركلات الأقدام أو السياط ناهيك عن حرمانه من الزاد. إن السجناء المساكين الذين إنعدمت لديهم إمكانية الحصول على الأكل من مكان آخر كانوا مجبرين على تنفيذ تعليمات السجن بحذافيرها وأمّا الآخرين أي غير العابئين بهذا الأكل فلم يكونوا ملزمين بتنفيذها وقد قرّرنا، أنا وأمادي، السعي لإيجاد وسيلة

بديلة تغنينا عن هذا الرغيف من الخبز والتمور لكي لا نموت جوعاً وقد كان لا يزال لدينا في ذلك المساء بقايا من هدايا أُسرة أمادي التي أوصلوها إليه قبل مغادرتنا للموصل أمّا بالنسبة للأيّام القادمة فسنرى...

كنّا نتناقش، أنا وصاحبي، حول هذا الموضوع حينما تقدّم نحونا رجل ذو بشرة فاتحة ووجنات وردية وذو جبين عريض أصلع، كانت قدماه مقيّدتان بأغلال على كرة حديدية يصل وزنها إلى عدّة كيلوغرامات مربوطة بسلسلة أُخرى طولها متر تقريباً وحينما أصبح قريباً جدّاً عنّاً أقشعرّ جلد كلينا، أنا وأمادي، وفاجأنا الإكتشاف بأنّ: الرجل الذي كان أمامنا لم يكن سوى رمزي آغا، هذا الكوردي المنتمي إلى عائلة عريقة في منطقة هولير بالعراق.

ففي عام ١٩٤١ وبينما كان يدرس العلوم الإقتصادية في الجامعة الأمريكية ببيروت أصبح رمزي، هذا الكوردي القومي والمناهض المتعصّب ضدّ الإنكليز، متعاطفاً مع ألمانيا وكان ينادى من كل قلبه إنتصار هذه القوّة على إنكلترا «الغادرة» عدوة الشعوب والمسببة الوحيدة في مأساة الشعب الكوردي. وقد ترك بيروت بعد هذا التاريخ بعام وعاد إلى أهله في العراق قبل أن يذهب ليواصل دراسته في الإقتصاد في جامعة إسطنبول وأثناء ذلك زار رمزي ألمانيا فإنتمى إلى تنظيم الشبيبة الألمانية Hitler Yugend ونال فيه بسرعة على منصب قيادي وبعد ذلك بفترة وجيزة جنّدته المخابرات الألمانية وتم إنزالهم بالمظلّة جواً برفقة ضابط ألماني في ضواحي هولير بالقرب من إحدى قرى عائلته وقد إستقبلهم عثمان، خادم أبيه العجوز، بحفاوة وبينما كان رمزي ورفيقه الألماني ينامان بهدوء وسلام في بيت رشيد آغا الريفي باغتتهم القوّات الإنكليزية الرابضة في المنطقة وإقتادت رمزي والألماني وعثمان بلا تمهّل إلى بغداد وسرت شائعة بأنّ الرجال الثلاثة قد تم نقلهم بعد ذلك إلى مصر التي وضعتهم بعد إدانتهم في سجن وسط الصحراء ليتفسّخوا ولكن مشاهدتنا لرمزي بلحمه وعظمه وهو يطلق بسمته الطفولية البريئة التي ألفناها في الماضي فاجأتنا بحق وقد أفهمنا رمزي بأنّه ليس من مصلحتنا اللقاء معاً أمام عيون الحرّاس ولكن إذا إحتجنا إلى أمر فسيحاول مساعدتنا ومن ثمّ مرّ من أمامنا مع القرقعة المرعبة للأغلال وهو يمسك الكرة الحديدية بين يديه ويتنقّل بصعوبة ومشقّة...

إستطاع علي حمدي (مندوب هيوا في هذه المدينة) بعد مرور بضعة أيّام من وصولنا إلى سجن بغداد الحصول على ترخيص لمقابلتنا في يوم الخميس، يوم زيارة المعتقلين، وكانت الزيارات تتم في فناء شعبة الأحداث وقد كان شريكي في المصير يعرف جيّداً هذا المسؤول الكوردي الساكن في نفس مدينته وإلتقيناه في إحدى زوايا الفناء وسط رزم وأكياس وعلب.

ـ لقد حملت معي، خاطبنا بتواضع، بعض الأشياء الصغيرة للأكل والتدخين لبضعة أيّام وسأتّفق مع مطعم يتواجد على الأطراف لكي يبعث لكم بوجبات حارّة يومياً وفيما يخص ملابسكم الوسخة تسلّموها لي أثناء الزيارة القادمة وسنقوم بتنظيفها في المنزل وإلاّ فأنّ القمل ستصيبكم بفقر الدم لأنّني أعرف جيّداً حالة سجوننا التي عشت فيها مراراً...

كان علي حمدي في ربيع عمره، قصيراً في القامة ونحيفاً، حيث بوجهه المدوّر وسحنته السمراء وبعيونه الكستنائية الواسعة ورموشه الطويلة يعبّر عن سخاء وكرم كبيرَين وعن حياة مليئة بالخدمة والعطاء والنضال والتضحية وخلال كل إقامتنا في بغداد بذل الجهد والمال لتلبية حاجاتنا وشد عزمنا وكرّر محاولاته لتحريرنا وقد إتّصل بمصطفى البارزاني لكي يتدخّل لدى السلطات البريطانية والعراقية لتضع حداً نهائياً لأسرنا ولكن الأخيرة كانت قد أدارت ظهرها للبارزاني وكانت تتهيّأ للإنقضاض عليه فقامت بإقالة وزير الدولة المعيّن خصيصاً في عام ١٩٤٣ «لشؤون الشمال» أي لشؤون (كوردستان) والمجسّد في الشخصية الكوردية مجيد مصطفى عن وظيفته الوزارية وإستدعت بعض الموظّفين الذين تطوّعوا لخدمة البارزاني تحت تسمية «ضبّاط إرتباط» إلى بغداد ومن ثمّ قامت بإعتقالهم فأصبحت كل الوعود المتعلّقة بالميادين الإدارية والثقافية والإقتصادية في خبر كان...

كل هذا لم يثبط من عزيمة علي حمدي وإنّما واصل جهده ولجأ إلى الوزراء الكورد طالباً مساعيهم الحميدة ومن بينهم اللغوي المعروف وعالم الأنتروبولوجيا توفيق وهبي الذي كنت قد إلتقيت به في عام ١٩٣٣ لدى عرّاب العالم اللغوي والنابغ في الآداب جلادت بدرخان في دمشق.

ـ إنّ هذا الطفل الأشقر الذي رأيته في دمشق قبل عشر سنوات، خاطبه حمدي،

يتعفّن الآن في سجون العراق...

وقد مضى أكثر من شهر على وصولنا إلى بغداد حينما إستدعتني إدارة السجن فلمحت رجلاً ضخماً دائراً ظهره يتحدّث مع مدير السجن أثناء وصولي إلى الدائرة وحالما أخبره الأخير بحضوري إستدار نحوي وحدّق بعيونه الكبيرة الشبيهة بالغزال في وجهي منذهلاً.

ـ أهذا أنت يا رشدي بيك! هتفت، وأنا أركض نحوه لمصافحته.

فإنحنى رشدي بكل قامته ليأخذني بين ذراعيه ويطبع قبلةً على جبيني.

ـ إنّ توفيق وهبي هو الذي بعثني لأتابع قضيّتك، تمتم قائلاً. قل لي بصراحة ما الذي تحتاجه؟

ـ لست محتاجاً لشيئ سوى الحرّية، أجبته. إنْ كنت قادراً فساعدني للخروج من هذا الجحيم والعودة إلى أهلي.

ـ فيما يتعلّق بإطلاق سراحك، يقول توفيق وهبي بأنّه من الأجدى أن لا تفكّر به حالياً وتتسلّح بالصبر. في الواقع، أنّ للإنكليز هذه الأيّام منافسون أمريكان يسعون إلى ترضية ومداراة العرب كي يحتفظوا بهم في فلكهم وينظرون إلى أي نشاط كوردي بعين سلبية تثير صواعق غضب حكومة صاحبة الجلالة. أنّ الإنكليز مقتنعون بأنّك مع صاحبك منتمون وحتّى النخاع للحركة القومية الكوردية وعازمون على الإحتفاظ بكم كسجناء في العراق.

ـ إنْ كان الأمر كذلك، أجبت عليه، فليمنحونا حق المسجون السياسي ولينقلونا إلى مركز بريطاني للحجز يكون بإمكاننا التمتّع فيه على الأقل بمجال أوسع من الحرّية!

ومن ثمّ إستطرد رشدي بيك بصوته الرخيم والحازم قائلاً:

ـ أنّ توفيق وهبي ينصحك بعدم الإستعجال في الأُمور. فحدّثني الآن عن الخدمات التي بإمكاني أداءَها لك هنا.

ـ إستخدم سلطتك أو بالأحرى سلطة توفيق وهبي لكي ينقلوني إلى مستشفى السجن لأنّني حسب إعتقادي مصاب بمرض الملاريا.

فوافق رشدي بك:

ـ أنّ هذا الأمر بإمكاني القيام به حالاً لأنّ مدير المستشفى هو أحد أصدقائي وعلاوةً على ذلك فسأبعث إليك بالأكل في كل مساء سواءاً في المستشفى أو في بناية المعتقلين والآن عد إلى مهجعك وستسمع بأخباري.

ونُقلت في نفس ذلك اليوم إلى مستشفى السجن الذي تمكّنت الوصول إليه عبر المرور بجناح المدانين الذين كانوا بغالبيتهم مقيّدين بالسلاسل والكرات الحديدية المتنوّعة بالسمك والضخامة تبعاً لنوعية العقوبات التي أصدرتها المحاكم بحقّهم.

كان سجن بغداد يحتوي على معامل للنسيج وورشات للنجارة والحياكة وغيرها التي كانت أكثر عدداً وأكبر حجماً بحيث لا يمكن مقارنتها مع تلك الموجودة في الموصل. إنّ منظر الأزياء الموحّدة المقلّمة بالأزرق والأبيض والسلاسل والكرات الحديدية المربوطة بأقدامهم وحركة السجناء الدائبة أمام المكائن وصراخ السجّانين العمالقة بسحنتهم الغامقة وشفاههم المتدلّية قادتني إلى التصوّر بأنّي أعيش حلماً فظيعاً أو أنّني أتواجد على كوكب آخر غير الأرض أو ربّما في أعماق الجحيم...

ولكن بعد ذلك بفترة تغيّر الديكور فحينما رأيت الأسرَّة النظيفة للمستشفى والحديقة المزهرة التي أستطيع التنزّه فيها أطلقت صرخة الإنفراج والفرح وحاولت نسيان كابوسي المفزع. فخصني مدير المستشفى في اليوم التالي بعناية وإنتباه وأكّد إصابتي بالملاريا التي خشيتها فسارع بوصف إبر الكينين لحقني بها ومن جهة رشدي بيك فأنّه لم ينساني بل أنّ أخاه كان يجلب لي في ظهر كلّ يوم صحناً يحتوي على طعام متنوّع ولذيذ وقد كان بإستطاعته الدخول إلى المستشفى بحرّية والحديث معي بدون أيّة رقابة، ورغم تقديري لفرصة تواجدي في المستشفى وقيامهم بمعالجتي وتدليلي فيه فلم أكن سعيداً أبداً بل بالعكس كنت أُكابد لعدم تمكّني من جلب صديقي أمادي الذي بقي وحيداً في جناح المعتقلين إليه وعلاوةً على هذا فقد كان لمستشفى السجن سلبيات أُخرى يعود سببها إلى كونه تابعاً لمستشفى عام كبير فقد كان يحتوي أيضاً على قسم للأمراض العقلية الواقع وسط الحديقة المطلّة على المستشفى وفيه عدد كبير من مختلف أنواع المرضى العقليين ودرجاتهم ومن ضمن السلبيات الأُخرى أذكر الحر القائض لبغداد في الصيف وترك النوافذ المشبّكة بالقضبان الحديدية السميكة مفتوحة أثناء الليل وكذلك أيضاً الصعوبة في الرقود ليلاً بسبب صرخات وعويل وصخب المرضى...

ولكن بالرغم من تواجدي بجوار صخب وضجيج المرضى العقليين فقد كنت أتمنّى أن تطول إقامتي في المستشفى وبالطبع لو أنّهم خيّروني وقالوا لي: هيّء نفسك للمغادرة إلى سوريا! لما إنتظرت نهاية معالجتي وشفائي. وذات يوم أصدر وزير الداخلية أمراً بإرجاعي إلى السجن فعدت من جديد إلى أمادي وإلى الجو الحزين للساحة المفروشة بالإسفلت الأسود المنصهر والمتراخي بفعل الحرارة ولم يكن المنظر الخارجي المشؤوم والقذر لهذا السجن لوحده هو الذي يحزننا فحسب وإنّما نصطدم يومياً بمشاهد الظلم والجور حيث كنّا نرى معاناة رمزي رشيد آغا مع سلاسله وكرته الحديدية وتهديد الموت المسلّط على رأسه في كل لحظة ونرى عثمان، الخادم في مزرعته، الذي إرتضى الخدمة في دار ضيافتهم وإعداد القهوة لإعاشة نفسه وكنّا نتساءل: كيف يمكن وضع شخص لسنوات عديدة في السجن وقد تجاوز عمره السبعين سنة وتلخّصت جريمته الوحيدة في إستقبال ابن الآغا في البيت الريفي لهذا الأخير؟

إنّ هذا التصرّف الفظ واللا إنساني دفع بعثمان لأن يكون وطنياً واعياً وثائراً فحينما كنّا نسأله:

ـ ماذا أنت يا عم عثمان؟

كان يرد علينا وهو يشد بقبضته ويمد بذراعه نحو الأمام:

ـ أنا كوردي (ئي من كوردم)!

وفي كل مرّة نذهب إليه لنشرب من قهوته اللذيذة كنّا نستمتع ونتقصّد بطرح هذا السؤال عليه لكي نسمعه وهو يرد علينا بحماسة وقوّة فائضتين:

ـ أنا كوردي (ئي من كوردم)!

وقد كفتنا أيّام معدودات لتعليم هذا الفلاّح الأُمّي العجوز القراءة والكتابة بالكوردية...

وتأثرنا لحال سجناء آخرين من حولنا حيث لا زلت أتذكّر ذلك الفلاّح العربي من جنوب العراق المعتقل في هذا السجن منذ خمسة عشر عاماً دون محاكمة والذي كان ابناً لرجل ثري وقد إتّهموه باطلاً بإغتياله لوالده الذي قتله عم المعتقل فأوقفوه بينما لم يتجاوز عمره خمسة عشر عاماً وقد ضُرب بوحشية يومياً إلى أن إختلّ عقله وكان

يمضي وقته وهو ينشد مقابل بضعة فلوس عراقية الأُغنية الوحيدة التي يعرفها ويرقص عليها مطقطقاً بأصابعه:

ـ «آه! أيّها الثعلب الماكر، هكذا تبدأ أُغنيته، لماذا تأكل فرخات دجاجتي؟ دعها تكبر. سنهديها لرجال الشرطة. أُولئك سيأكلوها مع الرز ويتركوننا نعيش بسلام...»

كما أتذكّر أيضاً ذلك المرّض الكوردي الأعرج الذي كان يذهب إلى أبعد المناطق والزوايا في البلد الذي لم يضع طبيب مرخّص قدمه يوماً على أرضه لمعالجة المرضى من خلال زرقهم بالإبر وإعطائهم المشروبات والحبوب وتضميد جراحهم مقابل مبلغ رمزي وقد تمكّن من تخفيف آلام ومعاناة آلاف المزارعين والمزارعات وأتاح لهم فرصة مواصلة أعمالهم الشاقة والمعاناة في الحقول ولكن يبدو بأنّ عمله لم يرضي طبيب «رسمي» فوشى به وأمر بتوقيفه ومن ثمّ نقلوا المرّض الكوردي من الموصل إلى بغداد وكان قد أمضى عشرة شهور وهو يتعفّن في هذا المعتقل وقد ترك زوجته وأطفاله الستّة في «الشمال!» وراءه وهم ينتظرون أن يحمل لهم والدهم شيئاً يشترون به ما يمكن إخماد نار جوعهم...

مضت ثلاثة شهور ونحن، أمادي وأنا، لا نزال قابعين وراء القضبان في بغداد حيث أنّ الثواني والدقائق والساعات التي كنّا نحسبها تمر ثقيلة، ممزّقة وخانقة فكل ما كنّا نطالب به هو مثولنا أمام محكمة ونقلنا إلى سجن مخصّص للمعتقلين السياسيين وللوصول إلى هذا المبتغى بدأنا نقصف مدير السجن وكذلك أيضاً وزير الداخلية ورئيس الوزراء، نوري السعيد، بالعرائض كما أنّ أصدقاءَنا في الخارج لم يبقوا مكتوفي الأيدي وإنّما دفعوا الشخصيّات المؤثّرة للتدخّل وقد كان لمسعاهم تأثير على المسؤولين حيث بعد ذلك بخمسة عشر يوماً أعلمتنا إدارة السجن بأنّه سيتم نقلنا إلى مكان آخر.

وخلال أيّام وأيّام كنّا أنا وأمادي نعيش على جذوة الجمر ونتحرّق من الفضول ونفاذ الصبر وأخيراً ذات يوم خرجنا من هذا السجن الكئيب وكانت الوجهة: مركز إعتقال العمارة الواقع في الجنوب الشرقي لبغداد وكنّا قد سمعنا به وعرفنا بأن ثمّة مناضلين كورد بارزين معتقلون فيه وبما أنّه لم يتقرّر إطلاق سراحنا فقد كنّا نتمنّى الوصول إليه بأسرع وقت ممكن...

وكم كانت خيبتنا كبيرة حينما وجدنا أنفسنا محتجزين في إحدى زنزانات المديرية العامّة لشرطة بغداد وأخذنا نواسي أنفسنا بأي شكل كان ونقول بأنّ إقامتنا لا يعدو في كونها بأكثر من محطّة مؤقّتة على طريق العمارة ولكن توقّفنا داخل هذه الحجرة الضيّقة والنتنة التي وضعوا فيها صفيحة صَدِئة لقضاء حاجتنا فيها إستمر لعدّة أسابيع وبعكس السجن المركزي فقد حُرِّمنا هنا من النزهات والزيارات ومعظم المعتقلين الذين كدّسهم حرّاس السجن أمامنا في الساحة كانوا من الكورد الإيرانيين الذين قدِموا بلا جواز سفر للعمل في العراق وقد كانت الشرطة تطاردهم بوحشية وتحبسهم خلال عدّة شهور قبل أن تطردهم إلى إيران وبالكاد يصلون إليها يستعجلون بإيجاد وسيلة للعودة من جديد إلى العراق لكسب رزقهم فيه وكانت قلوبنا تدمّى ونحن نرى إلى أيّة درجة يضربهم حرّاس السجن ويسبّهم ويهينهم:

ـ أيّها الكورد القذرون! ماذا جئتم تفعلون في بلدنا؟ لماذا لا يوفّر الشاه العمل لكم؟ جئتم لتسلبوا مصدر رزقنا، إبقوا عندكم ولا تعودوا إلينا مرّةً أُخرى لإزعاجنا...

ـ ولكن لا خيار لدينا، يردّ عليهم كورد إيران البائسين، لقد قام الشاه بمصادرة أرضنا ولعدم قيامه ببناء أي معمل ولا أي مصنع في منطقتنا فنحن مُجبَرون على أداء أي نوع من العمل لنتمكّن من كسب رزقنا ورزق أطفالنا ونقوم في العراق بأداء أكثر الأعمال مشقّة وأصعبها، تلك الأعمال التي ينفر منها العراقيّون ويستنكفون القيام بها، فأتركونا على حالنا كي نعيش ونفيد بلدكم!

إنّ منطق حججهم كانت تثير سخط رجال الشرطة إلى حد ينهمر على رؤوس الكورد مطر غزير من ضربات السياط والعصي وتهطل عليهم زخّات أشد من ركلات البساطيل الضخمة المدبّبة. كانت هذه المعاناة اليومية والوحشية المستعملة ضدّهم تقلقنا وتثيرنا بحيث طلبنا من مديرية الشرطة إخراجنا من هذا المكان وإلاّ فأنّنا نقرّر لإضراب عن الطعام ولعدم وجود أي صدى لطلبنا فقد قرّرنا المباشرة بما عزمنا عليه ولكن بعد مرور بضعة أيّام يبدو بأنّ فعلنا الإحتجاجي قد أقلق أصدِقاءَنا أكثر ممّا إقلق السلطات فحصل رشدي بيك على رخصة لرؤيتنا.

ـ لا ينبغي المخاطرة بحياتكم، قال لنا بصوت أبوي، فالوزراء الكورد يتفاوضون في شأن إطلاق سراحكم ولو تعلّق الأمر بالحكومة العراقية فقط لتمّت تسوية المشكلة منذ

البداية ولكن الإنكليز يقفون وراءها وهم، كما يتردّد، يستعدّون لتوجيه ضربة ضدّ الكورد وأنّ هؤلاء لا يهمّهم ولا يتأثّرون مطلقاً بإضرابكم عن الطعام فلا داعي إذاً للقيام بإضعاف أنفسكم وإصابتكم بعاهات لا يُحمَد عقباها...

ـ نعم، ولكن لو تركناهم يفعلوا ما يشاؤون فأنّهم سيحتجزوننا وإلى الأبد وسيقتلوننا بنار هادئة فلينقلونا إلى مكان آخر كما وعدونا وإلاّ فإنّنا سنستمر بالإضراب حتّى الموت...

وفي اليوم العاشر للإضراب إستدعانا المدير العام إلى مكتبه الذي إقتادونا إليه بالبيجامة وباللحية الكثّة والسحنة الشاحبة والخدود المجوّفة وقد كان الرجل في الخمسين من عمره وذو بشرة سمراء وشفاه غليظة جداً فصرخ في وجهنا باللهجة العراقية:

ـ لماذا تصرّون على الإضراب عن الأكل؟

ـ لأنّنا نريد إخراجنا من هنا ولكي تقوموا بتسوية وضعنا على أساس قانوني أخيراً، ردّ عليه أمادي بشجاعة.

ـ أن نخرجكما من هنا؟ قفز الموظّف من مقعده، وأين تريدان أن أضعكم، في فندق سميرأميس ربّما؟

ومن ثمّ صاح بأعلى صوته:

ـ يجّب عليكما البقاء في هذه الزنزانة وستبقيان لأنّكم جواسيس.

ـ أيّة جاسوسية تقصد؟ سألته.

ـ أنتما جواسيس للبارزاني.

ـ نحن كورديان ومثل أي كوردي يحب شعبه ويعمل لسعادته فنحن حقّاً وبكل بساطة نصيران ومؤيّدان للبارزاني، ردّ عليه أمادي. وككورد لا نجد سبباً لقيام الحكومة بتركنا نتعفّن في غياهب السجون لأنّ كل ما يطالب به البارزاني لا يتعدّى في كونه بعضاً من الحقوق الثقافية والإدارية التي تعهّدت بغداد بدراسة خصوصيّتنا بجدّية وإهتمام كبيرين.

حينما إقتنع المدير العام بأنّه يفتقر إلى المنطق والحجّة هاج وماج وقرع الجرس

لإعادتنا إلى الزنزانة.

ـ أعيدوهما إلى زنزانتهم وأتركوهما يموتان جوعاً، هؤلاء الخارجين عن القانون، أصدر أمره لضابط الشرطة.

فظهر رجال شرطة آخرون مهلّلين وهم يرتدون الزي القتالي ودفعوا بنا حتّى زنزانتنا ولم ينس الضابط بأن يضع القصعة وسط حجرتنا لحثّنا على التوقّف عن الإضراب.

ـ كلّما يزداد إصراركم وعنادكم ستزداد قوّة صواعق الإدارة ضدّكم وقد سمعتما حديث المدير جيّداً فإذا أردتما بأن لا تُسجنا بشكل إنفرادي في زنزانة مظلمة تحت الأرض لا تبصران منها بصيصاً من النور ينبغي عليكما الإسراع في إنهاء هذا الفعل الصبياني، هدّدنا.

لم نتنازل أمام تهديداتهم بل بالعكس إزددنا إصراراً وعزماً وفي اليوم التالي ويا للمعجزة قام الضابط بإستقبالنا بوجه منشرح وعيون باسمة.

ـ ثمّة خبر سعيد نويت أن أُبشّركما به، ينبغي عليكما الإستعداد للخروج من هنا!

ـ هل تطلقون سراحنا؟

ـ ليس بالضبط ولكنّ الأمر هذه المرّة جدّي حيث ستذهبان إلى مدينة العمارة بشكل مباشر. أنّها بعيدة ولكن سوف تجدانها فسيحة جداً، أنّكما راضيان أليس كذلك؟

ـ إذا كان الأمر صحيحاً فنعم. متى سنغادر؟

ـ بعد خمسة أيّام بالضبط. وإذا باشرتما في تناول الأكل حالاً فمن الآن وإلى يوم المغادرة ستستعيدان القوّة والعافية لتحمّل السفر.

وافقنا على إقتراح الضابط الذي لم يتأخّر في إرسال حليب الجاموس إلينا.

وحانت بعد أيّام ساعة المغادرة إلى العمارة فتركنا، أنا وأمادي، الزنزانة بفرح وبهجة وفي ممر السجن سارع الحرّاس في شد أيادينا بقيود مربوطة من جديد بسلسلة طويلة يمسك بطرفها شرطي وقد عبرنا على هذا الشكل مدينة بغداد مرتدين ثياب السجناء برفقة نصف دزّينة من رجال الشرطة وتحت أنظار المارّة. بعد المرور بمحطّات توقّف عديدة في مراكز الشرطة والتي خلافاً للعادة لم يستغرق وقتاً طويلاً وصلنا أخيراً إلى محطّة البصرة ودائماً سيراً على الأقدام ومن هناك صعد ثلاثة فقط

من رجال الشرطة في القطار لحراستنا حتّى البصرة ومن هناك واصلنا رحلتنا بباص صغير للشرطة حتّى العمارة وتحت حراسة مشدّدة.

السفرة كشفت لنا المنطقة الصحراوية في العراق وجرت بلا مضايقات وقد حلّ الحرّاس قيودنا منذ تحرّك القطار من بغداد والقسم الثاني من الرحلة عبر غابات النخيل لم يكن أقل لطافةً وراحةً حيث توقّفت سيّارتنا في المدن الصغيرة وتمكّنا من تذوّق مختلف أنواع التمور...

وصلنا إلى معسكر العمارة في وقت متأخّر من الليل حيث ذهب الحارس لإيقاظ نائب الضابط الذي سجّل أسماءَنا وقيّد درجتنا التعليمية ومن ثمّ أوكل أمرنا لعناية شرطي. كان مرقدنا بمثابة عنبر زجاج نافذته مكسور وأسرّته فارغة ولكي نحمي أنفسنا من برد الشتاء لأنّ ليالي تشرين الأوّل كانت بالأحرى باردة فقد قرّرنا، أنا وأمادي، العثور على الأسرّة المتواجدة في الزوايا المحمية بشكل أكبر وفي الليلة الأُولى لتواجدنا في معسكر العمارة الذي حلمنا به وأعلنّا الإضراب عن الطعام من أجله عانينا كثيراً لإدراك النوم على الفرش المحشي بالقش والمغلّف بأغطية بالية تنبعث منها روائح كريهة...

عند إستيقاظنا من النوم حاولنا التعرّف عن كثب على مسكننا الجديد وقد لاحظنا بأنّ المعسكر بمثابة حقل شاسع جداً يقع وسط الريف في الجهة الشرقية من العمارة وقد تناثرت عبره مخيّمات بمختلف الأحجام ومحاط بعدّة صفوف من الأسلاك الشائكة يتموضع في كل زاوية منها شرطي مسلّح لمهمّة الحراسة وكان لبعض تلك المخيّمات مراقد نوم تحوي على أكثر من خمسين سريراً وأخرى مؤلّفة من غرف تحوي على سريرين أو ثلاثة ومخيّمات أُخرى أيضاً مكوّنة من غرف فردية وفي وسط الحقل بُني بما يشبه حمّام تركي يشرف عليه واحد من المعتقلين وقد كان بمقدورنا دخوله بعد دفعنا لثمن «تذكرة الدخول» والإنتظار إلى أن يأتي دورنا.

وقد صنّفوا معتقلي العمارة إلى ثلاثة أنواع تبعاً للمركز الإجتماعي والدرجة التعليمية حيث أنّ الصنف الأوّل لم يكن يتألّف عن سوى باشا واحد وجنرال كان قد شارك في عام ١٩٤١ بالحرب التي قادها رشيد عالي الكيلاني ضدّ الإنكليز وأعضاء الصنف الثاني كانوا قليلين في العدد ويتألّف من الجامعيين والطلبة والضبّاط والأطبّاء

والأساتذة وغيرهم أمّا الصنف الثالث فقد كان يشمل سجناء ينتمي بعضهم إلى طبقة البورجوازية الصغيرة والباقي من عامّة الشعب (مزارعون وعمّال وتجّار صغار ومستخدمون).

قبل وصولنا بقليل كان معسكر العمارة يفيض بسجناء يُشتبه في إنتمائهم إلى النازية أو تعاطفهم مع ألمانيا الهتلرية ولكن حينما أصبحت ألمانيا على وشك الإندحار أطلق الإنكليز سراحهم تدريجياً ليحل محلّهم كورد قوميون ووطنيون ديموقراطيون وقد إلتقينا من بين كورد العمارة بالنقيب ميرحاج (في عام ١٩٤٣ عيّنته حكومة بغداد ليكون ضابطاً للإرتباط لدى البارزاني) وبالحاكم الأسبق عوني يوسف (الذي رفض إدانة كورد تركيا الداخلين إلى العراق بدون جواز سفر) وبالسيّد عبدالغني من زاخو (جريمته الوحيدة كانت إيوائه لعوني يوسف حينما كان قاضياً في هذه المدينة) وكذلك أيضاً بعبدالله الشرفاني، رئيس عشيرة شرفان في شمال العراق، هذا الإنسان المغامر والمثير للبلابل والإضطرابات كما إلتقينا من بين السجناء العرب بقوميين معروفين كصدّيق شنشل، مفكّر القومية الإشتراكية العربية، الذي كان يحلم بعالم عربي موحّد يمتد من الخليج «العربي» إلى المحيط الأطلسي والذي قادته مشاعره المناهضة للإنكليز إلى تمنّي إنتصار ألمانيا النازية وبالرغم من ثقافته وإقامته الطويلة في أوروبا فقد كان صدّيق شنشل قصيراً في النظر وشوفينياً حيث أنّه لم يُظهر أي نوع من التسامح تجاه الكورد بل نظر إليهم «كمثيري إضطرابات لا أكثر ولا أقل ويعملون من أجل تحقيق مصالح الإنكليز».

ـ حالما يرحل الإنكليز، كان يردّد غالباً، من السهولة تعريب الكورد...

وبالرغم من إدارة معسكر العمارة من قبل الإنكليز وتخصيصه ليكون سجناً للمعتقلين السياسيين فقد تميّز هذا المعتقل كمكان للحجز لا يتشابه في أي شيء مع المعتقلات النازية ولا مع المعتقلات التي أنشأتها الأنظمة الدكتاتورية للدول العربية الحائزة على إستقلالها لأنّنا كنّا نتمتّع بحرّية مطلقة للقاء بعضنا البعض والتحدّث فيما بيننا والقراءة والكتابة وشراء الصحف كما كان يحق للسجناء المتزوّجين إستقبال زوجاتهم مرّة واحدة في الشهر في بناية خاصّة بعيدة عن المخيّمات الأُخرى ولكن القليلون منهم جداً كان يستخدم هذا الحق كما أنّ معتقلي العمارة كانوا يستلمون

راتباً أُسبوعياً والمبلغ يتم تحديده بالطبع تبعاً للصنف الذي ينتمي إليه فالمجموعة الأولى كانت تستلم ديناراً (عشر فرنكات سويسرية) في اليوم والثانية تستلم نصف دينار والثالثة ٢٥٠ فلساً في اليوم وبالإضافة إلى الراتب فكان لكل سجين الحق بعلبة سجائر يومياً.

لم نستلم أنا وأمادي خلال أُسبوعين غير ٢٥٠ فلساً في اليوم رغم تصنيفنا بالمجموعة الثانية فصرخ ميرحاج علناً بالفضيحة ونصحنا بإرسال برقية إلى الوزير الكوردي توفيق وهبي على الفور فذهبت بنفسي إلى مدير المعسكر وأودعت لديه نص البرقية قبل العودة إلى غرفة ميرحاج ولم تمضِ أكثر من عشر دقائق حينما طرق شرطي على الباب ودخل إلى الغرفة مؤدّياً ببسطاله التحيّة العسكرية وأعلن رسمياً:

ـ سيّدي، لقد جاء الأمر من بغداد فمن الآن وصاعداً أصبحتم على قائمة الدرجة الثانية.

ولم يكد الشرطي يخرج الغرفة فإذا بميرحاج وأنا لا نتمكّن على حبس ضحكنا لأن البرقية لعبت فعلها دون أن تصل إلى بغداد وهكذا لم يعد بإمكان آمر المعسكر سرقتنا وبدأنا نعيش ببحبوحة حيث أنّ راتب الصنف الثاني كان إعتيادياً يكفي لإقتناء جميع حاجياتنا وقد أجازت إدارة السجن دخول بعض الخدم إلى المعسكر للقيام بمهمّة التسوّق مقابل ٢٥ فلساً حيث كنّا نسلّمهم المبلغ وقائمة الشراء فيبحثون عنها في المدينة وحال عودتهم نبدأ بعملنا وكنّا قد إخترنا مخيّم سيّد عبدالغني وعوني يوسف للطبخ وكان عوني يوسف هو الذي يطبخ بينما إقتصر عملي على غسل المواعين لأنّني في ذلك الزمن لم أكن ماهراً بغير إعداد القهوة التركية..

وقد ساهمت الرياضة والحمّام والحسابات مع الخدم والطبخ وغسل المواعين والمطالعة والزيارات ـ الداخلية بين المعتقلين في المعسكر ـ والمناقشات في إحياء حياتنا اليومية في العمارة وكانت الأيّام تمضي بسرعة معقولة حيث أنّه خلال كل فترة إعتقالي فيه وقعت حادثتان فقط أزعجت سلطات المعسكر وقد تعلّقت أوّلها بالشيعة التوّاقين إلى لطم أنفسهم في المناسبة التأبينية أثناء الأيّام العشرة الأولى من عاشوراء محرّم.

وبالرغم من تحريم هذه الشعائر الدينية ومعاقبتها من قبل السلطات العراقية (التي كانت ترغبها وفي ذات المناسبة تعتبرها فرصة لتأجيج مشاعر الحقد بين الشيعة

والسنّة) منذ الثلاثينات فأنّها كانت مستمرّة في الخفاء. ولتفادي وقوع أي حادث مؤسف في المعسكر دخل نائب المدير بمعية عشرة من رجال الشرطة بزيّهم القتالي إلى عنبر المعتقلين الشيعة في المساء السابق لعاشوراء لمصادرة أي سلاح حادّ أو مؤذّي للجسد ولكن بالرغم من كل الإحتياطات المأخوذة فقد جرت عملية اللطم والجلد الذاتي وحملوا في اليوم التالي العديد من الشيعة إلى عيادة المعسكر، أمّا البلبلة الثانية فأنّها نجمت عن هروب مقاوم فلسطيني يعارض إنشاء الدولة العبرية على أرض فلسطين حيث أنّه بعد تيقّنه ووثوقه من أنّ الإنكليز سيعدمونه مثلما فعلوا مع الكثيرين من رفاقه في المقاومة تمكّن من مخادعة الشرطة الذين إقتادوه إلى بغداد لمحاكمته والفرار إلى منطقة مستوية لا يعرفها جيّداً فقامت الشرطة بمطاردة الفلسطيني وإمساكه من جديد ومن ثمّ الإسراع في قتله ببرودة ووحشية وكنتيجة للحادث نظّم بعض القوميين العرب في المعسكر مظاهرة أمام مكتب آمر المعسكر وندّدوا بإنكلترا والصهيونية ممّا دفع الأخير إلى إطلاق عنان شرطته لمطاردتهم وتشتيتهم وإجبارهم في النهاية على العودة إلى مخيّماتهم.

وقد تمكّنت أثناء إقامتي في معسكر العمارة من مشاهدة الإقطاع في جنوب العراق بوجهه الحقيقي حيث رأيت بأُم عيني طوال كل شهر تشرين الثاني ومنذ الفجر حتّى الليل مرور جِمال محمّلة بالحبوب عبر الطريق الواقع على مسافة بضع مئات من الأمتار عنّا بإتّجاه مدينة العمارة ممّا سمح لنا بتمييز الأقدام العارية والأسمال البالية للجمّالين وقد قيل لنا بأنّ كل ما رأيناه تعود ملكيته لشيخ عربي واحد والمالك لثلاثين قرية تقريباً وآلاف الجمال والذي كان يتعامل في ذات الوقت مع الفلاّحين البؤساء وكأنّهم عبيد حقيقيين له...

لم يكن الكورد والعرب هم المقيمين الوحيدين في معسكر العمارة وإنّما حطّ فيه أيضاً مهندسون بلغار ومجريون حيث أنّه بعد العمل في إيران حاولوا الهروب في عام ١٩٤١ إلى تركيا ومن ثمّ العبور إلى بلدانهم لتفادي وقوعهم بيد الإنكليز القادمين من الجنوب والسوفيات من الشمال ولكنّ الإنكليز ألقوا القبض عليهم وحبسوهم في العمارة ولسوء حظ أحد المهندسين المجريين فقد وقع بيد الجنود الإيرانيين الهاربين من أرض المعركة والذين عند رؤيتهم بأنّ صفّاً من أسنانه مصنوع من الذهب سارعوا في

قلعها واحدة بعد الأُخرى وقاموا بنهب المعدن الثمين منها ولا زلت أتذكّر المهندس المجري الذي كان يروي لنا فاجعته بفم أقتلعت معظم أسنانه ولكن بالرغم من ذكرياته السيّئة فقد إحتفظ بكل مهارته وعشقه للعمل وقد تمكّن من الحصول على أغصان، لا يعلم غير الله كيف، لكي يصنع منها السلال والصناديق والحقائب والكراسي والمقاعد ومن ثمّ يقوم ببيعها سواءاً للمعتقلين أو خارج المعسكر بواسطة الخدم.

وقد توطدت علاقتي أيضاً مع سجينين وكانت لحيتيهما وشواربهما المهيبة تفرض الإحترام. كان أوّلهما عراقي من أصل لبناني ذو عينين زرقاويتين وثانيهما آشوري عراقي أسمر اللون وذو لحية وشاربين وشعر فحمي.

وفي حدود نهاية شهر شباط تم نقل ميرحاج إلى سجن القوّات المتحرّكة في بغداد وقد رتّبَ الأُمور بحيث أتمكّن من الحصول على غرفته وبعد مرور أيّام قلائل كتب لي يعلمني بأن ثمّة مساعي جدّية تُبذل لإطلاق سراحي وبأنّ الأعضاء البرلمانيين الكورد الستّة عشر للجمعية الوطنية السورية قاموا بمفاتحة نوري السعيد مباشرة وطالبوه بأن يضع حدّاً نهائياً لأسري ولم يصل الأمر الصادر بنقلي إلى بغداد إلاّ في شهر آيار فأمضيت ليلة جديدة في البصرة داخل أحد مكاتب الشرطة فوق منضدة وبلا أغطية وقد إرتعشت من البرد حتّى الصباح بحيث لم أكن قادراً على غلق أجفاني للحظة وفي اليوم التالي نحو المساء تم إخراج عشرة تقريباً من سجناء الحق العام من زنزاناتهم وبدأ الحرّاس يضعون القيود على أيديهم وحينما حاولوا ربط قيدي مع قيود أحدهم أعلنت إحتجاجي بقوّة ورفضت ترك مركز الشرطة على هذا المنوال فقام رجال الشرطة ونوّاب الضبّاط بمناداة النقيب الذي أخذ يزعق ويصيح عالياً:

ـ إمّا تقبل بربط قيدك مع الآخرين وإلاّ فسأجبرك على المبيت هذه الليلة أيضاً على المنضدة وبدون غطاء!

حينما سمعت التهديد تنازلت ومددت يدي اليسرى نحو أحد أطواق القيد الذي كان يشد معصم رجل مسكين يرتدي ثوباً بالياً وحافي الأقدام ومن ثمّ دفعنا الحرّاس بالإسراع في خطانا للوصول إلى المحطّة بالموعد ولكن بسبب إحتجاجي فقد فقدنا الوقت بحيث إنّنا حينما وصلنا لم نجد مقاعداً شاغرة فإضطررنا الجلوس على أرضية الممر وقد شدّ الرقيب المسؤول عن الموكب بقوّة أكبر على قيودي وصعد ليرقد فوق

حاملة الأمتعة وأمّا أنا فقد مكثت جالساً على الحقيبة الصغيرة المصنوعة من الأغصان التي كنت قد إشتريتها من المجري. كان القطار مزدحماً بالحجّاج الشيعة الإيرانيين القادمين لزيارة كربلاء، هذا المزار الشيعي الكبير، حيث أنّ البؤس والوساخة البادية على مظهرهم كانت تشير إلى إنتماء معظمهم لشريحة الفلاّحين القرويين وفي أعقاب خمسة عشر كيلومتراً من السير أحسست بأنّ ثمّة حشرات تغزوني وأنّ كلّ جسدي يحكّني فمددت يدي الطليقة نحو رقبتي وأمسكت بين أصابعي كائنات حيّة صغيرة! قملات سوداء متخمة وسمينة إلى درجة أنّها تثير الإستغراب والدهشة فبدأت بعصرها بين أصابعي والبحث عن أُخرى تتصادم وتتراكض بكل الإتّجاهات على طول ظهري وصدري وحينما لاحظ أحد رجال الشرطة مأزقي بدأ يتوسّل من الرقيب لحل القيد الذي يربط ذراعي والقيام بالبحث لي عن مقعد للجلوس.

ـ أنّ هذا سيّد، خاطبه، هذه الوضعية لا تليق به.

ولكنّ الرقيب ردّ عليه:

ـ لا، أنّه أزعجنا بما يكفي هذا المساء والمسبّب في عدم عثورنا على مقعد فليتحمّل إذاً نتائج خطئه!

إنّ كلمة سيّد يطلقها العرب بكل بساطة على أي «إنسان محترم» ولكن لدى الشعوب التي أسلمت من غير العربية ولا سيّما لدى الشيعة فأنّها حصرية على «أحفاد النبي» أثارت مشاعر الإنفعال بين الزوّار الشيعة وقد نهض الفرس من مقاعدهم وتقدّموا نحوي لتقبيل يدي كما أنّهم أخبروا الشرطي بأنّهم مستعدّون على التنازل عن مقعدهم فإنتفض الرقيب من مهجعه وأمرهم بالبقاء في مكانهم والإبتعاد عن تدخّلهم بشأني وإلاّ فأنّه سيقوم بإنزالهم من القطار ولأنّ معظمهم دخلوا العراق بصورة مستترة فقد جفلوا في مواضعهم وتراجعوا وقاموا بإطاعة الأمر كالكلاب المدرّبة وهم يتكوّمون على بعضهم البعض ولم يعد السيّد يثر إهتمام أحدهم.

وصل القطار إلى محطّة كربلاء نحو الصباح وفي اللحظة التي نزل منه المعتقلون والشرطة والحجّاج رأيت بأنّ معصمي قد إنتفخ ويؤلمني وبأنّ كل جسدي يحترق وكأنّ الزنابير لسعتني، لابد وأنّ الأمر يعود إلى القمل...ولحسن الحظ تغيّر الوضع شيئاً فشيئاً وأُخلي القطار كلّياً من الركّاب ولم يبق بمرافقتي سوى شرطيان لطيفان واللذان

أسرعا إلى حل قيودي والقيام بإقتيادي إلى عربة من الدرجة الثانية فأهديتهما نصف دينار تعبيراً عن الشكر وطلبت منهما بأن يأخذاني لحلاّق قبل إقتيادي إلى سجن بغداد.

ـ ولماذا لا، أجابا، فنحن في خدمتك.

وفي محطّة بغداد إستأجرنا عربة تجرّها الخيول أنزلتنا بالضبط أمام صالون الحلاقة المُنتظَر والذي دلّني ميرحاج على عنوانه ولحسن الحظ سمح لي الشرطيان برؤية الحلاّق والحديث معه بحرّية وبعد مرور وقت قصير لحقني رشدي بيك في مديرية الشرطة.

ـ يجب أن تفعل كل شيء، قلت له، لكي يضعوني في سجن القوّات المتحرّكة مثل ميرحاج.

ـ نعم، وعدني رشدي بيك، أعرف مدير شرطة شعبة الأجانب جيّداً وهو كوردي سأذهب لأُفاتحه بالموضوع.

وبالكاد أنهى كلماته فإذا به يختفي ويعود مبتسماً بعد عشر دقائق فقط ليبلغني بنجاح مسعاه وبعد لحظات وضعتني سيّارة الشرطة في المنتزه الواسع والمفيّأ للقوّات المتحرّكة وجاءني ميرحاج باسطاً ذراعيه بسعة ورحابة ومن ثمّ قادني إلى غرفته التي كانت في الواقع بمثابة شقّة صغيرة تحتوي على مطبخ وعلى صالة للإستحمام يا للرفاهية!

حيث أنّ جسدي الذي عاثت فيه القمل ولعبت به بحاجة للتطهير.

ـ هاك خذ ملابس نظيفة، قال لي ميرحاج، وبعد قليل يقوم علي حمدي بزيارتي فستسلّمه حينذاك ثيابك.

وعند خروجي من الحمّام كان علي حمدي يتحدّث مع ميرحاج.

ـ من الآن وإلى عشرة أيّام كحد أقصى، أخبرني، سيقودونك إلى المركز الحدودي السوري لتل كوجر وسيتم تسليمك للأمن السوري.

كان الخبر سعيداً وأخيراً سأستعيد حرّيتي وسألتقي من جديد بشقيقي وأصدقائي ومع ذلك فقد تخلّلت هذه السعادة أنباء أُخرى حزينة ومؤسفة تتعلّق بكورد العراق،

بتنظيماتهم والتغيير الكلّي للسياسة البريطانية تجاههم حيث أن هيوا قد تفكّك تماماً وأنّ الحكومة كانت في طريقها إلى تشكيل تيّارات معادية لبذر الخلافات وبموازاة تلك المساومات فقد تم تكليف الجنرال البريطاني رينتون، القائد السابق لفرقة ديزرت تاتسي التي أُرسلت إلى الصحراء الليبية أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء مهمّة، بواجب تدريب الجيش العراقي على القتال في المناطق الجبلية ووضعوا «The Royal Air Force- القوّة الجوّية الملكية» تحت أُمرته وأصبحت المباشرة بالأعمال العدوانية من جديد محتملة ووشيكة الوقوع.

ـ وما هو موقف البارزاني، سألته، هل يملك الإرادة والقدرة على المقاومة أمام تحالف القوّات العراقية ـ البريطانية؟

ـ أنّه يعلم بأنّه اليوم ومعه ٣٠٠٠ من مقاتليه هم الأمل الوحيد للشعب الكوردي.

وتداخل ميرحاج معه قائلاً بأن:

ـ ثمّة عدد كبير من الضبّاط الكورد البارزين إلتحقوا بالبارزاني وأنا حالما يُطلق سراحي سأعود إلى الشمال وأضع نفسي تحت تصرّفه أنّه القائد الذي ينتظره الشعب الكوردي منذ قرون وإذا لم ينجح في العراق فأنّ كورد مهاباد، منطقة كوردستان إيران المحرّرة كلّياً، ينتظرونه وهم على وشك إعلان الجمهورية الديموقراطية الكوردية لمهاباد.

وعندما أدركَنا المساء بعث لنا رشدي بيك صحناً من أكلات متنوّعة وغادرنا علي حمدي حاملاً معه كيساً يحتوي على ملابسي المليئة بالقمل بعد سد فتحته بإحكام.

ـ رغم حملي للكيس بعيداً عنّي، قال لي في اليوم التالي، فقد تغطّى جسدي بالقمل...

أمرني في اليوم الثالث لإقامتي في معسكر القوّات المتحرّكة وزير الداخلية بإعداد نفسي لمغادرة تلك الأماكن لأنّ حضوري فيها كان يشكّل خطراً على الدولة وبهذا الشكل إنتهت المناقشات الطويلة مع ميرحاج والكورد الذين كانوا يقومون بزيارتنا! وأعادوني إلى شعبة المتّهمين في السجن المركزي وقد قام رشدي بيك بإرسال فرش سميك لي وكذلك بطبق من الطعام التقليدي للريف وقد تردّدت كثيراً في مد الفرش الجديد على الأرضية القذرة وكنت أخشى عليه من غزوة القمل ولكن لم يكن مقدّراً لي بأن أبقى طويلاً في هذا المكان المضياف...حيث أنّه في اليوم الرابع قامت إدارة السجن بإستدعائي لتسليمي بطاقة هويّتي الشخصية بالإضافة إلى المائتين من الليرات

السورية التي صادرها حاكم التحقيق في الموصل ولم أكن مصدّقاً ما سمعته لأُذناي فهل أنّ ذلك ممكن حصوله؟

وأخيراً بعد قضاء إثنا عشر شهراً طويلة سأستعيد من جديد حريّتي!...

أنجزت الرحلة من العراق إلى سوريا بالقطار برفقة شرطيين وفي حوالي الساعة العاشرة مساءاً كنّا في تل كوجر، هذه المدينة الحدودية السورية، ولكن حينما وصلت إلى المحطّة محاطاً بالشرطيَين اللذين قاما بتسليمي رسمياً إلى سوريا إنقضّ علي الجهازان الأمنيان الفرنسي والسوري المشكّل سويّةً حديثاً فتساءلت مع نفسي أيّ من الطرفين سيستلمني، السوريين أم الفرنسيين؟ وأخيراً تمكّن موظفّون شباب شجعان من الأمن السوري على إنتزاعي من قبضة الفرنسيين. بعد توقيع المستندات التي مدّها الشرطيان العراقيان رغب رئيس الأمن السوري الذي كان يعرف جيّداً أخي في مرافقتي حتّى قامشلي وقد كان الأمر بمثابة إمتياز خصّني به لأنّه وفقاً للقانون الساري كان من المفترض إقتيادي إلى السجن قبل مثولي أمام المحكمة بسبب خروجي من سوريا بصورة غير مشروعة ولكن رئيس الأمن السوري إرتأى تسليمي بيد أخي مشترطاً عليّ حلف باليمين بأنّي سأمثُل أمام الحاكم حال إستدعائي وقد حصل الإستدعاء بعد عدّة أشهر وحينذاك كان قد شملني قرار عفو شمولي.

حينما طرقنا على باب منزل أخي كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

ـ وأخيراً أنت هنا يا صغيري! ولا تزال حيّاً تعيش، لقد جعلتنا نعاني، شكراً يا رب، شكراً، وقد نطق بهذه الكلمات بين شهقات البكاء.

ـ نعم، إنتهى كلّ شيء ولا زلت حيّاً، أجبته وأنا أضغط على نفسي كي لا أنفجر بدوري في البكاء.

وقد تم إحتلال بيتنا خلال أيّام وأسابيع من قبل حشد كبير من الأصدقاء وكذلك من قبل مجهولين غالبيتهم العظمى كانوا شبّاناً فضوليين لمشاهدة «المُنجى في القضيّة القومية الكوردية» و «ضحيّة الامبريالية البريطانية» التي تجسّدت في شخصي بعد أن قضيت إثنا عشر شهراً من الإعتقال في السجون العراقية فقلت مع نفسي بأنّ المصاعب والآلام التي تحمّلتها لم تذهب سدىً وبدأت أرى شعباً كوردياً يبدو واعياً ويقظاً وأحسست بأنّ وضعه قد تغيّر مقارنةً مع عامٍ واحد مضى فقط...

كانت سوريا في نهاية مايس من عام ١٩٤٥ تعيش لحظات حرجة لأنّ الفرنسيين رغم وعودهم بالإستقلال في عام ١٩٤١ كانوا لا يزالون غير مستعجلين بمغادرة البلد ولم يتردّدوا في محاربة المعارضة التي كانت سرّية في البداية وأصبحت علنية فيما بعد واللجوء إلى القوّة والسلاح حيث أنّهم إستخدموا سلاح الطيران وقصفوا دمشق كما قاموا بضرب قامشلي بالمدافع والقذائف الثقيلة وقامت قوّات الحرس المتحرّكة بإطلاق نار الرشّاشات من سطح منزل المستشار الفرنسي، هذا المبنى الوحيد الذي يتكوّن من ثلاثة طوابق في المدينة، على منزل القائمقام السوري الذي هاتف أخي مستنجداً فترك الأخير مرضاه وتوجّه إلى بيته ليكون بمعيّته وقد صحبته بينما كان الرمي مستمرّا بصورة متقطّعة وقد إنتهزنا فترة هدوء قصيرة لتسلّق الحائط والولوج في مسكن القائمقام وبالكاد دخلناه فإذا برشقة رصاص تصيب جدار المطبخ ما أجبر القائمقام المرتعد كورق الشجر على اللجوء إلى ركن أمين في صالة الإستقبال تحت حماية مسؤول الأمن الشاب والمسلّح بمسدّس آلي من نوع بارابيلوم.

ـ هل تشاهدون ما يفعلونه؟ خاطبنا وهو يئن ويتأوّه.

ـ يعلم الفرنسيّون جيّداً بأنّهم لن يتمكّنوا من البقاء طويلاً، حاول أخي طمأنته والتهدئة من قلقه. صدّقني، عصبيتهم ليست سوى تعبيراً عن معركة يعرفون سلفاً بنتيجتها الخائبة.

وفي الحقيقة، بعد مضي وقت قليل توقّفت أصوات الفرقعات والإنفجارات وخلت الطرق من المارّة كما أنّ عيادة أخي إمتلأت رويداً رويداً بالمصابين والجرحى...

ذهبت بعد هذه الأحداث بأيّام إلى دمشق ومن هناك إلى بيروت لأنّني كنت مصمّماً على مواصلة دراستي كما رغبت مثل أخي الكبير في أن أكون طبيباً ولكن إخترت العلوم السياسية وحينما سجّلت إسمي في معهد العلوم السياسية والإقتصادية للجامعة الفرنسية ببيروت كنت أتساءل مع نفسي بأي وسيلة يمكنني مساعدة الشعب الكوردي لتحطيم قيوده ولم يتأخّر وصول الفرصة السانحة أمامي طويلاً حيث أنّ الأمير كامران بدرخان، شقيق عرّابي، إقترح بأن أحلّ محلّه لإحياء برامج باللغة الكوردية في إذاعة بيروت قبل إلغاء بثّها.

كان الفرنسيّون في تلك الفترة غارقين في مشاكل كبيرة حيث أنّهم لم يعودوا

يسيطرون بجدّية على الإذاعة ويتركون لنا فسحة واسعة للتعبير وكان الكورد في مهاباد إيران على وشك إعلان الجمهورية الديموقراطية الكوردية رسمياً كما كان الإنكليز في كوردستان العراق يعدّون أنفسهم لمقاتلة البارزاني وفصائله المقاتلة. لم تقتصر نشاطاتي كمذيع لتقديم هذه الأخبار فحسب وإنّما تخطّاها بالحديث علانية عن القضيّة الكوردية بشكل عام والقيام بقراءَة القصائد الوطنية والثورية ومناداة الكورد بالإستيقاظ من السبات والمباشرة بالنضال من أجل حقوقهم وقد أدّيت الواجب بحماس إلى اليوم الذي وضعت فيه السلطات اللبنانية يدها على إذاعة بيروت في عام ١٩٤٦ وألغت البرامج المُذاعة باللغة الكوردية. وبموازاة دراستي الجامعية فقد فتحت مدرسة ليلية لتعليم كورد بيروت القراءَة والكتابة بلغتهم والتي كنت قد باشرت بها قبل ذلك بعدّة سنوات وإستمرّت حتّى عام ١٩٤٧ وفي خريف نفس العام قرّرت بعد نيلي لشهادة الليسانس الذهاب إلى سويسرا لإعداد الكتوراه في جامعاتها. سويسرا...أو هذا الفردوس الأرضي! لقد بقي الأقرباء الذين درسوا فيها يحنّون إليها ويقصّون لنا بأنّ السويسريين متسامحون ومهذّبون وبأنّهم ديموقراطيّون ورقيقون وكنت أُردّد مع نفسي بأنّ مهد الصليب الأحمر والبلد الذي لم يشترك في الحروب، هذا البلد الصانع للشوكولاتة اللذيذة (الذي عشقتها في طفولتي) لا بد وأن يكون رائعاً!

وعلاوةً على ذلك فقد كنت أقول لنفسي إذا كانت سويسرا تحديداً بهذا القدر من التطوّر فحتماً سأتمكّن من الحديث فيها عن القضيّة الكوردية بل وحتّى من دفع السويسريين إلى الإهتمام بالكورد والحثّ على مساعدتهم وربّما سيفعلون شيئاً لنجدتهم وإنقاذهم...

حينما غادرت وحيداً في أحد أيّام الخريف ميناء بيروت بإتّجاه سويسرا عِبر أيطاليا كان قلبي مفعماً بالأمل.

سويسرا

دراسات في جامعة لوزان
(دكتوراه في العلوم الإجتماعية والتربوية)
بالتوازي مع نشاطات لصالح القضيّة الكوردية
نشأة رابطة الطلبة الكورد في أوروبا
رابطة الطلبة الكورد في أوروبا
في مواجهة الأحزاب الشيوعية للشرق الأوسط
نتائج أُمسية فنّية رائعة عن ناظم حكمت

بعد إقامتي في سويسرا لبضعة أيّام أدركتُ بأنّ الناس الذين يعرفون المسألة الكوردية هم نادرون وبعضهم كان قد سمع فعلاً الحديث عن «شعب جبلي» مقاتل يتميّز بالفروسية ولكن غالبيتهم يندهشون حينما يسمعون الحديث عن الكورد وكوردستان.

ـ هل قلت «توركستان»؟

ـ لا، لا، كوردستان، كنت أُردّد عليهم بلا كلل.

وأستشهدت عند تعريف الكورد وكوردستان بالخرائط الأرضية ولكن لتنوير الرأي العام إضطررت اللجوء إلى الصحافة والإذاعة الرومانديّة بالإضافة إلى المؤتمرات الشعبية وفي الجامعة (كنت قد سجّلت نفسي في مدرسة العلوم الإجتماعية والسياسية لغرض إعداد دكتوراه في التربية فيها) كما كنت أستغل وقت الإستراحة بين المحاضرات كمناسبة للدخول في نقاش حامي الوطيس مع الطلبة والأساتذة حول القضيّة الكوردية.

في صيف عام ١٩٤٨ وبينما كنت أعمل في جيكوسلوفاكيا كمتطوّع في الفرقة السويسرية فكّرت في ذكر القضيّة الكوردية على راديو براغ ولكن الجيكيون بأجمعهم أُصيبوا بالذهول والهلع وردّوا على مبادرتي ببرودة.

ـ لقد أخطأت في إختيار الباب الذي تقرعه يا سيّد!

ورويداً رويداً أصبحت الحقيقة ناصعة أمامي: لا الجيكيون ولا السويسريون مستعدّون لإنقاذ الكورد ولكن لِمَ لا الأُمم المتّحدة؟ في خريف نفس هذا العام كانت منظّمة الأُمم المتحدّة تعقد جلساتها في قصر شايو بباريس وبصفتي كعضو للوفد المكلّف بطرح مذكّرة حول الكورد قرّرت اللقاء مع الموفدين بشكل إنفرادي فإنتظرتهم بنفاذ صبر أمام قاعة الإجتماعات وقدّمت نموذجاً عن مذكّرتنا للدبلوماسي الدانماركي مع إلحاحي عليه لكي يتم عرض المسألة الكوردية أمام منظمّة الأُمم المتّحدة.

ـ سأقرأ هذا النص ولكنّني أشك في إمكانية فسح المجال للحديث عن هذه المسألة...

لم أفقد شجاعتي بل واظبت على مضايقة موفدي الأُمم المتّحدة ولكن الوحيد الذي إستقبلني بحفاوة كان ممثّل يوغوسلافيا الذي قد عمل كسفير في لبنان ويا للمعجزة كان يعرف القضيّة الكوردية.

ـ أُحرقت بلغراد لست مرّات عبر وجودها وسوف ترى، سيأتي اليوم الذي يتحقّق فيه إستقلال كوردستان! خاطبنا.

وهكذا بفضل كلماته شعرت حينما إستدعاني المسؤول الوثائقي للأُمم المتّحدة بالتفاؤل.

ـ تعلم، باشر حديثه قائلاً، بأنّ قوانين الأُمم المتّحدة لا تُجيز التدخّل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء في منظّمة الأُمم المتّحدة. لا يمكننا بالنتيجة التدخّل في شؤون تركيا والعراق وإيران وسوريا حيث أنّكم بصفة رسمية أتراك وإيرانيون وعراقيون وسوريون وحينما يقتلونكم ويبيدونكم يجيبنا الأتراك والإيرانيون والعراقيون والسوريون: يتعلّق الأمر بالشؤون الداخلية وأنّه لا يخصّكم وبالنتيجة مع الأسف لا تستطيع الأُمم المتّحدة على فعل أي شيء ولكن بما أنّ لديكم الآن ملف فأجهدوا لكي تعرضوه بالمستمسكات والحقائق بقدر الإمكان وسيأتي يوم ربّما تتغيّر الحالة.

ربّما ولكن في لوزان ثمّة هموم أُخرى كانت بإنتظارنا حيث أنّ أحد زملائنا من كورد العراق وجد نفسه في ضائقة مالية لأنّ الحكومة العراقية قطعت عنه المنحة الدراسية فراودت ذهني حينذاك فكرة فحواها جمع كل طلبة أوروبا من الكورد داخل إتّحاد وفي أحد أيّام كانون الثاني من عام ١٩٤٩ قرّر طلاّب سويسرا الستّة من الكورد المجتمعين

في لوزان تأسيس رابطة الطلبة الكورد في أوروبا ونادوا كل الطلبة الكورد المتواجدين في أوروبا بالإنتماء إليها وتعهّد كلّ منّا بمساعدة الزميل العراقي عبر إهدائه بضع مئات من الفرنكات شهرياً وعلاوةً على ذلك إختارني المؤتمر التأسيسي في لوزان كرئيس للرابطة وأقرّ بنشر مطبوع شهري باللغات الكوردية والإنكليزية والفرنسية باسم صوت كوردستان (ده نكي كوردستان). كنت أعمل ليلاً نهاراً لكتابة المقالات وضربها على الآلة الكاتبة ومن ثمّ إستنساخها وبما أنّه مُنع علينا طبع «صوت كوردستان» في سويسرا فقد تكلّف أحد أعضائنا في باريس بإستنساخه على الرونيو. وقد لَقيت صحيفتنا التي كانت تدين فظاعة سياسة الهضم القومي القسري الممارسة بحق الشعب الكوردي من قبل تركيا والعراق وإيران أو من قبل سوريا تعاطف الشبيبة الطلاّبية والصحافة الديموقراطية بسرعة كما أنّها أثارت في ذات الوقت حقد الحكومات المهيمنة على كوردستان وحقد أحزابها الشيوعية المستلهمة من العقائد الستالينية حيث أنّها كانت تدّعي بأنّ وجود جمعيتنا يتناقض مع وحدة الطبقة العاملة في هذه البلدان ومن هذا المنطلق ينبغي تفكيكها وقد تم تكليف توده، الحزب الشيوعي في إيران، بهذه المهمّة وأصبح رفاق باريس الذين كانوا أعضاءاً في توده أدواتٍ له.

ـ إنّ الحديث عن كوردستان، عن القومية الكوردية، عن ماضيها وحاضرها وحقوقها ليس سوى تعبيراً عن الشوفينية الكوردية ومن هذا المنطلق فإنّه يتعارض مع اُممية الأحزاب الشيوعية، أطلق كورديّنا من باريس في وجهنا، والذي كان لحد تلك الساعة واحداً من أنشط الأعضاء في رابطتنا. للوصول إلى السلطة فأنّ الأحزاب الشيوعية كانت بحاجة إلى جمع كل العناصر المتمرّدة العائشة داخل حدود هذه البلدان في كتلة تفكير أُحادي وحال تسلّمها للسلطة فأنّها ستأخذ طبعاً الكيان القومي الكوردي بنظر الإعتبار ويدعمونهم للتمتّع بحقوقهم الطبيعية ولكنّ اليوم من غير المعقول الحديث عنهم...

أنّ هكذا حجج لم تكن مقبولة أبداً بالنسبة لي لأنّ رابطتنا لم تدّعِ مطلقاً بأنّها نشأت لتلعب دور حزب سياسي وإنّما لأداء وظيفة نقابية وثقافية وسياسياً لم تكن رابطة الطلبة الكورد في أوروبا سوى صرخة إنذار ونداء للنجدة أمام الخطر المحدّق على وجود كيان الشعب الكوردي وقد كنت أكثر من متشكّك بخصوص إهتمام الأحزاب

الشيوعية في تركيا والعراق وإيران وسوريا بالقضيّة القومية الكوردية حيث بالرغم من تبجيلها للأُممية فأنّها كانت تغض الطرف عن شوفينية الأكثرية في البلدان الضامّة لكوردستان ولحد هذا التاريخ لم يجرؤ أي حزب شيوعي من الشرق الأوسط على إعلان رأيه بصراحة حول المشكلة الكوردية فبالنسبة للشيوعيين الأتراك لا وجود للكورد أصلاً وبالنسبة للشيوعي العراقي فأنّ الكورد لم يكونوا يشكّلون قومية بل أنّهم أقلّية إثنية قليلة في العدد ليس أكثر وأمّا أعضاء توده فبالرغم من إعترافهم الفعلي بوجود الكورد في إيران فقد كانوا يحسبون بأنّ اللحظة لم تحن لا للإهتمام بهم ولا للحديث عنهم وأخيراً بالنسبة للحزب الشيوعي السوري فأنّ القضيّة الأساسية في تلك الفترة كانت قضيّة الأُمّة العربية وكان على الكورد نسيان خصوصيتهم كما يتوجّب عليهم الإنضمام إلى الحزب والنضال من أجل عظمة الأُمّة العربية مثلما كان يفعل رئيسه الكوردي بحق والساكن في دمشق، خالد بكداش.

عند إنعقاد الإجتماع في لوزان بشأن مصير رابطتنا لم يحصل رفيقنا من توده على أغلبية الأصوات ولكن بالرغم من هذه النتيجة التي كانت لصالح بقاء منظّمتنا فقد إقترحت على الآخرين حلّها حيث أنّه بسبب حرماني من مساهمة عضونا في باريس الملتهي بإهتمامات شخصية أُخرى لم أعد قادراً لوحدي على تحمّل مسؤولية صوت كوردستان (ده نكي كوردستان) وبعد تحرّري من مهامي كرئيس لرابطة الطلبة الكورد في أوروبا وكرئيس تحرير لصوت كوردستان وجدت أخيراً الوقت الكافي للإهتمام بدراساتي وإعداد بحثي ولكن دون أن يمنعني ذلك من التعبير لصالح الكورد وضدّ مضطهديهم.

إعتقدت دائماً بأنّ الحديث عن الكورد سيثبت وجودهم في عيون «العميان» ولن يضرّ قضيّتهم ولهذا السبب كنت قد أجبت بالإيجاب قبل سنة من حل رابطتنا على تلبية دعوة مهرجان ومؤتمر الشبيبة الديموقراطية للعالم المنعقد في بودابست.

وقد توقّعت وفقاً لحساباتي إيجاد الفسحة المناسبة لطرح وضع الشعب الكوردي أمامهم والحصول على تعاطفهم ولكن ممثّلي الوفود والأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط قاموا بترتيب الأُمور بحيث نبقى مهملين ونكون غائبين عن هذه التظاهرة ولكن رغماً عنهم فقد نجحت في فرض حضور الكورد من خلال إرتدائي للزي الكوردي

وتمكّنا مع العديد من الزملاء من إثارة فرح وفضول المصوّرين الصحافيين ولم تقتصر مشاركتنا بالجانب الفولكلوري فحسب وإنّما ألقيت في اليوم المخصّص لمناهضة الإستعمار وأمام جمهور يناهز عددهم خمسة آلاف شخص قصيدة كنت قد ألّفتها عن مصطفى البارزاني والتي نُشرت في اليوم التالي في الصحافة المجرية وما جعلني أتأثّر بشكل خاص هو هذا الإهتمام الذي خصّه رئيس الشبيبة الديموقراطية للعالم بنا، الفرنسي غي بواسون، الذي كان يجهل كل شيء عن الكورد.

وقد نشب جدال عنيف بيننا وبين المنظّمات اليسارية التي إعتبرتني بعد حين كشخص منبوذ وكعميل مخرّب ومع ذلك فقد تمكّنت بفضل الأحزاب اليسارية لأمريكا اللاتينية من المشاركة في المؤتمر وقد حاول ممثّل وفد الحزب الشيوعي السوري منعي من تقديم تقريري ولكنّني أصررت بالرغم من التنازل الذي فرضته علينا تنظيمات الشرق الأوسط بوجوب التعبير باسم «الكورد»...يبدو واضحاً بأنّني لو تحدّثت باسم «كوردستان» لباشرت حكومات بلدان الشرق الأوسط بتوجيه لوم عنيف لأحزابها اليسارية وبعد ذلك بأيّام حالفني الحظ أكثر حينما وصلت إلى مقر مجلس الإتّحاد العالمي للطلبة في صوفيا قبل الموفد السوري والإيراني والعراقي والآخرين وإستطعت إقناعهم بتقديم نفسي كممثّل عن كوردستان فيا له من إنتصار! وكم كنت سعيداً حينما سلكت طريق العودة إلى سويسرا...

في شهر شباط من عام ١٩٥٠ بعدما شكّل تريستان تزارا اللجنة الأوروبية من أجل إطلاق سراح ناظم حكمت، المحكوم عليه بالموت والذي كان يقبع في السجن منذ ثلاثة عشر عاماً كلّفني فريق الدراسات الإجتماعية لجامعة لوزان والذي كنت واحداً من أعضائه بإلقاء كلمة في أُمسية تضامنية مع الشاعر التركي الكبير وقد أحببت الحديث عن شاعري المفضّل وإلقاء بعضاً من قصائده وكذلك أيضاً القيام بتعرية النظام الدكتاتوري التركي في هذه المناسبة وقد تم توزيع وإلصاق الإعلانات في الكلّيات والمدارس والجامعات حول أُمسية ناظم حكمت ولكن حاول الطلبة الأتراك المغرمين بأيديولوجية أتاتورك والذين تواجدوا بعدد كبير في لوزان تخريب التظاهرة حيث نهض مسؤول الطلبة الأتراك الذي سيصبح لاحقاً عميد كلّية الحقوق في إسطنبول قبل أن يأتي دوري في إلقاء الكلمة،، ليحتجّ على تدخّلي.

ـ لا يجوز لنورالدين التهجّم على تركيا، خاطب الحاضرين.

ولكن الفودوا الذي كان يترأس الحفل أسرع في إسكاته:

ـ سيتحدّث نورالدين زازا هنا في هذا المساء تلبية لدعوتنا الموجّهة إليه وبعد إلقاء كلمته سوف تجري مناقشات فإذا كانت لديك أسئلة تطرحها أو ملاحظات تعلّق عليها ستفعلها حينذاك.

سكت المسؤول الطلاّبي التركي وحينما نويت التوجّه نحو المنصّة شاهدت عدداً من الطلاّب الترك يقتربون منّي وهم يتسلّحون بقناني الكوكاكولا الفارغة ولكن الطلبة الأمريكان الذين كانوا يشرفون على القاعة أجبروهم على الإبتعاد عنّي فتركوني أنهي كلمتي بسلام ولكّنهم أثاروا الهياج والإحتجاج لدى الطلبة الإسرائيليين حينما صرخوا في وجه متحدّث يهودي حول فيتنام:

ـ ولكن إخرص! كيهودي لا يجوز لك الكلام هنا...

فشعر المسؤول الطلاّبي التركي بالإحراج أمام ردّ فعل الحضور ولا سيّما الإسرائيلي.

ـ أعذروا رفاقنا، خاطبهم، تعلمون بأنّ لدولتنا علاقات حميمة جدّاً مع إسرائيل كما أنّ اليهود في تركيا يتم إعتبارهم كمواطنين كاملين.

ـ نعم، نعم، أجابه ليفي الطالب ـ الجندي ذو الهيكل القفقازي، نعم نعلم ذلك ولكن من الآن فصاعداً تجنّبوا إرتكاب هكذا حماقات...

توقّعنا بعد هذه الحادثة بأنّ الأتراك سيتركون القاعة بسرعة ولكن يبدو بأنّهم لم يعزفوا عن مشروعهم ممّا أجبر رئيس الجلسة على الإسراع في إنهاء الأُمسية.

مرّت على الحفل فترة شهر تقريباً حينما إستدعتني الشرطة الفيدرالية التي قدِمت إلى لوزان خصّيصاً لتلك المناسبة وأخضعتني إلى إستجواب طويل وشديد.

ـ ولكن لماذا تطرحون علي كل هذه الأسئلة؟ إستفسرت من رجال الشرطة بإستغراب.

ـ نحن نجري التحقيق بشأنك إستجابة لطلب سفير تركيا حيث أنّه يهدّد بسحب كل الطلبة الأتراك من جامعة لوزان إذا بقيت في سويسرا.

وفي أعقاب بضعة أشهر سلّمتني الشرطة السويسرية أمراً بترك سويسرا خلال مهلة

خمسة عشر يوماً بالإضافة إلى منعي من العودة إليها قبل مرور سنتين ومع ذلك فأنّها بفضل تدخّل صديق محامي وَفي وافقت على تمديد إقامتي فصلاً بعد فصل لحد نهاية دراساتي وفي كل مرّة إستوجب علي إنتظار مجيء الموافقة من بيرن في حين أنّ مقاطعة فود هي التي كانت تمنحني بطاقة الإقامة السنوية حتّى الحادث الذي حصل خلال أُمسية ناظم حكمت.

لقد أنهيت أُطروحتي داخل شاليه صغير يقع في منطقة ديابلريه حيث كنت أرى من خلاله الجبال التي كانت تذكّرني يومياً بكوردستان وإكتشفت فيه المؤلّف الفظيع والرائع للجيكي فوجيك «مسطّر تحت المقصلة» سيرة ذاتية ألهمتني ربّما...

ومن ثمّ بدى لي بأنّني تأخّرت كثيراً لفعل شيء يفيد الكورد وأنّ الوقت قد حان للمغادرة إلى سوريا وهكذا في أحد أيّام نهاية شهر حزيران لعام ١٩٥٦ تركت سويسرا وحملتني الباخرة من باري إلى بيروت التي إلتقيت فيها بعد سنوات غياب طويلة بأخي الكبير والأصدقاء الكورد الأوفياء القادمين من قامشلي لإستقبالي ولكوني نلت شهادة «الدكتوراه في العلوم التربوية من جامعة لوزان» فقد إستوجب على حامل هذا اللقب الجامعي العمل لأجل تغيير حال كورد سوريا وإخراجهم من معاناتهم وضيقهم وكبتهم ولأجل مساعدتهم لكي يحقّقوا أسمى طموحاتهم.

فهمت حال نزولي من الباخرة بأنّ كورد سوريا ينتظرون الكثير وبلا شك الكثير جداً منّي...فهل سأكون، في الشرق، خلال الشهور والسنوات القادمة قادراً على أن لايصابوا بخيبة أمل؟ هل أنّ الظروف ستسمح لي بإنجاز المقترحات التي تصوّرتها عبر إحتكاكي للنظام الديموقراطي السويسري؟

سوريا

سوريا في عهد عبدالناصر
الكورد في مواجهة البعث والشيوعيين
تأسيس الحزب الديمقراطي الكوردي لسوريا
إعتقال
السجن والتعذيب (في حلب ودمشق)
الفائدة من السيطرة على الأعصاب
النائب العسكري يطالب بعقوبة الإعدام
التي ستُخفّض إلى عام واحد في السجن
بفضل طلبات الإلتماس العالمية

حصلت بين مغادرتي لبلدي إلى أوروبا وعودتي في عام ١٩٥٦ تحوّلات هامّة بجميع الميادين في سوريا وكانت البرجوازية قد تصالحت بعد وقوع العديد من الإنقلابات العسكرية المتعاقبة التي إفتتحها حسني الزعيم في عام ١٩٤٩ مع الجيش في عام ١٩٥٤ لإحياء الحياة الديموقراطية البرلمانية بكل أشكالها ووعودها في «الحرّية» من جديد ولم يمضِ وقت طويل فإذا بشركات المساهمة المشتركة المتساهلة بالنسبة للشرائح الدنيا من الشعب تأخذ حجماً لا يمكن تصوّره. وقد دفع التوسّع الهائل بشكل لم يعهده الماضي على الإطلاق في زراعة القطن إلى تطوير صناعة النسيج كما أنّ إنتشار زراعة البنجر أدّى إلى إنتاج السكّر بحيث أنّ سوريا أصبحت خلال بضع سنوات دولة كبيرة لتصدير القمح والشعير والقطن إلى الخارج كما أصبح التعليم الإبتدائي والثانوي والجامعي يشمل رويداً رويداً كل شرائح المجتمع.

إنّ التحوّلات في مجال التقاليد والعادات أصبحت واضحة للعيان حيث أنّه بإستثناء الشباب ففي عام ١٩٤٧ كانت الغالبية العظمى من برجوازية المدن الكبرى تتباهى بإرتداء الطربوش على الرأس بينما في عام ١٩٥٦ أصبح هذا الغطاء منبوذاً ومثاراً للسخرية كما إعتاد الناس على الخروج برأس عارية وأصبح القمباز، هذا الكساء المفتوح من الأمام والمشدود على الخصر بحزام عريض، الذي كان يرتديه بشكل عام أصحاب المخازن وحرفيو الأحياء القديمة نادراً أيضاً وقد كان التغيير محسوساً بشكل

أعمق في ميدان الأزياء النسائية فعند هجرتي كانت نسبة ٩٩ ٪ من مسلمات المدن يسرن في الشوارع وهنّ محجّبات بينما اللواتي إحتفظن بهذه العادة بعد ذلك بتسع سنوات أصبحن نادرات.

وبموازاة هذه التغييرات فأنّ الجيش الذي كان يلتهم أكثر من نسبة ٥٠ ٪ من الميزانية الوطنية فقد تضخّم هيكله في المجتمع السوري وتحوّل من جيش صغير مؤلّف من المرتزقة خلّفه الفرنسيون إلى جيش وطني تقوده كوادر منحدرة من البرجوازية الريفية الصغيرة المسيّسة عموماً وتعمل لصالح الأحزاب المنادية بالوحدة العربية وبدأ يحلم بالعصيان والمغامرة على طريقة دونكيشوت وقد تمكّن عبدالناصر من إستغلال هذه المشاعر في عام ١٩٥٨ وإستلمه كهدية على طبق من ذهب. ومن الناحية الإجتماعية فأنّ أعظم تغيير حصل كان ربّما في الجزيرة حيث أنّه بسبب إعتماد الإقطاعيين الكورد والعرب، المالكين لمعظم الأراضي، على المكننة أكثر فأكثر في الزراعة فقد إضطر قسم كبير من فلاّحيهم وعمّالهم الزراعيين وجميعهم كورد على النزوح نحو المدن فأصبح بعضهم حمّالين وإختار بعضهم العمل في قطّاع البناء وآخرون علّموا أنفسهم الميكانيك أو جرّبوا حظّهم في التجارة والنشاطات الأُخرى المربحة وقد عثر الفكر القومي الكوردي في هؤلاء الفلاّحين المتمرّدين والمنفيين على الوسط المثالي لإنتشاره.

كان الحزب الشيوعي، في تلك الفترة، الذي ناضل ضدّ الحكومات البرجوازية القريبة من أمريكا بعد الحرب وكذلك أيضاً ضدّ الأنظمة العسكرية التي حلّت محلّها والسائرة في نفس الإتّجاه، يعيش في عزّ مجده وإزدهاره بحيث أنّه تم إنتخاب حتّى أمينه العام، خالد بكداش، الستاليني العنيد ذو الشخصية القوية والخطيب الشجاع والموهوب الذي كان يعرف كيف يسحر ويستقطب إنتباه الجمهور نحوه، كنائب في البرلمان السوري خلال إنتخابات عام ١٩٥٤ وقد تمكّن من التأثير على رئيس وزراء ذلك العهد، البرجوازي الليبرالي خالد العظم، إلى درجة قاده إلى تبنّي سياسة الصداقة والتعاون مع الإتّحاد السوفياتي والتي نجمت عنها إتّفاقيات ثقافية وإقتصادية توسّعت لتشمل تعاوناً فنّياً وعسكرياً وفي عام ١٩٥٦ بادر ضبّاط سوفيات يشاركهم ضبّاط سوريون بإعادة تنظيم الجيش السوري لينتهي الأمر بتدفّق الأسلحة السوفياتية بكمّيات هائلة إلى سوريا.

حاول خلال هذا الوقت حزب سياسي التصدّي لشعبية الحزب الشيوعي ألا وهو حزب البعث العربي الإشتراكي الذي أسّسه المثقّف المسيحي ميشيل عفلق المعروف بدعايته للنازية قبل وأثناء حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥.

إنّ العقيدة البعثية لم تجد في حينها ترحيباً وقبولاً سوى بين تلاميذ الثانوية والطلبة المنحدرين من البرجوازية الريفية الصغيرة وكذلك لدى الضبّاط المنحدرين من نفس الوسط الإجتماعي وبإستثناء بعض الكوادر المؤمنة بهذه العقيدة فأنّ الطبقة العمّالية كانت تعبّر عن إزدرائها وإحتقارها لهذا الحزب. حيث أنّه بعد كفاحه وإصراره بكل قواه على إجراء الإنتخابات البلدية بالوقت المحدّد لها في عام ١٩٥٧ وبإسلوب شرعي مطلق فقد فعل المستحيل من أجل تأجيلها حينما إقتنع بأنّ حظوظه في النجاح غير مضمونة ومن ثمّ راح يعمل من أجل إخضاع سوريا إلى إستبداد ناصر.

ولكن قبل أن يقبل الرئيس على رئاسة مصر وسوريا المندمجة في «الجمهورية العربية المتّحدة» فقد طرح شروطاً تعجيزية من بينها حل كل الأحزاب السياسية. وقد سارع البعثيون بالموافقة على الشروط بينما رفض الحزب الشيوعي قطعياً هيمنة مصر على سوريا وحينما تم إستدعاء البرلمان للتصويت على إقتراح الإتّحاد السوري ـ المصري رفض نائبان فقط تصديقه: الشيوعي خالد بكداش (بعد ذلك بفترة قصيرة غادر إلى موسكو) ورئيس الوزراء خالد العظم الذي بإختياره البقاء في سوريا جعل نفسه عرضةً لتهديدات وإهانات «حكّام نازيين» فرضهم ناصر.

مرّ الشيوعيون خلال هذه الحقبة الزمنية بأيّام سوداء شنيعة حيث تم إعتقال العديد منهم وأخضعوا الكثيرين إلى ممارسات تعذيب قرون وسطية أدّت إلى موت بعضهم كما إنّ الذين خرجوا من السجن إحتفظوا بعاهات خلال كل حياتهم المتبقّية وأمّا بالنسبة للكورد السوريين فقد وجدوا أنفسهم أمام التهديد والتحريض والتحدّي التي فرضتها قومية حزب البعث عليهم من جهة ومن الجهة الثانية رأوا بأنّ الحزب الشيوعي «أُممي» نظرياً ولكنّه في الواقع يمثّل دور المحامي للقومية لدى العرب حيث أنّه كان يدافع في الوسط الكوردي عن مبدأ المواطنة العالمية كما فرضوا على الكوردي الذي ينتمي إلى الحزب الشيوعي السوري قراءَة منشوراته باللغة العربية وتوعيته بالأخطار الإمبريالية المهدّدة للعالم ويطالبونه بجمع التبرّعات لمساعدة الشعب الجزائري الذي

كان يخوض الحرب ضدّ فرنسا ويقترحون عليه بعرض حياته للخطر والموت على الحدود السورية ـ الإسرائيلية وبالمقابل لا ينبغي عليه المطالبة بأي شيء لشعبه! كان من الأولى به إيقاف المحو الثقافي وحتّى الإثني الممارس ضد الضحّية الكوردية سواءاً في سوريا أو في تركيا والعراق وإيران ولكن بمجرّد طرح هذه التساؤلات كانوا يتّهمونك مباشرة وبقساوة «بالشوفينية القومية» و «بالإنحراف الأيديولوجي»...

بما أنّه لم يكن في سوريا أي حزب سياسي عازم على أخذ وجود الكورد المضطهدين يومياً بنظر الإعتبار فكّرت بأنّه أصبح من الضروري تشكيل تنظيم يسمح لهم الإحتفاظ بهويّتهم والقيام بتطويره لتمهيد السبيل أمام تحرّرهم القومي ضمن إطار الدولة السورية وقد مارس تلاميذ الإعدادية وطلبة دمشق وكذلك المناظلون القدماء والملالي والإقطاعيّون وفلاّحون بسطاء من قرى المنطقة الكوردية في سوريا ضغطاً عليّ لكي أنجز هذا المشروع فبدأت بالرغم من إلتزاماتي كأُستاذ للتربية والإجتماع في جامعة دمشق بتنفيذ المهمّة وقد ساعدني في ذلك جلال طالباني، أحد أبرز المسؤولين في الحزب الديموقراطي الكوردستاني للعراق والذي كان آنذاك لاجئاً سياسياً في سوريا، من خلال دراستنا للأنظمة الداخلية في حزبه والقيام معاً بمقارنتها مع واقع الكورد في سوريا وفي نهاية عام ١٩٥٧ تحقّق «الحلم» وأصبح الحزب الديموقراطي الكوردي في سوريا الذي تحدّدت أهدافه بالدفاع عن الهوية القومية لكورد سوريا والمطالبة لهم بالحقوق الثقافية والإدارية (ضمن إطار نظام ديموقراطي لمجموع البلد) واقعاً.

وقام الأعضاء المؤسّسون للحزب الديموقراطي الكوردي حال الإنتهاء من إعداد النصوص القانونية بإنتخاب لجنة تنفيذية مؤقّتة كهيئة عليا للحزب تتحمّل المسؤولية لحين إنعقاد المؤتمر كما تم إنتخابي كرئيس للحزب الديموقراطي الكوردي وقد باشرت الهيئة التنفيذية المُنتخبَة بتجنيد الأعضاء بحيث أنّه بعد مرور فترة زمنية قصيرة جداً بدأ الحزب الديموقراطي الكوردي يضم رغماً عن الفرز الصارم في الإختيار أعداد كبيرة من المنتمين كما باشرنا أيضاً وبشكل سرّي بطبع منشورات مكتوبة باللغة الكوردية وكذلك باللغة العربية لتوعية الكورد وإعلامهم بأوضاع الكورد بشكل عام ولا سيّما في المناطق الكوردية السورية ولكن أيضاً بأوضاع البلدان العربية والعالم عموماً

وقد كنّا نعارض إتّحاد سوريا مع مصر بالصيغ التي فرضها ناصر وقمنا بفضحها في منشوراتنا وبياناتنا وأنّ الدراسة الإقتصادية حول سوريا في أعقاب الهيمنة المصرية التي قدّمتها سمحت لأعضاء حزبنا برؤية أسباب إلحاق سوريا من قبل مصر بوضوح. ورويداً رويداً تراءى التسلّط المصري بشكل واضح وبدأ الإستياء نتيجة للكارثة الإقتصادية وإستعانة عبدالحميد سراج بسلطات مفرطة مفروضة على سوريا يعم البلاد وقد تفنّن المصريون وحلفاءَهم ببحثهم عن كبش فداء لإيقاف روح التمرّد المتصاعدة فوجدوها في الشعب الكوردي ولا سيّما في الحزب الديموقراطي الكوردي وبدأوا يتّهمونه «بالخيانة» و «بالمخرّبين لصالح الأجنبي» و «بالإنفصاليين الساعين إلى إستقطاع جزء من أراضي سوريا لإلحاقها بدولة أجنبية» وبعدما كانوا يعيّرونهم بالشعوبيين الذين يرفضون التعريب باتوا ينادونهم «بالعملاء المأجورين لصالح القوى الأجنبية المعادية للعروبة».

وعندما وصلت الأخبار إلى المباحث حول مناهضة كورد سوريا لسياسة ناصر وكذلك حول نشاط حزبنا تمكّنت الأخيرة من وضع يدها بعد فترة وجيزة على عدد من منشوراتنا ومن كشف أسماء بعض أعضائنا وقد نجحوا حتّى في تحديد هوية مسؤولي الهيئة التنفيذية لحلب وفي أعقاب مراقبة إستمرّت لعدّة أشهر ألقوا في ٥ آب ١٩٦٠ القبض عليهم وإقتادوهم إلى قبو تعذيب محلّة الجميلية في حلب ومن ثمّ أخضعوهم خلال ثلاثة أيّام وثلاث ليالي للتعذيب بالفلقة وقد شدّهم الجلاّد بعنف وقوّة بحيث غاص الحبل بعمق في لحم سيقانهم وأمّا السياط فقد حوّلت أقدامهم إلى كرات منفوخة بشكل غير معقول ناهيك عن ضربات البساطيل العسكرية المستمرّة على الرأس والبطن والأعضاء التناسلية لرفاقنا وأنهكتهم بسرعة وحطّمت روح المقاومة لدى البعض بحيث إعترفوا بإنتمائهم للحزب الديموقراطي الكوردي السوري وأفشوا بأسماء بعض رفاقهم.

لقد إبتهجت المباحث لعثورها على «النعجة الضائعة» التي كانت سبباً لكل أوجاع البلد وباشرت في مطاردتنا وفي غضون أيّام أوقفوا أكثر من خمسة آلاف شخص عبر كل سوريا كان من بينهم أطفال بعمر ١٢ إلى ١٥عاماً وقاموا بتسجيل أسمائهم وتعذيبهم ومن ثمّ أطلقوا سراح معظمهم وأمّا فيما يخصّني فقد ألقوا القبض عليّ في

٨ آب من عام ١٩٦٠ حيث أنّني كنت كنتيجة للإجراءات العنصرية السائدة في الوسط الجامعي بحق غير العرب قد تركت وظيفتي في كلّية التربية وقمت بتأسيس شركة للإستيراد والتصدير في ميدان الأدوية الطبّية يشاركني ممثّلون في إدارتها من عشر مدن تقريباً موزّعون في جميع زوايا البلد وفي صباح ٨ آب كنت ذاهباً إلى مكتبي في الساعة الثامنة ككل يوم وفي حوالي الساعة العاشرة وبينما أنا أُخاطب طبيباً في الهاتف أسرع ثلاثة رجال يرتدون ملابساً مدنية وذوو بنية قويّة بالدخول إلى محلّنا.

ـ هل أنت الدكتور نورالدين زازا؟ سألني من كان يبدو عليه بأنّه الرئيس وهو يستعرض عضلاته.

ـ نعم، أجبته بهدوء ولكن أحسست بقشعريرة ورجّة مزعجة في ظهري.

ـ مباحث، إستطرد قائلاً، أترك تلفونك وإتبعنا.

ـ هل يمكنني رؤية أوراقكم؟ طلبت منه.

ـ لا وقت لدينا لعرضها عليك الآن وسوف تراها في أقرب فرصة. إنّ سيّارتنا بإنتظارك.

ولأنّني أصررت للتأكّد من إنتمائهم إلى المخابرات بادر الذي كان يناهز الثلاثين عاماً وله بشرة سمراء وذو وجه منتفخ بإخراج هويّته فلم يبقَ أمامي سوى السير وراءَهم ولكن مع ذلك فقد طلبت منهم بان يفسحوا لي المجال بإعطاء بعض الإرشادات لشريكي والقيام ببعض المكالمات الهاتفية.

ـ سنمنحك بضع دقائق فقط لتجهيز نفسك ببعض الأموال وليس أكثر من ذلك.

كنت أعرف عن طريق أصدقاء أوقفتهم المباحث ومن ثم أطلقت سراحهم بأنّه من الأفضل عدم معاكسة هؤلاء الرجال المنتقين بشكل خاص لقوّتهم الجسدية وقصر نظرهم ووحشيتهم فحملت بضع مئات من الليرات السورية وتبعتهم.

لاحظت سيّارة فولكس فاكن واقفة مقابل باب الدخول لبنايتنا وحينما رآنا السائق إستيقظ ووثب من مكانه مسرعاً لفتح الابواب وعندما سلكت السيّارة جهة اليمين تأكّدتُ بأنّهم يقتادوني مباشرة إلى سجن مزّة العسكري، هذا المعتقل العسكري الرهيب الذي كان معروفاً بأسم «الباستيل السوري» وبعد مرور السيّارة أمام إعدادية

التجهيز إستدارت نحو اليسار لتسلك طريق دمشق ـ بيروت الذي يقود أيضاً إلى المزّة وثمّ إتّخذت إتّجاه مركز المدينة وحينها شعرت بالإرتياح والقلق في آن واحد وبدأت أتساءَل إلى أين، يا ترى، يقودوني؟ هل إلى قصر العدالة لدى حاكم التحقيق؟ أم إلى السجن المركزي، هذه القلعة القديمة لصلاح الدين أو إلى مكتب عبدالحميد سرّاج؟

عند إجتيازنا لجسر فيكتوريا إزداد هذا الإحتمال وأصبح الأكثر توقّعاً وحال خروجي من السيّارة إتّضح بأنّني مخطيء حيث بدل التوجّه نحو السراي قادني حرّاسي نحو المفوّضية العامّة للشرطة، نحو مكاتبها وسجن توقيفها ذي الجدران الصخرية السميكة وقضبانه الضخمة وهنالك سلّموني لعريف شرطة النقطة وأعطوه مضروفاً أصفر مغلقاً طالبين منه في نفس الوقت التوقيع في سجل صغير وحينما غادرني «حرّاسي الملائكيين» تفحصّني شرطي بإبتسامة حنونة، شرطي بزيّه الرسمي وهو قريب من خريف العمر.

ـ لا تبدو من ملامحك بأنّك خطير ولهذا لن أفحصك ولكن مع بالغ الأسف فأنا مُجبر على سجنك.

وبعد إنقطاع قصير أضاف بلهجة أبوية:

ـ ولا يهمّك سوف لن تبقَ هنا لفترة طويلة...

ومن ثمّ مدّ يده نحو الرزمة الهائلة من المفاتيح المعلّقة بحزامه وفتح بوّابة السجن الثقيلة قليلاً فوجدت نفسي في رواق ضيّق يطل على زنزانات وتلك التي خصّصوها لي كانت مجهّزة بمصطبتين وفيها نافذة صغيرة عالية جداً وقد أخبرني العريف ذو الشوارب الغليظة والمتحدّث باللهجة واللكنة الدمشقية الخالصة قبل أن يغلق الباب بأنّه إذا أردت تناول الطعام فأنّه مستعد لجلب ما أشتهيه من مطعم يتواجد قرب المعتقل ولكنّني أجبت عليه بأنّي لست جائعاً...فأدار حينذاك المفتاح الضخم في القفل وتركني في حجرة مضاءَة بالكاد رغم الشمس الساطعة على زجاج النافذة.

كنت أحس بإنقباض في عنقي وبمرارة في حلقي وشعرت بألم في كليتي وعمودي الفقري وكأنّ كمّاشة ضخمة تعصرني بين فكّيها وتحاول تهشيم حوضي فهل يا ترى أنّ هذا الإحساس قد نجم عن الخوف المرعب من عتمة الزنزانة أم عن الشعور بوقوع مأساة كبيرة؟ هل أنّه تولّد من التفكير بعدم الخروج هذه المرّة من المأزق أم أنّه كان

الإحساس بالمهانة؟

ثمّة أفكار كثيرة راودت ذهني وشنّجت عضلات وأعصاب جسدي، كنت مقتنعاً بالطبع بأنّ لتوقيفي علاقة وثيقة بالحزب الديموقراطي الكوردي السوري ولكن لم أكن أعلم شيئاً بعد حول مصير رفاق الدرب وأقلق بخصوصهم ولم يتأخّر وصول الأخبار طويلاً...

حينما لمحت بعد الظهر عبر الباب المنفرج قليلاً لحجرة كبيرة مليئة بالمعتقلين رأس عثمان صبري، هذا المناضل الذي ناهز الستّين من عمره والشريك الذي أسّس الحزب الديموقراطي الكوردي السوري وعضو الهيئة التنفيذية المؤقّتة وقد إستنتجت على الفور بأنّ المباحث قامت بإجراء حملة تفتيش ووضعت يدها على عدد كبير من رفاقنا.

وفي حدود الساعة التاسعة من مساء أوّل يوم لإعتقالي عاد رجال شرطة الصبح يبحثون عنّي وأخذوني إلى شقّتي التي أرادوا تفتيشها وقد طال بحثهم ولكنّهم ورغم غضبهم لم يعثروا على شيء يدينني فوضعوني من جديد وبعصبية في سيّارة الفولكس فاكن وإقتادوني إلى المكاتب الرئيسية للمباحث المتواجدة بين أقدام جبل قاسيّون وقد إستقبلني فيها أحد قادتها الرئيسيين وفي أعقاب دقائق معدودات أمر بأن يقودوني إلى مكتبي فقلبوا كل أوراقي وكتبي ووثائقي على عقب وقد حاولوا البحث عن «مستند إدانة» حتّى على علب الأدوية ولكن عبثاً ولكونهم لم يعثروا على أيّة وثيقة تُستخدَم لإدانتي فقد إستدار الرئيس الكبير نحو أتباعه قائلاً بنبرة مصطنعة وافية وشافية:

ـ ألم أخبركم بأن الأمر سيجري كما عهدناه. لا يمكننا العثور على أيّة مستمسكات إدانة لدى قادة التنظيمات السرّية وإنّما يتوجّب علينا البحث عنها لدى التابعين لهم والقيادات الأدنى مثلما فعلناه في حلب.

وقد وضعتني هذه الكلمات على الخط وسمحت لي بكشف اللغز الذي كان يحيّرني منذ الصباح: أنّ بعض الرفاق الذين أُلقي القبض عليهم لا بد وأنّهم قد إعترفوا...

وفي حدود الساعة الحادية عشرة مساءاً أعادوني إلى زنزانتي التي أمضيت فيها ثلاث ليالي متتالية على مسطبة خشبية بلا فرش ولا غطاء وفي اليوم الرابع نقلوني مع عثمان صبري إلى حلب وقد لاحظت بأنّ قبو المباحث فيها أعمق من بئر كما شعرت بأنّني أهبط خمسين درجة نحو الأسفل وكان يتألّف داخله من نصف دزّينة من

الزنزانات المزدحمة. وقد بذل أعضاء حزبنا الذين كانوا بأكثريتهم شبّاناً، جهوداً للإبتسام في وجهي كما عبّر البعض منهم عن سعادة حقيقية وكأنّ وصولي هو بمثابة معجزة تنجدهم من هذا الجحيم ورأيت آخرين يهزّون رؤوسهم بعنف وهم باسطين أياديهم نحو السقف وكأنّهم يقولون:

ـ لماذا رميتمونا في هكذا مأزق؟

لم أقدر على مخاطبة أي واحد منهم لأنّني دخلت من الرواق مباشرة إلى مكتب الضابط المكلّف بالتحقيق.

ـ آه! ها هو الدكتور! وأخيراً أصبح بين أيدينا، هتف ضابط شاب يرتدي زيّاً رسمياً وهو يستعرض بتباهي النجمتين المتلألئتين على أكتافه.

فردّ عليه خمسة من مرؤوسيه وهم يحملون السياط.

ـ بينما الأُمّة العربية تكافح من أجل وحدتها الكبرى وتقاتل على جبهات متعدّدة فإذا بكم تنفّذون المخطّطات الإمبريالية والصهيونية بطعننا من وراء الظهر وتتوحّدون في تنظيم يسعى إلى إستقطاع جزء من أراضي الجمهورية العربية المتّحدة لإلحاقها بدولة كوردية، بدولة أجنبية!

ـ ولكن عذراً يا ضابطي المحترم! أجبت عليه. أنّ إتّهاماتكم لا أساس لها على أرض الواقع وكل مانقوم به هو بمثابة رد فعل ضد سياستكم العنصرية العبثية تجاه الشعب الكوردي في سوريا والأُمّة الكوردية بمجملها وأنّ الرئيس ناصر يتّهم العراق وإيران وتركيا يومياً بمعاداتها للجمهورية العربية المتّحدة بينما يواصل في ذات الوقت إضطهاده للكورد وإذا أراد الرئيس ناصر مناهضة السياسة «المعادية للعرب» حقّاً مثلما يقول بشأن تركيا وإيران على الأخص فلا بد عليه من التحالف مع الكورد ورفع راية الأُخوّة الكوردية ـ العربية وليس محاربة الكورد بأي شكل كان.

ـ لا ولكن أنتم الآخرون، إستطرد الضابط مضيفاً، هل رأيتم من أي جانب يحاورنا الدكتور! حسناً سأتحدّث عن ذلك مع رؤسائي وبإنتظار ذلك خذوه إلى حجرة منعزلة واعطوه متطلّبات الكتابة وأمروه على كتابة تقرير حول الحزب الديموقراطي الكوردي في سوريا محدّداً فيه إسم وعنوان كل المنتمين إليه.

ـ سأوضّح لكم فقط ما هو الحزب الديموقراطي الكوردي السوري ولماذا أسّسته وأمّا أعضاءَه فلا أعرف عنهم شيئاً على الإطلاق، قلت له.

وبدلاً عن إطاعة الأوامر بدأت أتنصّت لضجيج المأوى فسمعت بأنّ رجال الشرطة يأمرون شبابنا المناضلين بكتابة إعترافات كاملة ويأمرون هؤلاء على الإعتراف بإنتمائهم إلى الحزب الديموقراطي الكوردي السوري وعلى التصريح بأنّهم يؤيّدون خطّه السياسي وعلى الوشي بأسماء رفاقهم ومناصريهم كما لاحظت أيضاً بأنّهم غير مقتنعين بتصريحاتهم من خلال صراخهم وهياجهم وشتائمهم وتهديداتهم.

ـ لا تخفوا عنّا شيئاً وإلاّ سنطحن عظامكم ونجعلكم تتعفّنون في مخابىء مزّة!

ومن ثمّ بعد إهتياجهم من عدم فعّالية إرهابهم الشفوي رأيت بأنّهم يتحوّلون إلى التعذيب الجسدي فسمعت تناوب صوت الصفعات مع صوت السياط اللامتناهي وحينما إقتنعوا بأنّ ذلك لا يكفي صرخ معاون رئيس السرداب على مرؤوسيه بالذهاب للبحث عن الفلقة. وقد دفعت آلة التعذيب البدائية والوحشية هذه المعتقلين إلى البكاء والصراخ من الألم ولكنّها لم تفلح في إنتزاع أي شيء أكثر ممّا قالوه.

ـ نحن أعضاء في الحزب الديموقراطي الكوردي السوري ونؤيّد سياسته، كانوا يردّدون. وإذا إعتبرتم ذلك جريمة فقوموا بإحالتنا إلى المحاكم المختصّة ولكن توقّفوا عن مطالبتنا باشياء أُخرى والإعتداء علينا.

ـ أسماء، أسماء، أسماء! كان المعاون يرعد بتشنج وبصلف ووقاحة.

ـ آه؟ أسماء؟ ولكن سنعطيها لكم، يجيبهم المعذبّون.

وبعد مضي بضع دقائق سمعت الجلاّدين ينفجرون غضباً:

ـ ولكنّكم تذكرون لنا أسماء المعتقلين الذين أوقفناهم والذين بين أيدينا. أخبرونا أسماء المتواطئين معكم والذين يتواجدون في خارج السجن ولا تتسلّوا بالضحك على ذقوننا يا أولاد الكلب!

ـ نحن نعطيكم الأسماء بينما أنتم تشتمونا. لا نعرف حقّاً على أيّ قدم نرقص، يردّ عليهم المعتقلون.

ـ سأُعلّمكم كيف ترقصون هذا المساء، خاطبهم المعاون حينذاك قبل أن يصدر أمراً

إلى رجاله بإرجاع المعاندين الشباب إلى مخابئهم.

إنّ هذا التهديد أقلقني وعصر قلبي وكنت أتساءل ما هو يا تُرى شكل التعذيب المُستخدَم لإجبار المعتقلين بالبوح بأسماء أعضاء حزبنا؟

وحينما طلب منّي الحرّاس في وقت متأخّر من بعد الظهر فيما إذا كنت أحمل النقود معي وفيما إذا كنت راغباً بأن يبحثوا لي عن الأكل أجبتهم تلقائياً:

ـ لا، لا...

وفي الساعة التاسعة من نفس المساء عاد الملازم الأوّل بصحبة رجل صغير الحجم وهزيل في الخمسين من العمر، ذو ظهر محدّب ووجنات مجعّدة ويتناثر على رأسه شعر قليل. إنّ بروز الخوف على هيئته وملابسه الممزّقة ووجهه المتورّم كانت تشير على أنّه ضُرب ودخل بعده بوقت قليل كنعان عكيد، هذا الكوردي الشاب القادم من قامشلي والقويّ في البنية وهو يشد بقبضته ويبتسم لي رغم هيئته المُتعبة وآثار الصفعات البادية على جسده بوضوح.

ـ كنعان! صرخ الملازم الأوّل، هذا الصباح تأكّد لنا بأنّك تقاوم جسدياً وعنيد حيث أنّه لا السوط ولا الفلقة تمكّنا من إنتزاع الإعتراف منك ولكنّك ستقوم الآن بفضل قوّتك الجسدية بمساعدتنا لدفع هذا العدو المشؤوم الواقف أمامي راجفاً. لقد هرّب إبنه البالغ خمسة عشر عاما إلى فلسطين المحتلّة. وأنّ هذا الخبر قد عرفنا به ولكنّه يرفض الكشف عن الشبكة التي ساعدته في إنجاح تهريب إبنه من حلب ومن البلد. إذا تمكّنت بقوّة عضلاتك دفعه إلى البوح بهذا السر فسوف لن نطالبك بأي شيء آخر ونتركك تعود إلى أهلك. هيّا إذن! أرمي بنفسك عليه ولا تدّخر زاوية من جسده إلى أن يكشف المسالك والوسائل التي أعانته لتهريب إبنه إلى معسكر الصهاينة.

فلم يتحرّك كنعان من مكانه وإنّما بدأ يحدّق بشفقة في وجه الرجل المسكين الذي كان يحاول إخفاء رأسه بين الأكتاف كي يجنّبه الضربات التي إعتقد بأنّ كنعان يوجّهها إليه.

ـ ما هذا يا كنعان؟ ماذا تنتظر لكي تباشر عملك؟ ألا تسمعني؟ صرخ في وجهه الضابط وهو يشتاط من الغضب.

ـ سمعتك جيّداً، ردّ عليه كنعان بهدوء، ولكن لا أجد سبباً لأرمي بنفسي على رجل في

عمر والدي ولم يؤذّني، على رجل يبدو بأنّه على وشك الإنهيار.

ـ أنا آمرك بإستعمال قوّتك لتدفع هذا الخائن للوطن، هذا الصهيوني القذر، إبن العاهرة إلى الكلام...

ـ لو أنّ الحكومات المتعاقبة تصرّفت بإنسانية تجاه يهود سوريا لشعروا بأنّهم مواطنون حقيقيون ولما كانوا يفكّرون بالمجازفة بحياتهم للهروب من البلد، أجابه الكوردي الشاب.

ـ وكيف تجرؤ على الدفاع عن الصهاينة وعلى إعطائنا دروساً في السياسة، صرخ الملازم الأوّل وهو يحاول الإنقضاض على خصمه. أنّك بكلماتك الكبيرة تكشف لنا عن أهدافك الحقيقية وعن هدف الحزب الديموقراطي الكوردي السوري. أنّكم تستهدفون إستقطاع جزء من أراضي سوريا وضمّها إلى دولة تطمحون بخلقها. نحن محقّون حينما نسمّي الكورد «بإسرائيل الثانية» وحينما نتّخذ الإجراءات اللازمة لسحق محاولاتكم وهي لاتزال بيضة صغيرة.

وبعد هنيهة أطلق في وجهنا:

ـ وأنتم الآخرون، سترون كيف نتمكّن من فتح أفواه هذين الخنزيرين الصهيونيين، أفواه هذا الكوردي وذاك اليهودي!

فتموضع إثنان من رجال الضابط على كل طرف من الرواق وأمر الملازم الأوّل الكوردي واليهودي بالتوجّه نحوه من إتّجاهين متعاكسَين. وقد أطاع المعتقلان بإنقياد ورفع حينذاك الجلاّدون سياطهم حالاً وبدأوا يضربونهم على الرأس والوجه والرقبة والعنق والأكتاف والصدر والساعد. ولم يتبقَ للمعذَّبين سوى وسيلة واحدة للخلاص منهم: الإستدارة والهرع إلى الجهة المقابلة التي ينتظرهم فيها جلاّد آخر وحيث السياط تلذع جسدهم بشكل أعنف...إنّ هذا المشهد إستمرّ لأكثر من عشرين دقيقة وفي النهاية خرج منه اليهودي بشفة عليا مشقوقة وبدأت الدماء التي كانت تتدفّق أمواجاً تمتزج بالدماء التي تسيل من أنفه وتجري على طول ذقنه لتلطّخ قميصه الممزّق وبنطلونه ومن ثمّ تلوّن أرضية الممر بالأحمر. إنهار الرجل العجوز تماماً ولم يعد قادراً على المشي إلاّ بصعوبة كبيرة وقد تصدّع جبينه وأصبح وجهه مدمّياً بكلّيته وإنسلخ جلد رقبته.

وأخيراً حينما رأى الملازم الأوّل بأنّ الضربات تكفي لحل عقدة اللسان أوقف مشهد التعذيب وبدأ يسأل اليهودي:

ـ ها، إلياهو، أنتظر الآن توضيحاتك حول مجريات هروب ولدك. أمنحك خمس دقائق للتفكير وبعدها سأستخدم وسائلاً أعنف لكي تتكلّم.

لم يرد عليه إلياهو وإنّما أخذ ينظر ببرودة إلى دمائه التي صبغت الأرضية بلونها وقد مرّت الدقائق الخمسة والضابط يراقب ساعته ويقول له بعصبية ضاغطاً على فكّيه:

ـ لقد إستخففت بالفرصة الأخيرة التي منحتك يا سافل. أنّك تفضّل الموت إذاً فليكن سنحكم عليك به، بالموت!

وألقى قبضايين بقيا لحد تلك اللحظة في الظل، إلياهو أرضاً ومن ثمّ بسطاه على الارض وكأنّه كيس للرمل وبدأوا يسحقونه بالأقدام ويركلون على رأس وصدر وعلى أرداف وأحشاء المسكين إلياهو الذي بقي يتحمّل ضربات البساطيل بصمت وبلا مبالاة عظيمة. توقّفت الضربات وتقرّب الملازم الأوّل عن إلياهو فأخذ يجس نبضه ويرفع أجفانه المتهاوية.

ـ خابر حالاً إلى المركز وأطلب منهم بإرسال ممرّض على الفور، دمدم مع المساعد.

وأمر بعدها رجاله بإعادتنا إلى زنزاناتنا وعدم ترك سوى كنعان الذي كان يسيل منه الدم وإلياهو الغائب عن الوعي خارجاً.

لم أغلق عينَي طوال الليل وفي اليوم التالي علِمنا بأنّ كنعان وإلياهو، الذي كانت حالته الصحّية تقلق المباحث، قد نُقلا إلى المستشفى العسكري لحلب.

ـ ها، وتقريرك يا دكتور؟

«لقد أسّسنا الحزب الديموقراطي الكوردي في سوريا، كنت قد كتبت في التقرير، لأنّه منذ عام ١٩٤٩ فأنّ الحكومات العسكرية المتعاقبة سحقت الديموقراطية في سوريا ومحت بالتدريج الحقوق التي تمتّع بها الكورد وإبتداءاً من عام ١٩٥٥ فأنّ السلطات التي تأثّرت بالشوفينية البعثية قامت بتهشيم أشرطة (كاسيتات) الموسيقى الكوردية في المقاهي والمطاعم المتواجدة داخل المنطقة الكوردية وأدانت الكورد الذين يحملون مؤلّفات مكتوبة بالكوردية، بأحكام سجن كما أنّ إتّحاد مصر مع سوريا لم يغلق

السبيل أمام سياسة المحو الثقافي هذه لا بل أنّه رسّخ التعامل الفاشي والإستبدادي أكثر. واليوم لم يعد هنالك ضابط كوردي في الجيش ولا موظّف بارز في الإدارة، لم يعد هنالك معلّمون ولا شرطة كورد في المناطق الكوردية. لم نعد نتجرّأ الحديث بلغتنا وأنّ المستقبل القاتم بالنسبة لنا يدفعنا إلى التوحّد. هذه هي الأسباب التي دفعتنا إلى إنشاء الحزب الديموقراطي الكوردي في سوريا».

بعد أن قرأت «إعترافي» هزّ الضابط رأسه وبدا عليه عدم الإرتياح.

ـ لم تكتب سوى التلفيقات والإتّهامات الكاذبة. نطلب منك الإعتراف بالجانب التخريبي والمعادي للعرب في نشاطك كما نطلب الإخبار عن المتواطئين معك والإعتراف بخطيئتك ولن يكون بمقدور محاكمنا الإعفاء عنّك سوى على هذا الأساس.

ـ لن أُغيّر أي كلمة من تقريري ولن أُضيف عليه شيئاً، قلت له بحزم.

ـ سنرى ذلك، ردّ علي وهو يحاول إرهابي بعينيه، وأمر بإعادتي إلى هذا المخبأ النتن المنعزل والملوّث بالصراصير والذي يسمّونه بحجرة سجن.

وفي وقت متأخّر من نفس اليوم إستدعاني الضابط من جديد وهو يمسك بيده وثيقة مطبوعة على الرونيو مستفسراً إنْ كنت كاتبها فألقيت بنظرة عليها وتحقّقت بأنّها الترجمة الكوردية لواحد من فصول الكتاب المنشور بالإنكليزية تحت عنوان Kurdistan di-vided country.

ـ نحن متأكّدون بأنّك كاتب هذا النص فلا تحاول أبداً التنكر لهذه الحقيقة، أطلق في وجهي بفظاظة.

ـ أعرف ماهو الأمر ولن أقصد مطلقاً معاكستك بهذا الشأن ولكنّني في الحقيقة لا أفهم سبب هذا الإهتمام الذي تولّونه بهذا النص.

ـ إنّ هذه الكتابة توضّح مخطّطك بشكل صريح.أنّك اليوم تكتفي بالمطالبة ببعض الحقوق الثقافية والحرّيات الديموقراطية. لا يعدو الأمر في كونه سوى مرحلة من إستراتيجيتك وحال تحقيق هذا الهدف فأنّكم في كل الدول التي هيمنت على ما تسمّونه «بكوردستان» تحاولون إجتياز المرحلة الثانية والقيام بتحقيق حلمكم، خلق كوردستان. وللوصول إلى هذه الغاية ستستقطعون من سوريا أو بالأحرى من الجمهورية العربية

المتّحدة جزءاً من أراضيها لضمّها إلى دولة تنوون خلقها وكن عالماً بأنّ التغذي بتلك الأفكار والقيام بتحريض الناس لتحقيقها يقع تحت طائلة القانون الذي يمكن حكمك بموجبه بالعقوبة القصوى.

ـ يا سيّدي الضابط إنّ الأمر أبسط من ذلك فأوّلاً أنّ النص المقصود بالجريمة ليس سوى ترجمة وأنا مستعد على الإتيان بالكتاب الذي جاءَت منه هذه الترجمة ومن ثمّ فأنّ هذا النص لم يتم توزيعه على نطاق واسع. أنّكم بالتأكيد لم تعثروا على غير نموذج واحد، لدى رامز حورو، مسؤولنا في حلب، أوّل من تم توقيفه وتعذيبه من قِبَل دائرتكم. إنّ هذا النص لا يمكن بأيّة صورة كانت أن يشكّل تهمةً ضدّنا وأنا شخصياً أتحمّل كل التبعات.

ـ إنّ الحكم يعود إلى المحكمة، دمدم المحقّق متذمّراً، وفيما يخصّني أرى توافقاً تاماً بين هدفكم لخلق دولة كوردية كُبرى وتصرّفات حزبكم وإلاّ فكيف يمكن تفسير وجود الجنود والشرطة في منظّمتكم؟

ـ شخصياً لا يدخل تجنيد الأعضاء ضمن مهمّتي، أجبت عليه، ولو كان لما تردّدت أبداً بتسجيل العسكريين كأعضاء في الحزب الديموقراطي الكوردي السوري لسبب بسيط ألا وهو أنّ كل الأحزاب السياسية قد فعلت ذلك ولا تزال. أنّ العسكريين الكورد حينما يرون زملاءَهم ينتمون إلى أحزاب تنادي بالشوفينية العربية ينقادون، طوعاً أو كرهاً، إلى البحث عن تنظيمات كوردية قادرة على مقارعة الفاشية العربية.

ـ إنّك لاتقيس وزن كلماتك، هتف الضابط مستغرباً. لا علاقة للقومية العربية بالفاشية على الإطلاق.

ـ أنّ القومية تحت شعار الوحدة العربية التي ينادي بها البعث والتي يضعها ناصر اليوم في موضع التطبيق ليست سوى الفاشية الصرفة لأنّها تسعى إلى صهر الإثنيات والقوميات الصغيرة الأُخرى العائشة في العالم المسمّى «بالعربي» وإلاّ فلماذا يخضع الكورد بشكل خاص إلى سياسة الصهر القومي القسري والتمييز. أنّكم تعلمون جيّداً بأنّه بمجرّد إعلان الكوردي بأنّه كوردي والإدّعاء بأنّ للشعب الكوردي تاريخ وثقافة يشكّل جريمة في سوريا.

ـ نعم، إذا ناديتم بالإنتماء إلى قومية خاصّة، إستطرد الضابط، فأنّكم تقعون تحت

طائلة القانون الذي يعاقب بشدّة التفرقة العنصرية بينما تُعتبَر سوريا بلداً لا يسكنه غير العرب.

ـ ألا تعتبر ذلك تشريعاً للإبادة العرقية بالمعنى الأوسع للعبارة؟

ـ تشرح ذلك للمحكمة ويتلخّص عملي في إعلامها بغاياتك ونشاطك.

إستمرّ التحقيق مع سجناء آخرين ولم يغنوهم بشيء رغم التعذيب والشتائم والتهديدات وعندما لم تحصل المباحث على أي دليل إدانة قرّرت إخلاء سبيل قسم من رفاقنا بينهم شباب لا تتجاوز أعمارهم عشرين سنة ولم يحتفظوا سوى بإثنين وثلاثين سجيناً.

في اليوم السادس سمحوا لي بالخروج من الزنزانة والإختلاط بالمعتقلين الآخرين. إنّ معظم مناضلونا كانوا شباباً وأنّ رشيد حورو الذي كان مسؤولاً للحزب في حلب إنتفخت أقدامه وضُمّدت رجلاه بحيث لم يعد قادراً على الوقوف إلاّ بصعوبة وأنّ الكثير من الوجوه أصبحت منتفخة ومتورّمة ومن بينهم كنعان الذي خُيّط حاجبه وجُبّر إثنان من أصابعه وحسب المرّضين الذين إعتنوا بإلياهو فقد بقي المسكين غائباً عن الوعي...

وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً تمّ نقلنا إلى سجن الثكنة العسكرية لحلب المحاط بجدران عالية مشرفة على المدينة وأنّ هذا السجن كان يقع داخل قلعة وقد قاموا بتكديسنا في حجرات مظلمة ورطبة تفوح منها رائحة عفنة ووزّعوا كل أربعة أو خمسة في حجرة ولحسن الحظ سمحوا لنا كل يوم صباحاً وبعد الظهر بالخروج إلى الفناء، هذا الإمتياز الذي أتاح لنا التنفّس.

وبعد مضي أيّام قليلة حشرونا في عربات عسكرية غير مكشوفة وإقتادونا إلى المدينة للمثول أمام حاكم التحقيق العسكري وقد كنت أوّل من مثّل وطرح الحاكم عليّ ذات النقاط التي عرضها علي الضابط وشدّد بشكل خاص على محتوى فصل الكتاب كوردستان، البلد المجزّأ (Kurdistan, divided country).

ـ هكذا إذاً، أطلق في وجهي بحبور وجذل، تريدون إستقطاع جزء من سوريا لإنشاء دولة كوردية كبرى؟ هل تعترف بأنّك كاتب هذا النص؟

ـ لا، ترجمته فقط، صحّحت له. أمّا فيما يتعلّق بإنشاء الدولة الكوردية فأنّ الأمر لا يعدو في كونه أكثر من حلم والمولى لوحده يعرف متى وكيف يتحقّق. من الجائز ربّما، نرجو من كل أعماق القلب، بأن يكون كل الشرق الأوسط فيدرالية تشكّل كوردستان جزءاً منها ولكن ما أقوله يدخل ضمن نطاق لحن مستقبلي وبإنتظار حصول ذلك نطالب بإحترامنا في الجمهورية العربية المتّحدة ككورد كما نطالب أيضاً بالسماح لنا بتطوير ثقافتنا والتمكّن من الحصول على دعم في هذا الميدان والتمتّع بالحقوق الممنوحة لكل المواطنين الآخرين.

إستجوبوا كل رفاقنا الآخرين وقد إستمرّ التحقيق لمدّة ثلاثة أيّام، وفي ٨ أيلول ربطونا إثنين إثنين وغادرنا بالباص بإتّجاه دمشق في ظل حراسة رقيب وعريف وإثنا عشر من رجال الشرطة العسكرية مدجّجين بأسلحة كلاشينكوف وتوقّف الباص في الساعة التاسعة مساءاً داخل فناء ثكنة الشرطة العسكرية وأدخلونا بعدما جرّدنا الحرّاس من أحزمتنا وأربطة أحذيتنا مباشرة في مبنى تحت الارض يُستخدم كسجن ومن ثمّ كدّسونا في حجرتين صغيرتين جدرانها مصبوغة بالأحمر...بدماء الصراصير التي سحقها المعتقلون الذين سبقونا إليها!

وقد أمضيت تلك الليلة وأنا أسحق الصراصر على ضوء المصباح الكهربائي وفي الصباح التالي إقتادونا إلى المحكمة العسكرية العليا وتبعاً لتوصية مدّعي حلب العسكري قرّروا حجزنا في سجن مزّة وأنّ التحقيق الذي باشروا به في حلب لم يكن قد إنتهى.

أنّ التصوّر بأنّنا سنبقى معزولين في مزّة كان يقلقنا وكنّا نعرف بأنّ التعذيب فيه يبدأ منذ لحظة الإستقبال ويأخذ أشكالاً غير معقولة وأنّه بمجرّد تفكيرنا في الأمر كانت تقطّع أنفاسنا...

وقد تحوّل الكابوس بعد الظهر إلى واقع حيث أنّ الباص الصغير وضعنا أمام مبنى ضخم وكئيب مشرف على المدينة وضواحيها يحرسه شرطيّان مسلّحان بالرشّاش. إنفتحت البوّابة ودخلنا ما يشبه رواقاً ذو سقف مكشوف يتواجد على طرفه مخفران وشرطيان للحراسة ولاحظنا على يسارنا ويميننا وجود خمسين شرطياً يحملون السياط بصحبة رجال أقوياء يرتدون البناطيل العسكرية والأقمصة المزركشة يمسك

بعضهم السياط وآخرون كانت أياديهم طليقة. لقد كانوا من السجناء العسكريين المجنّدين للمناسبة وقد طلب منّا مدير السجن، ذو الكرش الضخم والشفاه المتدلّية والملامح القاسية وفي الأربعين من العمر على الفور:

ـ لماذا أنتم هنا؟

وبما أنّنا إتّفقنا على أن لا يرد عليه أحد فقد كرّر سؤاله ولم تأتِ الإجابة وفي المحاولة الثالثة لم يتمالك شاب عمره ثمانية عشر عاماً نفسه.

ـ نحن هنا للأُمّة الكوردية.

فصاح المدير عالياً:

ـ الخونة القذرون للقضيّة العربية، تنوون إذاً إنشاء الدولة الكوردية وسط العالم العربي. سنقوم بإستئصال هذه الفكرة السافلة من رؤوسكم وسترون كيف!

بعد إنتهائه من هذه الكلمات أعطى إشارة لرجاله بالمباشرة في عملية «غسل الدماغ» وإنهالت علينا ضربات السياط والأيادي والبساطيل. «لا تحاولوا المقاومة، لنا معارف مرّوا بذات الموقف نصحونا بأن نتحمّل وإلاّ فأنّهم سيحصلون على حجّة حقيقية للإستمرار في ضربكم حتّى الموت.»

ولهذا لم نحاول المقاومة وإنمّا بدأ رفاقي يهرعون ذات اليمين وذات الشمال ونحو الأمام والوراء لتفادي الضربات بينما تسمّرت، أنا، في مكاني ولكن يبدو بأنّ المدير لم يعجبه موقفي فسألني وهو يشد على أسنانه غضباً:

ـ قل لي إذاً من أنت لكي تتحدّى المصير الجهنّمي الذي خصّصناه لك؟

ـ أنا بكل بساطة كوردي، أجبت عليه بثبات.

ـ ما هو إسمك؟أنّ إسمك هو الذي أسألك به؟

ـ نورالدين زازا.

ـ كيف؟ نورالدين زازا؟ كرّر سؤاله بمرح وكأنّه يكتشف سرّاً للحياة. رئيس الحزب هو أنت إذاً. حسناً سأُعالج شأنك بسبب الجميل الذي رفعته ضدّ العروبة.

وبدأ يطرق رأسي ووجهي بقبضاته ومن ثمّ أخذ يضربني بالسوط الذي يحمله معه ولأنّني بقيت بلا رد فعل فقد أخذني إلى إحدى الغرف المخصّصة للإدارة حيث وجدت

نفسي أمام أبو عبد، هذا الشرطي العسكري العملاق صاحب القوّة الخارقة والمعروف في كل سوريا والذي قتل قبل عامٍ مضى معتقلاً بضربة واحدة، وهو يمشي عرضاً وطولاً.

ـ شرّفتنا بحضورك ونوّرت هذا المكان، أنت، يا دكتور، يا سلطان الكورد المبجّل، قال لي وهو يوجّه لكمة على وجهي بقفا يده.

فتطايرت شرّارات كهربائية من عيني اليمنى وشعرت بأنّ الأرض تتحرّك تحت أقدامي ولأنّني بقيت منتصباً وواقفاً وجّه لكمة أُخرى على وجنتي اليمنى وحصرني ضدّ الحائط الذي إستندت عليه بكل قواي منتظراً الإنهيار بالضربة الثالثة وقائماً بحركات غير متجانسة لحماية وجهي. ولكن لا أدري لماذا لم يقم بتوجيه الضربة الثالثة على رأسي فهل أنّ الجائر المستبد أشفق على حالي أم أنّ المدير نفسه أمره بالتوقّف؟ وحينما عدت إلى نفسي إقتادوني نحو ممر طويل رأيت فيه رفاقي يخضعون لفنتازيا حلاّقين مرتجلين رسموا على رؤوس البعض بماكنة حلاقة السجناء العسكريين صورة الصليب ورسموا على رؤوس آخرين أكاليل القسس أو حتّى صورة الناسك الصيني أمّا أنا فقد كنت محظوظاً حيث وقعت بين يدي «حلاّق» أكثر خبرةً وتجربة وأقل وقاحةً وصلفاً الذي قصّ شعري بإنتظام وبشكل معقول. بعد جلسة الحلاقة أنعمت علينا الشرطة ومساعدوهم بطيّارات (ضربات) عنيفة إلى درجة أنّ العديد من الرؤوس إرتطمت بالحائط. إقتادونا بعد ذلك بهذه الوضعية «من الشعر المقصوص» نحو «مضاجعنا». أخذونا في البداية إلى الطابق الأوّل المخصّص للشيوعيين وبالكاد بعد إدخالنا في غرف مظلمة على مجاميع تتألّف من خمسة أو ستّة تلقّينا أمراً بالنزول إلى الطابق الأرضي وقد كان يقف على كل جانب من السلّم المعدني الطويل المؤلّف من خمسين درجة رجال شرطة لا نعرف من أين جاءوا وهم في أتم الإستعداد لتوجيه سيل اللكمات علينا وإمتزجت أصوات القلنسوات والصفعات والإهانات إلى أن وصل آخر فرد من المجموعة إلى الطابق الأرضي ووزّعونا بالقوّة على صالات مخصّصة عادةً للسجناء العسكريين كما قاموا قبل أن يغلق السجّان الباب علينا بمكافأتنا ببضع صفعات مزدوجة وبالكاد عدنا إلى أنفسنا من هذه الضربات جاء مسؤول المهجع ليستجوبنا وحينما أنهى المهمّة أشار لنا بالتوجّه إلى الأماكن المختارة لكل منّا. فُرض

على «الضيوف» الجدد الإقامة في عمق القاعة قرب المرافق الصحّية حيث أنّ أقدمية السجين هي التي كانت تحدّد قربه أو إبتعاده عن المدخل أو عن المرافق الصحّية. وقد إستلم كلّ منّا ثلاثة أغطية يُستخدَم أحدهما كفرش والثاني كمخدّة والثالث كغطاء وينبغي طيّها وفقاً للأنظمة العسكرية المطبّقة في المكان ولكوننا جهلاء بالمسألة تقدّم نحونا جنود سجناء لإسعافنا وقد تواجد بينهم شاب من ديرالزور الذي خاطبنا ضاحكاً:

ـ حُكم علي بثلاثة أشهر سجن بسبب سرقة بسيطة. ما هو الحل؟ يجب علينا أن نعيش. أنّ الجيش يقوم بإطعامنا وإيوائنا ولكن راتبنا لا يكفي وحينما لا يرتضي الأهل بإرسال شيء إلينا ينبغي علينا تدبير أُمورنا...

لقد كانت أيّامنا الأولى في مزّة صعبة جداً بسبب إستخدام السجّانين لكل الوسائل لإرهابنا وتعذيبنا وإهانتنا. وفي يوم وصولنا بالذات دقّ جرس «التجمّع» في حوالي الساعة الرابعة صباحاً وأجبروا كلُّنا على الإصطفاف في الممر مع سطل بين اليدين وإضطررنا للذهاب للمئه من الصهريج الذي وصل توّاً أمام السجن وقد قام مسؤولو السجن بإستغلال هذا الفاصل لخضّنا أكثر ولأنّ شاب من مجموعتنا كان يعاني من حمل سطله تلقّى ضربة سوط شقّت جبينه ممّا إستوجب نقله إلى المستوصف وأمّا بالنسبة لي فحينما نزلت نحو الصهريج والسطل بيدي إستقبلني الرقيب زين العابدين محاطاً بعشرة من رجاله.

ـ تعال هنا، أمرني وهو يشير إليّ بسبابته.

فلبّيت أمره.

ـ إذاً، هل صحيح أنّك كوردي؟

ـ نعم، أجبته، وما الغريب في ذلك؟

ـ ولكن كيف يمكن لك، كدكتور لا أدري في ماذا، الهبوط إلى مستوى التسليم بأنّك كوردي؟

ـ ولماذا تعتبر الأمر هبوطاً في المستوى؟ أجبت عليه.

ـ لكن يبدو بأنّك لا تعرف حكاية الحمار الذي نعتوه بالكوردي؟ وقد أحس بالإهانة

إلى درجة أنّه إمتنع عن الأكل لثلاثة أيّام.

كنت قادراً على الرد عليه والقول بأنّ الحمار إذا زعل فلأنّه شعر بنفسه مرتاحاً جدّاً داخل جلده العربي...ولكن إكتفيت بأن أقول له:

ـ إنّ واحد من أسباب تشكيل حزبنا هو بالضبط التمييز العنصري الذي يسود بين الأوساط الوظيفية حيث الضحايا فيها كورد وحينما تتحدّث هكذا فأنّك تثبت بصورة لا تقبل الجدل وجود هذا التمييز.

فإضطرب الرقيب وتلعثم:

ـ لا ينبغي عليك أن تأخذ كلامي بمحمل الجد. ذكرت الأمر للضحك فقط وليس أكثر...

ـ أنّ الإستهزاء بمواطن لا ينتمي إلى قوميتك يمكن أن يؤدّي إلى عواقب وخيمة، أجبت عليه.

عندما شعر جنوده بحرجه أمام حججي إرتفعت عصبيتهم وإنتصب أحدهم مهدّداً.

ـ ومن تكون أنت لتتجاسر بمقارنة نفسك مع الرقيب والسماح لنفسك بالجدال معه؟ سأعطيك درساً لإصلاحك.

وقد كان يستعد لتوجيه لكمته على رأسي لكنّ الرقيب منعه.

ـ لندعه يذهب كي يملأ سطله بالماء وهذا المساء سنتكفّل بعلاجه، إذهب يا دكتور!

إنتظرت المساء بقلق وفي الساعة التاسعة حينما جاء زين العابدين للتفتيش الإعتيادي إكتفى بتوجيه نظرة قاسية نحوي.

كانت قاعتنا بمثابة غرفة طولها خمسة عشر متراً وعرضها خمسة أمتار وعلى طول الجدران بنوا مقاعداً من الاسمنت إرتفاعها سبعون سنتمتراً إنطلاقاً من أرضيتها حيث أنّنا نبات ونمضي أغلب أوقاتنا عليها. كنّا أثناء النهار نقدر على المبيت فوق المقعد ولكن يُحرم علينا تمديد أرجلنا وتجاوز خط نظامي مرسوم باللون الأبيض ويقوم الحارس بمراقبة وضعية السجناء بصرامة عبر كوّتين متواجدتين على كل طرف من الباب حيث كان يكفي الحارس بأن يلحظ تجاوز أصابع أحدهم للخط الأبيض ليدخل القاعة صارخاً:

ـ كلكم ركوع!

يتوجّب علينا حينئذٍ الإستعجال بالنزول إلى وسط الحجرة والركوع بطاعة على الاسمنت لساعات.

وقد حصل هذا الأمر لأوّل مرّة بعد ظهر اليوم الثاني من وصولنا إلى مزّة حيث كان الحارس المراقب للحجرات الست لطابقنا في ذلك اليوم أبو زتور المسمّى «برجل المقصلة» والمعروف بوحشيته وسرعته في إستخدام السوط بقدر تهكّمه وإستهزائه بالسجناء وحالما يلاحظ إرتكاب جريمة تجاوز الخط الأبيض من قِبل جندي نعسان كان يهرع إلى قاعتنا والسوط بيده يزعق:

ـ كلكم ركوع!

فينزل كل السجناء من المقاعد ويركعون بسرعة على الإسمنت وأمّا أنا فقد كنت لا أزال مذهولاً «بالإستقبال» الذي خصّصوه لي في المساء السابق ولذلك تصرّفت كالنعجة المذكورة في رواية رابليه وتبعت مَثَلَهم ولكن حينما طال المشهد بدأت أضغط على أسناني وأتمرّد على هذه العقوبة العبثية.

«وكأنّ السجن ليس كافياً وإنّما يتوجّب علينا الخضوع أيضاً إلى كل أشكال العقوبات: ضربات السوط، العمل المرهق، الشتائم، الإهانة وإضافة الركوع على هذا. سأطيع اليوم ولكن من الآن فصاعداً سأرفض الخنوع»، قلت مع نفسي.

في صباح اليوم التالي، فتح الحارس الباب بصخب رافعاً السوط وهو يصرخ:

ـ كلكم عالسخرة!

فهرع المعتقلون إلى الخارج لأنّهم كانوا يعلمون بأنّ المتأخّرين سيتعرّضون للسياط وبقيت لوحدي على المقعد. ناظراً أتحدّى أوامره فتقدّم الحارس نحوي هائجاً:

ـ ألم تسمع الأمر بالذهاب إلى السخرة؟

ـ بلى طبعاً...

ـ إذاً لماذا لا تتحرّك من مكانك لتذهب مثلما فعل الآخرون؟

ـ لست عسكرياً ولا مجرماً للحق العام. أنا ورفاقي معتقلون لأسباب سياسية فعليك معاملتنا إستناداً لهذه الحقيقة، أجبت عليه رافعاً صوتي.

ـ أنّك موجود هنا في سجن عسكري وككل الآخرين عليك الخضوع إلى نظامه وتعليماته، صرخ الحارس.

ـ حسناً، أرفض الإطاعة. إفعل بما تسمح لك التعليمات به!

حدّق أبو زتور في وجهي بغضب وعدوانية وإحمرّ وجهه كالطماطم ومع ذلك فأنّه بدلاً من أن يجبرني على إطاعته نظر نحو الباب وخاطب:

ـ الآن أنا مستعجل ولكن لاحقاً سأُعلّمك من أي معدن أنا.

وبدلاً من إستخدام القوّة ضدّي جاء إلي في المساء ليعلمني بأنّني من الآن فصاعداً معفو من السخرة ولكن دون أن ينسى التأكيد بأنّ الأمر «يخصّني لوحدي فقط». وبينما أشكره إتّجهت أفكاري نحو رفاقي وجهدت في إيجاد وسيلة ليستفيد جميعهم من هذه المكرمة.

إنّ واقع تمرّدي من السخرة والظفر برأيي كان بمثابة إنتصار على إستبدادية هذا المعتقل وكنت أُحبّذ بأن تزول في السجن ممارسة الركوع الجماعي بشكل تام ولكن بأيّة وسيلة؟

وبعد مرور يوم من ذلك دخل أبو زيتور القاعة كالصاروخ بحجّة الضوضاء في حجرتنا وهو يصرخ كعادته:

ـ كلكم ركوع!

حينما سمعوه وثب كل رفاقي من المقاعد ووضعوا ركباتهم على الإسمنت للركوع ولكنّني بقيت في مكاني لم أتحرّك.

ـ ها ولماذا لا تركع أنت؟ صرخ أبو زيتور في وجهي ثائراً.

ـ ولماذا ينبغي علي الركوع؟ قلت له وأنا أنظر إلى عينيه بثبات وتحدّي.

ـ لأنّني أمرتكم جميعاً بالركوع.

ـ لكنّني لم أفعل شيئاً يستحق هذه العقوبة، صرخت في وجهه رغماً عنّي وبأُسلوب عنيف.

فلانت قسمات وجه الحارس حينذاك وإختفت تعابير الغضب. ومن ثمّ حدّق في وجهي ملياً للحظات وإبتسم قائلاً لكل سجناء الحجرة:

ـ حسناً، حسناً، عودوا إلى مقاعدكم!

ومن ثمّ هجر أبو زيتور القاعة بمرح ظاهر وإعتباراً من هذا اليوم لم يعد الحرّاس يطالبوننا بالركوع سوى في مناسبات نادرة...

أصبحت الحياة في سجن مزّة بلا سخرة ولا ركوع أكثر تقبّلاً دون أدنى شك ولكن إنعدمت الراحة فيه حيث كان العدد في قاعة مخصّصة لخمسة وعشرين سجيناً يتجاوز أحياناً خمسة وأربعين فيتكدّس أحدنا على الآخر بحيث يضطر البعض خلال الليل الذهاب لبسط أغطيته وسط الحجرة بالرغم من مخالفة الضوابط والتعليمات. ولأنّ الأبواب والنوافذ مغلقة فأنّ الرائحة المنبعثة من القاعة كانت عفنة إلى درجة أنه حينما يأتي النهار يضطر الحرّاس الذين يفتحون الباب إلى سد أُنوفهم.

كان علينا في الساعة الخامسة من صباح كل يوم النهوض والبحث عن شاي ذو مذاق سيّء مغلي في قدور كبيرة. حيث أنّه لم يكن صالحاً للشرب ولكن نرشفه آلياً لعدم وجود خيار آخر لدينا. وفي الساعة الثامنة تخرج كل غرف طابقنا للإستراحة في ساحة واسعة للسجن تحت مراقبة السجّانين القائمين بالحراسة على السطوح والجدران. كانت الإستراحة تدوم ساعتين نُجبر خلالها على المشي بإستثناء أولئك المعذورين طبّياً.

وقد تواجدت مستودعات للملابس والأغطية العسكرية بين الساحة والمهجع وتم ترتيب أحدها ليكون مخزناً صغيراً تباع فيه السيجائر وعلب الأغذية المحفوظة والشاي والصابون والمواد المطهِّرة ومعجون الأسنان والورق والأقلام.

كانت كل قاعة مجهّزة ببريمز (مسخّنة تعمل بالبترول) يستطيع كل معتقل، طبقاً لدوره، إستخدامه لغلي الشاي أو حتّى للطبخ. لم يكن الطعام المقدّم إلى السجين يختلف عن ذلك المقدّم للجيش وبكمّيات كافية ولكنّه كان على الصعيد النوعي رديئاً للغاية...

وبما أنّ المحكمة حرّمت علينا كل زيارة خلال الشهر الأوّل لإعتقالنا بسجن المزّة فقد إضطررنا الإبتياع من مخزن السجن وحال حصول أصدقائنا وأقربائنا على الترخيص من المحكمة العسرية كانوا يزودوننا بالخضراوات الطرية وبالفواكه والحلويات. كنّا في أيّام الزيارة نستلم كمّيات كبيرة جداً إلى درجة نقوم بتوزيع جزء منها على الجنود

المعتقلين الذين لم يكن بمقدور عوائلهم الساكنة في المناطق البعيدة أو العائشة في الشظف والحاجة المجيء حتّى مزّة.

لم يحق للمعتقلين عند الزيارة التحدّث بحرّية مع الزوّار وقد كان هنالك حاجز فاصل بينهم يتكوّن من بابين مصنوعين من القضبان الحديدية يبعد أحدها عن الآخر مسافة مترين ويقف شرطيان بين الأبواب لنقل وتسليم الهدايا وكذلك لمنع أي حوار حقيقي ومع ذلك فقد نجح مناضلونا الشباب على إطّلاعنا بأخبار الخارج المحلية منها والعالمية وحتّى على إيصال المناشير والرسائل عبر إخفائها في عمق أكياس الفواكه والخضراوات.

وبمرور كل أُسبوع يجري حدث يعبّأ كلّ السجن ما عدا الشيوعيين وكان يضجرنا صلاة الجمعة.

حيث أنّه بحدود الساعة العاشرة صباحاً من ذلك اليوم يتوجّب على المعتقلين وعلى كل حجرة إخراج أغطيتهم وبسطها على الأرضية المبلّطة للفناء. وفي الساعة الحادية عشرة يصطف كل السجناء غير الشيوعيين وعلى إختلاف معتقداتهم في الممر والتوجّه نحو الفناء للركوع وأداء الصلاة على الأغطية. يحضر إمام عيّنته السلطات بالزي القتالي لإلقاء خطبة الجمعة التي لم يتغيّر محتواها قيد أونصة والمتعلّق على الدوام بالحرب الشعبية لتحرير فلسطين. وبعد إنتهاء الخطبة ينادي أحد الأعضاء المساعدين للصلاة فيقف الإمام أمامنا ويؤم الصلاة بينما يجلس غير المشاركين في زاوية.

وفي أحد الأيّام وقع حادث أمتع المعتقلين الذين تواجد بينهم عدد كبير من الدروز المتّهمين بالتجسّس لصالح إسرائيل، كان بعضهم عسكريون سوريون محترفون وآخرون مواطنون لبنانيون مدنيون بسطاء. برز من بينهم أبو سليم الذي تم إدانته بالعقوبة القصوى على إثر دعوى طويلة وكان قد قدّم إلتماساً إلى الرئيس للعفو عنه. وبالرغم من كونه درزي فأنّ أبو سليم إقتنع بأنّه لو إستطاع تمرير نفسه على أنّه مسلم فسترتفع حظوظه بتلقّي جواب إيجابي لطلب الإلتماس. وبينما كنّا ننتظر سنّياً في أحد أيام الجمعة لتأدية نداء الصلاة فإذا بنا ننبهر ونحن نرى أبو سليم يقوم بأداء هذه المهمّة. وقد أثار صوته الجهوري رعشة التعاطف والقشعريرة...لدى حتّى غير المؤمنين أنفسهم. فهل أنّ تصرّفه يا تُرى قد أصاب الوتر الحسّاس لناصر؟

لكن المؤكّد هو انّ أبو سليم رأى بأنّ العقوبة القصوى قد تغيّرت إلى السجن المؤبّد وبدأ منذ ذلك اليوم لفرط سعادته بفعل ناصر يفتل شاربيه نحو الأعلى بتباهي وفخر ويبدو عليه الرضى والقناعة بمصابه وقدره.

خلال الأشهر الأُولى لإعتقالنا في مزّة كنّا أنا ورفاقي من الحزب الديموقراطي الكوردي السوري نجهل كل شيء حول المصير الذي ينتظرنا ونمر بمرحلة يائسة حينما أعلنوا عن زيارة مدّعي المحكمة العسكرية العليا ولهذه المناسبة فقد عبّأوا كلّ الحجرات لتنظيف السجن رأساً على عقب كما قاموا بحلق رؤوسنا ونصحنا مسؤولو مزّة بعدم تقديم أيّ شكوى حول حياتنا في السجن.

ـ وإلاّ ستندمون، حذّرنا الرقيب.

إصطففنا ونحن نرتدي ثياباً نظيفة فإستقبلنا عملاق ضخم برتبة كولونيل وحينما طلب منّا فيما إذا كانت لدينا مطالب لم ينبس أي شخص بكلمة وعندما إقترب منّي لم أقدر على تمالك نفسي فأطلقت:

ـ أين وصلت قضيّتنا؟

ـ أيّة قضيّة؟ ردّ علي بنبرة متعالية ومندهشة في آنٍ واحد.

ـ ولكن قضيّة الكورد!

ـ آه؟ حسناً أعلم بأنّ التحقيق في قضيّة مثل قضيّتكم يتطلّب وقتاً طويلاً جداً. ولكن قمنا بإنجاز العمل وسيتم إصدار الحكم بالقريب العاجل. يمكنكم من الآن توكيل محامين إلاّ فيما إذا فضّلتم بأن نقوم نحن بتعيينهم مباشرةً.

ـ شكراً، أجبته، سنختار نحن بأنفسنا محامينا.

ـ كما تشاؤون، لا إعتراض لي على ذلك، قال لي مبتسماً.

بعد مرور أيّام جاء الرقيب المسؤول عن التنسيق بين المحاكم وبين السجن ليصرخ في الممر:

ـ زازا ومجموعته بخصوص المحكمة. غداً أمام مكتب المديرية في الساعة ٦,٣٠!

كنّا قد عثرنا على محامين من بين الكبار في محاكم دمشق وقد طلبوا منّا مبالغاً طائلة ولكن بالمقابل تطوّع ثلاثة محامين كورد ومحامي عربي شاب من حلب مجّاناً

للدفاع عنّا. كانت التهم الموجّهة إلينا خطيرة ولذا فقد كان على المحامي أن يكون بمستواها.

في اليوم التالي إصطففنا ونحن يقظين وحالقي الذقون أمام مكاتب المديرية. قام الرقيب المسؤول بمناداتنا وأجرى تفتيشاً دقيقاً علينا وهو يأمل بأن يعثر لدينا على رسائل موجّهة للقاضي أو للجمهور ومن ثمّ وضعونا في الباص الصغير الذي كان قد نقلنا إلى مزّة وحبسونا في نوع من القفص الذي تم ترتيبه لهذا الغرض داخل ساحة المحكمة. وفي ذلك اليوم لكون المحكمة لم تعقد جلستها فأنّ كاتب المحكمة إكتفى بالتحقيق عن هويّاتنا وأمّا الرئيس فقد قام بإستدعائي للإستجواب مجدّداً حول الفصل الخاص من الترجمة المشهورة للكتاب الإنكليزي divided country Kurdistan.

كان النص المترجم إلى الكوردية بالحروف اللاتينية بمثابة إكتشاف للسيّد القاضي العسكري المثقّف الذي قيل بأنّه قد درس القانون في فرنسا.

ـ ما هذا؟ ولكن ما هذا؟ سأل.

ـ أنّه كوردي، أجبت.

ـ أ هكذا تُكتب بالكوردية؟

ـ نعم، منذ أكثر من أربعين عاماً يستخدم كورد سوريا وتركيا الحروف اللاتينية الملائمة للأصوات اللغوية الكوردية.

ـ ولكنّها رائعة جداً، أنّها رائعة بحق، لم يكف بالتعبير عن إندهاشه وهو منذهل من هذا الإكتشاف.

ـ وأنت بنفسك هل تكتب الكوردية بصورة جيّدة؟

ـ نعم أظن، أجبت.

ـ آه نعم، قال لي بنبرة تعاطف مخفية تجاهي وربّما تجاه جميعنا من الكورد المسجونين...

بعد هذه المقابلة إقتادنا الباص الصغير إلى السجن من جديد وعبر النوافذ المشبّكة كنت أرى الناس يتنزّهون ويهتمّون بمشاغلهم. كنت أتساءل مع نفسي وقلبي يرتعش هل يأتي يوم أتمكّن فيه من التنزّه بحريّة من جديد...

فتّشونا في السجن مجدّداً وحجزوا الأحزمة وربطات عنقنا وفي الرواق كان السجناء العسكريون متلهّفين لمعرفة ماجرى لنا بالضبط في المحكمة وكيفية تعامل القاضي معنا وبينما يستمعون إلينا بإنتباه كانوا يردّدون البواعث والحوافز التي يمكن أن تواسينا وتشد من عزمنا.

ـ أنّ اسم المحكمة العسكرية يرعب ولكنّها في الحقيقة أقل تشدّداً من المحاكم المدنية. ستخرجون منها بأقل الخسائر وسوف ترون!

كنّا نهدهد مشاعرنا بكلامهم الإيجابي...

إعتباراً من ١٥ كانون الأوّل ١٩٦٠ ولحد ٢٠ شباط من عام ١٩٦١(يوم المحاكمة) كانوا يقتادونا كل يوم سبت، عدا أيّام العطل، إلى المحكمة.

إنعقدت المحكمة في الجلسة الثانية بكامل نصابها وقد كان الرئيس برتبة كولونيل ويعاونه عضوان، وكيل المدّعي العام وسكرتير مدني. نصبوا خلف المحامين ثلاثين مقعداً حيث أنّ الخمسة الأوائل منها كانت مخصّصة لنا والبقيّة للجمهور. منعوا دخول الجمهور حين إستجوابي ولم يسمحوا بحضور غير الصحافة الخاضعة كلّياً للحكومة.

ركّز رئيس المحكمة على عناصر الإتّهام الرئيسية التي صيّغها حاكم التحقيق العسكري لحلب: بأنّنا قمنا بإنشاء مؤسّسة غير شرعية غرضها سياسي وبأنّنا قمنا بأعمال تخريبية قاصدين تفسيخ الوحدة الإثنية والسياسية للبلد وإلى آخره.

ـ أنت الذي أخذت المبادرة بتشكيل الحزب الديموقراطي الكوردي لسوريا، أليس كذلك؟ سألني الرئيس.

ـ نعم صحيح، أنا الذي بادرت.

ـ لماذا بادرت في إقامة هكذا مشروع؟

ـ للدفاع عن أنفسنا ضدّ الشوفينية الشرسة للقومية العربية.

ـ إنّ الوثائق التي عثروا عليها لدى عناصركم تفضح مقاصد حزبكم بإقتطاع جزء من سوريا لإلحاقه بدولة أجنبية. ألا يعتبر ذلك محاولة للخيانة العظمى؟

ـ أنّكم تستندون على وثيقة مترجمة من كتاب إنكليزي. إذا ضمنت لي بأنّكم لن تمسّوا الشخص الذي وهبته هذا الكتاب سأذكر لكم عنوانه فتقدرون بذلك على التأكّد

من حقيقة قولي.

وحسب وعد الرئيس أشرّت على عنوان الصديق وأضفت قائلاً:

ـ أن الفصل المتّهم بالجريمة من هذا الكتاب تمت ترجمته من قبلي لوحدي ولم يتم توزيعه.

ـ سنرى، ردّ الرئيس، وبإنتظار ذلك أعطني وقائعاً ملموسة حول إتّهاماتك بشأن ضحايا التمييز من الكورد في الجمهورية العربية السورية.

فبدأت أسرد على الفور بعدّها وحينما رأى الرئيس بأنّ الأمر يستغرق وقتاً طويلاً إقترح علي بذكر كل ذلك كتابياً للجلسة القادمة...

في ذلك اليوم لم يعد ثمّة وقت لإستجواب المتّهمين الآخرين وعلّقت المحكمة جلستها عند إعلان ساعة الظهيرة فسارع أفراد الشرطة بإعادتنا إلى مزّة...

أعددت خلال اسبوع وبمساهمة رفاقي تقريراً طويلاً حول التمييز الذي كان يمس كورد سوريا تحدّثت فيه عن نيّة السلطات الحاسمة بإزالة الثقافة الكوردية (عبر غياب المدارس والكتب والصحافة الكوردية) ورفضها منح الجنسية السورية للعديد من الكورد الساكنين في سوريا منذ عدّة أجيال كما ذكرت نيّة نفس السلطات بتعريب المناطق الكوردية من خلال تهجير الكورد من قراهم وإستقدام العرب محلّهم وسجّلت في التقرير أيضاً تحيّز الموظّفين وفصل الكوادر العسكرية والمدنية من وظائفها وغلق أبواب اكاديميات الجيش والشرطة أمام الشبّان الكورد رغم تلبيتهم للشروط اللازمة.

قدّمت التقرير في الجلسة اللاحقة إلى الرئيس الذي إستنكف إلقاء مجرّد نظرة عليها حتّى نهاية الدعوى.

بعد مرور عدّة اسابيع، إستناداً إلى مواد القانون العقابي، المدني منها والعسكري، وكذلك تحت تأثير السلطات السياسية للبلد طالب وكيل المدّعي العام بالحكم بعقوبة الموت لثلاثة من بيننا، عثمان صبري ورشيد حمو وأنا وبعقوبة سجن تمتد من سنتين إلى عشر سنوات لرفاقنا الآخرين.

كان لدى محامينا اسبوعان لإعداد المرافعة وبعد مرور بضعة أيّام أعلنت الإذاعة التي لم تعد تبث سوى موسيقى المسيرات العسكرية بأنّ الرئيس عيّن لجنة مكلّفة

بدراسة الدستور الجديد (الديموقراطي) وبأنّه ينادي الشعب للمساهمة بإعداده وعلى كل من له مقترحات وآراء تتعلّق بهذا الدستور إرسالها إلى ناصر شخصياً أو إلى اللجنة المذكورة.

عندما سمعت بالخبر أسرعت في تحرير برقية سلّمتها لمديرية السجن لإرسالها إلى الموما إليه موضّحاً لهم تحمّلي للنفقات. مضت أيّام عشرة وفي اليوم الحادي عشر بينما كنت راقداً وعلى وشك النوم فتح جندي باب الممر بصخب وسحبني من قدمي وهو يدعوني لمرافقته على الفور. أدخلني الجندي في محل مضاء بصعوبة وقد لاحظت المدير جالساً وراء منضدة كبيرة مقطّب الجبين أكثر من اللازم وبين يديه ورقة إستصعب علي تمييز حروفها ويقف حوله وعلى طول الجدران شرطة عسكرية بمختلف المراتب وكذلك جنود بسطاء. لم يردّوا على تحيّتي وإنّما وجّهوا نظرات عتاب وعدوانية تجاهي. مرّت بضع دقائق وجوّ صامت ثقيل ومقلق يخيّم على المكان.

«يا تُرى مالذي يبغيه كل هؤلاء الحاضرين في هذه الغرفة وفي ساعة متأخرة من الليل؟» تساءلت مع نفسي حائراً.

بعد هنيهة، رفع المدير رأسه نحوي محدّقاً في وجهي بإزدراء وأطلق:

ـ من الذي كتب هذه الورقة؟

ـ أيّة ورقة؟

ـ هذه البرقية الموجّهة للرئيس.

ـ أنا الذي كتبتها، أجبته متنفساً الصعداء حينما تحقّقت بأنّ الأمر لم يتعدّى أكثر من هذا.

ـ ولماذا أردت إرسال هذه البرقية؟ تابع كلامه.

ـ لأنّني لم أسرق ولم أقتل أحداً، بذلت الجهد وعانيت لمتابعة دراستي كي أفهم العالم بشكل أعمق وأُحاول مساعدة شعبي والبشر بصورة عامّة لكن أجد نفسي اليوم في السجن لمجرّد أنّني كوردي. بعثت هذه البرقية آملاً في المستقبل بأن لا يعرف كورد آخرون هذا المصير على الإطلاق.

ـ أ يا دنيء! هل أنّ الوقت مناسب لإرسال البرقيات؟ صاحَ المدير في وجهي والزبدة

تنبعث من شدقيه وعيونه تتطاير شرراً.

ـ لماذا أنا دنيء، أجبته، ولماذا لا أبعث ببرقية لرئيس دولتي؟ تتصرّف وكأنّني وجّهتها لرئيس دولة أجنبية معادية لبلدي.

ـ أنّك لا تفهم إذاً بأنّ الرئيس مشغول بمسائل مهمّة أُخرى في هذه اللحظة، ردّ علي.

ـ لكن ما هو أعظم من تبنّي دستور جديد للبلاد ولا سيّما إذا كان نابعاً من إرادة الشعب بكلّيته؟

ـ لا يحق للسجناء التعبير عن آراء بهذا الخصوص، صاح المدير.

ـ إذا كان الأمر كذلك فلماذا عملت سمّاعات السجن بكل قوّتها لإسماعنا الخبر؟

وهو يراني أرد على المدير بالمثل أسرع الرقيب زين العابدين نحوي رافعاً يده:

ـ قل لي يا هذا! يبدو أنّ الأشهر الخمسة من السجن لم تكن كافية لتعريبك. أنّك تستحق عقاباً مثالياً!

بعد الإنتهاء من نطق كلماته حاول توجيه لكمة على رأسي لكنّ المدير منعه.

ـ لا، سنعفيك هذه المرّة من الضربات ولكن في المرّة القادمة سنعرف كيف نهشم عظامك ومن ثمّ إستدار نحوي وصرخ:

ـ انصرف الآن، أيّها الكلب الأجرب! حذار من إرتكاب هكذا حماقات مستقبلاً.

قبل أن أملك الوقت الكافي للرد تراكض نحوي شرطيان وأخذاني بقوّة لإعادتي إلى المهجع. كانت الحجرة بأكملها لا تزال ساهرة لمعرفة ما حصل لي.

ـ لم يكن هنالك أي أمر خطير، قلت لهم، ناموا بسكينة سأُحدّثكم غداً صباحاً.

فإختفت رؤوسهم تحت الأغطية وتصاعد شخيرهم بعد حين في كل إتّجاه. أمّا أنا فلم يُغلق لي جفن طوال الليل لأنّ هذا الحادث كان يقلقني. لم ينتهكوا حقوقي كمواطن فحسب وإنّما شتموني وهدّدوني أيضاً بأسوأ العواقب لأنّني فعلت ذلك والسبب في تعامل السلطات معي بهذا الشكل يعود فقط لكوني منتمياً لقومية أُخرى ألم يكن من الأولى ذكر هذا التمييز العنصري لقاضي المحكمة؟ فكرّت بذلك على مدار الليل. في اليوم التالي سجّلت على الورقة كلّ الحكاية كما حرّرت أيضاً رسالة موجّهة إلى رئيس المحكمة طالباً منه بأن يضيف هذه الحالة في التقرير الذي كنت قد سلّمته.

بعد مضي يومين وبينما كان الحرّاس يستعدّون لإقتيادنا إلى المحكمة أخرجت من جيبي الوثيقتين ومددتها للرقيب زين العابدين قبل ان يبدأ بتفتيشنا. وهذا الأخير مرعوباً من محتواها وجّه إلي نظرات حادّة وهرع نحو المدير لإعلامه «بالمؤامرة التي حبكتها ضدّهم».

وصل المدير بسرعة وهو يقفل أزرار سترته وبصوت مبحوح أطلق:

ـ أنّك تسعى حقاً إلى خلق المتاعب لنا، أليس كذلك؟ سيكلّفك ذلك غالياً وغالياً جدّاً، صدّقني!

ـ سأناضل بكل قواي ضدّ جميع أشكال الظلم، أجبته بهدوء.

ـ ستكافأ على ذلك بعد عودتك من المحكمة، كن على يقين.

كرّست المحكمة جلستها لمرافعة أحد محامينا ولأنّ القاضي لم يتفوه بكلمة حول شكواي فقد طلبت منه فيما إذا إستلم من مديرية السجن تقريراً كتبته فأومأ إلي بالإيجاب وبغموض.

ـ أتوسّل إليك بقراءته على عجل وبأن تضعني تحت حمايتك لأنّه لدى عودتي إلى السجن سيقوم المدير وأتباعه بتلقيني درساً لقيامي بإطّلاعك على هذا الحدث.

ـ لا أبداً، سوف لن يحصل هذا، أجابني وأسرع في إغلاق حقيبته قبل أن يغادر المكان.

كان الرقيب زين العابدين ينتظرنا أمام مكاتب السجن بأنياب مكشّرة ككلاب الحراسة.

ـ من الآن فصاعداً، صرخ بملء رئتيه، ستخرجون كلّكم للسخرة. ليس هنالك من معفي بينكم.

بعد ذلك قام بتفتيشنا بعنف ووحشية وطردنا نحو مهاجعنا ولم يعطنا أكثر من مهلة عشرين دقيقة لتناول الأكل.

ـ كلكم عالسخرة! صرخ فينا.

تراكض كل السجناء، بضمنهم من كان في رواقنا، للخروج من المرقد وإصطّفوا على طول الممر. أدركت بأنّ الإدارة تبحث عن الإنتقام بهذا الشكل «للإساءات» التي إرتكبت

ضدّها وبما أنّني لم أخرج من المهجع وأصررت على نيّتي فقد إقترب الرقيب منّي.

ـ لماذا لم تذهب للسخرة مثل الآخرين؟

ـ لأنّني بكل بساطة لست هنا لهكذا نوع من العمل، أجبت عليه.

ـ أنت هنا في سجن عسكري يجب عليك إطاعة الأوامر الصادرة. تخرج حالاً وإلاّ ستحصل على مشاكل معي، صرخ الرقيب. أعدك بأنّك إمّا أن تخرج أو تتلقّى ضربات سوطي على الرأس.

ـ لن تستطيع إخضاعي تحت إرادتك بسوطك، قلت له بهدوء ولكن بنبرة قاطعة.

أنزل الرقيب ذراعه ووجّه نحوي نظرات سوداء.

ـ سترى من الذي يملك كلمة الفصل، هنا!

يحصل.

كرّر الرقيب هذا التمرين خلال ستّة أيّام متوالية وهو يرفع صوته أكثر فأكثر ويطلق التهديدات ويخضع كل السجن إلى توتّر لا يُطاق.

إستمرتُ على لا مبالاتي بالتحذيرات والتهديدات والشتائم وبصراخ وعواصف الحرّاس و زين العابدين. كنت أشد على أسناني حينما أُحدّق في وجه الجلاّدين وأنا جالس بثبات على غطائي الصوفي. أنّ الجهد العصبي والعضلي التي تطلّبته هذه الإرادة في المقاومة سبّب لي آلاماً مزمنة في الظهر ولا سيّما في الكليتين ممّا أدّى بعد حين إلى إرتعاش كل جسدي ولكن في اليوم التالي عاودت من جديد على تحدّي الرقيب والحرّاس وفي اليوم السابع قرّرت إنهاء مقاومتي كما أبدى زين العابدين رغبته فجأةً بتنظيف السجن من أوّله إلى آخره فأصدر أوامره لكل الجنود المعتقلين بالتزوّد بالمكانس والسطول وإرتدى زيّه العسكري القتالي لهذه المناسبة وهو يتحرّك كقائد عسكري للجيش أثناء الحرب بصوت قوي وأوامر صارمة. بعد تركيبه لهذا المشهد أرسل شرطي إلى مهجعنا ليقول لي بأنّ الإدارة تطلبني فمررت بين صفوف الجنود المعتقلين ووصلت إلى الباب الضخم الذي يفصل الإدارة عن القسم المخصّص للسجناء. وقد وجدت هناك زين العابدين بهيئته الظافرة وبينما أتوجّه نحو مكتب الإدارة فإذا به يسد طريقي.

ـ الآن، تأخذ إحدى هذه المكانس وستذهب نحو أولئك المجتمعين لتكنس وتنظّف معهم ساحة الإستراحة الكبيرة.

ـ لا، لن أذهب، قلت له.

ـ بلى ستذهب، صرخ وهو يوجّه لكمة على وجهي.

قلت لنفسي «إذا ضربوني هذه المرّة سأستخدم يدي» لكن في اللحظة التي هيّأت فيها نفسي للرد بالمثل لمحت المدير متخفّياً داخل مكتبه محاطاً بالعملاق أبو العبد وبمجموعة من رجال الشرطة فمنعت نفسي من رفع يدي على أكبر مسؤول لمزّة وحاولت إرخاء عضلات الساعدين وتحمّل ضربات الرقيب دون أن أتفوّه بكلمة.

ـ ستذهب لتنظيف الساحة! واصل كلامه وهو يسدّد لكماته على وجهي.

ـ لا، أبداً، كنت أجيبه بلا توقّف.

لو لم يأتِ المدير ليأخذ محلّه لكان الرقيب قد تعب، بلا شك، من ضرباته.

ـ ها، مالذي يجري؟ إستفسر بسذاجة من الرقيب.

ـ يرفض السيّد الذهاب إلى السخرة.

ـ نعم، أهذا صحيح؟ اتركه لي، سأهتم به شخصياً وأتصرّف معه بحيث أنّه سوف يندّم على جرأته.

بعد أن أنهى كلماته مسكني من ذراعي وسحبني إلى جانب باب مكتبه. إنطلق من كل الزوايا حوالي عشرة من رجال الشرطة العسكرية وإلتفّوا حولي. وقف العملاق أبو العبد على يميني وهو على إستعداد للتدخّل وكان المدير قد عبّأ للمناسبة أيضاً خمسة عشر نائب ضابط مدانين بعقوبات سجن ثقيلة يستخدمونهم لمختلف الأعمال الإدارية والمخازن التموينية.

ومن ثمّ شرع المدير المتجهز بسوط ويهوي به أمام العيون الشغوفة والفضولية للمتواجدين وعيون خمسين سجيناً آخر على جسدي بضراوة وعنف مطلقاً كلمات نابية ومن كل ألوان الفولكلور العربي بحيث لم يدّخر لا والدي ولا أُمّي ولا شقيقاتي ولا أسلافي وأسلاف أسلافي وشعبي وأُمّتي. ضربني علي عيسى بغضب وهياج غير معقول حيث أنّه تمكّن من جلدي ١٠٠ مرّة بلا توقّف. بما أنّي كنت لا أزال في الجلدة

المائة واقفاً، منتصبا بقوّة على الفخذين لا أتحرّك ولا أنبس بكلمة ولا أستجدي الرحمة فقد ترك مدير السجن سوطه وشدّ قبضته ليلكمني بيمناه على فكّي. كانت الضربة قويّة إلى درجة شعرت بأنّ الأرض تتحرّك تحت أقدامي وتسحبني معها...

حينما عدت إلى وعيي وجدت نفسي في عيادة السجن والعملاق أبو العبد يجبرني على شرب محلول مر تنبعث منه رائحة كحول قويّة وسمعته يقول لي:

ـ اشرب، هيّا اشرب بسرعة كل القدح. سيساعدك على إستعادة قوّتك. آه منكم أيّها الكورد، أنا أعرفكم جيّداً. عندما تقولون «نا» فالأمر لديكم بحق لا وحينئذٍ من المستحيل ثنيكم وإقناعكم لتقولوا نعم.

وكان يهزّ رأسه يسرةً ويمنة كإشارة على عجزه أمام عناد وصلابة الكورد.

إنّ الضربات التي تلقّيتها جعلتني في حال يُرثى لها حيث أنّهم كسّروا إحدى أسناني كما تدمّى فمي وإنتفخ فكّي الأيسر إلى درجة كنت أُعاني ألماً حينما أُرخي أسناني وعلاوةً على ذلك فقد بدأ ظهري يحرقني ويقطّع أنفاسي كما لو أنّهم وضعوا كبّاسة على صدري. كان الرقيب المضمّد رجلاً مختلفاً بهدوئه ونعومته عن البقيّة من الكادر العسكري وقد بذل كل ما يقدر عليه لمعالجتي. جعلني أُغرغر فمي بسائل مخثّر وضمّد وجهي كما ناولني حبوباً ضدّ الحمّى ومسح جسدي بصبغ اليود. حالما تمكّنت من الوقوف على أقدامي ساعدني للعودة إلى مهجعي. أنّ الضرب الذي كافأني به مدير السجن قد أثار كل سجناء مزّة حيث أنّهم تراكضوا نحو النوافذ عند مروري في الرواق لرؤيتي والتعبير عن تعاطفهم تجاهي رغم صراخ وتهديدات الحرّاس. وقد رأيت الكآبة على وجوه معتقلي ممرّنا وكأنّهم هم الذين تلقّوا الضربات وشاهدت بعضهم يذرفون دموعاً ساخنة وآخرون يلطمون على صدورهم ويلعنون الجلاّدين:

ـ تجرّأوا على فعل هذا بك، هؤلاء الوحوش القذرين!...

أمّا عدنان وادي الذي كان شابّاً كوردياً مُداناً بثلاث سنوات سجن لمحاولته منع مجموعة من الجنود إغتصاب إمرأة على الطرقات الخالية لدمشق. رأيته يبكي كطفل صغير وهو يقضم أظافره.

ـ لو كان بيدي كلاشينكوف مثل هؤلاء الأوغاد لقتلتهم جميعاً!

إحتاج عدنان إلى وقت لإستعادة هدوئه وقد كان يتأوّه ويقذف بشتائمه على ناصر وعبدالحميد سراج والمخابرات الخاصّة والقضاة ومدير السجن وأتباعه حتّى وهو نائم. أمّا أنا فبعد إغلاق الأبواب بقليل إرتفعت درجات حرارتي وبدأت أسناني تصطك وأهذي ممّا دفع جاري إلى إبلاغ السجّان الحارس بحالي وفي وقت متأخّر من الليل جاء الرقيب المضمّد وزرقني بإبرة كما ناولني أيضاً الحبوب المنومّة.

إستصعب علي النهوض في اليوم التالي حيث أنّني شعرت بالآلام في ظهري ورقبتي وأكتافي إلى درجة لم أكن قادراً على تحريك الجزء الاعلى من جسدي فطالبت بنقلي إلى المستشفى ولكن خوفاً من أن يقوم الطبيب المعالج بكتابة تقرير يشرح فيه أسباب حالتي رفضت الإدارة إلتماسي بحجّة أنّ المرّض قادر على تأدية المهمّة والقيام بالعناية اللاّزمة.

في يوم السبت كان لا يزال منظر وجهي مريعاً ويبدو ظهري كأنّه قطعة شواء محروقة. لم يأخذونا إلى المحكمة...إعتنى الرقيب المرّض بحالتي بتفاني وإخلاص وعمل كل ما يقدر عليه لإزالة آثار العمل الوحشي الذي كنت ضحيّةً له. وفي غضون عشرة أيّام زال التورّم على الوجه ولكن أكتافي وظهري بقيت مسودّة ولم تعد إلى حالتها الطبيعية إلاّ بعد مضي أكثر من شهرين.

ولازلت أُعاني لحد اليوم من آثار المئة جلدة على أكتافي ويحصل بأن أحلم أحياناً بمزّة ويتراءى أمام عيني مشهد رجال الشرطة العسكرية وهم يحملون سياطاً ضخمة في أياديهم ويكشّرون بأسنانهم ككابوس يفزّني من النوم...

في السبت الثاني الذي تلى الحادث جمعتنا السلطات، رفاقي وأنا، لإقتيادنا إلى المحكمة فذكرت أثناء الجلسة سوء المعاملة الذي تحمّلته رافعاً قميصي وعارضاً ظهري للرئيس الذي بدا عليه التأثّر بالمنظر ولكنّه أطلق ببرودة كالآلي قائلاً:

ـ نعم في الواقع سمعت بهذه الحكاية. أنّها الآن أصبحت قديمة ولا يجدي القيام بإحيائها من تحت الرماد...

حاول الحضور الذي كان كوردياً بصورة رئيسية الإحتجاج فقامت السلطات بإخلاء القاعة منهم بالقوّة. أمّا نحن فقد عدنا إلى السجن بعد فترة وجيزة وحينما أُبلغ زين العابدين بتصرّفنا في المحكمة ركب من جديد على ظهر فرسه إستعداداً للإنتقام ولكنه

تلقّى مكالمة هاتفية من مدير الشرطة العسكرية لسجن مزّة أثنتهُ عن نيّته في آخر لحظة.

وأخيراً جاءَ وقت المرافعات فقام محامونا الكورد والعرب بشجاعة بفضح العبثية والمبالغة في الإتّهامات الموجّهة ضدّنا من خلال تقديمهم للبراهين والحجج المسنودة.

ـ مالذي إرتكبوه ليقعوا تحت طائلة القانون؟ هل عملوا كعملاء لخدمة دولة معادية؟ هل أنّهم إرتكبوا جرائم الخيانة العظمى من خلال إلتحاقهم بالعدو وعرض أسرار الدولة عليه بمقابل مادّي؟ لا، ليس هناك أي شيء من هذا القبيل، تساءل محامي عربي، ترون أمامكم سيّدي الرئيس وسادتي أعضاء المحكمة أُناس شرفاء، رجال أنقياء مثاليّون ينادون بإحترام وتطوير لغة وثقافة وتراث الشعب الكوردي، هذا كل ما في الأمر. هذا الشعب الشجاع والوفي والفروسي أنقذنا، نحن العرب، في ألف مناسبة ومناسبة من زوال محقّق. فلنقرأ من جديد تاريخ صلاح الدين العظيم لكي نتأكّد من هذه الحقيقة.

ـ لماذا نعاتب الكورد على رغبتهم في فتح مدارس بلغتهم بينما أجزنا هذا الحق لليهود والارمن والسريان؟ واصل محامي كبير آخر من محكمة دمشق. يتجاوز عدد الكورد في سوريا كل هؤلاء ويتواجدون بشكل كثيف في كل شمال البلاد فهل من العدالة منح حقوق ثقافية للأطياف الدينية ورفضها لأكبر كيان اثني؟ لقد ورثنا هذه السياسة من القوّة المنتدبة فهل من المعقول التشبّث بها بعد مضي خمسة عشر عاماً على الإستقلال؟

ومن ثمّ جاء دور أحد المحامين الكورد من حلب.

ـ قبل أكثر من ثمانية قرون أتى الكورد إلى سوريا ليس كلاجئين يبحثون عن مأوى وإنّما كمنقذين. أنّ الشرق الأوسط، بضمنه مصر الذي يشمل فلسطين ولبنان قد وجد نفسه محتلاً بأكثر من ثلثيه من قِبل الفرنسيين والإنكلو ـ ساكسون. كيف يمكن لدولة تجمع اليوم مصر وسوريا السماح لنفسها بإضطهاد أبناء شعب ضحّى بدمه بلا حساب لتحرير وحماية العرب في أكثر الساعات المأساوية من تاريخهم؟ إنّ إخضاع الكورد إلى سياسة تعريب مفروضة بالقوّة يعني تحدّي التاريخ والعدالة والأخلاق وفي نفس الوقت تحدّي تقاليد ديموقراطية سحيقة للشعب العربي كما أنّه يعني أيضاً تمهيد

السبيل امام العنصرية والتمييز التعسّفي والمغامرات الفاشية. فكّروا في كل هذا، يا سادتي القضاة، قبل أن تنطقوا بحكمكم وتصدروا قراراتكم!

وبعد مضي أُسبوع على عرض المحامين لدفاعهم سمحت المحكمة لي بالتعبير عن نفسي أمامهم.

فذكرت نشاطي المعادي للإستعمار منذ شبابي حينما كنت طالباً في إعدادية فرنسية وذكرت إقامتي في سويسرا ومبادرتي فيها بتأسيس جمعية الطلبة العرب وقد أسهبت في الحديث عن ديموقراطية سويسرا ووحدة هذا البلد في التعدّدية والتعايش الآمن بين عدّة شعوب ولغات وثقافات ومذاهب مختلفة كما ركّزت على أصالة وقوّة وثروة وديناميكية سويسرا وعرضت أيضاً الإمتيازات التي يمكن أن تحصل عليها سوريا حينما تقوم بإحترام وتطوير الخصوصيات اللغوية والثقافية لهذه القوميات المختلفة وحينما تفتح السبيل أمامها لتندمج في الثقافة العربية وإغنائها بدلاً عن معارضتها عبر شوفينية متزمّتة ومتصلّبة، ضيّقة الأُفق ومنطوية على نفسها.

وقد أثّرت حججي ومنطقي بشكل إيجابي على القضاة الذين غرقوا في تأمّل طويل رغم الحركات الرافضة للوكيل وتصرّفاته ومن جهة ثانية تمكّن أصدقاؤنا في الخارج الساعين إلى تليين موقف السلطات المصرية ـ السورية تجاهنا من ترتيب حملة واسعة من الإحتجاجات وقام كورد العراق الذين بنوا علاقات جيّدة مع قاسم بالتهجّم على ناصر ونظامه بلا قفّازات كما مرّت وفود عديدة أمام سفارة الجمهورية العربية المتّحدة في بغداد خلال أيّام متتالية يطالبون بإطلاق سراحنا وفعل كورد لبنان نفس الشيء في الصحافة اللبنانية الديموقراطية ولدى سفارة الجمهورية العربية المتّحدة في بيروت كما سلّم أصدقاؤنا السويسريون المتعاطفون معنا إلتماسات موقّعة من قبل مئات من رجال الأدب والفن والعلم إلى السلطات المصرية ـ السورية وصمّم واحد من أوفى أصدقائي، المحامي والمستشار الوطني السويسري جيلبيرت بايشتولد، الحضور مع أصدقاء آخرين للدفاع عنّا أمام محكمة دمشق العسكرية كما أعلن كورد فرنسا وألمانيا والسويد وبلجيكا وإنكلترا وإيطاليا وأصدقاءهم تضامنهم معنا وطالبوا من ممثّليات الجمهورية العربية المتّحدة المتواجدة في بلدانهم بإطلاق سراحنا.

إنّ كل هذه التدخّلات والإلتماسات ساهمت بشكل كبير في تخفيف حدّة جنون

السلطات السياسية تجاهنا ولهذه الأسباب تحوّلت العقوبات الأبدية إلى عام وعاماً والنصف وعقوبات من ٧ ـ ١٥ سنة إلى عام وسبعة أشهر سجن.

تمكّنت بفضل تواقيع الأصدقاء والمجهولين النجاة من المقصلة...

بعد قضاء ستّة شهور في مزّة توجّب نقلي ونقل رفاقي في الحزب الديموقراطي الكوردي السوري إلى السجن المركزي لدمشق والذي لم يكن سوى تلك القلعة الحصينة التي بناها صلاح الدين.

أصدرت المحكمة حكمها يوم ٥ آذار من عام ١٩٦١ وفي مساء ١٥ أعلمتنا دائرة مزّة بإعداد أنفسنا للمغادرة. إنّ التفكير بهجر سجن يتواجد خارج المدينة، على مرتفعات دمشق، مدار وفق التعليمات العسكرية وخاضع إلى أهواء الشرطة ـ الجلاّدين والذهاب إلى سجن مدني تديره شرطة إدارية معروفة برخاوتها ومحبّتها للأقارب يقع وسط المدينة أسعدنا جميعنا. وهكذا فقد أسرعنا في تجميع أشيائنا وتوزيعها على الجنود المعتقلين وقد أحزنت مغادرتنا بعض المعدمين الذين كانوا يتلقّون القليل من النقود يومياً لقاء خدمات صغيرة يقومون بها لنا بينما قام آخرون بتهنئتنا وهم يحسدونا قليلاً على تخلّصنا من وحشية وسادية علي عيسى و زين العابدين وأبو زتور. أمّا عدنان وادي، صديقنا الشاب الساكن في الحي الكوردي فقد كان كئيباً لعدم توقيفه وإدانته لنفس الأسباب والدوافع ويبكي:

ـ لن يتأخّر زوال هذا النظام سيتم إطلاق سراح كل أُولئك المدانين ظلماً وإعادة الإعتبار إليهم بالنتيجة.

ولكي نواسيه كنّا نردّد له:

ـ سنلتقي خارج القبضان أحراراً، وسنباشر لخدمة شعبنا والإنسانية بالعمل معاً لإنجاز مشاريع عظيمة ولكن بإنتظار ذلك ينبغي عليك الإستفادة من إقامتك في السجن من خلال مواصلتك للدراسة وأداء الإمتحانات.

وبعد ترتيب الإجراءات الخاصّة للنقل والخروج كدّستنا إدارة مزّة في «سلّة للخضراوات» وتحت حراسة مشدّدة بإتّجاه المدينة فبدأنا عبر النوافذ الصغيرة المشبّكة بالحديد نتمعّن وكأنّنا نعيش حلماً في الأشباح المتجوّلة في طرقات المدينة وساحاتها العامّة.

وبعد عبور سوق الخوجا، أحدى الزوايا الأكثر حيوية من دمشق والمزدحمة بالتجّار والباعة المتجوّلين وبباعة ومشترين من كل الأصناف تمكّنت السيّارة بقوّة الكلاكسون إدراك البوّابة العملاقة لقلعة صلاح الدين.

تركتنا الشرطة الذين تم بالتأكيد إبلاغهم بوصولنا ندخل الباحة الخارجية وتكلّفوا بإقتيادنا إلى الداخل. إستقبلنا موظّف مدني جالس على الأرض خلف منضدة كبيرة لا يظهر سوى رأسه الأصلع الضخم وساعديه المغطيّتين بالشعر الاسود واحداً بعد الآخر في مكتب صغير مليء بالإضبارات والوثائق لتمشية إجراءات التسجيل ومن ثمّ وزّعونا بعد ذلك على مراقد «الزبائن» المدانين بسنتين من السجن في الحد الأقصى.

وضعوني مع ثلاثة من رفاقي في النضال في المرقد الواقع بالضبط مقابل المكاتب المخصّصة للإدارة. كان الكولونيل وجيه بَرازي، هذا الكوردي من حلب، مديراً للسجن حيث تم نقله من ضابط في الجيش إلى سلك الشرطة بسبب إصابته بطلقة رشّاش في البطن أثناء هجمة ضد دورية إسرائيلية في عام ١٩٥٨ على حدود الجولان وقد كان لا يترك فرصة تفوته دون أن يعرض بطنه المجروح على المتشكّكين بشجاعته ووفائه للوطن. وبدى عليه التحفّظ والحذر تجاهنا خاشياً دون أدنى شك تركيز إهتمامه المتزايد بمطالبنا والإستماع إلى إرشادات أصدقائنا الخارجيين الذين كانوا يعرفونه عن كثب...

وقد أثبت أحياناً بأنّه يتحلّى بالشجاعة والحيوية ففي الشعبة المخصّصة للمحكومين الكبار إستطاع إدخال طرق تعليم حديثة عبر ترتيب الصفوف إلى مستويات يتم فيها تطبيق البرنامج الرسمي كما بادر إلى إنتقاء المدرّسين بقدر المستطاع من بين السجناء.

وقد سارعت مع بعض أصحاب الشهادات من أصدقائي إلى ترشيح أنفسنا لوظيفة «التدريس» والتفرّغ في السجن ولكنّهم رفضوا ترشيحنا «بسبب وضعكم كمحكومين لأسباب سياسية»...

كما قام المحكومون بمبادرة من الكولونيل بَرازي بتشكيل فرق لكرة السلّة وكرة الطائرة ولكنّهم رفضوا طلبي هذه المرّة أيضاً لنفس الأسباب...

لم تكن هذه الإجراءات التمييزية بحقّنا لوحدها هي التي تحزننا وإنّما كانت سرائر

مهجعنا ملاصقة تماماً للمرافق الصحّية المجرّدة من الابواب والمنبعث منها روائح نتنة وعندما توسّلنا من الإدارة بنقلنا إلى مكان آخر أو السماح لنا بالإنتقال إلى السرائر المتواجدة مقابل البوّابة الحديدية للمهجع أجابونا بأنّ المهاجع كلّها مزدحمة حيث أنّه يتوجّب علينا إنتظار دورنا لكي نتمكّن من الإقتراب عن الباب تدريجياً.

وبشأن هذا الأمر الإفتراضي ففي كل مرّة حينما ينهي سجين مدّة محكوميته يشغر سريره فيتراكض نحوه معتقلون عديدون للإستحواذ عليه وقد كان يؤدّى إلى مشاجرات وعراك حقيقيين بين جماعات كاملة. إضطررنا إنتظار شهرين وصبرنا طويلاً كما توجّب علينا التلاطف مع الرقباء ورشوتهم كي يمكننا الإقتراب من الباب وإستنشاق الهواء النقي!...

ولكن مقارنة مع مزّة فقد كانت لهذا السجن إمتيازات عديدة حيث أنّ الأبواب كانت مفتوحة من الساعة الثامنة صباحا إلى الظهر ومن الساعة الثانية بعد الظهر لحد الساعة السادسة مساءاً كما كنّا قادرين على الإلتقاء بناس من كل الأوساط ومن كل مناطق سوريا. كانوا يحدّثوننا عن المخالفات والجرائم التي إرتكبوها فلاحظنا بأنّ معظمهم كانوا ضحايا للظروف الصعبة والسذاجة أو ضحايا لوسطهم العائلي والإجتماعي. وهكذا إلتقيت بأمثال هذا المسكين من الحي الكوردي في دمشق الذي أُدين بسبع سنوات سجن لقتله إخيه قضاءاً وقدراً بالإضافة إلى تحمّله لتبعات إجتماعية وإنسانية مفجعة بينما تلحظ بأنّ ذاك الموظّف غير الشريف قد أُدين بسنتي سجن فقط لسرقته أموالاً من الدولة تعادل قيمتها أكثر من مئتي ألف فرنك سويسري ولم يكتفِ هذا الإنسان المشؤوم بوضع المال المسروق في موضع أمين فقط وإنّما إستمر على التصرّف وكأنّه موظّف وربح الكثير من المال من خلال ممارسته لمهنة كاتب عرائض في باحة السجن بالذات. كان يجلس على مقعد صغير خلف منضدة يمكن طيّها ويكتب عرائض أو رسائل للمعتقلين غير المتعلّمين أو غير القادرين على توجيهها إلى الأوساط الرسمية.

كما تواجد من بين السجناء عدد لا بأس به من «مغتسلي الشرف العائلي» مثلما يسمّونهم على سبيل المثال آباء قتلوا بناتهم أو إخوة خنقوا شقيقاتهم بداعي «إرتكاب جريمة» إختراق شرف التقاليد الموروثة.

كان معظم سجناء المعتقل يمضون وقتهم وهم يصنعون محفظات النقود وحتّى

حقائب النساء بلؤلؤ من زجاج متعدّد الألوان فيعتاش هكذا عدد كبير من السجناء من تجارة اللؤلؤ والإبر والخيط أو من ثمرة عملهم وقد إختصّ حتّى البعض من رفاقنا في هذا الميدان من المهن الحرفية وقاموا بإنجاز «ذكريات سجن» لمعتقلين أقل موهبةً في الأعمال اليدوية...

مرّت الشهور الخمسة التي كانت لا تزال باقية من حكمنا بلا متاعب فلم نعد نخضع إلى أعمال السخرة ولا إلى التجارب المهينة أو التعذيب.

وحينما أدركت إقامتنا أيّامها الأخيرة وجد الكولونيل بَرازي نفسه يُحال إلى التقاعد وعمره لم يتجاوز بعد الأربعين سنة كالكثير من الضبّاط الآخرين من الكورد بالرغم من إخلاصه للنظام وخنوعه «لمخلوقات» ناصر ورغماً عن موهبته وطاقته كإداري وكتربوي فتم تكليف معاونه الذي كان مساعداً بسيطاً لإدارة السجن الذي كان يجثو فيه أكثر من ثلاثة آلاف سجين وسط الضجيج والهرج وهو نفسه الذي وقّع في ٨ آب من عام ١٩٦١ على أمر إطلاق سراحنا.

وجدت نفسي في صباح يومٍ جميل حرّاً طليقاً أتنفّس هواءاً نقياً بسيقان متراخية وقلبٍ يخفق فمشيت في طرقات دمشق بإبتهاج وفرح رغم علمي بأنّي مُراقب دوماً ومطارد وفجأة وجدت نفسي وسط جمهور غارق في مشاغله اليومية ووسط تجّار المرطّبات وعصير الفواكه وهم يصيحون بأعلى أصواتهم فشعرت بقشعريرة تمر عِبر جسدي ملأتني نشوةً وفرح.

كيف تمكّنت من قضاء كل هذه السنين من حياتي محتجزاً وراء جدران إسمنتية بينما تضج دمشق بهذه الحيوية في الحياة؟

كنت خارج أسوار مزّة في غاية الفرح وكنت لا أزال أحس بأنّني لست طليقاً تماماً فجهدت نفسي للتعوّد من جديد على مفهوم الحرّية والحياة «الطبيعية».

واجهت أوّل خيبة أمل حينما رأيت بأنّ شركتي المتخصّصة في الإستيراد والتصدير قد تم سلبها وتخريبها أثناء فترة إعتقالي وبأنّ العجز في ميزانيتها قد تجاوز مبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك سويسري فإضطررت على إستلام الأُمور بيدي والإنطلاق من الصفر.

سوريا

التعوّد على الحرّية من جديد
إنهيار الإتّحاد بين مصر وسوريا
تجربة مرشّح ـ مندوب في البرلمان السوري
إنقلاب عسكري ووصول حزب البعث إلى السلطة
حياة في الخفاء خلال عدّة شهور
لدى أُسر كوردية من دمشق

إنّ فساد النظام الإقتصادي وإختلال توازنه الذي حرّض عليه تسلّط وهيمنة ناصر على سوريا (ولاسيّما سياسته في تأميم البنوك والشركات الكبرى والأراضي) لم يحدث كي يسهّل أموري وكان السوريون المهتاجون والثائرون أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم ضدّ «إستعمار» بلدهم من قِبل مصر يعبّرون عن إستيائهم جهاراً وعلانية ويبحثون عن وسيلة لنجاتهم.

وأخيراً وسط هذا الوضع الفوضوي هل سيكون بمقدوري العثور على الهدوء والإطمئنان الفكري؟ كنت في الحقيقة أتمنّى ذلك...إلى اليوم الذي إكتشفت فيه لعبة رجال المباحث حينما قام هؤلاء وتحت غطاء تجاري واهي بإستئجار غرفة تقع مقابل مكتبي يمضون فيها وقتهم لمراقبتي وأحياناً بحجّة تصليح خلل في تلفونهم كانوا يدخلون مكتبي لمعرفة هويّات زوّاري. مع ذلك وبالرغم من الرقابة المفروضة التي كانت تشد على خاصري كقميص النوم فقد تمكّنت من الحضور في عدّة إجتماعات لمدنيين وعسكريين صمّموا على إنقاذ سوريا من الدكتاتورية الناصرية. وقد عَمَّ الإستياء إلى درجة أنّ عبدالحميد سراج بدأ يتساءل مع نفسه حول إخلاصه ووفائه لناصر وقد حاول «المتآمرون» دفعه إلى رفع راية التمرّد ولكنّه تباطأ وفي غضون ذلك سارع ناصر

في إرسال القائد العام لقوّات الجمهورية العربية المتّحدة، الجنرال عامر، إلى سوريا والذي بعد وضعه لعبدالحميد سراج تحت الإقامة الجبرية باشر بنقل وفصل الضبّاط «المشكوك بولائهم» ولكنّه لم يتمكّن من أداء دوره حيث أنّه في فجر يوم ٢٨ أيلول من عام ١٩٦١ قامت وحدات سورية بقيادة الكولونيل نحلاوي رئيس ذاتية موظّفي الأركان العامّة وبقيادة الكولونيل حيدر خوزبري مسؤول الهجّانة بمباغتته داخل قصره في أبو رمّانة بدمشق وإرجاعهِ على الفور إلى مصر.

وفي اليوم التالي قاموا بفضح وتعرية الإتّحاد السوري ـ المصري فتم عند ذاك رؤية عشرات الآلاف من الضبّاط والجنود المصريين المنتشرين في جميع أنحاء سوريا وبشكل رئيسي على الحدود الإسرائيلية وهم يستسلمون إلى حفنة من الضبّاط والجنود السوريين.

لم يجرؤ ناصر على التدخّل عسكرياً أمام الواقع وإنّما إستخدم الإذاعة لدعم وتوجيه رجاله وتعبئة الجماهير السورية والعراقية وإثارة البلبلة وعدم الإستقرار فيها.

إتّخذ الأسياد الجدد لسوريا أثناء هذا الوقت إجراءات قسرية ضدّ عملاء ناصر والمتعاطفين معه. وتم تكليف مأمون خوزبري الذي كان أُستاذاً سابقاً في جامعة دمشق بتشكيل حكومة مؤلّفة من المدنيين بصورة رئيسية وبعد مرور زمن قصير أعلنوا إجراء «إنتخابات حرّة» في ٥ كانون الأوّل...

ونتيجة لتأثّر كورد الجزيرة الكبير بتوقيفي وبجميع أشكال التعذيب التي عانوا بأنفسهم منها خلال حكم ناصر فقد حثّوني على ترشيح نفسي كعضو في البرلمان وكانوا يتصوّرون بحق بأنّ الإنتخابات الموعودة ستكون «حرّة».

كان بالتأكيد على رأس الحكومة في دمشق رجل ذو ثقافة عالية، رجل ينتمي إلى البرجوازية الليبرالية ومتلهّف إلى إتّخاذ إجراءات بسرعة كي تتمتّع سوريا بحرّياتها الديموقراطية ولكن السلطة الجوهرية كانت لا تزال بيد الجيش كما أنّ الضبّاط الشباب كانوا يتبنون عقيدة قومية شوفينية قصيرة النظر ومعروفة بعدائها للكورد.

ولتوقّعي بحدود الحرّية المسموح بها في هذه «الإنتخابات الحرّة» فقد رفضت إقتراحات الحزب الديموقراطي الكوردي (الذي كان لا يزال سرّياً) ولكن هذا الواقع لم يردع أعضاء الحزب الديموقراطي الكوردي السوري فواصلوا في إرسال الرسائل

والبرقيات ومكالمتي بالهاتف يطالبونني بالذهاب إلى قامشلي وحينما تردّدت بالرد عليهم إتّصلوا حتّى بشقيقي الذي طلب منّي الإستجابة والخضوع إلى إرادة الشعب.

وفي أحد أيّام منتصف شهر تشرين الثاني حلّقت بإتّجاه قامشلي...وفي المطار تلقّيت إستقبالاً حافلاً حيث أصبحت لهؤلاء الكائنات المهانة يومياً شخصاً مرغوباً يمتلك مواصفات خارقة وقادر على إيجاد دواء سحري لكل آلامهم ومعاناتهم...

حينما وصلت عند أخي باشر الأصدقاء والرفاق بالضغط عليّ كي لا أهدر دقيقة وأقوم بعرض ترشيحي وإختيار فريق المساعدين الذي لم يكن أمراً سهلاً البتّة. إستناداً إلى قاعدة إحصاء غير كاملة ومزيّفة والتي صارت تقليداً في كنف الإنتداب الفرنسي كان يحق لدائرتنا الإنتخابية ترشيح أربعة مندوبين (مواطن كوردي معرّب وسرياني أرثدوكسي وكوردي وعربي من الريف). علاوة على هذا فأنّ الفرنسيون أورثوا للسلطات السورية عادة قبول عضوية رئيس قبيلة شمّر العربية بلا إنتخابات رغم قلّة عددهم في سوريا وإقامة غالبيتهم على أرض العراق في الجانب الآخر من الحدود مباشرة.

إنّ هذه الطريقة في ترتيب الأُمور كانت بمثابة ظلم فاضح لأنّ أرقام السجّل المدني في قامشلي كانت تشير إلى تواجد أربعة آلاف عربي وخمسة آلاف من غير المسلمين (المسيحيون بمذاهبهم المتنوّعة، سريان أرثدوكس بمعظمهم وكذلك يهود)

وسط مجموع مؤلّف من ٥٠٠٠٠ ناخب غالبيتهم من الكورد.

وبالإضافة إلى الكورد المسجّلين في القيد المدني فقد كان هنالك أكثر من مائة ألف لم يسجّلونهم بل بقيت طلبات تجنّسهم راقدة منذ سنين في المخازن المغبرة لسراي دمشق القديم ولكن رغم إعتبارهم «غير سوريين» فأنّ هؤلاء الكورد كانوا مطالبين بالتجنّد لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية (وخصوصاً على الجبهة الإسرائيلية). إنّ ورقة الهويّة الممنوحة من الجيش لم تمنحهم غير حق التنقّل في سوريا بينما كانت أبواب الوظائف العامّة والمدارس الحكومية مغلقة أمامهم.

وأخيراً علاوةً على هؤلاء الكورد «غير السوريين» فقد كان هنالك واقع يظهر بأنّ عدّة عشرات آلاف آخرين مسجّلين في القيد المدني ولكن لم تظهر أسماءُهم على القوائم الإنتخابية في الوقت الذي حرّموا كورداً آخرين بالرغم من وجود أسمائهم في السجّل

من بطاقة الهوية الشخصية ومن حق: الإنتخاب...

وقد سجّلت في ٢٠ تشرين الثاني ترشيحي رسمياً للإنتخابات وفي نفس ذلك اليوم كان لي لقاء طويل مع قائمقام المدينة.

ـ سأعطي للموظّفين المسؤولين توجيهات ضرورية لإعادة الحق بقدر الإمكان إلى الكورد المظلومين هنا ولكن نظراً للوقت القصير الذي يفصلنا عن الإنتخابات فأنّني أخشى من عدم قدرتي على الإستجابة إلى طلبات جميع المتقدّمين، خاطبني متضايقاً.

ـ بإمكان شبابنا تسهيل مهمّة موظّفيكم إذا رغبتم في ذلك، أجبته.

وفي اليوم التالي إمتلأت ساحة السراي بمئات الفلاّحين الكورد ترى بعضهم يمد بطاقتهم الشخصية لمتطوّعينا وآخرون يطالبون بتسجيل أسمائهم وعناوينهم وقد سارع موظّفوا النفوس الذين تهاوت على رؤوسهم الطلبات من كل حدب وصوب في بسط دفاتر ضخمة مربوطة ببعضها على المنضدة والبحث فيها عن الأسماء المقترحة قبل تسجيلها على القائمة.

فتم بهذا الشكل تسجيل أسماء أكثر من ألف شخص مجهّزين بالهوية الشخصية بصورة مشروعة على القائمة الإنتخابية قبل الإنتخابات بعدّة أيّام.

ولإقتناع الحزب الديموقراطي الكوردي في سوريا بأنّ أكثرية الناخبين يتشكّلون من الكورد وبأنّ غالبيتهم ستصوّت لقائمتي فقد أرادت تغيير القاعدة الإنتخابية الموروثة من القوّة الإنتدابية وذلك بتضمين قائمتي إضافة إلى اسمي الذي كنت حضرياً لكورديَين من الريف ولسرياني من قامشلي. كان أحدهما عضواً في الحزب الديموقراطي الكوردي لسوريا والآخر مندوباً سابقاً متعاطفاً وأمّا السرياني فقد كان يتحدّث بالكوردية ويشعر بالإنتماء إلى الكورد. كان لهذا «التجديد» تأثير ضربة صاعقة حيث أنّه عندَ تشكيل قائمتي قام ضابط الإستخبارات العسكرية بالتنكّر لحياديته التي حافظ عليها حتّى تلك اللحظة وبدأ يتحامل عليّ وعلى أنصاري بشدّة وباشروا في الدوائر الإنتخابية المرتبطة بقامشلي بتضييق الخناق ضد القائمين بالحملة الدعائية لصالحي ووضعوهم تحت الإقامة الإجبارية كما جاءَ مبعوثو الضابط ينصحونني «وديّاً» بإلغاء قائمتي وتشكيل أُخرى مع «المرشحّين الذين وافق عليهم الجيش». حينما رفضت قاموا بتشكيل تحالف في قائمة يقودها طلعت عبدالقادر الذي كان منحدراً من إحدى العوائل

العريقة في قامشلي ولكنّها تعرّبت بعمق كما أنّه كان قائداً سابقاً في سلاح الطيران للجيش السوري. كان قد «إختار» شيخين في القائمة من قبيلة طي العربية ليكونا معاوناه وهما لا يجيدان القراءة والكتابة على الإطلاق بالرغم من أنّ القانون ينص على أنّ المرشّح لعضوية البرلمان لا بد وأن يكون متعلّماً وأمّا ما يتعلّق بالسرياني على قائمة عبدالقادر فقد كان من أحد أشقّاء أصفر نجّار الذي يُعتبر واحداً من أكبر أثرياء سوريا.

في مواجهة فريق مدعوم من الجيش ومالك لوسائل مالية ضخمة بدأ رهاننا يصعب يوماً بعد يوم...كنت أنا وفريقي ننتظر الأصوات من الشعب وكذلك الوسائل لتمويل عملياتنا الإنتخابية. وقد فتحنا مكتب في كل مدينة للمقاطعة ليتمكّن أنصارنا من المجيء إليه أو من الإستراحة والمناقشة وتناول قدح شاي فيه كما توجّب علينا أيضاً طبع القائمة الإنتخابية وبعض المناشير على حسابنا وتوفير سيّارات تكون تحت تصرّفنا للتنقّل ونقل أنصارنا إلى المراكز الإنتخابية لأنّ هذه المراكز كانت قليلة في الريف وبعيدة غالباً عن بعضها. أنا وأصحابي لم نكن قادرين على تحمّل كل هذه المصاريف ولكن لحسن الحظ فأنّ الشعب، هذا الشعب الريفي الصغير المؤلّف من الفلاّحين الأُمّيين الذين قيل عنهم بأنّهم «غير واعين و نائمين ومتوحّشين» أعلنوا إستعدادهم للتضحية بأموالهم من أجلنا. وقد تمكّن هؤلاء الفلاّحون الذين كانوا يعانون في الحياة لكسب رزقهم من جمع عشرات الآلاف من الليرات السورية. تفاجأ الفريق المنافس الذي كان يقترح على كل ناخب ٢٥ ليرة سورية كلّياً بهذه النتيجة وأمّا العرب المناهضون للكورد ولا سيّما الضبّاط فأنّهم حكموا على سلوك الشعب الكوردي بأنّه «خطير ومهدّد» وبدأوا يضغطون على أسنانهم وأقسموا فيما بينهم على تهشيم حماسة الشعور القومي الكوردي وكانت الحملة الإنتخابية قد أدركت أثناء ذلك ذروتها حيث أنّ مرشّحو قائمتي كانوا يتنقّلون عبر المنطقة ويزورون قرية بعد قرية لإجراء إتّصالات جديدة هنا وإلقاء كلمات هناك ويحذّرون جماعتنا من هياج وثورة منافسينا أو يشجّعوننا لمواجهة تهديدات وتدخّلات السلطة.

ومن جهتي فبالرغم من نصائح المحيطين بي والدعوات التي كانت تصلني فقد فضّلت البقاء في البيت بدل إجراء الحملة ومع ذلك فقبل ثلاثة أيّام من الإنتخابات قامت مدن

عامودا والدرباسية الواقعتين على بعد ثلاثين وستّين كيلومتراً على التوالي عن قامشلي بتوجيه دعوة لي وقد أصرّوا إلى درجة بحيث رضخت وإستجبت إلى طلبهم وبعد ظهر ٨ من كانون الأوّل تطوّع صديق ليقودني إليهم أثناء النهار.

إستقبلتني في مدخل مدينة عامودا عدّة مئات من الشباب المتعاطفين إستقبالاً حافلاً داخل مركز قديم للحركة القومية الكوردية وبعد إطلاقهم للهتافات وصرخات الإحتفاء سدّوا الطريق أمام عربتنا ورقصوا على إيقاع موسيقى كوردية شجية ومن ثمّ طوّقوا فجأةً سيّارتنا وبسرعة البرق رفعوها على أكتافهم وهم يغنّون أناشيداً وطنية كوردية وقد ساروا بهذا الحال لمسافة ١٠٠ متر قبل أن يضعوها على الأرض. قام بعد ذلك بعض المؤازرين الأقوياء بحملي على أكتافهم حتّى مقر الحزب الذي إحتلّته آلاف الأشخاص وبعد أن قدّموا لي القهوة المرّة توسّلوا منّي بأن أوجّه بضع كلمات للشعب. عبّرت عن إمتناني للحضور في أعلى المنصّة على دعمهم وعلى الحفاوة التي إستقبلوني بها كما لعنت نظام ناصر وشكرت الجيش على مساعدته للبلد بالعودة إلى الحرّية والديموقراطية.

«أن أتمكّن من الحديث معكم هنا بكل حرّية هو دليل للإنفتاح على عهد مشرق وسعيد لسوريا ولكل ساكنيها عرباً كانوا أو كورداً.»

ولأنّ الشمس كانت في طريقها إلى الغروب فقد إضطررت الإختصار في الكلام كي أقدر على زيارة الدرباسية قبل العودة إلى قامشلي.

كان بإنتظاري عند عودتي إلى البيت في حوالي الساعة العاشرة مساءاً بعض الأصدقاء لمعرفة الأخبار وبينما كنت أعطيهم إنطباعاتي دقّوا على باب المنزل فتبيّن بأنّهما شرطيان ينويان مكالمتي.

ـ هل يمكنكم المجيء إلى مكتب المحافظ لأنّه يرغب في إجراء لقاء قصير معكم، قال لي الشرطيان بأسلوب مهذّب.

ودون أن أجد تفسيراً مقنعاً لهذه الدعوة الليلية سلكت درب السراي وأنا أطرح على نفسي ألف سؤال وسؤال وحينما وصلت أمام الباب أدخلني شرطي في مكتب المحافظ الذي كان برفقة كولونيل وقائد بالزي العسكري.

ـ بعد ظهر هذا اليوم ذهبتم إلى عامودا وألقيتم فيها كلمة، أليس كذلك؟ إستفسرا

منّي بكياسة ولطف.

ـ نعم، وما الضير في ذلك؟ قلت لهم متعجّباً.

ـ أوه، لا ضير في ذلك لكن كما ترى لم يبقَ سوى يومان قبل بدء الإنتخابات وطبقاً للقانون فأنّ الحملة الإنتخابية يجب أن تنتهي قبل المهلة بثلاثة أيّام. نحن متأسّفون حينما نقول بأنّكم لم تأخذوا هذا النص بنظر الإعتبار.

ـ لا أعتقد بأنّني خرقت القانون يا سيّدي المحافظ لأنّ المنع لا يبدأ إلاّ إعتباراً من الغد. كما إنّني لم أذهب إلى عامودا بغرض دعوة الناس لإنتخابي وإنمّا المدينة هي التي دعتني بنفسها. وقد ألقيت كلمة بقصد توجيه الشكر للجماهير على حفاوتها وللجيش على إنقاذه لبلدنا من هيمنة المصريين والمباحث.

وبينما كنت أتحدّث فإنّ العسكريين الثلاثة كانوا يراقبونني ومن ثمّ خاطبني المحافظ قائلاً:

ـ يا دكتور، نعرف بأنّ الشعب يحبّك وبأنّك لا تحتاج للدعاية لكي ينتخبوك ولكن بما أنّك تحسّس وتلهب مشاعر جماهير هذه المنطقة فأنّه من المفضّل عدم خروجك من البيت قبل إنتهاء الإنتخابات. هل يمكنك أن تَعِدني بذلك؟

ـ نعم، بالتأكيد، أجبته بلا تردّد.

ـ حسناً. أعتذر عن إزعاجي لكم. نتمنّى لكم ليلة سعيدة، قال لي وهو ينهض لمصافحتي.

وفعل العسكريان الآخران ذات الشيء وإصطحبوني إلى الباب.

كان الأصدقاء في المنزل يحيطون بأخي قلقين.

ـ لم يجرِ أي أمر خطير، خاطبتهم لإسكان روعهم. لقد نصحني المحافظ بعدم ترك المنزل إلى نهاية الإنتخابات كي لا أُثير الشغب وسط الشعب ونتحاشى المظاهرات.

ـ إنّ المحافظ إنسان شريف وهو حقوقي قدير وديموقراطي مبدئي، إسترسل شقيقي. ولكن في بلد أصبح مصير شعبه بين أيادي ضبّاط شباب جهلة متحمّسين للقومية البعثية والناصرية يعتبر أي واحد منهم نفسه نابليوناً يعشعش في عقله الكبرياء والطموح. ينبغي على رجال حكماء مثل المحافظ الذي يستطيع نادراً فرض

آرائه إتّخاذ الحذر حين ممارسته للوظيفة. وحينما يعطيك تلك النصائح فلا بد وأنّه شعر بالخطر على حرّيتك، أدعوك بالإستماع إلى نصائحه والإنحناء له من تلقاء نفسك فإيّاك التحريض والإثارة.

كان أصدقاؤنا على وشك المغادرة حينما دقّوا على الباب من جديد. وجدت نفسي أمام شرطيين مكفهرّين ومقطّبي الجبين.

ـ هيّا إذهب لدى المحافظ بسرعة، أمرني أحدهما بخشونة.

ـ لكن ذهبت إليه بالكاد قبل ساعة...

ـ عليك العودة إلى مكتبه دون تأخير!

لا بد وأن جرى تغيير في موقف السلطات ولمرّة أُخرى جديدة كنت أخشى رؤية نفسي خلف القضبان.

كان المحافظ ينتظرني في الطابق الأرضي بمدخل السراي بالضبط. وقد هرع نحوي وبدأ يتمتم عبارات الإعتذار.

ـ حاولت بقدر إمكاناتي حسم قضيّة جولتكم في عامودا والدرباسية ولكن يحكمنا في هذا البلد أطفال وهؤلاء يريدون قطعاً بأن أحاسب على «تجاوزي للقانون».

ـ في نيّتكم توقيفي كما أرى، قلت ببرودة.

ـ ولكن لا ذنب لي في ذلك إطلاقاً، صدّقني يا نورالدين بيك وهو يفرك عيونه. أنّهم ضبّاطنا، هؤلاء «الأطفال» كما أُسمّيهم هم الذين خابروني من دمشق وطالبوا بحجزك.

ـ لا تشغل بالك بخصوصي وإنّما فكّر فقط بنتائج توقيفي. ألا تخشون تفجير المنطقة المطعونة في روحها وإثارتهم بأقصى حد؟

ـ أعلم، أعلم...أخبرت دمشق بإسهاب عن خصوصيات الجزيرة وتوسّلت من المسؤولين أن يأخذوها بنظر الإعتبار. للأسف لم أقدر على إقناعهم بذلك أو بالأحرى لم أنجح في تغيير موقف وزير الداخلية الذي بدلاً عن أخذ تقارير مرؤوسيه المباشرين بنظر الإعتبار رضخ لتحذيرات الضبّاط الصغار في الإستخبارات العسكرية ومع ذلك فقبل إتّخاذ قرار بهذه الدرجة من الخطورة سأُخابر دمشق مرّة أُخرى.

وفي أعقاب عشر دقائق عاد ساخطاً.

ـ لم أقدر على شيء فالكل أصبح بيد الجيش وقادته غير قادرين على تحليل الأُمور ببصيرة. لا يريدون إخلاء سبيلك بأي شكل كان. أنا متأسّف على ذلك بحق. لننتظر وصول قائد الشرطة، قال ذلك وهو يترك نفسه يتهاوى على الكرسي.

وصل الأخير بعد حين. كان قد أجرى جولة تفتيشية عبر المدن ولاحظ بأنّ عدداً كبيراً من المنازل كانت لا تزال مضاءَة رغم الساعة المتقدّمة في الليل. أنّ هذا الإكتشاف قد أقلقه. جلس القائد بجانبي وبدأ يسترق السمع للضجيج القادم من الخارج. كان يخشى بأن يأتي أنصاري لمهاجمة السراي بهدف تحريري فنهض قافزاً من مكانه وبدأ يتفحّصني بنظرات إستفهامية.

كانت الحدود التركية متواجدة على بعد خمسة كيلومترات فقط منّا وفي الليل يدور حولها نشاط كبير...وقد وضعوا خطّاً سياسياً إعتباطياً لفصل البلدين بشكل إصطناعي أي قاموا بفصل أبناء الشعب الواحد عن بعضهم وقد حدث بأن يجد أبناء قرى كاملة منازلهم في تركيا وتتواجد أراضيهم بليلة وضحاها في سورية. كان أحد الإخوة «يحمل الجنسية التركية» بينما الآخر يحمل «الجنسية السورية» فلم يعد بمقدورهما التزاور إلاّ خفيةً. كانت كوردستان التركية غنية بالمواشي والفواكه والخشب بينما كوردستان السورية غنية بالحبوب والنسيج والقهوة والشاي والمنتجات الأوّلية الأُخرى وبما أنّ الوحدة الإقتصادية تحطّمت فأنّ المبادلات التجارية الضرورية كانت تجرى خفيةً عن طريق التهريب.

ولكي تصبح مهرّباً فلابد من أن تكون جريئاً ومخادعاً وأن تكون مسلّحاً وتعرف طوبوغرافيا الأماكن كما ينبغي عليك إمتلاك مهارة وقابليات النخبة من الرماة. وإنْ كان من السهولة شراء رجل الدرك التركي نسبياً فقد كان يتوجّب عليك معرفة كيفية شرائه وتنسيق وتوقيت عبورك للحدود مع ساعة حراسة الشرطي الفاسد كما أنّه لم يكن أمام المهرّب الذي يواجه دورية سوى منفذَين: إمّا الهروب أو الشروع في القتال.

لكل هذا لم يكن مستغرباً بأن تسمع دائماً في ليالي هذه المنطقة صوت الإنفجارات أو صوت لعلعة الرصاص...

كان قائد الشرطة يرتعش في ذلك المساء حينما يسمع صوت كل طلقة تخترق الهواء من جهة الحدود.

ـ وذاك، ماهو؟ كان يسأل من المحافظ وهو يسترق السمع وينظر عبر النافذة.

حاولت السيطرة على نفسي كي لا أضحك بينما كان المحافظ يسكن روعه بصوت هادىء:

ـ لكن هدّيء روعك فهذا الصوت لا ينطلق بالتأكيد من عندنا!...

ولأنّ قائد الشرطة لم يكن قادراً على تمالك نفسه فقد طلب منه المحافظ بالإنسحاب من الجلسة وبقيت لوحدي برفقته. رمقني بنظرة حزينة متضايقاً من إصطحابه لي إلى السجن.

ـ أفضّل أن أُقتاد إلى السجن من قِبلك بدلاً عن غيرك، قلت له لتطييب خاطره وتشجيعه. هيّا سلّمني للسجّان وإذهب لتنام.

نهض المحافظ بعدم إكتراث راجياً مني بأن أتبعه. تواجد السجن على بُعد خمسين متراً فقط عن ذلك المكان وأوكلني للحارس الليلي بعدما همس ببضع كلمات في أُذنه فقام الأخير بإدخالي في حجرة مشغولة من قِبل معتقل واحد فقط وسلّمني غطاءَين صوفيين ومن ثمّ أغلق البوّابة الحديدية الثقيلة وراءَه.

كان جاري السجين «مثقّفاً» ينتمي إلى قبيلة طي العربية وقد تفتّحت عيناه حول سلب الأقطاعيين لجهود عامّة الشعب بعد قضائه بضع سنوات في المدرسة. قام العضوان المرشّحان للمندوبية على القائمة المسنودة من قِبل ضبّاط المكتب الثاني ـ وهم من أفراد قبيلته ـ بإلقائه في السجن لأنّهما وجداه مضايقاً ومشاكساً...

كانت القبائل العربية البدوية في تلك الفترة تعارض الدراسة بشدّة وعلناً كما كانت تحتقر فكرة التعليم الديني إلى درجة أنّ ملاليهم وأئمّتهم كانوا عموماً من الكورد أمّا صاحبي فقد كان إستثناءاً وقد أنهى دراساته الدينية في المدرسة الخزنوية التي أسّسها الشيخ الكوردي أحمد خزنه الذي كان واحداً من ألمع القادة الدينيين للطريقة النقشبندية. كان ثائراً ضدّ دكتاتورية الرؤساء الإقطاعيين ويحلم بعالم متحرّر من الطفيليين ومن جميع أشكال المحتالين.

ولأنّني لم أكن قادراً على النوم فقد كنت أستمع إليه خلال ساعات وهو يحكي لي عن مكائد ودسائس الإقطاعيين العرب مع السلطات المحلّية والبلاط الملكية للدول العربية

بهدف خَدعْ مواطنيهم والإغتناء على حسابهم ومن ثمّ العيش كأسياد عظماء.

وفي اليوم التالي بينما كنت أنتظر إطلاق سراحي إنظمّ إلي في السجن واحد من فريقي الإنتخابي لإتّهامه أيضاً بخرقه للتعليمات الإنتخابية. حينما زارني أخي نحو الظهر قرأت القلق والحيرة في نظرته. يبدو بأنّ ضابط الإستخبارات العسكرية قد هدّده بتسليمه للأتراك فيما إذا لم أقم بسحب ترشيحي...

تلقّيت بعد الظهر زيارة أُخرى لضابط إستخبارات الجيش الذي كان يرافقه إثنان من زملائه وقد جاءوا لإجباري على سحب ترشيحي.

ـ إذا عاندت، صرخوا في وجهي، فسنعيدك إلى سجن مزّة.

ـ أوه، قلت لهم ضاحكاً، منذ عرفته لم أعد خائفاً منه وقد تعوّدت على ذلك...

ـ آه؟ سنرى ذلك...

ومن ثمّ غادروا ويتبعهم ضجيج بساطيلهم.

كان الطقس في ١١ كانون الأوّل، يوم الإنتخابات مشمساً وجميلاً جداً وقد سمحوا لنا بالخروج إلى الساحة وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صعد شرطي، عائد من حراسة أحد المراكز الإنتخابية، فوق أحد السطوح المشرفة على الساحة.

ـ لم أجد في كل مكان سوى عبور قائمة زازا، زازا، زازا، صاح بأعلى صوته قبل أن يأتيني لمباركتي.

وعند الظهر تلقّيت تهنئة رجال شرطة آخرين ولكن في الساعة الثانية حمل لنا شرطي آخر أخباراً مقلقة.

ـ عندما رأوا بأنّ قائمتك كانت على رأس القوائم قامت السلطات بتوجيه تعليماتها إلى المهريين (حرس الحدود) لمعاقبة الناخبين الذين يصوّتون لكم وقد ضربوا ناخباً عجوزاً ولكن بالرغم من إستخدام الهراوة والرعب واصل الناخبون بالتصويت لصالحكم فلجأت السلطات حينذاك إلى توقيف ممثّليكم في المراكز الإنتخابية وأودعوهم سجن عامودا. أمّا الأنصار الذين حاولوا الإحتجاج على الأمر الواقع فقد ضربوهم بوحشية ممّا أدّى إلى إنخفاض عدد الناخبين والصناديق التي لم تعد مُراقبة من قِبل ممثّليكم تم حشوها بالأصوات الإنتخابية لصالح القائمة الحكومية...

لا أُخبرك بهذا لأجعلك حزيناً وإنّما بكل بساطة لكي تعلم بما يجري. وقد حاول المرشّح الوحيد لقائمتكم الذي لا يزال طليقاً إرسال برقيات إحتجاج إلى دمشق ولكن ضابط الإستخبارات العسكرية قام بحجز الجميع...

أصبح رجال الشرطة الآخرون بُكَماء في الحال وغاص السجن في صمت الموتى. وفي وقت متأخّر من المساء تم إعلان نتيجة الإنتخابات: المرشّحون الذين فرضهم الجيش حقّقوا إنتصاراً باهرا وبعد ذلك بمساعَين نقلوني مع شريكي أمام القاضي المكلّف بجمع المعلومات والذي أنهكنا خلال ساعتين بأسئلة عبثية وهو لا يكف عن إتّهامي بجرائم لا يمكن تصوّرها.

ـ لماذا شكّلت قائمتك بهذا الشكل؟ أصرّ القاضي.

ـ لكي أجعلها أكثر تمثيلاً بقدر الإمكان.

ـ لماذا لم تكن تحتوي على غير الكورد؟

ـ لأنّ الغالبية العظمى من المحافظة مسكونة من قِبل الكورد.

ـ لماذا ألقيت كلمات باللغة الكوردية في عامودا والدرباسية؟

ـ ولماذا لا أتحدّث باللغة الكوردية حينما أتوجّه بكلامي إلى الكورد؟ وهل هناك في سوريا أيضاً قوانين أو مراسيم تحرم إستخدام اللغة الكوردية كما هو الحال في تركيا؟

ـ لا، لا أعتقد، أجاب القاضي بحرج.

ومن ثمّ تابع كلامه وإستطرد:

ـ فكّروا، أنّ العربي الذي يهمّه مستقبل الأُمّة العربية يشعر بالقلق تجاه الإهتمامات القومية للكورد وأنّ توالي الويلات والمآسي التي سبّبتها لنا الصهيونية ولا تزال تسبّبها جعلنا حسّاسين وحذرين تجاه أي شعب ساكن في العالم العربي. إنّ إنتفاضة كورد العراق بقيادة الجنرال بارزاني الذي يطالب بحقوق الكورد وحتّى بالحكم الذاتي الكامل في كل شمال العراق يقودنا إلى الإعتقاد بأنّنا نتواجد أمام ولادة إسرائيل ثانية والشك بأنّ لكم إتّصالات مباشرة مع البارزاني بهدف ضم شمال سوريا بالدولة المصطنعة التي تفكّرون بإنشائها عبر إستقطاع أجزاء من أراضي البلدان العربية وأنّ خطابكم

في عامودا يسير بهذا الإتّجاه حيث أنّك أطلقت هذه الكلمات نصّاً: «اليوم، إنتصرت الأُمّة الكوردية على الأُمّة العربية...»

ـ أنتم تمزحون أم أنّكم تتحدّثون بجدّية؟ سألته وأنا أُحاول السيطرة على أعصابي كي لا أنفجر.

ـ لست معتادا على المزح. أنّ تقرير المسؤول عن المنطقة يؤكّد هذه النقطة.

ـ لكن كيف يمكن لموظّف دولة، لمسؤول إداري في منطقة إختلاق تقارير مستندة على تلفيقات؟ كيف يمكن للقضاء الإعتماد عليهم لحرمان المواطنين من حرّياتهم ولجعلهم يتعفّنون في السجون؟ إنّ آلاف الكورد الذين إستمعوا إلى خطابي في عامودا لم يسمعوا بتلك العبارات فمن أين إقتبس السيّد مسؤول المنطقة تلك العبارات وهو الذي لا يفهم كلمة كوردية واحدة؟

إنّ التهم التي وجهتها ضدّي وضدّ الكورد بصفة عامّة لا تستند على أي أساس. ما عبّرتم عنه لا يمكن إعتباره سوى ذرائع لإنجاز مخطّط إزالة الكورد عن الوجود جسدياً أو تعريب كورد سوريا وإلاّ فكيف يمكن تشبيه الكورد من قِبل القوميين الشوفينيين العرب بالصهاينة؟ هل أنّهم جاءوا للإستيلاء على الأراضي المملوكة للعرب؟ لا وإنّما العرب يستهدفون طردهم من أراضيهم، وأنّكم تعلمون بذلك، ويسعون بكل قوّتهم إزالة ثقافتهم وكيانهم. وحتّى المدارس بالكوردية لوحدها هل تبيحون لهم بفتحها؟ هل أنّ الإذاعة والتلفزيون السوريتين تبثان برامجاً باللغة الكوردية؟ لا، لا شيء من هذا القبيل بينما الدولة الصهيونية من جانبها تعترف بحرّيات واسعة للعرب الساكنين على أرضها...لا أخفي عليكم بأنّه حينما تخلّصت سوريا من الدكتاتورية الناصرية رجونا سيادة عهد جديد من الديموقراطية الحقّة...

كان من الممكن أن يستمر الإستجواب لساعات لا تنتهي لكن القاضي قدّر فجأةً بأنّ الوقت قد تأخّر فإختصر في إستجواب رفيقي قبل أن يأمر بإعادتنا إلى السجن الذي مكثنا فيه لمدّة يومين إضافيَين ومن ثمّ نقلوا إضبارتنا إلى حرم المحكمة فتوجّب علينا الإنتظار للمثول يوماً ما أمام المحكمة الجنائية لقامشلي ولو أنّني بقيت في قامشلي لكنت قد جازفت بتوقيفي من قِبل المباحث...

سارعت بصحبة البعض من الأصدقاء في سلوك طريق دمشق المار عبر حلب. وبما

أنّني لم أكن أحسب نفسي مهزوماً تماماً فقد أصررت بفتح تحقيق لتثبيت صحّة نتيجة الإنتخابات ولكن طلبي لم يرضِ مطلقاً السوريين الذين إنتقموا بطريقتهم الخاصّة حيث أنّهم قاموا بتوقيف مائتي تلميذ مدرسي من عامودا تبلغ أعمارهم بين ١٢ و ١٦ سنة بتهمة الكتابة على الجدران:

أنتم، أيّها العرب

أهجروا تربة أرضنا

كوردستان

عاش البارزاني

وممثّله في سوريا

نورالدين زازا!

قام رجال الشرطة بنزع ثياب بعض الأطفال وهدّدوا بإغتصابهم.

ـ هيّا إذهبوا وقولوا بأنّ زازا إستلم أسلحة من البارزاني وأنّه كان ينوي إعداد إنقلاب ضدّ سوريا وإلاّ...

أطاع معظم الأطفال خوفاً ورعباً ولكنّهم كانوا يعرفون بأنّني لم أستلم سلاحاً من البارزاني كما لم أكن في طريقي إلى إعداد إنقلاب.

إجتمع البرلمان في نهاية شهر كانون الأوّل وأمّا اللجنة التحقيقية فلم تتشكّل إلاّ في منتصف كانون الثاني ووافقوا على طلبي رسمياً وقاموا حتّى بتشكيل لجنة تحقيق فرعية ولكنّها لم تحصل على الوقت الكافي لمباشرة عملها بسبب وقوع إنقلاب عسكري بعد مرور فترة وجيزة وتوقيف رئيس الجمهورية ناظم قدسي ورئيس المجلس معروف الدواليبي وحل البرلمان وإلغاء الدستور مباشرةً. إنّ هذا التدخّل من قِبَل العسكر بالتوازي مع تدخّل عملاء المباحث الناصريين في شؤون البلد فجّر سلسلة من المحاولات الإنقلابية العسكرية وأنّ تلك التي وقعت في ٨ آذار من عام ١٩٦٣ الذي قام بها الكولونيل حريري أتى بحزب البعث إلى السلطة ولأنّ البعث لم يمتلك سوى عدداً قليلاً من الأعضاء فقد إستخدموا القمع العسكري والبوليسي للبقاء في السلطة.

وقد سارع هذا التنظيم السياسي إلى رفع قوائم سوداء سجّلوا عليها أسماء

مواطنين معروفين بأهوائهم الديموقراطية ويملكون شعبية لدى الجماهير وأنّ كل من تم تسجيله على القوائم حرّموه من حقوقه المدنية وتعرّض للسجن والتعذيب وقد قاموا بنشر الاسماء المسجّلة في القوائم السوداء بالإذاعة لعدّة مرّات في اليوم بهدف إرهاب الضحايا وإثارة الشعب.

سمعت في ٢٠ آذار عند بث البرامج الأولى للصباح تكرار ذكر اسمي لعدّة مرّات وكان ذلك بمثابة إشارة مسبقة على النيّات السيّئة التي تبيتها السلطات الجديدة تجاهي ولكن لم تسمح لي أُموري بمغادرة البلد وواصلت إرتياد مكتبي والإهتمام بشؤوني كما لو أنّ أيّ شيء لم يحصل.

في صباح يوم ٨ آذار جاءَني رجال شرطة أرسلتهم المباحث لتوقيفي ولكنّني تمكّنت من الإفلات منهم.

كان لي موعد لدى طبيب أسناني فكنت خارج مكتبي وأنتظر المصعد الكهربائي حينما خرج منه رجلان.

ـ أنّه هناك، قال نادل المصعد.

ـ لا شكّ أنّهم من رجال المخابرات، قلت لنفسي، ودون أن أضطرب أخذت المصعد وخرجت بسرعة من المبنى قبل أن ألج طريقاً بخطى سريعة. كما رأيت سيّارة فولكسفاكن دعسوقية واقفة في الجانب الآخر من الطريق والسائق جالس على مقودها ولحسن الحظ لم تعد المباحث كما كانت في عهد ناصر حيث أنّهم لقلّة خبرتهم لم يتعرّفوا علي...

ولجت الطريق الصاخب والمزدحم وإتّجهت نحو عيادة طبيب أسناني التي لم تكن بعيدة من هناك. وبينما يعالجني الطبيب فاجأتني المساعدة قائلةً:

ـ يا إلهي، وضعوا إسمك على القائمة السوداء. لكنّهم يستهدفون كلّ العالم، هؤلاء الناس! وعمّا قريب لن يتبقّى أي إنسان طيّب في هذا البلد.

كان الطبيب المنحدر من عائلة برجوازية عريقة لدمشق ينظر بإحتقار عميق إلى العسكريين والدكتاتوريين ولكن إنتماءَه الطبقي كان يفرض عليه التصرّف بحذر بل وحتّى بجبن.

ـ إنّ العيادة الطبّية ليست مكاناً مناسباً للتحدّث عن هذه الأشياء! قال لها بنبرةٍ جافّة.

تمكّنت من التخلّص من براثن المباحث ولكن لكم من الوقت؟ إنّ العودة إلى البيت لم تعد ممكنة ولذلك فحال خروجي من العيادة الطبّية توجّهت نحو صديق يعمل لدى الصليب الأحمر السوري. حكيت له عن قدوم عملاء المباحث وتوسّلت إليه بأن يذهب إلى مكتبي ليستعلم بما جرى فيها حقيقةً.

ذهب إليها صديقي على الفور وعاد منها بعد مرور ربع ساعة فأكّد لي زيارة رجال المخابرات.

تأكّدت ظنوني وأصبح الآن أهم شيء بالنسبة لي هو البحث عن ملجأ لدى شخص أثق به وبعد تفكير عميق تخيّلت بأنّ البيت الأكثر أماناً هو بيت الأُستاذ المتقاعد ممدوح سليم، أحد المناضلين القدماء للحركة القومية الكوردية الذي إعتزل الحياة السياسية منذ وقت طويل. كان قد تزوّج في وقت مبكّر وإحتفظ بالمنزل الصغير الذي كان يسكن فيه منذ أربعين عاماً والواقع في المنطقة المرتفعة من حي المهاجرين ويتردد اليه وحيداً بين كتبه.

أمّا المنزل الذي يسكن فيه مع زوجته وحماته فقد كان يقع في الجهة أسفل المدينة، في الجسر الأبيض ويتردّد عليه أقل ممّا يتردّد على «مكتبته الشبيهة بكوخ». لهذا السبب قلت مع نفسي بأنّ المباحث لا تفكّر مطلقاً بالمجيء إلى هكذا مكان للبحث عنّي... إستقبلتني زوجة ممدوح سليم الشركسية التي أفشيت لها بالأحداث الجارية بعفوية.

ـ بغياب ممدوح بيك يمكنني القول بأنّنا نستقبلك بذراع مفتوحة ونضعك «على الرأس والعين».

فسكن روعي وأمضيت وقتاً ممتعاً بالمحاورة معها ومع أُمّها العجوزة التي قضت أجمل أيّام عمرها في بلاط أواخر السلاطين العثمانيين وكانت تستمتع دائماً حينما تتحدّث عن الروائع التي جمعها السلاطين ـ الخلفاء في سراياهم. إلتجأت إحدى بناتها التي تزوّجت في عهد الإنتداب البريطاني من أحد الفلسطينيين الأغنياء في حيفا إلى دمشق بعد هزيمة عام ١٩٤٨ وكانت تعيش مع عائلتها مقابل منزل زوجة ممدوح سليم.

كان لزوجها في ذلك العهد ثقة عمياء بناصر ويعتقد بأنّ هذا «العملاق من العالم العربي» سيرمي اليهود في البحر...وقد سألت زوجة ممدوح سليم إذا كان بمقدورها دعوته للإلتقاء به.

ـ إذا كنتِ واثقة من أنّه يحفظ بالسر ومن أنّه لا يفرط بكيل المديح على ناصر، فَلِمَ لا؟

ـ فيما يتعلّق بالسر، أنا واثقة. أمّا الشرط الثاني فمن الصعوبة إعطاءَك ضمانة. إنّ الفلسطينيون يحتاجون إلى «منقذ» وهم متأكّدون بأنّهم وجدوه في ناصر ولكن إذا لم يحقّق ناصر لهم حلمهم فأنّ هذه الثقة سوف لن تدوم إلى الأبد.

لم يكن هذا الفلسطيني بجسده الرشيق، بسحنته الفاتحة وعيونه الزرقاء شبيهاً بالعرب في أي شيء ولكن محل ولادته ولغته ومصيره جعلت منه لأن يكون عربياً كاملاً كما كان يزدري أيديولوجية البعث والبعثيين. وقد أقسم بأنّه يحميني كما يحمي إبنه الحقيقي وأراد إقناعي بأنّ برنامج ناصر يشمل مسألة تحرير الشعب الكوردي أيضاً!...ولكن هيهات!

وصل ممدوح في الظهر وفي الحال عندما أعلمته زوجته بالحدث بدأ يؤكّد لي بأنّ بيته سيكون بيتي طالما بقيت فيه. إستمرّت إقامتي لديهم لمدّة عشرة أيّام شعرت خلالها بأنّني ضيف حقيقي. كان ممدوح بيك يذهب أحياناً إلى مكتبي ويعود منه حاملاً الأخبار: لا تتوقّف المباحث بالتردّد عليه والقيام بتهديد عمّالي بغلق المؤسّسة في حالة عدم تعاونهم بالقبض علي ولكنّهم يقاومون ولا يبالون مطلقاً بهذا الإبتزاز...

إنّ عمر ممدوح سليم تجاوز خمسة وسبعين عاماً وكان يفتخر بإيوائي ولكن كان واضحاً بأنّني لا أستطيع الإقامة في بيتهم إلى الأبد دون أن أُعكّر صفوة حياتهم العائلية ولهذا طلبت منذ اليوم الثالث من صديقي العجوز البحث عن مخبأ أمين. فخطر على ذهننا بأنّ المكان الأكثر أماناً هو الحي الكوردي بدمشق المعروف كأرض منفى للمنبوذين والمضطهدين كما كان لنا فيه جمع غفير من المعارف والأصدقاء المستعدّين لإيوائنا. كان تحلّي صاحب البيت بالإخلاص والتضحية شرطان ضروريان ولكنّهما لم يكونا كافيين لأنّ ضمان الحد الأدنى من التكتّم كان يستوجب دراسة الوضع الخارجي والداخلي للبيت و كذلك تركيب العائلة وإرتباطاتها مع الاقرباء والجيران...

تكلّف بافي جنكيز الذي كان شرطي في السابق تم إقالته بسبب تعاطفه مع الكورد بالبحث عن عناوين أُسر بإمكانها إستقبالي. فسكنت أوّلاً عند صوفي الذي لم يدّخر، لا هو ولا عائلته جهداً لطبخ موائد لذيذة من أجل إسعادي.

بعدما تم تسريحه من وظيفة بوّاب المدرسة إضطرّ صوفي القبول بأداء جميع أنواع الأشغال ففي موسم الحج كان دليلاً للحجّاج الكورد المسلمين القادمين من تركيا والذاهبين إلى مكّة عبر دمشق، وأنّ هذا العمل كان يدر عليه بعض المال.

لا زلت أتذكّر وهو عائد من عمله فينثر على الطاولة نقوده ويستفهم بخيلاء وظفر:

ـ هذا ما جنيته، سيكون ثماراً وفواكهاً لك!

لم يكن صوفي يجني سوى مبلغاً ضئيل جداً...ولأنّني كنت أملك بعضاً من الأموال فقد كنت ألح عليه بأن يأخذ منها لكنّه يحتج دائماً:

ـ كيف؟ لكنّك في بيتنا...

مكثت عنده خلال ثلاثة أسابيع ومن ثمّ أستقبلني أبو عادل وبعده عزّت آغا الذي جمع كل عائلته لإستقبالي.

أنّ الكورد الذين قدّموا المأوى لي كانوا جميعاً ينحدرون من أوساط متواضعة جداً ويكافحون من أجل ربط طرفي الشهر ببعضها. كانوا يبذلون تضحيات واضحة من أجل ضمان أمني وتقديم موائد أكل متنوّعة وسخية وكلّما أصررت على المشاركة بالمصاريف وإعطائهم بعضاً من النقود كانوا يشعرون بالمهانة ويتضرّعون منّي بأن أكون واثقاً بأنّهم ككورد يعتبرون الضيافة قيمة مقدّسة. ألم يتعلّموا ومنذ نعومة أظافرهم كيفية إستقبال وخدمة وإحترام الضيوف؟

كانت البيوت الثلاثة التي أقمت فيها معمورة بالأطفال ولكن رغم ذهابهم إلى الخارج سواءاً للمدرسة أو للعب مع الأصدقاء فلم يبح أيّ منهم يوماً بوجود «الضيف المختفي» بل على العكس كانوا دائماً على إستعداد لتقديم أيّة خدمة أطلبها منهم كما كانوا ينشدون أو يقرأون لي القصائد بالكوردية أو العربية.

كانت زوجة أبو عادل معروفة بتعلّقها وحبّها للحيوانات ولا سيّما القطط وقد جمعتْ عشرة منها ونجحت في أن تعايش الدجاجات مع ثعلب وإبن آوى بإنسجام وألفة تامّين.

وذات يوم جميل عاد إبنها الصغير البالغ تسعة أعوام إلى البيت ومعه هرّة صغيرة بشعرها الحريري الطويل ذو اللون الماروني، الأصفر والأبيض الممزوج. لقد عثر عليها في إحدى طرقات دمشق فأحتضنتُها بين ذراعَي وبدأتُ أُداعبها.

ـ لو لم أكن في هكذا وضع لكنت سأطلبها منك...

ـ أيه، حسناً، أجابتني أُم عدنان، أحسب وكأنّها لك وأعطها إسماً تختاره على هواك. سنحتفظ بها إلى اليوم الذي تتعدّل فيه أُمورك.

وتبعاً لكلامها بدأت أبحث لها عن إسم كوردي جميل.

ـ ما هو اليوم الذي نحن فيه اليوم؟

ـ الجمعة، ردّ علي الصبي الصغير.

ـ بما أنّنا في مساء الجمعة فأنّ هذه القطّة ستسمّى شيفين، قلت ذلك صائحاً كما لو أنّني وضعت يدي على إكتشاف رائع.

بعد تسميتها بشيفين وضعوا القطّة تحت رعايتي وفي أعقاب بضعة أيّام تعلّقت بي إلى درجة أنّها بدأت تشاركني المخدّة ولكن بعد مرور اسبوع رسمت وبغرابة مسافة بيني وبينها فكنت مضطرّاً على مناداتها طويلاً لكي تقترب منّي وفي الليل لم تعد تزور غرفتي وكلّما أخذتها عنوةً كانت تموء فتعجّبت من سلوكها وإستفسرت السبب من أُم عدنان التي أطلقت ضحكة ساخرة.

ـ أنّ السبب بسيط جدّاً. إذا كانت شيفين تتهرّب منك فلأنّني وجدت لها ماما.

ـ كيف ذلك؟

ـ نجحت في أن أجعل إحدى قططي التي تملك صغاراً تتبنّاها وقد أرضعتها إلى حد التخمة كما أنّها تشعر بالأمان حين مرافقتها «للماما» و «لأشقّائها» و «شقيقاتها».

كانت هذه المرأة السمراء الصغيرة ذات الأربعين عاماً مفعمة بالشجاعة والطّيبة، هذه الصفات والفضائل التي ورثتها من أجدادها الأوّلين. آوت جدّتها أثناء الإحتلال العثماني لسوريا واحد من أبناء أعمامها المطلوبين من السلطات لإتّهامه بجريمة قتل ضابط وكانت أُم عدنان تذكر بإعتزاز مثال جدّتها وتردّد بأنّها مستعدّة لأن تفعل مثلها...

عبّرت جميع العوائل التي إستقبلتني لديها عن ذات الأصالة والكرم تجاهي ومع ذلك فأنّ الظروف التي أحاطت بسوريا وتطوّر الأحداث أجبرتني على الهروب من الضيافة الهنيئة لأصدقائي الكورد والبحث عن ملجأ خارج سوريا لأنّ هذا البلد لم يبقِ لي شيئاً أتعلّق به.

ولكن قبل المباشرة في تنفيذ ما خطّطت له فكّرت مع ذلك بهذا الرفيق الجامعي القديم في لوزان والذي أصبح وزيراً للإقتصاد بالحكومة الجديدة، كمال حسني، الحائز على شهادة الدكتوراه في العلوم الإقتصادية وقد عُرف عنه دائماً بأنّه مثقّف بعثي رزين وأنّه يؤمن بالديموقراطية وينادي بإشتراكية إنسانية كما أنّه أظهر خلال العديد من لقاءاتنا في دمشق تفهّماً عميقاً أثناء النقاش للقضية الكوردية (في سوريا كما في العراق) وقد عبّر كذلك عن تمنّياته بإخوّة حقيقية بين الشعبين الكوردي والعربي.

لوثوقي وتأكّدي من تصريحاته السابقة بعثت له برسالة تهنئة بمناسبة إشتراكه في الطاقم الوزاري كما إلتمست منه التدخّل لصالحي لكي يكفّوا عن مطاردتي. وضعت المباحث بعد ذلك بفترة قصيرة ختماً بالشمع الأحمر على باب مكتبي وأوقفت أحد عمّالي كما ضاعفوا جهودهم للعثور على مخبئي السرّي...

لم يكن الوضع أجمل وأسعد بالنسبة لكورد العراق حيث أنّ الذين إستولوا على السلطة في بغداد بعد إنقلاب ٨ شباط عام ١٩٦٣ الذي قاده الجنرال عبدالسلام عارف لم يوفوا بالعهود التي قطعوها بخصوص منح الحكم الذاتي لكوردستان العراق وإنّما بدأوا يستعدّون لشن حرب خاطفة وبلا رحمة ضدّ البارزاني وأنصاره وقد وصلتني معلومات تشير إلى أنّ الحكومة السورية الجديدة التي يقودها البعثيّون أيضاً ستقوم بإرسال قوّات برّية وجوّية إلى العراق للمشاركة في القتال ضدّ الكورد.

بعد قضائي لتلك الشهور في الخفاء أصبحت مغادرتي للحي الكوردي ضرورية كي أتخلّص من مخالب السوريين بأسرع وقت ممكن وأتوجّه نحو الحرّية والسلام، نحو أقرب «منفى» لبنان على سبيل المثال. كان أصدقائي يعرفون سائق صهريج يجتاز الحدود بشكل منتظم فبدأ التفاوض بينهم وهكذا في فجر ذات يوم جاء أبو أنور الذي تطوّع بأن يقودني بشاحنة ـ صهريج حتّى حمص ليوقظني بهذه الكلمات:

ـ الصهريج جاهز. بإمكاننا المغادرة...

لبنان

الهروب نحو لبنان

حياة الجالية الكوردية في بيروت

مهمّة إعلامية بشأن الحرب في كوردستان العراق

لدى الصحافة اللبنانية الليبرالية والعالمية

التوقيف والسجن في بيروت تحت ضغط الحكومة العراقية

الإبعاد إلى الأردن ثمّ التسليم إلى سوريا

جرى ذلك في ١٤ حزيران من عام ١٩٦٣ وقبل هذا التاريخ بعدّة أيّام باشر الجيش العراقي هجومه على الكورد وكانوا يتصوّرون بأنّ الأمر ينتهي في غضون عشرة أيّام.

ـ لا يتعدّى الأمر في كونه أكثر من نزهة نقوم بها في شمال البلد، كان قد صرّح به الجنرال عمّاش وزير الدفاع العراقي.

بدأت المغامرة اللبنانية بالنسبة لي بفضل جهود الكورد الشجعان والمهرّبين المختصّين في تمرير السوريين إلى لبنان...

دارت محطّتنا الأولى التي قادتنا إلى حمص دون مشاكل فحين رؤية شاحنتنا أشّرت لنا مراكز السيطرة العسكرية المتواجدة على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمشق بالمرور. في حمص كشفت جريدة البعث لنا قوائم سوداء جديدة لأشخاص أُدينوا من بينهم العديد من معارفي الكورد وقد ألقوا القبض على بعضهم ونقلوهم إلى مزّة وذكرت الجريدة أيضاً الأخبار بشأن «الحرب المظفّرة الساحقة الجارية ضدّ العصابات الكوردية» و «الإنفصاليين، عملاء الإمبريالية الأمريكية». وحسب البعث حالما تنتهي الحرب سيتم محاسبة خونة الوطن بأقصى عقاب...

كان المشهد الطبيعي يشير إلى الفقر والكآبة ولكن كلّما تقدّمنا من بوكي ـ زاوية

مساحتها عدّة كيلومترات على أرض لبنانية محصورة يمر عبرها طريق حمص ـ اللاذقية ـ تتنوّع النباتات ويتزايد إرتفاعها. من جهة اليمين كنّا نرى حصن الأكراد هذه التسمية التي أطلقت عليه كتب التاريخ العربية وهو محاط بالضباب ومهيمن على الوادي والسهل.

في مدخل بوكي تصرّفت النقطة العسكرية السورية أيضاً بلطف تجاهنا حيث أنّ أبو أنور كان في سبيله لتقديم هويّاتنا الشخصية حينما أشاروا لنا بمواصلة طريقنا. وعلى مسافة بضع مئات من الأمتار أوقف حارسي الملائكي شاحنته أمام حانوت أبو حسن وعاد منه متضايقاً لأنّ المرشدين سوف لن يصلوا قبل الساعة التاسعة مساءاً.

ـ تبّاً، أطلق، وبينما ننتظر يمكننا تناول الطعام والإستحمام في طرطوس. بصحبتي سوف لن يصيبك أي مكروه.

أمام نقطة سيطرة الخروج من بوكي كان هنالك العديد من السيّارات واقفة ويجرون عليها تفتيشاً منظّماً ودقيقاً. توقّفت شاحنتنا وراءَها في الوقت الذي بدأ قلبي يدق بسرعة وشدّة.

ـ أرجو من المولى بأن لا يكون إسمي موزّعاً على المراكز الحدودية، كنت أتساءل مع نفسي.

وفي ذات اللحظة جاء عسكري برتبة كبيرة يحيّي أبو أنور بحفاوة وأشار له بالمرور دون أن يعير إهتماماً للسيّارات التي كانت تسبقنا.

بدأ الطريق بعد بوكي يصعد ويتعرّج ممّا أدّى إلى إرتفاع «حماوة» محرّك الشاحنة.

ـ إنّ الجو حار جدّاً، صاح أبو أنور بأعلى صوته وسط الصوت المدوي للمحرّك، ولا يزال أمامنا طريق طويل قبل الوصول إلى طرطوس. على بُعد كيلومترات من هنا أعرف مطعماً في الهواء الطلق ودجاجهم المشوي مشهور جدّاً. أنّها تربّى في الهواء الطلق ولحمها طازج. هل توافق إذا لم ندخل طرطوس لكي نتذوّق إحدى تلك الدجاجات الريفية الصغيرة؟

ـ طبعاً نعم، فكرة ممتازة، فلنذهب إليه بلا تأخّر!

إستدارت الشاحنة نحو اليمين وسلكت طريقاً ضيّقاً فذكّرتني الجبال الصخرية الغنية

بأشجار الفواكه بما رأيتها خلال طفولتي في مادن ودَدّتُ بأن أرمي بنفسي من الشاحنة لكي أقفز على العشب الجاف وأتسلّق الأشجار...

تواجد المطعم في موقع فردوسي: مياه صافية كانت تجري في وادي مفروش بحصى زرقاوية وسواحله مغطّاة برمل بلّوري. أمّا المطعم فقد بُنِيت على ساحة تحاذي النهر لكن تواجد العدد الكبير من الضبّاط جعلني أقفز من مكاني محاولاً العودة القهقري فأسرع أبو أنور يهدّئني ويسكن من روعي.

ـ لا تقلق. أنّ هؤلاء العسكر يأتون إلى هنا من الأطراف لتناول الطعام كما هو حالك وحالي. أنظر إليهم، أنّك تجد كلّهم بصحبة عوائلهم ولهم ما يشغلهم بدلاً عن إهتمامهم بنا ومع ذلك فلكي نتجنّب أي لقاء سيّء سنذهب نحو هذا الذي يشبه كوخاً في عمق المطعم.

كانت الفراريج تتراكض أمامنا صائدةً الجراد والحشرات الأُخرى على ضفاف النهر وبدأ الخدم يطاردونها ومن ثمّ أمسكوا إثنتين منها ولشويها لنا على فحم الخشب.

إستغلّ أبو أنور فرصة الإستراحة ليحكي لي عن ماضيه وظهر بأنّه قد خدم خلال الحرب العالمية الثانية كمتطوّع في الفيلق العربي بالأُردن الذي شكّلته بريطانيا العظمى ووضعته تحت قيادة الإنكليزي كلوب باشا وقد كان هذا الجيش مشكّلاً بالدرجة الأولى من البدويين العرب المخلصين للعائلة الهاشمية وبعد ذلك من الشركس والكورد والأرمن وكان يُعتَبَر في حينه من أكثر الفيالق العسكرية تنظيماً وإنضباطاً في الشرق الأوسط وإشتهر جنوده بالجرأة والدموية والقساوة.

ـ كان الناس يرتعدون رهبةً منّا. ولأنّ الأنكليز، يسرد أبو أنور، كانوا يأمرون في الأُردن (في ذلك الوقت، ما وراء الأُردن) وفي فلسطين فقد كان لدينا حاميات في البلدين. كنّا نمثّل في فلسطين «غول» الروايات بالنسبة لليهود إلى درجة أنّه في أحد الأيّام حينما رأتني بائعة تذاكر إحدى صالات العرض السينمائية جفلت في مكانها وأغلقت فوراً شبّاكها فهرع المدير نحوها وهو يحاول تطمينها.

ثم أضاف أبو أنور وهو يضحك:

ـ وبعد مضي وقت إلتقيت من جديد بهذه الفتاة الشابّة، الجميلة جداً، ودعوتها لتناول كأس معي. هل تعلم ما الذي سألتني وهي ترتجف من الخوف؟ «هل صحيح بأنّ جنود

الفيلق يأكلون لحم البشر؟» كانت مقتنعة بالأمر لأنّ الشائعات تقول ذلك...

كانت الساعة تشير إلى الرابعة حينما هجرنا المطعم وبعد ذلك بساعة لم يكن قد وصل مرشدونا بعد فأوكلني أبو أنور إلى أبو حسن قبل أن يسلك الطريق من جديد رافضاً قبول أيّة قطعة نقدية منّي مقابل الخدمة الهائلة التي قدّمها لي فتابعته بنظراتي الحزينة إلى أن إختفى خلف الطريق المتعرّج الملتوي وشعرت بالإرتياح حينما لاحظت بأنّ نقطة السيطرة السورية لا توقّفه للمساءلة فذهبت حينذاك بإطمئنان وسكينة إلى حانوت أبو حسن لأشرب فيه قدحاً من القهوة.

كان حانوت أبو حسن يتألّف من غرفة كبيرة بلا واجهة يستخدم كمخزن محشو بعلب البسكويت وأكياس السكّر والقهوة والطحين. وكنت أرى على الرفوف الغارقة في الظلمة أجهزة الراديو والتلفزيون وقد تمكّن أبو حسن من بناء شقّتين فوقها خصّص إحداها له ولزوجته والثانية لإبنه حسن الذي تزوّج قبل فترة وجيزة. وبالإضافة إلى تجارتهم الصغيرة فأنّ الاب والإبن كانا يمارسان الفلاحة وتمتد حقولهم المزروعة بالذرة والقطن والتبغ وراء المنزل.

كان أبو حسن الذي لم يكن قد بلغ الخمسين يحب أن يبدو بمظهر الشيخ العجوز وهو عادة مألوفة في الشرق الأوسط حيث أنّهم يعتقدون بأنّ الشيخوخة تدل على الحكمة وتعطي وزناً للكلمات. كان يشعر بالتعاطف تجاه الكورد ويزدري البعثيين فبرأيه أنّ الكورد هم رجال شجعان وصادقين وأوفياء للعهد بينما البعثيون ليسوا سوى مصلحيين ومنافقين وكان واثقاً بأنّ الكورد سيلقّنون الجيش درساً قاسياً في العراق ويصلّي كلّ يوم من أجل ذلك...

وبينما كنت أُهدهد مشاعري بكلماته الودّية سمعنا بإنفجارين جعلانا نهتز ونرتعد.

ـ أمكث هنا، سأذهب لأرى، قال ابو حسن وهو ينهض ببطء من مقعده.

وبعد مرور عشر دقائق عاد ضاحكاً:

ـ أنّه حسن هو الذي أطلق النار من بندقية الصيد على حيّة ضخمة إلتفّت حول شجرة عنب خلف المنزل وقد خشي بأن تدخل عبر النافذة إلى الغرفة التي يرقد فيها إبنه البالغ ثلاثة شهور. الآن تمزّقت الحيّة إرباً. هيّا إذهب لتراها إنْ كان الأمر يعجبك.

ـ شكراً، أجبته. بالرغم من أنّني قتلت الكثير منها في حياتي فمنظرها يثير دائماً الرعشة في نفسي. وإذا حلمت بحيّة ولم أقتلها ففي اليوم التالي يصيبني على الدوام مكروه وبما أنّني أعتقد بالخرافات المتعلّقة بالأفاعي فواقع أنّ إبنك أطلق النار على واحدة منها هو بشرى لحدث سعيد.

ورويداً رويداً تحوّل حانوت أبو حسن إلى صالة إستقبال يأتي إليها القرويون من الأطراف للحديث والنقاش وكان يبدو بأنّ الجميع لهم نفس العمر وذات الشوارب الثخينة المتدلّية ووتتشابه ملابسهم مثل ملابس أبو حسن بسراويلهم المصنوعة من القماش الأسود وستراتهم المبتاعة من بالات الملابس المستعملة القادمة من أمريكا والمعروضة بسعر زهيد لدى باعة بيروت وطرابلس المتجوّلين كما يبدو أيضاً من مظهرهم المهموم والرزين بأنّهم طعنوا في السن قبل أوانه.

بدأ حسن يسحر قلوبهم بمفخرته من خلال حديثه الطويل عن الحجم الهائل لضحيّته. هذا هو الحال في الشرق الأوسط فحينما يتم الحديث عن حيّة فالروايات لا تنتهي لأنّ لكل واحد منهم حكايته الخاصّة به ولكن في ذلك المساء لم يكن الأمر كذلك لأنّه ظهر بأنّ المخاطبين يواجهون مشاكلاً معقّدة بسبب إفتقار مزارعهم للمياه كما أنّ الحبوب المستوردة من أُستراليا والولايات المتحدة وكندا كانت تُباع بسعر منخفض جداً فأثّرت على مبيعاتهم. كانت الأسعار المثبّتة من قبل إدارة مصلحة التبوغ مثيرة للسخرية وأنّ المنطقة مهملة حيث أنّها لا تملك طرقاً ولا وسائط نقل مناسبة وعلاوة على ذلك فمنذ وضعت سوريا نقاط التفتيش على مدخل ومخرج بوكي أصبح من النادر أن ترى السوريين يتجرّأون الوقوف أمام حوانيتهم للتسوّق الأمر الذي دفع غالبية المتاجر الصغيرة إلى إغلاق أبوابها. أنّ الحكومة اللبنانية لم تكن تهتم بهم بقدر إهتمامها بجبي الضرائب منهم كما أنّ الموظّفون لم يكونوا يفكّرون بغير الرشاوي وأمّا أعضاء البرلمان فأنّهم قد نسوا وعودهم الإنتخابية. ولكل هذه الأسباب فأنّ الشباب يندفع للهجرة فيغادر بعضهم للإقامة والإستقرار في طرابلس أو في بيروت بينما يتوجّه آخرون نحو أفريقيا وكندا بل وحتّى نحو أُستراليا.

كنت احب المكوث لساعات وأنا أصغي إلى شكاوي منبوذي لبنان ولكن فجأة ظهرت صبيّة بين شق الباب لتخبرنا بوصول مرشدي الطريق فتمنّى لي أبو حسن «سفراً

سعيداً» وإكتفى بخمس ليرات لبنانية مقابل ضيافته ودوره كوسيط. أخذني إبنه إلى الجانب الآخر من الطريق حيث كان بإنتظارنا مساعد السائق وهو رجل شاب في العشرين من العمر.

وإجتزنا البساتين عبر ممرّات وعرة قبل أن نلمح رجلاً متيناً ومسترخياً وهو يقف أمام سيّارة مرسيدس برّاقة. ناداه حسن على صفحة وأوصاه بالسهر علي. طالت خلوتهم وأخيراً عاد حسن ليؤكّد لي بأنّهم إتّفقوا على ١٥٠ ليرة لبنانية حتّى بيروت وأكون معه لوحدي وقد أقسم طوني بأنّه لن يأخذ مسافراً آخر غيري وذلك لتجنّب المجازفات على طريقنا وحينما أعلنت موافقتي على هذه الشروط إنطلقت السيّارة نحو بيروت ولكن بعد قطع مسافة عشرة كيلومترات ظهر أمامنا رجل في مكان صخري.

ـ أنّه أخي، قال السائق الذي نزل ليتحدّث معه.

وبحجّة قضاء حاجة عائلية إنعطف نحو اليسار وسلك طريقاً وعراً. توقّفت سيّارتنا في ساحة قرية بيوتها متناثرة وإختفى سائقنا بين الظلام بعد أن طمأنني بأنّه لن يغيب لسوى «بضع دقائق» وعاد بعد مرور ساعة بصحبة سيّدين وإمرأة موشّحة بعباءَة سوداء وماسكة بيديها طفلين.

قبل أن ألومه على أي أمر إقترب منّي طوني وخاطبني بلهجة رقيقة:

ـ لا ينبغي أن تتحامل على جعلك تنتظر هذا الوقت الطويل. إضطررت إنتظار وصول هؤلاء المساكين الذين يعيشون وضعاً يشابه وضعك ويجب عليهم الوصول إلى طرابلس بأي حال كان.

فهل هناك أي مانع إذا أخذتهم معنا؟

ـ لا بل بالعكس أنا مستعد لأن أتخلّى عن مقعدي لكل شخص ينوي الهروب من الجحيم السوري...

ـ لا أبداً لن تفعل ذلك، على أيّة حال ليس هذه المرّة، أضاف طوني، أؤكّد لك بأنّ المكان لن يكون ضيّقاً.

إنطلقت السيّارة من جديد وفرحاً «بصيده» الليلي أخذ طوني يدندن أنغاماً جذلة لصباح وفيروز، هاتين النجمتين الكبيرتين للأغاني الشعبية اللبنانية.

في أحد المفاصل إرتأى إختيار طريق اليمين رغم كونه أكثر تعرّجاً ووعورةً لوثوقه بعدم ملاقاة رجال القانون عليه وبصوت هادر تسلّقت مارسيدسه صعدة قويّة وصعبة ومن ثمّ في اللحظة الحاسمة التي يعود فيها الطريق إلى وضع أسهل لمحنا أضواء مصابيح سيّارة قادمة بإتّجاهنا فأطفأ طوني أضواء سيّارته تلقائياً وتوقّف على حافّة الطريق. بدأت السيّارة الأُخرى المضوية لوحدها بضوء عالي بالإقتراب منّا ببطء.

ـ عجباً مَنْ عساهم يكونوا؟

ـ أتصوّر بأنّهم الدرك، ردّ طوني دون إضطراب.

ـ وماذا نفعل فيما إذا كانوا من الدرك حقّاً؟ إستفسرت بينما كنت أرى نفسي موقوفاً ومسجوناً.

ـ تمالك نفسك ولا سيّما لا تجيب على الأسئلة التي يسألونها. أعرف كيف أتكلّم معهم وسينتهي الأمر على أحسن ما يُرام، صدّقني.

وبعد لحظات توقّفت سيّارة جيب مقابلنا وخرج منها أربعة دركيين. هرع طوني نحوهم وهو يحيّيهم بحفاوة وتمكّن من جذبهم إلى الطرف الثاني من الرصيف للتفاوض معهم.

ـ خمسون ليرة ونتركك تمر. لا سمعنا ولا رأينا، هذا ما كان يردّده عريف المجموعة.

ـ لا، عشرون، خمس ليرات لكل واحد منكم، أجابهم طوني.

وبينما التفاوض يجري إنسلخ أحد أفراد الدرك عن المجموعة وإقترب من السيّارة وبدى عليه الجدّية وهو يطالب برؤية هويّاتنا الشخصية فلم يقدر جاري على الإلتزام بالصمت وأطلق:

ـ أنا سوري وصحفي.

ـ آه آه! سوري وفوق كل هذا صحفي! جئتم إذا إلى هنا ً لتشويه سمعة بلدنا في الصحافة السورية.

ـ لا إطلاقاً، عجّل الصحفي الشاب في تصحيح إتّهامه، وإنّما في الحقيقة لم أعد قادراً على العيش في سوريا فجئت باحثاً عن عمل في لبنان.

ـ هذا هو بالضبط. جئت لمنافسة صحفيينا في الوقت الذي نحن نعاني من البطالة...

ـ إذا لم أعثر على وظيفة في الصحافة سأعمل في أي مجال وحتّى كنادل مقهى أو كصبّاغ أحذية إذا إستوجب الأمر، ردّ الرجل الشاب. يمكننا بفضل الحرّية السائدة في بلدكم ورؤوس الأموال العربية المستثمرة فيه تدبير الأُمور بشكل أو بآخر.

ـ حسناً سنرى ذلك، إستدرك الدركي الذي إستدار نحوي ليسألني عن مهنتي.

وتطبيقاً لنصائح طوني إلتزمت الصمت ولكن عنادي دفع الدركي إلى ان يأمرني بفتح الحقيبة الصغيرة المتواجدة بين أقدامي وبدأ يتفحّص موادي الشخصية حينما عاد طوني فرحاً. لقد إتّفقنا ودفعنا والآن سننطلق.

لم تكن المسافة المتبقّية من الطريق الذي نسير عليه سالمة من الشوائب بل بالعكس فقد إضطررنا على النزول من السيّارة لعدّة مرّات واللجوء إلى معاون السائق للإرشاد وسلوك ممرّات متعرّجة ووعرة، طويلة وغير مريحة. بقي السائق والمرأة الموشّحة وأطفالها لوحدهم داخل العربة وفي كل مرّة حينما تتوقّف السيّارة أمام نقاط التفتيش كانت المرأة تجيب بأنّها لبنانية لأنّ النساء اللبنانيات في ذلك الزمن لم يكنّ مجبرين على حمل بطاقة الهوية الشخصية أو معفيات من لصق صورهن عليها.

كان صعود الممر الأخير الذي سلكناه للإلتفاف على مخفر الجندرمة شاقّاً وطويلاً وإضطررنا المرور عبر أشجار الكروم التي تسندها جدران عالية جدّاً من الأخشاب. كان معاون السائق قد قطع تلك المسافة لعشرات المرّات فيعرف المنطقة ويتجوّل فيها دون مشقّة والمسافران الآخران يتبعانه عن كثب وأمّا أنا فقد تخدّرت رجلاي بسبب جمودي وعدم حركتي لفترة شهرين بالحي الكوردي وكنت أُعاني في المشي ولا سيّما حين الصعود. وبينما كنت أتسلّق جداراً إنزلقت صخرة كبيرة تحت يدي فوقعت وإنجرحت قدمي اليمنى. كان الجرح عميقاً فمكثت للحظات طويلة أسفل الحائط وأنا غير قادر على الحركة ومن ثمّ حينما لم أعد أسمع صوت خطى أصحابي بذلت جهداً خارقاً لِلّحاق بهم ولكنّني فشلت وبقيت وحيداً تائهاً وسط الكروم وإضطررت الصراخ والمناداة لطلب النجدة.

ـ لماذا تصرخ هكذا؟ هل تنوي تنبيه مزارعي الكروم وإلقاء القبض علينا؟ صرخ دليلنا بغضب.

ـ لكنّني لا أقدر على المشي، أنظروا إلى حال قدمي.

ـ فلتتعفّن قدمك، صرخ في وجهي، سر وإلاّ سأتركك هنا وأذهب.

ـ ولكنّني لست قادراً على السير. أتركوني هنا وغادروا...

ـ خذ بذراعي إذاً وأبذل جهداً لكي تمشي بشكل أسرع.

عندما قطعت بضع مئات من الأمتار التي كانت تفصلنا عن السيّارة اَلمتني قدمي المدمّاة وتعذّبت منها حد الموت ولحسن الحظ بعد هذا التسلّق الذي لن أنسى ذكراه لم نعد مضطرّين على النزول حتّى طرابلس التي أدركناها عبر سلوك طرق غير مباشرة والتي تبخّر وذاب فيها رفاقي بلمح بصر.

بعد قضاء فترة إستراحة قصيرة، الوقت المطلوب للتعبئة بالبنزين، إستمرّ التاكسي في سيره نحو بيروت وفي بيروت أشار لنا دركيان بالوقوف فإقشعرّ بدني وأنا أُفكّر لقد إقتربنا من الهدف فكيف من الممكن أن يقوما الآن بتوقيفنا؟

ـ هل تذهبون إلى بيروت؟

ـ نعم، أجابه السائق.

ـ يمكنكم إذاً حملنا معكم لأنّ لديكم متّسعاً من المكان.

ـ على الرحب والسعة، هيّا إصعدوا! قال لهما طوني بعد أن تمعّن في البندقية الحربية التي يحملانها على كتفهما.

وهكذا صعد الدركيان اللبنانيان في نفس السيّارة الحاملة لكوردي سوري دخل إلى لبنان بصورة غير شرعية. وفي الطريق بعد ان تراخى الشرطيان على مقاعد السيّارة المريحة حاولا الحديث معنا ولأنّ السائق لوحده هو الذي كان يتجاذب الحديث معهم فقد شكّ الرقيب قليلاً بجنسيتي.

ـ آمل بأن تكونوا جميعكم من اللبنانيين، باغتنا الرقيب باللهجة البيروتية البطيئة.

ـ بالتأكيد، كلّنا لبنانيين! ردّ عليه السائق بعزم وصرامة.

وقد تبيّن بأنّ تواجد الدركيَين كان مفيداً لأنّ الشرطة أوقفت سيّارتنا قرب بيروت.

ـ اخرجوا هويّاتكم، أمرنا أحدهم.

ولكن بالرغم من ذلك فأنّ قلقنا لم يدم طويلاً لأنّ الرقيب أطلق بسرعة في وجهه من

داخل السيّارة:

ـ لا داعي إلى ذلك لقد قمنا بمهمّة التفتيش.

فإعتذر الشرطي وسمح لنا بالمرور. أنّ العقبات كانت لا تزال حاضرة على طريقنا حيث أنّنا وقبل بيروت كدنا الوقوع في سيطرة تفتيش عسكرية لكن عاد طوني على أعقابه حينما لمح ذلك وطلب من الشرطيين النزول.

ـ ولكن لماذا؟ سألاه.

أوه، بكل بساطة لأنّني تذكّرت الآن بأنّه يتوجّب عليّ المرور عبر الطريق المتواجد في الجهة العليا وليس عبر طريق الميناء، تذرّع السائق.

نزل الدركيان بشكل آلي ونظرا إلينا ونحن نغادر. تركني طوني في ساحة المدافع والساعة تشير إلى الثانية صباحاً. لقد حظّر عليّ دخولي غير القانوني إلى لبنان النزول طبعاً في فندق فأجّرت تاكسياً للذهاب إلى زاروب ـ عيتون الواقع في حي كركون الدروز الذي علمت بأنّ الخالة زهرة ستستقبلني فيه بعطف وتفاني أُم لولدها.

حينما قرعت على الباب كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً وحيث أنّها بعد سماعها لطرقاتي المتكرّرة نزلت بمشقّة من سريرها وتقدّمت بخطوات ثقيلة ومن ثمّ سمعتها تسألني بالعربية بصوت صارم:

ـ مَن الذي هناك؟

ـ زائر غير معهود، أجبتها.

وحالما أبصرتني أعرج شعرت بالإضطراب:

ـ ولكن ما الذي جرى لك؟ أراك تعاني من الوقوف على قدميك. هل أنّك مريض أم أنّهم أطلقوا النار عليك؟ أروي لي الذي جرى.

ولصعوبة وقوفها على القدمين لوقت طويل قامت الخالة زهرة بإيقاظ إبنة أخيها بشيرة التي رغم عدم تجاوز عمرها لتسع سنوات فقد كانت معتادة على مساعدة خالتها المريضة وأسرعت بإعداد طشت من الماء المغلي فقمت بمعالجة جروحي بنفسي. وأصبحت بعد هذا التاريخ بعشرة أيّام قادراً على التنزّه في المدينة وزيارة الأصدقاء الذين أثق بهم...وقد توجّب عليّ الحذر في إتّصالاتي وتنقّلاتي بدون «البطاقة الوردية»

التي يمنحها الأمن اللبناني للسوريين الداخلين إلى لبنان بصورة شرعية كما أنّ السلطات اللبنانية كانت متيقّظة على إثر المحاولة الإنقلابية الفاشلة التي وقعت في ليلة رأس السنة عام ١٩٦٢ ففي بيروت وأحياناً أثناء النهار كانت قوّات الطواريء المعروفة «بلواء ١٦» تمارس التفتيش وتطالب بأوراق الهوية ممّا جعل الحصول على «البطاقة الوردية» أمراً مفروضاً.

كان أحد الكورد السوريين المنتمين إلى الحزب الشيوعي السوري والذي مرّ بنفس ظروف فراري قد تمكّن من الحصول على هذه الوثيقة بوساطة من الحزب الشيوعي اللبناني ساعدني للحصول على واحدة منها وبعد مضي أُسبوع لم أعد أخشى التنقّل بحرية في بيروت وفي كل لبنان بإستثناء الحدود الجنوبية وأصبحت قادراً على الإقتراب من أوساط بيروت الكوردية.

كانت هناك في ذلك الوقت جالية كوردية كبيرة تعيش في بيروت والتي تزايد عددها تدريجياً إعتباراً من الحرب العالمية الأولى ليصل في مستهل أحداث عام ١٩٧٥ إلى ١٠٠٠٠٠ فرد. كانت نسبة ٩٥ ٪ من كورد بيروت قادمين من مقاطعة ماردين الواقعة في كوردستان تركيا. وثمّة أسباب إقتصادية وسياسية في آنٍ واحد قد أجبرتهم على الهجرة وأنّ الحكومات التركية المتعاقبة لم تقدر على بسط نفوذها على هذه المنطقة حتّى عام ١٩٢٥ ولا تجنيد الناس فيها ولكن على إثر سحق إنتفاضة عام ١٩٢٥ الكوردية أصبحت هذه المنطقة بدورها خاضعة لمصطفى كمال ممّا دفع العديد من شبابها إلى الهجرة للخلاص من الخدمة العسكرية الإلزامية المفروضة من دولة يجهلون لغتها بالإضافة إلى مأساة إقتصادية لحقت بهم وشجّعتهم على عدم التردّد في إتّخاذ قرارهم: لقد أصاب كرومهم مرض فيلوكسيرا (قمل النبات) فحرّم قطّاعاً كبيراً من الشعب من مورد الرزق.

وأخيراً لأسباب إجتماعية إنشقّت قبيلة العميريين وهي القبيلة الرئيسية الساكنة في المنطقة إلى حزبين متخاصمين بعمق، المحمودكيين (مناصري محمود) والعثمانكيين (مناصري عثمان) وقد كانا يتنازعان لأسباب غالباً تافهة فيتحوّل النزاع أحياناً إلى قتال دامي مخلّفاً الجرحى وحتّى القتلى في ساحة المعركة.

كان الحكماء من الفريقين قبل الهيمنة الفعلية للترك على المنطقة ينجحون دائماً في

إصلاح ذات البين بين الخصمين وإيقاف المذبحة وإعلان الهدنة لتضميد الجرحى بقدر الإمكان وكانوا يجهلون كلّ شيء عن العسكرة التركية وعن بيروقراطية الشرطة والسجن ولكن حينما بدأت هذه الماكنة الثقيلة بالعمل إختارت المئات من العوائل بأكملها المغامرة بحثاً عن حياة ولو كانت مليئة بالعوائق والعقبات في الخارج ولكنّها أقل إهانة للكرامة من «التحقيقات الجنائية التركية»...

ومع هذا فأنّ حياة المهاجرين الكورد في بيروت لم تكن سهلة على الإطلاق حيث أنّه بالرغم من تلبية غالبيتهم للشروط المفروضة لنيل الجنسية اللبنانية فقد منحوها لعدّة عشرات من الآلاف فقط وأمّا طلبات الآخرين فقد تم بغرابة تعليقها بسبب ديانتهم. أنّ تجنيس الكورد المسلمين كان سيفقد التوازن الموجود بين العقائد الدينية في لبنان على حساب المسيحيين اللبنانيين وهكذا تم حرمان آلاف الأطفال الكورد من المدارس العامّة وحرمان مرضاهم من العناية والمعالجة في المستشفيات الحكومية.

وقد حاولت شخصيات سياسية لبنانية بارزة إصلاح هذا الظلم ومن بينهم وزير الداخلية لذلك العهد، كمال جنبلاط الذي بعد إقتناعه بأنّه لن يفلح في كسر عناد الأوساط المسيحية اليمينية التي كانت مهيمنة وقوّية في بيروت آنذاك قرّر منح الكورد المحرومين من الوثائق الوطنية بطاقة إقامة خاصّة تسمح لهم بالعيش والعمل بحرية في لبنان. ورويداً رويداً إستعدت إتّصالاتي بالكورد القوميين ولا سيّما بأُولئك الحاصلين على الجنسية اللبنانية وشجّعتهم على تأسيس جمعية خيرية كوردية سيكون بمقدورها القيام بنشاطات ثقافية ورياضية وقد تم إنجاز هذا العمل بفضل دعم كمال جنبلاط وبعد مرور فترة وجيزة تراكض الكورد من كل مكان نحو المركز الإجتماعي والطبّي والثقافي والرياضي الكوردي وبالرغم من بقاء الحسّاسيات بين المحمودكيين والعثمانكيين فقد إلتزم الجميع بتطويره.

أمّا من جهتي وحتّى لا أُثير الإنتباه فلم أتردّد أبداً على المركز وإنّما كنت أُتابع نشاطاته بإهتمام خاص كما رتّبوا مبنىً في موقع آخر لكي أكون قادراً على تدريس اللغة الكوردية فيه.

ورغم إستقراري في بيروت كنتُ أتابع الأحداث في كوردستان حيث أنّ بعض الشخصيات الكوردية العراقية المقيمة في العاصمة اللبنانية، المعارضين لنظام بغداد

والمتعاطفين مع الحركة القومية الكوردية كانوا يتابعون وضع العراق عن كثب ويتمكّنون من إطّلاعي بما يجري فيه على الصعيد السياسي والعسكري على حدٍّ سواء. كانت المعلومات السرّية التي بحوزة هؤلاء السياسيين القدامى تتطابق مع تلك التي يوزّعها مبعوثي البارزاني المارّين عبر بيروت وتتناقض مع الأخبار المنشورة بصخب من قِبل بعض صحفيي بيروت المموّلين من بغداد. في الواقع، كانت الجيوش العربية المنتصرة في السهل تواجه مقاومة عنيفة في الجبال وتتكبّد خسائر جسيمة وكانت تطلق نداءات النجدة للبعث السوري وحينما شعرت السلطة في بغداد بالخطر طالبت من تركيا وإيران التعاون معها في القتال ضدّ «العدو المشترك» فتم إرسال ضبّاط ترك وفرس إلى كركوك بهدف دراسة خطّة حربية مشتركة لمقاتلة «متمرّدي شمال العراق».

وكان يكفي الإطّلاع على كبريات الصحف اللبنانية التي حافظت على إستقلاليتها لكي تتوضّح الصورة أمام الرأي العام اللبناني والعربي حول حقيقة الوضع في العراق وقد بذّلت جهداً كبيراً لإقناع رؤساء تحرير الحياة والنهار ولسان الحال واللورينت الصباحية والمسائية والحصول على وعد منهم بنشر الأخبار التي أزودهم بها والقيام بكتابة مقالات رصينة حول القضيّة الكوردية.

«أنّ العرب مدينون اليوم بحياتهم ولغتهم وثقافتهم لصلاح الدين الكوردي وأنّ إنكار هذه الحقيقة يعني الجهل التام بالتاريخ وبالخدمات التي قدّمها لنا هذا الشعب الكوردي البطل. حينما يقوم حزب البعث بالتحريض ضدّ الكورد فأنّه يتحدّى تاريخ العرب ويمزّق الأخوّة الكبيرة التي عبّر لنا عنها هذا الشعب النبيل في كل اللحظات الحاسمة لتاريخنا».

هذا ما كتبه المؤرّخ العربي الشهير صلاح الدين منجّد في الحياة. أمّا صحيفة لسان الحال فقد قامت بفضح الأيديولوجية الفاشية لحزب البعث ونادته بالرأفة والديموقراطية ونشرت جريدة اللورينت من جهتها وبالتفاصيل تقريراً بعثته إليهم باسم مستعار تعقيباً على مقالة مغلوطة مكتوبة من قبل رئيس تحريرها كما قمت ايضاً بالإتّصال مع الوكالات الدولية والمراسلين الصحفيين لإذاعات وتلفزيونات أوروبا وأمريكا. ورويداً رويداً بدأت الأخبار الحقيقية المتعلّقة بأحداث كوردستان تخرج بإنتظام من بيروت معرّية الأوهام والتلفيقات الحكومية وكان الكورد على الارض يقاومون جيوش الحليفين

العراقي والسوري المزوّدة بالطائرات والدبّابات والمدافع وقنابل النابالم.

بذل العراق وهو يتباهى بإنتصاره جهداً لا يمكن حسابه لشراء الصحف اللبنانية المستقلّة أو تحجيم الأكثر عنفاً ومع ذلك فلم يقدروا على تغطية المعلومات الموضوعية حول كوردستان العراق. وبعد مرور فترة وجيزة تمكّن السفير العراقي في بيروت من كشف اسم الشخص الذي يموّل الصحافة اللبنانية والدولية بتلك المعلومات العراقية الدقيقة والمدعمة بوثائق...وقام بالتواطوء مع مدير الأمن اللبناني برسم خطّة تستهدف توقيفي وقد فعلوا ذلك دون علم بيير الجميّل الذي كان آنذاك وزيراً للشؤون الداخلية.

ـ أفهم مأساتك بصورة جيّدة، قال لي جميل أثناء إحدى اللقاءات لأنّ وضعك بشكل ما يماثل وضعنا نحن، المارونيين اللبنانيين. يرغب القوميون العرب بأن نعتبر أنفسنا عرباً مثلهم بالكامل لأنّنا نتكلّم بالعربية. نعم، نحن نتحدّث بالعربية ولكن ذلك لا يجعل منّا عرباً حيث أنّ لنا تاريخ آخر وثقافة أُخرى وأسلوب آخر في التفكير والعمل والحلم، أنّه أُسلوب يتناقض تماماً مع أُسلوبهم وطالما لا يقرّ هؤلاء بإحترام خصوصيتنا فسنبقى بإستمرار حذرين منهم.

وفي صبيحة يوم ١٥ شباط من عام ١٩٦٦ وقف ثلاثة عملاء من الأمن اللبناني أمام باب منزل الخالة زهرة.

ـ نريد التحدّث مع نورالدين زازا، قالوا لبشيرة التي فتحت لهم الباب.

ودون إنتظار تحيّتهم «تفضّلوا شرّفتمونا» إنطلقوا نحو الصالة التي تشرف عليها غرفتي وتقدّم رئيسهم:

ـ د. زازا؟ نحن من الأمن اللبناني، هاك بطاقتي. لدينا أمر بإصطحابك معنا للإستجواب.

ـ أي إستجواب تقصد؟

ـ لا تخشى فأنّ الأمر ليس مهمّاً ولا يستغرق أكثر من طرح بضعة أسئلة.

ـ بما أنّني معتاد على الإقتياد وعلى طرح «كم سؤال» عليه فأسمحوا لي بمخابرة محامي للدفاع عن حقوقي.

ـ أتعهّد لك، ستفعل ذلك في مكاتبنا إذا إستدعى الأمر، ردّ الرئيس وهو ينصحني

بتهيئة نفسي على عجل وبأن لا أُحاول الإفلات من أيديهم.

لم يكن لمنزل الخالة زهرة سوى طابق واحد ويحتوي على العديد من النوافذ المطلّة على الحديقة التي تشجّع على الهروب...لم تراودني هذه الفكرة سوى لحظة قصيرة ولكوني أجهل كل ما يفعلوه بي تردّدت بإقحام نفسي في مجازفات غير مجدية.

كنت على وشك ترك المنزل ومرافقة حرّاسي حينما طلبت الخالة زهرة منّي بالكوردية ما ينبغي عليها أن تفعل بكتبي ورسائلي. وقد فلحت في إخبارها بأن تخفيها لدى الجيران.

وبعد مرور عشرين دقيقة وجدت نفسي موقوفاً في حجرة من حجرات مبنى الأمن اللبناني ولم تمضِ أكثر من ساعة حينما أعادتني الشرطة إلى بيتي. كانت إدارة الأمن تحتاج إلى دلائل ماديّة لكي يقوموا بسجني وتقديمي إلى العدالة ولهذا جاؤوا لتفتيش بيتي وقد خشيت بأن لا تملك الخالة زهرة وقتاً كافياً لإخفاء كل الوثائق الخطيرة وكنت أُصلّي مع نفسي كي نقع في حادث طاريء أو في عطل يؤخّر وصولنا إلى مسكن الخالة. ولكن وللأسف الشديد لم تحصل المعجزة ومع ذلك فحين دخولي إلى الغرفة لاحظت فوراً بأنّ كرتونات الكتب المكدّسة فوق الدولاب قد تبخّرت وكذا الحال بالنسبة للوثائق الأُخرى وبالرغم من ذلك فقد أسرع الشرطيون الثلاثة على فتح الدولاب وسحب أدراج المكتب كما فتّشوا تحت السرير بل وحتّى تحت السجّادة المفروشة. وقد فعلوه عبثاً لأنّهم كانوا قد «نظّفوا» كلّ شيء بعناية وفي أعقاب تفتيش دام نصف ساعة أعادوني إلى الأمن خائبين. أدخلوني لدى رئيس المفوضّين، عمر نويري، المعروف بعدائيته الفظّة لجالية بيروت الكوردية وقد كان يفرك يديه من الفرح حينما يلقي القبض أو يضرب أو يعذّب العمّال الشباب الكورد المشبوهين بميولهم القومية وقد قاتل هذا المسلم السنّي بثبات كي يمنع كمال جنبلاط من منح الكورد إجازة بفتح مركزهم الإجتماعي والثقافي. أنّ هذا الرجل هو الذي إستقبلني بحواجب مقطّبة وبصوت مهدّد:

ـ لماذا قمت بزيارة الجرائد اللبنانية والوكالات الأجنبية لبيروت الطاعنة بعلاقات الصداقة اللبنانية ـ العراقية؟ بدأت الحكومة العراقية بسببك تمنع مواطنيها من إختيار لبنان كبلد للإصطياف.

ـ إذا قرّر العراق يوماً إتّخاذ هكذا إجراءات، أجبته، فالسبب يعود إلى الحرب التي

يشنّها ضدّ الكورد. لأنّ هذه الحرب تكلّف غالياً وفي الأيّام القادمة، بالرغم من الموارد الخيالية لنفط الكورد، فأنّ خزائن العراق ستفرغ كلّياً. ومن مصلحة لبنان بأنّ تتوقّف الحرب وبأن يعترف العراق أخيراً بالحكم الذاتي، هذا المطلب المتواضع الذي ينادي به الكورد.

ـ كأجنبي لا يجوز لك التدخّل في السياسة اللبنانية، ردّ نويري بعصبية، بينما أراك تفعل ذلك في مكتبي بالذات. إنّ هذا غير مقبول وسوف لن نسمح لك به في بلدنا مستقبلاً.

ـ في هذه الحالة إعطوني رخصة مرور وإمنحوني مهلة بضعة أيّام كي أُريحكم من شخصي.

ـ ستأخذ إجازة مرورك وستُمنَح ثمان وأربعين ساعة لمغادرة لبنان ويُحرم عليك العودة إليه بغير موافقتنا.

قبلت بشروط نويري ولكنّ الأخير كان ينوي إحتجازي لحين مغادرتي.

ـ لا تملك سبباً وجيهاً لإحتجازي، قلت له. ألتمس منكم الموافقة كي أتحدّث مع المحامي الذي يدافع عن حقوقي.

ـ ينبغي على المحامي الذي يدافع عن حقوقك المجيء بمبادرة خاصّة من نفسه، قال ذلك ضاحكاً. ومن الآن يُحرم عليك الإتّصال بالعالم الخارجي...

أنهى كلامه ونادى على إثنين من رجاله اللذان قاما على الفور بإقتيادي إلى حجرة كما قاما فيها بنزع ربطة عنقي وحزامي وبريمات حذائي ومن ثمّ إقتاداني على مسافة بضعة أمتار من هناك أمام باب حديدي ذو قضبان حديدية سميكة ففتحه أحد الشرطيين ودفعني داخل ما يشبه سرداباً مُناراً بالكاد تضطجع فيه أجساد ممدّدة في كل مكان. مكثت وسط الحجرة للحظات طويلة وتمعّنت حولي: لم يكن يتجاوز عرض المكان أكثر من مترين ونصف المتر ويبلغ طوله أربعة أمتار لا يدخله الضوء ولا الهواء سوى عبر القضبان وبلا ماء جاري ولا مرافق صحّية وقد لاحظت في عمق السرداب حوضاً مصنوعاً من الألمنيوم مليئاً بماء يطفو على سطحه البصاق وأعقاب السيكاير. حينما رآني أحد المعتقلين على هذا الحال ساكناً بلا حراك دعاني للجلوس جنبه فوق حصيرته وقد كان سورياً أُلقي القبض عليه أثناء تفتيش عسكري في ليلة نسي في

المنزل لسوء الحظ «بطاقته الوردية» وبدلاً من أن تقوم الشرطة بالذهاب إلى بيته للتحقّق من أقواله رمته في هذا المكان وقد مضت خمسة أيّام دون أن يهتم المسؤولون بمصيره. كان ينتظر...وأنّ الكثيرين مثله أصبحوا ضحايا للإساءَة واللامبالاة بمصيره وضحايا للفساد البيروقراطي البدائي وقد وجدت باكستانياً يتعفّن في هذا المكان منذ ستّة أشهر بسبب فقدانه لجوازه...أمّا أنا فقد أمضيت خمسة أيّام دون أن يسأل عنّي أيّ شخص وأخيراً في اليوم السادس أخرجوني من السجن بهدف إعداد إجازة مروري وبالصدفة كنت أحمل معي صور جواز شخصية فلم تستغرق العملية غير ساعة واحدة. وحسباً لكلام المفوّض لم يكن بحوزتي إعتباراً من هذه اللحظة سوى ثمان وأربعين ساعة للحصول على فيزا من إحدى دول أوروبا الغربية ومع ذلك فقد غيّر الأمن فجأةً رأيه بشأن تمتّعي بالحرّية في بيروت خلال ثمان وأربعين ساعة ممّا جعلني أُفكّر بالإجراءات التي من المحتمل سأقوم بها لدى الشخصيات اللبنانية البارزة التي أعرفها شخصياً كأمثال كمال جنبلاط وبيير الجميل.

ـ ليس وارداً على الإطلاق بأن تترك مبانينا. حاول الإتّصال بالسفارات التي ترغبها هاتفياً، أطلق المفوّض في وجهي.

كان المقترح عبثياً لأنّه بمجرّد الإشارة إلى المكان الذي أُخابر فيه كنت أُجازف الرفض من الدبلوماسيين ومع ذلك فقد تمكّنت من المحادثة مع القنصل العام لهولندا ومع قنصل ألمانيا الفيدرالية الذي سبق وأن إنتهزت فرصة الحديث معه بشأن القضيّة الكوردية.

ـ من الضروري أن تمر على مكاتبنا لكي تقدّم طلباً رسمياً، أجابني الإثنان.

وبما أنّ الأمن كان يسعى بكل ما لديه من قوّة إلى إبعادي من البلد فقد تصوّر إحتمالاً آخر حيث أنّه كان يكفي بأن تكون حاملاً لبطاقة هويّة للعبور من سوريا إلى الأُردن كما كان بمقدوري الذهاب أيضاً بالرغم من إقامتي في لبنان إلى عمّان بلا مشاكل. هذا هو الرأي الذي عبّر عنه المفوّض وأمّا بالنسبة لي فقد كنت واثقاً بأنّني سأتعرّض للمخاطر في الأُردن بينما يصرّ هؤلاء السادة من الأمن على تنفيذ مقترحهم. وفي مساء يوم ٢١ نيسان قادوني إلى مطار بيروت وأجبروني فيه على شراء تذكرة طائرة بيروت ـ عمّان ذهاباً وإيّاباً قبل أن يسلّموني إلى واحد من عملائهم المسؤولين

عن أمن إحدى شركات الخطوط الجوّية.

وبعد مضي ساعة حطّت الطائرة على الأرض الأُردنية ولكن حين المرور على مركز تدقيق الجوازات قفز ضابط الخدمة ذو الملامح الشركسية البارزة على الوجه من مكانه كما لو أنّ خلية كاملة من الزنابير تلدغه.

ـ من أين تأتي؟ سألني بلهجة بدوية عربية مكسّرة.

ـ من بيروت.

ـ أين هو إذاً جوازك؟

و حينما أوضحت له حول مَن أكون و ما فعله بي الأمن اللبناني بدأ يهز رأسه مردّداً:

ـ أنّه غريب وعجيب هذا الذي تقوله...

ومن ثمّ قادني إلى مكتبه وهاتف فيه إلى رئاسة أركان الجيش وإلى المخابرات الخاصّة.

بعد مرور نصف ساعة وضعني جيب عسكري أمام مبنى رئاسة الأركان الأُردنية وقام نصف دزّينة من الضبّاط بشد الطوق عليّ حال وصولي إلى الغرفة قبل أن يأخذوني إلى محل آخر. حاول قائد شاب، طويل القامة وذو بشرة فاتحة معرفة المزيد عنّي:

ـ ولكنّني كوردي.

ـ كوردي كيف؟ أنا أقصده إنتماءَك لأي حزب؟

ـ كوردي فقط.

ـ هل تساند البارزاني؟

ـ أنا أتّفق مع نضاله كأي كوردي آخر.

ـ قل إذاً بأنّك إنفصالي وشيوعي.

ـ إنّ البارزاني ليس شيوعياً ولا إنفصالياً. أنّه ليس سوى كوردياً شريفاً يناضل من أجل الحقوق الطبيعية لشعبه.

ـ إعمل لنا مختصراً كتابياً عن حياتك ونشاطاتك، أمر محدّثي.

ولأنّني كنت منهكاً وافق أحد الضباط على لعب دور السكرتير وسجّل المراحل المهمّة من حياتي ونشاطاتي كمناضل كوردي ومن ثم تركني وحيدا غاصّاً في أوراقه. طالت المناقشات وفي حوالي الساعة الواحدة صباحاً أتى جندي يبحث عنّي ليقودني إلى مكان لم يفصح عنه بأيّ شيء ولكن بعد إجتيازنا للعديد من التلال الجرداء أدرك الجيب العسكري عمّان وعبر طريقاً طويلاً مضاءاً بشكل سيّء ليتوقّف في النهاية أمام مركز للشرطة. حينما دخلناه ذهب الشرطي الحارس ليوقظ ضابط الخفر الذي كان أيضاً بقامته الفارعة وشعره الأشقر ووجنتاه المتورّدة يشير إلى أنّه من أصل قوقازي وعندما سألته باللغة التركية بأن يحدّثني عن المصير الذي ينتظرني حدّق في وجهي بعيونه المستغربة ذات الأجفان المنتفخة ولم ينبس بكلمة. دخل إلى مكتبه وقرأ الأوراق التي مدّها حارسي له وخابر ومن ثمّ تمتم بشيء على أذن الحارس وهو يعيد الوثائق وإستدار الجيب الذي وضعونا فيه من جديد إلى الوراء ليتوقّف على بعد كيلومتر في الجهة السفلى أمام مركز شرطة آخر فإستقبلنا على أبواب السجن عريف ذو شوارب متدلّية والطيبة كانت بادية على وجهه. بعد أن سجّل إسمي في دفتر تسجيل ضخم فتح السجّان باب الرواق وأمرني بالمبيت على الأرض كحال المعتقلين الآخرين ولكن بسبب الشخير والروائح النتنة المنبعثة من المكان فضّلت البقاء في الممر متّكئاً على القضبان المشبّكة للباب. إقترح علي السجّان الذي كان مستغرباً من وضعي ومن الثياب النظيفة التي كنت أرتديها مقارنةً مع الآخرين بأن أشرب معه قدحاً من الشاي فوافقت بسعادة ووجدت نفسي جالساً على سريره. وبينما أشرب علمت بأنّه من أصل فلسطيني وبأنّ غالبية موظّفي الدولة الأُردنية هم فلسطينيون تجنّسوا بالجنسية الأُردنية وإعترف لي بصراحة بأنّ الفلسطينيين لا يحبّون الملك حسين ولا عائلته وبأنّ اليوم الذي سيتخلّصون منهم بات قريباً جداً.

كما حدّثني أيضاً عن أُسره العديدة وبأنّ راتبه لايكفي لإطعامهم وبأنّه يقوم بأعمال صغيرة أُخرى خلال قسم من أوقات النهار ولكونه لم يتوقّف عن شكواه حول مصاعبه الماديّة فقد أعطيته مبلغاً بالليرات اللبنانية ما يعادل دينارين أُردنيين، المبلغ الذي بدى خيالياً له فدعاني على الفور بالتمدّد على سريره للنوم حتّى مطلع الفجر.

ـ وأنت؟ سألته.

ـ أوه، في الليل تعودت على السهر وإذا نعست كثيراً يمكنني النوم مستنداً على المنضدة.

وهكذا قضيت جزءاً من الليل نائماً على سرير العريف...

قبل الفجر بقليل أيقظني بغتةً.

ـ ربّما سيصل رؤسائي بعد قليل. من الأفضل لك بأن تحاول النوم على ذاك الكرسي في الممر.

وبعد قليل رنّ جرس التلفون فأعلموني بأن إستعد للعودة إلى بيروت وبعد ذلك بساعتين أنزلتني الطائرة في مطار خالدي ومن ثم وجدت نفسي بعد نصف ساعة أمام المفوّض نويري.

ـ ها، زعق نويري، أعادوك إلينا.

ـ لقد أخبرتك بأنّ الأُردن لا تفتح لي ذراعيها. من الآن فصاعداً لا تبعثوني إلى دولة عربية وإنّما إمنحوني ثمان وأربعين ساعة، المهلة التي أحتاجها للحصول على فيزا دولة من أوروبا الغربية.

ـ لدينا ما يكفي من العمل للإهتمام دائماً بمشاغلك، ردّ المفوّض. بكل بساطة لقد قرّرنا إعادتك إلى سوريا والأمر يعود إليك لإصلاح شؤونك مع سلطات بلدك.

ـ هل تتجرّأون على هذا الفعل؟

ـ نعم، لأنّ ذلك أفضل لنا ولكم.

ـ وإذا رفضت؟

ـ لا أنصحك بذلك لأنّك ستندم. نحن بالفعل مصمّمين على إستخدام جميع الوسائل اللازمة لإعادتك إلى سوريا بل وحتّى ربطك بالقيود لتنفيذ ذلك! فمن صالحك الإطاعة وعدم الممانعة...

إنّ المأساة التي وجدت نفسي فيها كانت رهيبة ففي الخارج لم يتمكّن أصحابي من عمل أي شيء لإنقاذي من هذه المحنة وأنّ التدخّل لدى الشخصيات المؤثّرة كان من المحتمل أن يساهم في إنجادي لأنّ توقيفي من قِبل الأمن لم يستند على أي أساس

شرعي...لم يتحرّك أحد فلا جنبلاط ولا جُميّل اللذين كانا يقدران بمكالمة هاتفية بسيطة إطلاق سراحي ولكن لم يكونا على إطّلاع بمغامرتي...

وبعد التفكير قبلت على مضض بأن يسلّموني إلى سوريا بلا مقاومة فاسرع نويري في ترتيب الإجراءات وجاءت الشرطة لتقودني إلى دائرة الجندرمة الواقعة في الجزء الغربي من المدينة وعند نهاية النهار نقلوني إلى فرع الأشرفية للجندرمة المكلّفة بتبادل «المجرمين» بين البلدين وأمضيت فيه ليلة مرعبة بلا غطاء مرتعشاً من البرد حتّى الصباح على أرضية إسمنتية. في الصباح، حاول عريف متحمّس إرغامي على ممارسة أعمال التنظيف ولكن حينما سمعني أحتج باللغة الفرنسية وثب من مكانه وأخيراً إستوعب وضعي ـ كان ينهل من الأدب الفرنسي ـ وقد إبتزّ العريف خمس ليرات لبنانية منّي مقابل وعد يسمح لي بمخابرة أحد أصدقائي الذي كان يعرف بيير الجُميّل ولكنّه لم يوفِ بوعده.

وفي اليوم التالي أي في ٢٣ نيسان، أخذت أنا الهارب سرّا قبل ثلاث سنوات، والقيود في معصمي طريق سوريا بسيّارة لاندروفر ومحاطاً بثلاثة من رجال الدرك اللبناني وفي نهار جميل جدّاً حيث أنّ السماء كانت زرقاء صافية والشمس الربيعية الصباحية تغطّي الجبال بطبقة من حرير الموسلين وأنّ إشجار الفستق والمشمش والخوخ والتفّاح كانت تطلق نفحات من العطر الساحر.

كان هذا الديكور خلّاباً وسحرياً إلى حد ذكّرني على الفور بسنوات طفولتي في كوردستان تركيا وأنساني قيودي وحرّاسي وتوجّهي...

وحينما توقّفت السيّارة فجأة أمام الشرطة العسكرية السورية في جَديد إستصعب علي تصديق ما تراه عيوني:

ـ لا، هذا مستحيل كيف من الممكن بأن أكون من جديد بين أيديهم! تساءلت مع نفسي...

سوريا

سبعة أشهر في زنزانة إنفرادية داخل سجن الشيخ حسن بدمشق

الحياة اليومية مع التعذيب

وسط معتقلين من «الإخوان المسلمين» والبعثيين وآخرين

النفي إلى جبل الدروز

تحت الإقامة الجبرية في دمشق

كان الواقع هناك حيث أنّه حين إخبار السلطات السورية بالهاتف قامت الاخيرة بتكليف عريف وثلاثة جنود للمناسبة فإستلموني وإنطلقوا نحو العاصمة دون أن يضيعوا لحظة من وقتهم ولم يجد العريف رغم إلحاح المرؤوسين ضرورة بأن يضع القيود على يدي.

ـ إلى أين سيذهب داخل هذه الجبال؟

لقد طمأنني تصرّفه وهدأ بالي. كنت أعرف بأنّه في يوم ٢٣ شباط من عام ١٩٦٦ قد وقع إنقلاب عسكري في سوريا وأنّ «القيادة القطرية» لحزب البعث وعلى رأسها صلاح جديد قد أزاحت «القيادة القومية» التي كان يقودها أمين الحافظ، رئيس الدولة السورية وأنّ القيادة الجديدة أعلنت ميولها اليسارية الإشتراكية.

«هل أنّ التصرّف الإنساني للعريف من الممكن بأن يكون نتيجة لما حصل؟»

لكن أوهامي لم تدم طويلاً...ففي دمشق مرّروني من مكتب إلى مكتب قبل أن أجد نفسي في حي الشيخ محي الدين وقد إضطررت الإنتظار فيه خلال ساعات وفي الساعة الواحدة بعد الظهر جاءَني شرطيان مدنيان فأنزلاني داخل قبو وأغلقا عليّ باب حجرة مؤثّثة بسرير عسكري وبأنواع متعدّدة من الصناديق المقفلة، لقد وضعوني داخل

حجرة نوافذها متداعية ومشبّكة والتي بقيت فيها لمدّة ثلاثة أيّام. في صبيحة اليوم الثالث أخذوني إلى جهة غير معلومة وقد كان قلبي يخفق بشدّة وإستسلمت إلى فكرة قيامهم بسجني من جديد في المزّة ولكن حينما وصلنا إلى مركز المدينة إستدارت السيّارة نحو اليسار بدلاً عن اليمين.

ـ هل من الممكن بأن يكون الإتّجاه إلى السجن المركزي؟ تساءَلت مع نفسي.

لا أبداً لأنّ الجيب إستدار بعد مروره من أمام سوق الحميدية نحو اليمين بإتّجاه الميدان الذي يمثّل واحداً من أقدم الاحياء الشعبية لدمشق وبعد لحظات توقّفت السيّارة أمام مبنى ذو جدران سميكة وذو بوّابة ضخمة كتبوا في أعلاها «مركز شرطة الشيخ حسن».

«هل سيسجنوني في زنزانة إنفرادية كما هي تقاليد الشيخ حسن؟ هل سأكون قادراً على تحمّل هذه العزلة؟»

لم يبرح هذا التساؤل بالي وبعد تحقيق بضع خطوات على الدرج الحلزوني تواجدنا أمام باب معدني مُغلق من الداخل فطرق عليه واحد من الشرطيين الذين يرافقاني بشدّة ولعدّة مرّات ممّا جعل كل البناية تهتز وجاء صوت صياح من الأعلى:

ـ أيوه!

ومن ثمّ تلاه صوت قرقعة المفاتيح وسط سكون مطبق وسمعنا صدى ضجيج الخطى على الدرج وحينما إنفتح الباب من الخارج شاهدت رجلاً شابّاً اسمراً كبيراً يرتدي قميصاً بنصف ردن ويحمل شواربا متدلّية ومزوّداً بمسدّس يتدلّى على خاصرته اليمنى.

ـ زبون جديد، قال مبتسماً لزملائه. أنّه يأتي في الوقت المناسب لأنّنا بدأنا نمل مع الإثنين اللذَين بقيا هنا...

وبجفاف أغلق الحارس ذوي الشوارب المتدلّية عليّ الباب داخل إحدى الزنزانات التي يبلغ طولها متر و ٨٠ سنتمتراً وعرضها متر ونصف المتر كما أنّ إرتفاعها لم يزد على مترين. ومن جهة اليسار على طول الحائط بنوا حافّة من الطين المجفّف مغطّاة بالسمنت تُستَخدَم كسرير وفي العمق بالقسم المنخفض كنت تجد حُفرة وحنفية مربوطة

بانبوب ماء لتكون بمثابة مرافق صحّية وثمّة نافذة صغيرة كانت تطل على الباحة كما أنّك حينما كنت تنهض على أطراف أصابع قدميك ترى مشهد المقبرة الواسعة المحيطة بثلاثة أرباع السجن وقد رافقني نحيبها وعويلها طوال فترة إقامتي في الشيخ حسن.

كان الجزء الأعلى من الباب يحتوي على كوّة تشرف دائرة المباحث على غلقها وفتحها وفيما يخص تلك المخصّصة لي فقد بقيت مغلقة لمدّة شهر، الفترة التي مكثت فيها منعزلاً تماماً بحيث لم أكن أسمع سوى الأصوات ولم أرى فرداً إلاّ عند الظهر حينما كان رجال الشرطة يقومون بغتةً بفتح شق صغير من الباب ليطلبوا منّي ما أرغب تناوله من الأكل. وبما أنّ المأكولات الساخنة كانت ممنوعة فقد كانوا يقترحون عليّ ثلاثة أنواع من السندويشات: سندويج الجبن الأبيض أو بالزبدة مع المربّى أو مع الحلوى كما كان مسموحاً أيضاً بأن أطلب الفواكه وبعد مضي عشر دقائق من «الطلب» كان الشرطيون يعودون ويضعون أمامي المأكولات أو الفواكه مطالبين بما يعادل ما دفعوا ومن ثمّ يسرعون في إغلاق الباب من جديد.

كان وقع هذه العزلة ثقيلاً جدّاً على نفسي إلى درجة راودتني في مساء اليوم الثالث فكرة بأن أضع حدّاً لحياتي من خلال حز معصمي ولتحقيق هذا الغرض قمت بقلع المسامير من إحدى حافات النافذة وحاولت كسر قسم من زجاجها وقد أدركت هدفي ولكنّني تجاوزت الحدود التي وضعتها بشكل كبير حيث أنّ الزجاج خرج من إطاره وإنزلق على طول الحائط فأصدر ضوضاءاً مخيفاً ممّا دفع الحارس المداوم إلى الهرع نحو زنزانتي.

ـ ما الذي يجري؟ سألني مذعوراً.

ـ أوه لا شيء، لقد سقط الزجاج...

ـ أنّ الزجاج لا يسقط من حاله. لابد وأنّك لمسته.

ـ سقط حينما كنت أُحاول فتح النافذة.

ـ لا تروي لي حكايات ملفّقة، ردّ بعصبية، بل قل لي بأنّ لديك مقاصد شيطانية لا يمكنك إخفاءَها لقد تعوّدت على رؤية هكذا مسائل. ومنذ فترة ليست بطويلة أنقذنا في اللحظة الأخيرة معتقلاً كان قد تمكّن من قطع وريده من خلال إستخدامه لنفس أسلوبك. أنصحك بأن لا تكرّر المحاولة وإلاّ فسنقيّدك بالسلاسل. أترك زنزانتك وهلمّ

لتستقر بالقرب من مكتبي وأترك فيها أغطيتك فسنعطيك منها بقدر ما ترغب.

حينما إنتقلت إلى الزنزانة الجديدة شاهدت المسجونين الآخرين. كان أحدهما متقدّماً بالاحرى في العمر ويجلس مقابل زنزانته واضعاً رجلاً على رجل فوق غطاء مفروش على أرضية الممر مباشرةً وقد منحوه هذه النعمة بسبب عمره المتقدّم. أمّا السجين الثاني فقد كان واقفاً خلف نافذته المفتوحة وحلّت من ملامحه بأنّه كان عميلاً سابقاً للمباحث في عهد ناصر ولابد من أنّه قد بذر الخوف والرعب بين المعارضين للنظام. وجّهوا الإتّهام إليه لقيامه بتعذيب العديد من المعتقلين حتّى الموت فهل يا تُرى أنّ طاقم الحكم يطالب الآن محاسبته على جرائمه المُرتكبة أم أنّه يريد بكل بساطة جبره على الخنوع لمشيئته جسداً وروحاً؟ لم أعرف الجواب مطلقاً لأنّهم أطلقوا سراحه بعد أيّام من ذلك...

في ذلك المساء الذي مررت أمامهم كان «جيراني» يرتشفون الشاي وبعد مضي وقت قصير على سجني في قفصي الجديد إقترب العجوز منّي وفتح كوّتي مادّاً قدحاً من الشاي.

ـ هاك، إشرب سينعشك. أنّ قضاء الأيّام الأُولى صعب جدّاً هنا، قال لي بأبوية. بعد ذلك ستتعوّد، إصبر قليلاً وكل شيء سيسير على ما يُرام.

بعد إطلاقه لهذه الكلمات أغلق النافذه وعاد أدراجه ليرتشف الشاي وهو يتسبّح بمسبحته ويروي الحكايات للحارس. هدّأتني زيارته وكلماته المشجّعة والشاي حيث أنّني إستهويت الإصغاء إلى الرجل الشجاع خلال فترة وغفوت على ميلوديا صوته الرخيم وفي اليوم التالي والأيّام اللاّحقة كان يجلب لي بإنتظام قدحاً من الشاي وفي كل مرّة يجري حديثاً معي وحينما سألته عن هويّته ظهر بأنّه متأثّر جدّاً وبصوت منخفض تمتم بأنّه من الحي الكوردي وبأنّه يعرف مَن أكوان...

ولكن كيف من الممكن أن يحط هذا الشيخ بنظراته الطيّبة في الشيخ حسن؟ فروى لي بأنّه كان يملك داراً يؤجّره لضابط منذ بضع سنوات وأنّ أبنه كان في طريقه إلى الزواج فصمّم على أن يسكنهم فيه وقد منح مهلة ستة أشهر للضابط كي يستطيع العثور على شقّة أُخرى ولكن مرّت الشهور الستّة والضابط لم يتحرّك من مكانه ولم تبدر منه أيّة نيّة بالخروج فسجّل الشيخ العجوز دعوى ضدّه أمام القضاء راجياً

إستعادة حقوقه.

ـ كيف؟ هل تتجرّأ بأن تفعل هذا؟ سأُريك ما أنا عليه قادر، أطلق الضابط في وجهه.

وبعد مرور أيّام جاءَت المباحث ليلاً ليخرجوه من السرير ويلقوا به في الشيخ حسن. وقد مرّت على الحدث خمسة عشر يوماً ولكنّهم يهدّدونه بالبقاء فيه حتّى الموت إذا لم يقم بسحب شكواه.

ـ وكيف تفكّر في حلّه؟ إستفسرت منه.

ـ أوه! أعتقد بأنّني سأتنازل لأنّني لا أملك لا القوّة ولا الصحّة التي تسمح لي بتحمّل هكذا نوع من السجن. تبّاً لإبني، سيتزوّج في وقت آخر حينما ننجح في تدبير مكان له ولزوجته لدينا، قال ذلك مستسلماً.

وبعد ذلك بثلاثة أيّام حينما ودّعني سألني إنْ كان يقدر على فعل أمر لي في المدينة فأشّرت على أسماء بعض الأصدقاء ورجوت منه بأن يذهب شخصياً لرؤيتهم ويعطيهم أخباري ويحثّهم على القيام بإجراءات لسحبي من السجن فأقسم اليمين بأنّه سيفعل وقد ترك لي مسبحته الطويلة كذكرى.

ـ أنّه يساعدك لتمضية الوقت كما يمكنك إعتباره في ذات الوقت تلمساناً يجلب لك الخير والسعادة.

ولم تمضِ فترة طويلة فإذا بوصول «سجناء آخرين» ينتمون إلى تنظيم «الإخوان المسلمين» والذين أُقتيدوا إلى غرفة التعذيب وقد تمكّنوا من الحصول على أسماء منهم ووقّعوا تعهّداً بعدم تعاطيهم في السياسة قبل ان يُطلَق سراحهم وكنت أسمع نحيبهم وتوسّلاتهم.

وفي صباح جميل كانت قد مضت عشرة أيّام على تواجدي في الشيخ حسن سمعت قرقعة شديدة فإنفتح باب زنزانتي ودخل الحجرة رجل مهتاج و في ذات الوقت مغروراً وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره:

ـ هل تعرفني؟ قال لي واثقاً من نفسه.

ـ لا، أجبته ببساطة شديدة.

ـ ألم تسمع أحداً يحدّثك عن الملازم الأوّل محمّد رمضان؟

ـ لا...

ـ كنت في السابق نائباً لمحافظ عامودا فهل أنّ ذلك لا يذكّرك بشيء؟

ـ لا، أبداً ولسبب بسيط لأنّني امضيت السنوات الأخيرة في لبنان.

في الواقع لم أغفل اي شيء عن الفظاعات التي إرتكبها هذا النائب للمحافظ والذي إعتاد الكورد على إطلاق تسمية «جلاّد عامودا» عليه والذي كان معروفاً بعدائيته للكورد وتحمّسه ضدّهم وقد عاهد نفسه على إبادة أكبر عدد ممكن من الكورد...

في يومٍ ما وبينما يُعرَض فيلم دعائي عن الجزائر في إحدى صالات السينما بعامودا نشب فجأة حريق قضم القاعة باكملها وحينما شعر المشاهدون الصغار بأنّهم تُركوا لمصيرهم إندفعوا نحو أبواب الخروج ويا للغرابة لقد كانت مغلقة من الخارج...فبدأوا يتراكضون بحثاً عن منفذ وهم مذعورين. وهكذا مات أربعمائة منهم قبل وصول النجدة وهم مشوون شواءاً وقد كان نائب المحافظ في تلك الساعة جالساً في مكتبه يرتشف القهوة...

وبقي نائب المحافظ بالرغم من الإستياء العام لوقت طويل في منصبه وإستمر في إرهاب الجماهير ولا سيّما الأطفال والمراهقين. وقد كان هو الذي أقدم على توقيف عشرين منهم، بين ١٢ و ١٥ سنة، بحجة أنّ تلاميذ المتوسّطة أطلقوا الهتافات للبارزاني وهدّدهم بالإغتصاب إذا لم يعترفوا بأنّني تلقّيت أسلحة من البارزاني «لطرد العرب من المناطق الكوردية» وهو يعرض جنسه عليهم. وتحت الضغط والإكراه «إعترف» العديد من الأطفال والمراهقين وتلقّوا الفلقات وآخرون إنصدموا نفسياً وإلتجأوا إلى العلاج الطبّي وحينما تجاسر أولياء أُمور التلاميذ على الإحتجاج لإستخدامه هكذا أساليب وحشية جديدة قاموا بجلدهم أمام الجمهور ومن ثمّ حوّلوهم إلى سجن مزّة.

ولتجّنب المظاهرات الشعبية أمر نائب محافظ عامودا بطوق المدينة الصغيرة بالدبّابات وكان يصعد بين حين وآخر بنفسه على ظهر واحدة منها ويتجوّل بها عبر طرقاتها وهو ينادي الجماهير بالخروج لمنازلته...

وبعد الإنقلاب العسكري الذي وقع في ٢٣ شباط من عام ١٩٦٦ إرتقى في المنصب وتقلّد وظيفة محقّق في دائرة المباحث.

كان هذا الفرد المشؤوم هو الذي يقف أمامي ويزدريني:

ـ آه، أنّك لا تعرفني؟ فلتعلم بأنّني ذاك الذي أرعب كل كورد الجزيرة بدبّابة واحدة، وفقط دبّابة واحدة، فهل تفهم؟ دبّابة واحدة تكفيني لوحدها لدعس وسحق وإبادة كورد سوريا. هل تسمعني؟ إبادتكم!

ـ تملك ما يكفي من السلاح لفعل ذلك، أجبته، ولكن هل تعتبر هذا الأمر مجداً وفخراً لدولة حينما تقوم بإبادة شريحة مهمّة من مواطنيها بسبب الإنتماء إلى قومية أُخرى؟

ـ بالتأكيد، أخذ يزعق، حينما يستنكف هؤلاء المواطنون الصهر في بوتقة الأُمّة العربية ويحاولون الإحتفاظ بخصوصيتهم بل وحتّى المناداة بأُمّة متميّزة مثلما يفعله حالياً البارزاني في العراق ومثلما تنادون به، أنتم الكورد في سوريا. كما إنّنا نملك الدلائل والإثباتات على ذهابك شخصياً لزيارة البارزاني وعدت من عنده بتعليمات محدّدة من أجل إلحاق شمال سوريا بالدولة الكوردية التي تنتظرون إنشاءَها بعد فترة في العراق، إستطرد وهو يزبد غضباً.

ـ ما تؤكّده هو محض خيال، أجبت عليه، ولسبب بسيط ألا وهو أنّ البارزاني لم يفكّر مطلقاً بالإنفصال عن العراق وبالنسبة لي فأنّني لم أتشرّف يوماً بلقائه كما أنّه بإمكان السلطات اللبنانية التحقيق والإثبات بعدم مغادرتي للبنان منذ تركي لأراضي سوريا على الإطلاق.

ـ سنرى هذا لاحقاً ولكن بإنتظار ذلك هاك خذ ما تكتب عليه تقريراً حول كل ما فعلته خلال إقامتك في لبنان وأُريده جاهزاً للغد.

وحال إنتهائه من هذه الكلمات غادر فجأةً مثلما أتى فباشرت على الفور بكتابة التقرير وقد ذكرت فيه الأُخوّة التاريخية بين الكورد والعرب أوّلاً والدعم الذي قدّمه الكورد للعرب أثناء الفترات الزمنية الحاسمة في التاريخ سواءاً أثناء زمن الصليبيين أو زمن الإنتداب الفرنسي كما تحدّثت عن الجيرة الحسنة بين كورد وعرب سوريا حتّى وصول السلطة بيد العسكريين المدافعين عن المباديء البعثية. وإنتقدت أيضاً أيديولوجية حزب البعث وفضحت مفارقته التاريخية وعماه السياسي كما ذكرت وبصراحة تامّة كل نشاطي السياسي في لبنان وعبّرت عن موقفي حول إحترام الحقوق المشروعة للشعب الكوردي من أجل رسوخ الأُخوّة الحقيقية بين الكورد والعرب وأنهيت التقرير ذاكراً فيه

إطلاق سراحي بلا قيد أو شرط.

بعد مضي يومين إقتادوني على عجل داخل حجرة ذات جدران سميكة مبنيّة من الطابوق، بلا نافذة ومضاءَة بشكل رديء فرأيت فيها نائب المحافظ القديم لمدينة عامودا متّكئاً على منضدة ويحيط به عشرة من أزلامه ماسكين بأيديهم عصا طويلة من السلال.

ـ قل أنت يا هذا! ناداني الملازم الأوّل. لم تكتفي فقط بإخفاء تحرّكاتك وإنّما تجرّأت أيضاً على إنتقاد حزبنا والإفتراء علينا!

وهو يتوجّه نحو رجاله:

ـ أطرحوا هذا السفيه على الارض وأجلدوه إلى أن يعترف بلقائه مع البارزاني ويتبرّأ كتابياً عن أقواله الجارحة تجاه حزبنا البعث.

فتهجّم عليّ رجلان وطرحاني على الأرض وقام ثالث برفع أقدامي وباشر الرابع بجلدي على الرجلين وقام بالضغط عليهما إلى درجة شعرت بأنّهما قد تقطّعا وتسارع إثنان آخران بضربي على أخمص قدمي وبالضربة الثالثة إنشقّ جلدي وتقطّع وريدي فبدأ الدم يسيل أمواجاً ولكن حينما لاحظ الملازم الأوّل هذا الأمر صاح على رجاله:

ـ توقّفوا، توقّفوا! لا ينبغي علينا أن نجعله شهيداً. خابروا بسرعة الإدارة لكي يبعثوا بطبيب.

وبإنتظار وصول الطبيب قام أحد الجلاّين بالعثور على خرقات ملابس ولفّها على أقدامي وفي أعقاب بضع دقائق أصبحت مصبوغة بالأحمر ولأنّ الإدارة لم تعثر على طبيب موجود تحت تصرّفها فقد وضعوني في سيّارة لاندروفر وإقتادوني إلى قسم العمليات الجراحية لمستشفى مزّة العسكري.

حينما عدت إلى وعيي شعرت بأنّني متمدّد على سرير نظيف وأحسست بآلام موجعة في قدمي ويقومون بتغذيتي بالإنعاش وقد أمضيت خمسة عشر يوماً في هذه الغرفة قبل أن يعيدوني إلى زنزانة الشيخ حسن.

تصرّفت المباحث بعد هذا الحادث تجاهي بشكل متساهل حيث أنّها أبقت على نافذتي مفتوحة ما مكّنني من رؤية ما يجري في الممر والحديث مع المعتقلين الآخرين

ولا سيّما مع أقرب جيراني.

لم تشغر الحجرات في هذه الآونة من المعتقلين لأنّ الطاقم الجديد لحكومة حزب البعث كان يطارد مؤيّدي «القيادة القومية» المهزومين في الآونة الأخيرة والذين بعد زيارتهم لمكاتب المباحث كانوا يسرعون في الإنقياد والخنوع ويعلنون عن وفائهم للنظام الحالي ويباشرون بإدانة النظام السابق وقيادته وقد كانت السلطة تطلق عموماً سراحهم بعد أيّام معدودات وأمّا المعاندون النادرون فقد قاموا بتوزيعهم على سجون دمشق والمعتقلات الأُخرى للبلد. أمّا الذين وصلوا إلى سجن الشيخ حسن فقد كانوا من الجامعيين والنقابيين الذين صمّموا على مقارعة ومناهضة أسياد سوريا الجدد بشراسة. كانوا يلقونهم في زنزانات فتحوا نوافذها منذ اليوم الأوّل والتي كانت شبيهة بزنزانتي بشكل إنعزالي خلال عشرين يوماً. كما أنّ السلطات كانت تتعامل بشراسة أشد مع النقابيين المعارضين وقد حصل بأن يوقظوهم في منتصف الليل لإقتيادهم إلى سجن تدمر وسط الصحراء. كان من بين جيراني المعتقلين مدرّسون للأعدادية ومهندسون وقادة نقابيون وكذلك الأمين العام للتربية العامّة.

ـ هكذا إذاً أيّها الفاشيون السائبون، ها أنّكم راضون بما فعلت أيديكم، كنت أصرخ في وجوههم!

ـ أيّة فاشية وأيّة مأثرة تقصدها؟ كانوا يتساءلون بحيرة.

ـ ولكن أقصدكم أنتم، أنتم أيّها البعثيون. هل تنكرون إرادتكم وتمنّياتكم لوصول الجيش إلى السلطة وفرض قوميتكم الإشتراكية على الشعب!

في البداية كانت كلماتي تغيظ وتهيّج مَن أُخاطبهم ولكن رويداً رويداً بدأوا يؤيّدونني شفهياً على الأقل ولكنّهم يأملون بالعودة يوماً إلى السلطة من جديد عن طريق إنقلاب عسكري آخر...

وقد وضعوا كل أملهم في تلك الأيّام على بطلهم ـ المنقذ سليم حاطون الدروزي، قائد المغاوير الذي آزر الضبّاط العلويين ولعب دوراً رئيسياً في إستسلام الجنرال أمين الحافظ، رئيس الجمهورية السورية والزعيم الفعلي «للقيادة القومية» لحزب البعث...

كانت ظروف الإعتقال قاسية جداً في سجن الشيخ حسن حيث أنّهم حرّموا علينا الزيارات ومنعونا من الخروج للتمتّع بالإستراحة ولكي أواصل الإحتفاظ بلياقتي كنت

أتوسّل من الحارس بأن يسمح لي بكنس وتنظيف الممر.

وإستجاب أخيراً الحارس فوزي في أحد الأيّام إلى طلبي حيث أنّه قام بفتح الباب وبتسليمي مكنسة مع خرطوم ماء وعندما رآني المعتقلون وأنا أذهب وأروح بحرّية في الممر وأُنفّذ واجبي بسعادة وفرح أصرّوا الحصول على هذا «الإمتياز» ولكن فوزي الذي كان يخشى عدم رضى الإدارة طلب منّي حينذاك الرجوع إلى زنزانتي ولم يفتح بابها إلى اليوم الذي خرجت منها نهائياً.

ونظراً لصرامة التعليمات فأنّ المعتقلين لم يكونوا يبقون عموماً لأكثر من شهر في الشيخ حسن وأمّا أنا فقد مكثت فيه قرابة سبعة أشهر. وفي صباح أحد أيّام منتصف أيلول رنّ جرس التلفون في الرواق بغتةً فرفع فوزي الذي كان قد بدأ دور حراسته توّاً السمّاعة ورأيته يصغي بإنتباه ويناديني بالإشارات ومن ثمّ لمحته يتّجه نحوي بوجه بشوش وضاحك:

ـ خبر سعيد. ستخرج فقم بإعداد نفسك!

ـ ولكن ماذا سيفعلون بي؟ هل قالوا لك ذلك؟

ـ حسبما فهمته سيقودونك إلى سويداء في جبل الدروز وتكون فيها تحت الإقامة الجبرية. سوف لن تتمتّع بحرّيتك المطلقة هناك ولكن سيتحسّن وضعك بشكل أفضل من هنا...

وبعد لحظات أحاط بي حارسان مدنيان ومن ثمّ وضعاني ويداي طليقتان في عربة عتيقة. حينما وصلنا إلى عاصمة الدروز كان الليل قد حل ممّا أضاف السواد على سواد الصخور الغرانيتية للمنازل وفي مكتب المباحث صافحني الضابط المسؤول ووقّع على الوثائق الخاصّة بي وأمرني بأن أمر عليه في المكتب كلّ صباح. كنت حرّا بالسكن في المكان الذي أرتأييه بالمدينة وقد قادني «أصحابي» إلى أنسب الفنادق ومن ثمّ أخذوا من جديد طريق العودة إلى العاصمة بعد ان تشفّعوا لي لدى المدير.

سكنت في الطابق الثاني لفندق مبني من الحجر الأسود يتواجد على ساحة كبيرة مقابل سراي الحكومة حيث أنّ مظهره الخارجي وأثاثه وأسرّته كانت تدل على تواضع مرثي وقذارة تثير الإشمئزاز فجاهدت كي أنام في أوّل ليلة من ليالي حريّتي ولحسن حظّي أمضت خادمة الفندق كل نهارها بالتنظيف والكوي في اليوم التالي لكي أستمتع

أخيراً في المساء بسرير مريح ونظيف...

حينما كنت تجد نفسك مداناً بالعيش في سويداء في ذلك العهد كنت تشعر وكأنّك لاتزال تحت التعذيب. كان الفرنسيون يقومون بنفي القوميين العرب إليها بينما يقومون الآن بإبعاد الكورد الغوغائيين! إليها وقد أقام فيها قبلي جبراً سواءاً في نفس الفندق الذي إستقرت أو في سجن السويداء حوالي عشرة من الكورد المدانين لأسباب سياسية. بعد مضي أُسبوعين دخل حوالي خمسة عشر معلّماً كوردياً من الجزيرة إلى الفندق فجأةً حيث أنّ هؤلاء رأوا أنفسهم في ليلة وضحاها قد تعيّنوا في محافظة السويداء. كانت المنطقة معروفة تاريخياً بإسم جبل الدروز ولكنّها تغيّرت في الثلاثين سنة الاخيرة واصبحوا يسمّونها جبل العرب.

ـ هل لا يزال هنالك مدرّسون كورد في الجزيرة؟ سألتهم.

ـ حسب معرفتنا، لم يعد هنالك أي موظّف كوردي في الجزيرة. لقد فصلوهم او نقلوهم إلى موقع آخر كما هو الحال بالنسبة لنا، أجابوني بقلوب مدمّية.

كما كان الدروز يشعرون بالإمتعاض وهم يرون كيفية تعامل دمشق مع منطقتهم وكيف أنّها تنظر إليها كمكان للنفي والإبعاد.

ـ أنّه بمجرّد جلب مواطنين من مناطق أُخرى بنيّة معاقبتهم يعني ضمناً الإعتراف بفقر محافظتنا وضحالتها الفكرية والمادّية والثقافية.

وكان صاحب الفندق وأصحابه يضيفون:

ـ نحن مستاؤون وثائرون لأنّ الحكومة تبقى ساكنة ولا تفعل شيئاً لتحسين ظروفنا.

ـ نعم ولكن مثقّفوكم وضبّاطكم كانوا السبّاقين لتأييد ودعم البعث في الوقت الذي حتّى أنّ أصلكم ليس بعربي وأنّ الدروز بالإشتراك مع سليم حاطوم هم الذين وجّهوا الضربة المميتة الحاسمة ضدّ النظام السابق خلال الإنقلاب الاخير.

ـ هذا صحيح بأنّنا لسنا عرباً وأنّ بعض المؤرّخين يؤكّدون بأنّه من المحتمل أن نكون كورداً وبالرغم من إطلاقنا لتسمية الكورد على «أبناء أعمامنا» فأنّ واقع اليوم يبرهن على أنّنا تعرّبنا تماماً حيث أنّنا لم نعد نتحدّث بغير العربية وأصبحت ثقافتنا الرئيسية هي الثقافة العربية. يعتبرنا المسلمون كمذهب في الإسلام ومع ذلك لا يمكننا على

صعيد الإيمان الشعور بالتوحّد مع البقية من المسلمين. نحن نؤمن بتناسخ الأرواح ونعتقد بأنّه بعد الموت تتقمّص الروح في جسد طفل دورزي يولد في ذات اللحظة ونرى أيضاً بأنّ الله يظهر بين حين وآخر بهيئة إنسانية. وإذا رأيتمونا نوافق على تعلّم اللاّهوت الإسلامي بلا حزن وتقطيب وجه فلأنّنا مجبرون على ذلك. في الواقع، أنّ الدين الدروزي هو عقيدة ونظام خاص للمعتقدات والممارسات تأثّر بالهندوسية والافلاطونية وباليهودية والمسيحية أكثر ممّا تأثّر بالإسلام الصحيح.

ومع ذلك فقد تمكّنت الفكرة القومية العربية من ممارسة سحر كبير علينا أو بالأحرى على مثقّفينا وإضافة إلى فكر البعث القومي الصوفي فأنّه يستقطب مشاعرنا لا سيّما في وعوده بالعدالة الإجتماعية وفي ما يجلبه يوماً من فوائد مادّية لمنطقتنا... حينما باشر سليم حاطوم هجومه على قصر أمين الحافظ، الرئيس السوري السابق كان يتغذّى من هذه الأحلام.

وأكمل دروز آخرون:

ـ صدّقنا أنّ سليم حاطوم لا ينام وإنّما سيدور الحديث عنه قريباً...

وبعد مضي أيّام تسرّبت إشاعات متنوّعة حول حركات وتصرّفات الرجل الذي طرده فريق صلاح جديد ـ الأتاسي وأشارت الإذاعتين الأُردنية والإسرائيلية المتابعة لأخبار تنقّلات حاطوم إلى تواجده في حوران.

وهكذا وجدت السويداء نفسها بعد فترة وجيزة في قلب الحدث...

حيث أنّني بعد مرور يومين على الحديث مع الدروز شهدت تحرّكات مثيرة. قام جنود بنصب أسلحة مضادّة للجو في الساحة الكبيرة للمدينة وبدأت المخازن تسد أبوابها رويداً رويداً والشوارع تخلو من المدنيين وقد غاب عملاء المباحث المكلّفين برصدي ومراقبتي في الهواء أيضاً بل وحتّى أنّ صاحب الفندق قد إختفى لم يبقَ في المبنى سواي وتاجر عجوز قادم من دمشق كان ينوي بيع الاحذية لتجّار الجملة في السويداء. وحينما سألته فيما إذا كان مطّلعاً على نشاطات حاطوم لم يجرؤ حتّى على توجيه نظرهِ نحوي وإنّما كان يهتز كورقة الشجر حينما يرى المدفع المضاد للطائرات ويهرع إلى غرفته غالقاً الباب على نفسه وهو يصلّي:

ـ يا إلهي أتوسّل إليك كي أعود سالماً معافى إلى أهلي!...

حاولت معرفة المزيد عبر الإستماع إلى الإذاعات ولكن لم أسمع من أيّة منها التلميح إلى أحداث محبكة في السويداء وعند مجيء الفجر ظهر صاحب الفندق فجأةً.

ـ أنّ سليم حاطوم يتواجد هنا، همس في أُذني بعد أن أدار لسانه لأكثر من سبع مرّات في فمه. لقد إلتفّت حوله كل حامية السويداء كما قام بإحتجاز صلاح جديد ونورالدين الأتاسي كرهائن منذ الأمس واللذان جاءا للتفاوض مع فرع البعث في جبل الدروز. أنّه يتفاوض الآن مع دمشق. وإذا تم رفض شروطه فأنّه قد أقسم بإنّه سيسير نحو العاصمة.

ودون أن يخفي إبتهاجه أكمل:

ـ وقد عاهدته العديد من الفرق العسكرية بالتكاتف معه.

تصوّرنا بأنّ إنتصار الدروز على العلونيين على وشك الإعلان عنه ولكن مرّت الصبيحة والجزء الأعظم من بعد الظهر دون أن يتحرّك الجنود المتمركزين على الأسلحة المضادّة للطيران ساكناً أمام الفندق وفي حوالي الساعة السادسة عشرة حلّقت أربع طائرات ميغ ٢١ قادمة من دمشق على إرتفاع واطيء جداً فوق المدينة وبقيت الأسلحة المضادّة صامتة بغرابة وبعد نصف ساعة من الإنذار الذي أطلقته العاصمة بدأ الجنود المتواجدون في الساحة العامّة يحزمون حقائبهم للعودة إلى معسكرهم وفي المساء أعلمنا راديو عمّان بأنّ سليم حاطوم قد إلتجأ إلى الأُردن وبرفقته بضع مئات من رجاله وأمّا راديو دمشق فقد بدأ يهتف ويغنّي لإنتصاره على «الزمرة الخائنة التي باعت نفسها للإمبريالية وعملائها».

وباشر بعد ذلك العلويون في دمشق بيومين بتطهير الجيش والدوائر تطهيراً كاملاً وقاموا بتوقيف كل ضابط ساند سليم حاطوم أو أنّه أظهر أي نوع من التعاطف معه وأمّا رجال المباحث الذين كانوا يراقبونني يومياً فقد إختفوا تماماً وحتّى في المكتب الذي كنت مجبراً على المرور عليه في صباح كل يوم كان الضابط المسؤول فيه غائباً أيضاً وأنّ الشرطي الوحيد الذي بقي فيه إكتفى بخاطبني:

ـ شكراً على مجيئك. لقد شاهدتك فعد إلى فندقك.

بينما كان يتوجب علي تقديم نفسي للضابط بنفسه سابقاً.

في دمشق وبعدما لعب حافظ الأسد، وزير الدفاع والقائد العام للقوّة الجوية، دوراً رئيسياً في خنق مؤامرة سليم حاطوم بدأ نجمه وتأثيره يتصاعد فثبّت موقعه وعزّز من مركزه بين الجماعة الحاكمة.

كان الشتاء قاسياً بشكل غير متوقّع أثناء فترة نفيي في جبل الدروز حيث أنّ الثلوج سقطت لمرّات عديدة ووصل سمكها في إحدى الليالي إلى نصف متر وفي اليوم التالي إستمر سقوط الثلوج على شكل عواصف وبسبب إفتقار دائرة الطرق والجسور للوسائل الفنّية في إزاحة الثلوج من الطرق والشوارع فقد إضطرّ الناس على البقاء محصورين في منازلهم.

ورغماً عن تلك الظروف الإستثنائية فقد طالبت المباحث عبر الهاتف بحضوري إلى مكتبهم «النزهة» التي أخذت منّي أكثر من ساعة.

وعن طريق المباحث قمت بإرسال العديد من الرسائل إلى وزارة الداخلية ملتمساً منها بأن تضع حدّاً لنفيي وأن تمنحني جوازاً للسفر ولكن ذهبت جهودي أدراج الرياح وبقيت أتحمّل كل شتاء السويداء وأنا أُحرّر رسائل جديدة...

ويا للمعجزة حيث أنّ الأخيرة التي بعثتها عبر قناة حاكم السويداء كانت أكثر فعّالية عن غيرها وقاموا بنقلي في نهاية شهر نيسان من عام ١٩٦٧ إلى دمشق تحت الإقامة الجبرية وإشترطوا تحديد محل إقامتي للمخابرات...

وقد جرى ذلك في موسم عقيم وعثرت بسرعة على غرفة في فندق يشرف عليه فلسطينيون عبّروا عن سعادتهم الفائقة بإستقبالي ولكن مرّ أُسبوع بالكاد على وصولي رأيتهم يغيّرون موقفهم تجاهي ويستخدمون اسلوباً مناهضاً بل وحتّى عدوانياً ضدّي.

وبسبب وجودي كان رجال الشرطة يحرسون الفندق بشكل صارم كما فرضوا على صاحب الفندق بأن يعطيهم اسماء كافّة زوّاري، هذا الفندقي الذي لم يكن مرحبّاً بهذه المهمّة الرقابية أبداً...

وأخيراً تمكّن الأصدقاء من العثور على شقّة صغيرة لي تقع على أطراف الحي الكوردي ومن جهتها السفلى على بُعد بضع مئات من الأمتار كان هنالك بساتين دمشق المشهورة والمروية بفروع نهر بردى بحيث أنّني بمجرّد النظر إلى ذلك الأُفق الهائل من الخضرة في أيّام الصيف الطويلة والمشرقة كنت أشعر بالدفء والراحة

وبالإضافة إلى هذا السحر والجمال كانت هنالك أسباب ودوافع أُخرى تشدّني إلى دمشق منها حبّي في مواصلة كفاحي فيها ضدّ الفاشية العربية التي كانت تهدّد كيان بل وحتّى وجود الشعب الكوردي في سوريا.

ولكن كيف يمكنني مواصلة هكذا نضال في بلد محروم من الحرّية، بلد يهيمن عليه يوماً بعد يوم جيش قوي لا يتوقّف عن حمل راية أُمّة عربية تائهة؟

كنت مجبراً على سلوك خيارين سواءاً العيش في ظل الرقابة والإحتراس الدائمين للشرطة أو العودة للتعفّن في زنزانات المباحث...

أنّ عدم جدوى هذه الحياة العبثية وإفتقارها للأُفق والمنفذ دفعاني إلى البحث يوماً بعد يوم عن وسيلة لمغادرة سوريا بالرغم من عدم إمتلاكي لجواز السفر ولكن للذهاب إلى أين.

إلى لبنان «الديموقراطية»؟

إلى الأُردن؟

أم العبور إلى العراق والإلتحاق بالجزء المحرّر من كوردستان؟

كان هذا الأمر مستحيلاً لأنّ القتال إندلع من جديد بعد فترة هدوء دامت لبضعة أشهر وأصبحت كل الممرّات متواجدة تحت سيطرة الجيش العراقي.

ولكن كانت هنالك دولة أُخرى لها حدود مشتركة مع سوريا: تركيا، بلد ولادتي و طفولتي...

هل أنّ التفكير في الذهاب والوصول إليها سالماً يُشكلّ جنونا بحق؟

ـ لا أبداً، ردّ عليّ واحد من أبناء أعمامي الذي جاء خصّيصاً من تركيا لرؤيتي وإلتقيت به سرّاً. إنّ تركيا اليوم لم تعد مثل تركيا ما قبل عشر سنوات. لقد أصبح نظامنا مرناً يتلاطف بشكل كبير منذ عام ١٩٦٣ وأصبح مواطن اليوم مدلّلاً يستمتع بكل الحرّيات الديموقراطية: بحرّية التعبير والتجمّع واللقاء والتنقّل إلى آخره كما أنّه إذا كان راغباً في السفر فبإمكانه الحصول على جواز السفر خلال أربع وعشرين ساعة. وإذا كنت عازماً على العودة إلى تركيا فبإمكاني الحصول لك على كل الوثائق الضرورية. لقد بحثت عن جميع المعلومات بشأنك فوجدت بأنّ الجنسية التركية لم

تُسقَط عنّك. أعطني فقط صورة وسأعود بعد شهر مع بطاقة هويّة نظامية. سأتعهّد أيضاً بمسألة عبورك للحدود ومصاحبتك إلى المكان الذي ترتأييه في تركيا.

ـ نعم ولكن حال الوصول إلى تركيا هل تتصوّر بأنّهم يتركوني أعيش بسلام وأمان؟

ـ هنالك آخرون من أفراد عائلتك الذين سيهتمّون بك. ومن طرفي أُعاهدك في حالة حصولك على جواز سفر تركي يسمح لك بمغادرة تركيا بكل حرّية والذهاب إلى المكان الذي تريدهُ.

ـ إذا كان الأمر كما تقول تحرّك بسرعة قبل أن اقع من جديد في أحد سجون سوريا، قلت له بصوت عالي مليء بالنشوة والفرح.

تركيا

الهروب إلى تركيا سيراً على الأقدام عبر الحقول والألغام
كوردستان تركيا بعد ثلاثين عاماً
إلتئام الشمل مع العائلة
في إسطنبول بين الخفاء والعلن
إسقاط الجنسية التركية
الهروب إلى أوروبا
اللجوء السياسي إلى سويسرا ومن ثمّ المواطنة الهيلفيتية

مرّ عام ١٩٦٧ على الشرق الأوسط غنياً بالأحداث حيث أدرك التوتّر بين إسرائيل والبلدان العربية المجاورة ذروته. فبعدما ساند النظام السوري الفلسطينيين على تأسيس منظّمة التحرير الفلسطينية بدأ يصرخ في كل مكان عزمه على إزالة إسرائيل «بالحرب الشعبية» وأمّا جمال عبدالناصر فمن جهته أدرك أوج قوّته العسكرية ولا يترك مناسبة دون أن يعلن نيّته للملأ «برمي اليهود في البحر». أمام هذه التحدّيات عزّزت إسرائيل قوّتها العسكرية وكرّرت هجماتها الإنتقامية ضد العمليات التخريبية التي يقوم بها المقاتلون الفلسطينيون في إسرائيل وغامرت طائرات تحمل شارة نجمة داوود في مطاردة طائرات ميغ السورية حتّى في سماء دمشق وضربت أهدافاً إستراتيجية تقع في ضواحي العاصمة السورية. أمّا بالنسبة للراديو والتلفزيون والصحافة السورية الموجّهة من قِبل العسكريين فقد كانت تهاجم الإمبريالية وأتباعها الصهاينة كما كانت تناوب في برامجها بين الدعوة إلى الإنتقام من «مغتصبي الأرض العربية وتدميرهم» وبين الموسيقى العسكرية ونداءات الحرب الشعبية.

في ٥ حزيران من عام ١٩٦٧ حينما شعرت إسرائيل بأنّها مهدّدة بإغلاق مضيق تيران وبإنسحاب قوّات الأُمم المتّحدة قرّرت مباشرتها بالهجوم. تفاجأ الجيش السوري بالهجمة الإسرائيلية الخاطفة فترك إسلحته وذخائره وملابسه وأحذيته وسلك طريق دمشق بينما إلتجأت السلطات السورية التي إرتعبت من دخول القوّات الإسرائيلية إلى

مدينة حمص بعد نقلها لخزينة الدولة إلى حلب.

في ٦ حزيران قرّرت الحكومة توزيع السلاح على الشعب لتأمين الدفاع عن العاصمة فتهافت المواطنون على مراكز التوزيع ولكن بعد تسليم فقط عدد قليل من البنادق إلى المتطوّعين تخوفت السلطات بلا شك من أن يقوم الشعب بإستخدام الأسلحة ضدّها فطالبت بإعادتها.

بعد مضي يومين وبسبب تدخّل الإتّحاد السوفياتي لدى الأمريكان تراجعت إسرائيل عن مشروعها بإحتلال حوران وجبل الدروز والإستيلاء على دمشق وفي ١٥ حزيران عادت الحكومة السورية إلى دمشق ساعية إلى إخراج البلد من الكارثة. غاصت المباحث في عمق إهتمامات أُخرى ولذلك لم أعد مجبراً بالمرور يومياً على مكتبهم كما إنّ هذا التراخي سهّل إتّصالاتي مع عائلتي المتبقّية في تركيا. وفي ٢ آب عاد إبن عمّي الساكن في تركيا إلى دمشق حاملاً معه بطاقة هويّة نظامية بل وحتّى أنّها تشير إلى الإعفاء من الخدمة العسكرية وقد درس ووضع خطّة لعبوري سرّاً إلى تركيا وقد كان تخبّط الإدارة السورية وضياعها وسط الفوضى يدعونا إلى الإستعجال في تنفيذها.

في ٤ آب وضع سائق تاكسي أرمني نفسه تحت تصرّفنا لقيادتنا حتّى قامشلي فتركنا دمشق سرّاً بعد الظهر بإتّجاه حلب وحينما وصلنا إليها في الساعة الثامنة مساءاً تحجّج السائق فجأةً بالتعب والإرهاق الشديدين وبالرغم من كل توسّلاتي وإقتراحاتي بزيادة السعر رفض السير إلى أبعد من هذا المكان. قدّم سائق آخر نفسه كان أصله أرمني أيضاً ووافق على أخذ محل زميله فأصعدنا على الفور داخل سيارته وجرت في ليلة ٦ / ٧ سفرتنا من حلب إلى قامشلي الطويلة والبالغة ٧٠٠ كيلومتراً بلا مشاكل. حينما قرعت على باب منزل أحد أصدقائي المحامين كانت الشمس قد أشرقت توّاً فإرتمى على صدري قبل أن يأخذني إلى فناء منزله الواسع وشاهدت كما هي العادة والتقاليد في المنطقة بأنّ كل أفراد عائلته نائمون على أسرّة خشبية واسعة وعالية مغطّاة بالناموسيات. وعلى الفور أعلنت له مشروعي بترك سوريا والذهاب إلى كوردستان تركيا فظهر بأنّ هدفي يثير إستغرابه لأنّه كان ينتمي بدوره إلى كوردستان تركيا وأنّ عائلته قاتلت جيوش أتاتورك لأكثر من إثنا عشر عاماً.

ـ هل فكّرت حقّاً بعمق في هذه المسألة؟ ردّد علي لأكثر من مرّة.

ـ نعم، لا توفّر لي سوريا سوى حياةً نباتية أو موتاً بطيئاً في السجون. لن أكون فيها مفيداً لشعبي على الإطلاق.

ـ وفي تركيا، هل تتصوّر حقّاً بأنّك ستستمتع بالأمان والحرّية وبأنّك ستخرج منها سالماً؟

ـ أعطاني أحد أبناء أعمامي أملاً في ذلك وشجّعني على المحاولة. أمّا الأولوية الآن فأنّها تتمثّل في مسألة عبور الحدود فهل تعرف أحداً تثق به من بين المهرّبين الكورد؟

ـ فيما يخص هذه النقطة لا تقلق. سيلبّي عليكي المعروف «بعليكي الأمير» طلبك. وقد تمكّن من وضع رجال الكمارك السوريين والترك في آنٍ واحد في جيبه ويملك رجاله على طرفي الحدود. أنّه يعرف كل الطرق الأمينة المارّة عبر حقول الألغام المزروعة من قِبل الأتراك على طول الحدود. أنا على يقين بأنّه سيساعدك في العبور إلى الطرف الثاني وبأنّه سيتّخذ جميع الإحتياطات اللاّزمة. سأذهب إليه لأطراح عليه الفكرة.

إرتدى صاحبي ثيابه وخرج حالاً وبعد مرور ساعة عاد وبرفقته رجل شاب ضخم.

ـ أنا تحت تصرّفك ـ أزبه ني ـ قل لي فقط متى ومن أيّة جهة تقريباً ترغب العبور.

كان لدى إبن عمّي القادم من تركيا خطّته... فقادني عليكي بعد ظهر يوم ٨ آب إلى كيردان، هذه القرية الكوردية السورية. وحينما حاذى القرية توقّفت سيّارته تحت أحد جسور سكك حديد إسطنبول ـ بغداد الذي كان بمثابة خط حدودي بين تركيا وسوريا وفي هذا المكان ظهر رجال عليكي خفيةً ونصبوا إهتمامهم على حقيبتي المليئتين بالملابس والكتب وببعض الوثائق والهدايا المُختارة لأفراد أُسرتي الكبيرة في العدد وأثناء ذلك سار «عليكي الأمير» حتّى الأسلاك الشائكة التي وضعتها السلطات التركية على طول الحدود لأنّنا تواجدنا على حافّة منطقة ملغومة. حيّانا حرس الحدود الذين رشاهم شركاء عليكي، باللغة التركية وبفرح ورفعوا لنا الأسلاك الشائكة كي نعبر وقد تمكّن عليكي من جعلهم يعتقدون بأنّني تاجر تركي ثري وبأنّني سأعبر غالباً عبر هذا الممر وأحتاج إلى خدماتهم...

حينما خرجنا من حقول الألغام كان الوقت متأخّراً في الليل فتقدّم أحد الأدلاّء وأسرع يقودني إلى القرية تاركاً مسؤولية نقل الحقائب على الثلاثة الآخرين. حينما رآني إبن عمّي الذي سبقنا بإجتياز الحدود عبر نصيبين في كيرسور بشكل مشروع

قفز إبتهاجاً وفرحاً ولكن إنشغل باله بسبب غياب حقائبي.

ـ أنّ الوقت يدركنا لأنّني إستأجرت تاكسياً يقودنا هذه الليلة إلى دياربكر...

وقد أنهى بالكاد جملته حينما هزّت أصوات العيارات النارية القادمة من الموقع الذي عبرناه، مشاعرنا وخوفنا.

ـ حمّالونا، تمتمت.

ـ لا بد وأنّه مناوشة، أكمل إبن عمّي الكلام وهو يهدّيء من روعي. لا أتصوّر بأن الحمّالون مسلّحين وقادرين على الرد بهكذا أُسلوب. أنّ الأمر يخص بالتأكيد حصول إشتباك بين المهرّبين المسلّحين وبين دورية للجيش.

ـ وحمّالونا إذاً؟ أجبت، ما الذي يحصل لهم وسط كل هذا؟ وإذا وقعت حقائبي بين أيادي السلطات التركية مع الصور والوثائق التي تحتويها فلن يبقَ أمامي سوى خيار العودة من جديد إلى سوريا. وفي الحقيقة أعتقد بأنّه من الأفضل لي ترك هذه المدينة فوراً واللجوء إلى مأوى نعثر عليه في مكانٍ بالريف.

ـ لا أبداً، لا تنسى بأنّني مسؤول عن سلامتك وأمنك. أضمن لك بأنّ أيّ أحد لن يأت لإجراء تحرّي في القرية.

وبينما كنّا نتجادل سمعنا وقع خطى ثقيلة تقترب منّا وبعد مرور لحظات سمعنا بأنّ حمّالونا ينزلون الحقائب على الأرض.

ـ نحن سالمين كما أن حقائبكم لم تُمسّ بسوء. لقد تم تبادل النيران بين دورية لدرك الحدود يقودها ضابط وبين مهرّبين كانوا على وشك إمرار أعداد هائلة من المواشي إلى سوريا. وحسب المعلومات التي تلقّيناها وصل العدد الأكبر من المواشي إلى الطرف الثاني من الحدود وأنّ المهرّبون إستخدموا أسلحتهم لمنع الجنود من الإستيلاء على البقية.

وقد أقلقت العيارات النارية نساء القرية بسبب تواجد أشقّائهن وأزواجهن وآبائهن وأبناء أعمامهن بين أُولئك الذين يمتهنون هذه التجارة الخطيرة.

ـ يا أشقّائي المساكين، كانت واحدة من بينهن تذرف الدموع، كم من المرّات توسّلنا إليكم بأن لا تلعبوا مع الموت!

ـ وأين تريدين العثور على عمل يا أُختي؟ ردّ عليها أحد الرجال. هل ممكن في معامل النسيج وفي المعامل الكيمياوية والصناعية والتعليبية أو الإسمنتية؟ لا ترغب أنقرة أبداً إنشاءَها في مناطقنا. لقد هاجر عشرات الآلاف من إخوتنا بحثاً عن العمل في أمصار تتواجد على بُعد آلاف الكيلومترات عنّا لممارسة أوضع الاعمال وأكثرها مشقّةً فإذاً ماذا تريدين أن نفعل يا أُختي الصغيرة؟ أليس من الأفضل ممارسة التهريب بدلاً عن الموت جوعاً وفقراً؟

ـ ما تقوله صحيح، يا أخي ولكنّنا سئمنا وتعبنا من العيش بإستمرار على أعصابنا. لم نعد قادرين على مشاهدة الجثّة المنتفخة لواحد من أبنائنا في كل ثلاثة أيّام وهي مضجوعة في حقل الألغام. ساعدنا يارب وأسعفنا كي ننتهي من هذا الوضع، نتضرّع إليك يارب! كانت تتوسّل رافعةً يديها نحو السماء السوداء.

وبعد مرور ساعة أصبح الظلام دامساً وإنقطع التبادل الناري. تمكّن أحد المزارعين المشتركين في إيصال قطيع المواشي إلى سوريا من الوصول إلى القرية وكان يلهث ولكنّه سارع في تسكين روع القرويين.

ـ لم يمس أي فرد بأذى كما أنّ المواشي وصلت إلى أسفل الخط الحديدي.

إنّ كلمة «الحدود» بين كورد المنطقة لا وجود لها فبالنسبة لهم هنالك «أعلى» و «أسفل» خط السكك الحديدية الذي يفصل سوريا عن تركيا.

فهدأت أعصاب القرويين الذين تجمّعوا في الساحة الصغيرة للمدينة وتوقّفت شكاوي ونحيب النساء وأمّا بالنسبة لسائقنا يبدو بأنّه وقع فريسة لقلق لا يمكن وصفه ورفض أخذ طريق دياربكر بصورة قطعية متحجّجاً بكل أنواع المخاطر.

ـ لا أبحث عن طلقة تصيبني في رأسي. لقد تلقّى الجيش بعد هذه المناوشة أمراً بالرمي أثناء الليل على أي شيء يتحرّك داخل المنطقة. أنصحك بقضاء الليل في القرية والمغادرة في وقت مبكّر صباحاً.

أمّا إبن عمّي وأنا فكل ما كنّا نتمنّاه هو أن نترك المكان بأسرع ما يمكن ولكن السائق لم يتراجع عن قراره وأنّ أصوات الإنفجارات جعلته كالمشلول فلم يبقَ لدينا حينذاك سوى الإستسلام إلى رغبته.

ـ نعم ولكن أين ننام في هذه القرية التي تفتقر إلى الفندق والمأوى للزوّار؟

ـ في أيّ مكان ترغبون إختياره وعند أيٍّ واحد من بيننا، أجاب القرويون الذين أحاطوا بنا بصوت جماعي. نحن دائماً على إستعداد لتقديم المأوى والطعام لأيّ ضيف.

وإقترب أحدهم من إبن عمّي.

ـ لقد مات آغانا قبل فترة قصيرة في مستشفى ماردين وإلاّ فأنّه كان بوسعكم المبيت في دار ضيافته. دعوني أستضيفكم وستنامون على سطح المنزل وأنّ الليالي في هذا الوقت من السنة مستحبّة جداً.

رحّبنا طوعاً بمقترحه وتركناه يقودنا إلى منزله وبلمحات بصر أفعمونا بالساوار (البرغل) واللبن والدو (الشنّينة) ومن ثمّ لم ننتظر طويلاً بسبب الإرهاق ونسيم الهواء الرطب بالرقود والسبات العميق.

وإستيقظنا في اليوم التالي قبل شروق الشمس وصعدنا في سيارة شوفرليت عتيقة التي سلكت طريق دياربكر المفروش بالأخاديد والصخور والأحجار وقد أمضينا ساعتين لقطع مسافة ٦٠ كيلومتراً حتّى الوصول إلى ماردين، هذه المدينة الواقعة على قمّة جبل والمشرفة على السهول الواسعة لميزوبوتاميا العليا. في الواقع أنّ ماردين ليست مدينة تقليدية وإنّما يمتد تاريخ قلعتها إلى آلاف السنين وتتميّز عن غيرها بأحجارها البيضاء المنحوتة باليد وبدروبها الضيّقة والمتعرّجة كما يتحدّث مواطنوها بلغة عربية ولكن بكلمات وعبارات كوردية.

توقّفنا لنشرب فيها فنجاناً من القهوة قبل مواصلة سيرنا بإتّجاه دياربكر.

ونحن نسير في الطريق لاحظت بمرارة الحالة المرثية للقرى الكوردية التي بدت وكأنّها تجمّع لأكواخ مبنية من الطين تفتقر إلى الكهرباء والتلفون والمدارس والمستشفيات ومع ذلك فأنّ قلبي كان يخفق لمشهد النساء الكورديات وهنّ يحملن الجرار على الرؤوس ويحلبن النعاج تحت أشعة الشمس بأزياء الآباء والأجداد: الفستان الطويل والزخمة والحزام والسراويل الفضفاضة الواسعة ومناديل الرأس الزاهية بمختلف الألوان.

وقد لمحت على رؤوس بعض الرجال حتّى العمائم الكوردية...إنّ كل هذه العلامات كانت تدلّل على فشل سياسة التتريك الممارسة من قِبل أنقرة. بقى الشعب الكوردي يعيش على أرضه وفي مسقط رأسه كما كان في الماضي وأنّ كل ما كان يحتاجه هو أن تدخل حركة مقاومته الغريزية والعفوية ضمن إطار تنظيمي منضبط كي يستطيع فرض إرادته القومية ويتخلّص من حالة الضياع واليأس.

كنت أحلم بهذه المهمّة الصعبة حينما لمحت الأسوار السوداء الضخمة لدياربكر وقد ولجنا القلعة عبر بوابّة ماردين. بإستثناء شارع عريض ممتد على طول الأسوار فأنّ البيوت العتيقة المبنية من الأحجار الغرانيتية السوداء حافظت على صورة زمنها الماضي السحيق في القدم. كانت الطرقات والشوارع مكتضّة ومليئة بالحيوية والنشاط وأنّ عدد سكّانها قد تضاعف أربع مرّات منذ عام ١٩٣٠: من أربعين ألف نسمة إلى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ نسمة. وبالرغم من إفتقارها للصناعة فقد تميّزت بأهمّيتها الكبيرة كمركز إداري وزراعي وتجاري وجذبت نحوها أعداداً هائلة من الفلاّحين ومن الحضريين الذين وفدوا إليها من المدن والقرى المجاورة.

كانت الأُسرة الإقطاعية ـ البرجوازية لإبن عمّي بإنتظارنا في أرغاني.

وبينما كان سائقنا يغيّر إطاراً للسيّارة في سهل كوران إقترب منّا بخجل طفل يرعى غنمه يمكن تقدير عمره بين ١٠ ـ ١٢ سنة.

ـ هل أنّ هذه الأغنام تعود إليكم؟ سألته باللغة التركية.

ـ لا أفهم التركية، أجابني باللغة الكوردية وبنبرة تحدّي.

ـ كيف؟ ألا تذهب إلى المدرسة؟ قلت له بالكوردية وأنا أتصنّع الدهشة.

ـ لا، أجاب بهدوء.

ـ ولأيّ سبب إذاً؟

ـ لأنّهم يجبروننا على تعلّم التركية ونسيان لغتنا.

ـ ألم يكن من الأفضل بالنسبة لك بأن تذهب إلى المدرسة التركية بدلاً عن البقاء في الجهل.

ـ ولكنّني لست بجاهل، ردّ متضايقاً. أرعى أغنام القرية أثناء النهار وفي المساء

أذهب لدى الملاّ.

ـ آه نعم! ولتفعل ماذا؟

ـ لأتعلّم اللغة الكوردية طبعاً!

ـ وهل أنّ الحكومة تسمح بذلك ولا تتدخّل؟

ـ أوه، كما تعلم أنّ ملاّنا ذكي جداً. رسمياً يقول بأنّه يدرّس القرآن والفلسفة الإسلامية...

ـ وما الذي يعلّمكم حقّاً؟

ـ يتحدّث لنا بشكل خاص عن الشعراء ويعطينا أبياتاً نحفظها عن ظهر قلب.

ـ وهل بإمكانك أن تنشد لي بعضها؟

فبدأ الصبي حالاً بإنشاد أبيات كلاسيكية كوردية قديمة.

ـ قل لي، هل هنالك ملالي آخرين يشبهون مُلاّك في المنطقة؟

ـ لا أعلم شيئاً بهذا الخصوص لأنّني لم أخرج أبداً من قريتي ولكن أعرف بأنّ لملاّي مريدون يأتون لرؤيته بين حينٍ وآخر.

ـ وأنت، هل تريد أن تبقى كوردياً ولا تنوي ابداً بأن تصبح تركياً؟

ـ لا، يا أزبه ني، أجاب عليّ وهو يحدّق بعيونه الكستنائية الواسعة البرّاقة في وجهي، لا يمكنهم أن يصنعوا منّا أتراكاً.

تمنّيت إطالة الحوار مع هذا الصبي ولكن السائق نادانا لنأخذ مقاعدنا ونصل في نهاية النهار إلى أرغاني، هذه المدينة الصغيرة المؤلّفة من عشرين ألف نسمة والممتدّة على حافة سلسلة جبال طوروس. قادنا التاكسي مباشرة إلى بيت إبن عمّي المتواجد في أقصى شمال المدينة والمطل قصرهم على حديقة واسعة منحدرة يتم سقيها بواسطة حوض يملأه ينبوع غزير في المياه وبدت الزاوية رائعة تتشابه مع تلك التي كنت أمضي فيها طفولتي...

عند غروب الشمس قادني تاكسي آخر إلى إيلازيغ التي يعيش فيها ريزو منذ عام ١٩٥٠ والذي لم أراه منذ سنوات طويلة. وقد سجّل إسمه على قائمة الحزب

الديموقراطي وتم إنتخابه عضواً في البرلمان لمرّتين ولكنّه كان يعيش منعزلاً عن كل نشاط كوردي. كما أنّه نجح في قلب وجهة نظر السلطات التركية والعيش معها بوفاق بعد نظرتها إليه كمشبوه وإعتباره إنساناً لا يمكن الوثوق به. كان مناهضاً لأي تصرّف وفعل مغتر ومتعصب. كنت أُمثّل خطراً حقيقياً ومع ذلك فقد إستقبلني هو وأصحابه بدموع من الفرح. أمضيت أُسبوعي الأوّل في إيلازيغ بالغبطة والمرح وقد زارني العديد من أبناء وبنات أعمام وخوال لم أرهم منذ أكثر من ثلاثين عاماً وكذلك شباب آخرون ولدوا بعد مغادرتي وهم سعيدون برؤيتي أو الحديث معي ودعوني للعزيمة في الريف فذبحوا نعاجاً شووها بالسيخ وقدّموا لي ثماراً طيّبة كتلك التي كنت أتذوقّها أثناء طفولتي كما إستطعت التنزّه بحريّة في إيلازيغ ومقارنتها مع المدينة التي عرفتها سابقاً.

ويا للحسرة لقد كبرت إيلازيغ بشكل فوضوي وقبيح وأنّها توسّعت خلال السنوات العشرين الأخيرة بحيث أنّ معمل الإسمنت الوحيد بالمنطقة الكوردية لتركيا في تلك الفترة والمنشأ بفضل جهود مندوبي المحافظة أصبح محصوراً داخل المدينة.

وبعد أن كان عدد سكّانها يتجاوز بالكاد ٢٠٠٠٠ نسمة في عام ١٩٢٠ قد وصل عددها إلى أكثر من ٨٠٠٠٠ شخص يتألّف معظمهم من فلاّحي القرى والمجمّعات المجاورة وأنّ هذا النزوح قد ولّد مشاكلاً إجتماعية خطيرة: التضخّم في عدد المتاجر وعدد العاطلين عن العمل ومرتكبي الجرائم كما غاب عن مركز المدينة منظرها الناعم والهادىء فحلّت المباني الإسمنتية العملاقة محل البيوت العتيقة المبنية من الطابوق الطيني والمحاطة بفناءات خضراء وأصبحت طرقها المعبّدة بالطين المطروق أو المزاح عنها الاسفلت قذرة ومتربة وأخذت إيلازيغ تقدّم صورة بعيدة عن الجمال والسحر إلى درجة لم أعد أتمنّى الإقامة فيها أكثر من أيّة مدينة أُخرى.

كنت أحلم منذ نعومة أظفاري بالإقامة في بيرماز الواقعة في سهل مرتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر والمحاطة بجبال لامعة ولكنّها جرداء قاحلة وطالما هدهدت بحيرتها سنوات شبابي وكانت الأرض التي أورثها لنا والدي غير بعيدة عنها سوى كيلومترات قليلة وطالما إحترقت شوقاً لرؤيتها من جديد.

وبينما كنت أستمتع بقدوم النهار لأُحقّق ما حلمت به جاء أصدقاء أخي ليهمسوا في

أُذنه بأنّ الشرطة الإدارية كانت على علم بوجودي في إيلازيغ وبأنّ الميت ـ المخابرات الخاصّة ـ لن تتأخّر في تلقّي الخبر وأخذوا ينصحون أخي بإبعادي عن المنطقة الكوردية. فباشر أخي بسبب هذا التحذير بحزم حقائبي ووضعني في سيّارة باص متّجهة نحو إسطنبول ولحسن حظّنا لم نخضع في الطريق لأي تفتيش هويّة لأنّ تركيا كانت تعيش إحدى تلك الفترات «الديموقراطية» النادرة في تاريخها.

وفي إسطنبول كان أحد أبناء أعمامنا، الموظّف سابقاً، قد بنى علاقات طيّبة مع الإدارات الحكومية ولا سيّما إرساءَه لعلاقات وثيقة مع رئيس جهاز الميت فباشر على الفور بترتيب الإجراءات...

وبمخابرة تلفونية إلى دياربكر عرف مسؤول الميت في إسطنبول عن وجود ملف ضخم بإسمي عرضوا فيه بالإخص نشاطي السياسي في بيروت قبل تسليمي إلى سوريا كما أنّه نصح إبن عمّي أيضاً بأن يدعوني للعودة إلى تركيا...

كان الخبر مقلقاً ومحيّراً في الوقت ذاته حيث أنّه بعد وصولي إلى تركيا أصبح من الصعب عليّ العودة إلى سوريا فما الذي ينبغي عمله؟ وماذا يجري لو أنّ الميت أخطرت المراكز الحدودية بخصوصي؟

وإخيراً فأنّ دافع عودتي إلى تركيا هو البقاء فيها والعيش في المنطقة الكوردية بين أبناء شعبي ولكن هذا المقترح بدأ يتعقّد ساعة بعد ساعة ويتّجه نحو التورّط والمجهول...

حكم أخي بأنّه من الحكمة اللقاء بالشخصيات البارزة في الحكومة وعرض المشكلة عليهم فغادر إلى أنقرة وإستقبله بحفاوة ديمرئيل الذي إرتبط معه بعلاقات وثيقة كما إستقبله وزير الداخلية.

ـ سنستعلم من مادن إذا كان شقيقك لا يزال يحتفظ بالجنسية التركية. ستكتبون إليه ليعود بلا تأخير إلى مسقط رأسه وسيُستقبَل فيها بذراع مفتوحة. ما أطلبه منك هو أن تبعث لنا إلتماساً مكتوباً توضّح فيه بأنّ أخاك هجر تركيا حينما لم يكن سوى طفلاً وبأنّه يرغب الآن العودة إليها وبعد مرور شهر في أقصى حد سأُعطيك الجواب.

تنفيذاً لوعود مسؤولي الدولة البارزين قدّم أخي على الفور طلبه وعاد في اليوم التالي إلى إسطنبول وقلبه مفعم بالأمل. ولكوني أتواجد إفتراضاً في سوريا فقد تقرّر بأن

أعيش بين الخفاء والعلن في إسطنبول إنتظاراً لجواب وزير الداخلية الذي لا يمكن أن يكون سوى إيجابياً، كما تصوّرنا، لأنّ إسمي لم يكن محذوفاً من السجّل المدني.

كان أخي واثقاً من صدق الوزراء فقام بإستئجار شقّة لي في أحد شوارع بيوغلو وعاد إلى إيلازيغ ولكن طالت إقامتي في إسطنبول دون أن يصلني ردّ من السيّد الوزير وفي الشهر الثامن زارت شرطة إيلازيغ أخي.

ـ نحن نعلم بأنّ شقيقك يتمتّع بالجنسية التركية كما نعلم أيضاً بأنّه يتواجد منذ فترة في تركيا وهذا حق من حقوقه لن نسمح لأنفسنا بالمس به ولكنّنا نرغب بأن يأتي بنفسه لرؤيتنا والإجابة على بعض الأسئلة.

أخبرني اخي بما دار من حوار في هذه المقابلة وإقترح عليّ بحذر المجيء إلى إيلازيغ وبما أنّني كنت أخشى فخّاً حكومياً فقد رفضت الذهاب لأرمي بنفسي في شدق الذئب وواصلت العيش في إسطنبول بتستّر أكبر من السابق وبدأت أتحاشى النزول في الشارع سوى نادراً وبعد غروب الشمس.

مضى بالكاد اسبوعان فإذا بمبعوث جديد يُرسل من قِبل أخي يعلمني بأنّ الشرطة مصرّة على رؤيتي وبأنّها لا تحتاج إلى بذل جهد كبير لإيجادي حينما تشاء... لمجابهة هذا الإنذار لم يبقَ أمامي سبيل آخر سوى سلوك طريق إيلازيغ.

وقد طرح عليّ مفوّض الشرطة الإدارية الذي ذهبت إليه برفقة صديق للعائلة في اليوم اللاحق لوصولي أسئلة عادية وتافهة جداً كما فهمت بالطريقة التي كان يطرحها بأنّ اهمّها تعلّقت بالجنسية السورية وهل حصلت عليها أم لا؟ فحسب القوانين التركية كنت أعلم بأنّ إكتساب جنسية أجنبية بدون إستئذان حكومة أنقرة يمكن أن يؤدّي إلى فقدان الجنسية التركية

كما يستوجب أيضاً بأن يكون التجنّس مرغوباً ومطلوباً بصورة طوعية من قِبل إنسان بالغ وليس مفروضاً على طفل مثلما هو الحال بالنسبة لي...

وقد جلبت إنتباه المفوّض حول هذه النقطة متوسّلاً منه بأن يشير بوضوح إلى هذا الأمر وقد فعل وهو ينصحني بان أنام مرتاح البال لأنّ كلّ الأمور ستترتّب وفقاً لرغباتي.

وفي المنزل كان أخي وأُسرته وأخواتي وأبناء أعمامي ينتظرون أخبار لقائي مع المفوّض بقلق وحينما عرفوا بما جرى ورددّت عليهم العبارات المطمئنّة للمفوّض بدأوا يرقصون فرحاً ويرتمون على صدري.

ـ إنتهت الهموم! الآن سيتركونك تعيش بأمان بيننا، نحن واثقون ومطمئنّون من ذلك.

ولكن لم تدم فرحتهم طويلاً حيث أنّ رئيس جهاز الميت لإيلازيغ إستدعاني في اليوم التالي وظهر لي لدى إستقبالي من قَبل السيّدين بأنّهما متضايقان ولا سيّما بالنسبة لمدير الشرطة وأمّا بالنسبة لمسؤول المخابرات الخاصّة فقد كان يضع على عينيه عوينات شمسية غامقة جداً وغريبة في الوقت الذي بالكاد كانت الغرفة مُنارة...

وقد بقيت أمامه وجهاً لوجه خلال ثلاثة أرباع الساعة وهو يحاصرني بالأسئلة ويسألني حتّى عن إقامتي في سويسرا وعن نشاطي المؤيّد للكورد في أوروبا فتحقّقت بأنّه تم وضع كل التفاصيل في الملف وأنّ رئيس الجهاز قد قرأه بتمحيص وإنتباه شديدين.

إنّ إحتمالية إحتجازي من قِبل رئيس الميت خلال هذا الوقت الطويل أثار هلع الجميع ولا سيّما هلع أخي فالنساء كنّ ينتحبن وأصبح من الصعب على الرجال إخفاء قلقهم.

ـ ولكن ما الذي دهاكم؟ هدّئوا من روعكم لقد أصبحت الميت وديعة كالحمل.

ـ آه نعم؟ إستفهم أخي. قل لنا إذاً بسرعة عمّا جرى مع القائد.

حكم أخي بأنّ هؤلاء الناس يعرفون كلّ شيء عنّي وبأن ما يهمّهم الآن هو معرفة فيما إذا كنت قد «تعقّلت» بشكل نهائي أم كنت لا أزال باقياً ذلك «المهووس بالقومية الكوردية».

ـ إعلم، خاطبني أخي، فأنّ الأوساط القيادية التركية تخشى من كل شيء له علاقة بالكورد وتتلخّص المهمّة الأساسية للميت بمحاربة كل تطلّع قومي لهذا الشعب فإذا كنت ناوياً البقاء في تركيا والعيش بأمان فيها لا ينبغي عليك التفكير بذلك.

ـ التخلّي عن قضية تحمّلت بسببها العذاب خلال جزء عظيم من حياتي غير ممكن إطلاقاً، أجبته، ولكن نظراً للظروف التي أتواجد فيها سأبذل بكل ما أقدر عليه من جهود كي لا أُثير إنتباه السلطات خلال على الأقل بضع سنوات.

ـ أُصلّي لكي تتمكّن من السيطرة على نفسك ولكي لا تتحوّل إلى قطب ينجذب نحوه شباب قوميين من الكورد الذين يتشاكسون مع الحكومة، قال لي أخي وهو يرفع عينيه نحو السماء كحال الذي يتوسّل.

كان ريزو مؤمناً بعمق ويمارس تأدية فرائض الإسلام بصدق وصفاء طفل بريء وينتظر دائماً الرأفة الإلهية عند المرور في الأوضاع الصعبة والمعقّدة.

إختترت إنصياعاً للأمر الواقع والقبول بالمصير الذي حدّدوه لي البقاء عند أخي منتظراً قرار الحكومة فأمضيت شهرين لديه دون أن أخرج تقريباً من المنزل ودون أن أستقبل زوّاراً فيه سوى نادراً.

في بداية شهر تمّوز من عام ١٩٦٨ دعاني أحد أبناء الأعمام المالكين لضيعة في بيرماز لقضاء الصيف وقد أمضيت فيها أجمل أيّام حياتي.

وفي الخريف حينما رأيت بأنّ الحكومة لم تعد تعاكسني إستخلصت بأنّها وافقت ضمناً على إقامتي في تركيا فقرّرت تجربة حظّي في الزراعة عبر الإستثمار في الضيعة الموروثة الباقية من الأب في سهل كوران والواقعة بين أرغاني و دياربكر. حينما كان والدي لا يزال حيّاً كنّا نملك أكثر من ١٠٠٠٠ هكتار من الأراضي الخصبة والصالحة جدّاً لزراعة القمح الصلب لكن لم يتبقّى منها سوى ٢٠٠٠ هكتار أجّرها أخي مكتفياً بفوائد لا تّذكر نتيجةً للآفات التي كانت تسبّبها حشرة السونة.

إتّصلت بالمزارعين الذين يملكون جرّارات ولكنّهم لا يملكون سوى مساحات صغيرة من الأراضي وأوضحت لهم هدفي فتقدّم شريكان وإقترحا المشاركة معي في العمل بشرط توزيع الفوائد مناصفة وبأن أقوم بتوفير الارض والبذور لهم.

ـ أنا موافق، قلت لهم، ولكن ماذا تقولون إذا ظهرت حشرة السونة قبل حصاد المحصول؟

ـ نحن نجازف، ردّا عليّ وهما يهزّان الأكتاف. سمعنا بأنّ الحكومة ستتعامل بنشاط وحيوية عبر رش المبيدات بالطائرات في الوقت المناسب. ومن ثمّ فنحن لا نزرع فقط القمح الصلب وإنّما نخصّص قسماً من الأرض لزراعة «الذرة البيضاء» المؤمّنة من آفة السونة.

وبعد مرور أيّام باشرنا في العمل ولنضمن إنتاجاً جيّدا إبتعنا كمّية كافية من الأسمدة الكيمياوية كما إرتأيت الإقامة في أرغاني على مسافة خمسة عشر كيلومتراً عن أراضينا لإدارة شؤون المزرعة وقد سارت الأُمور حسب تمنّياتنا حيث أنّ الأمطار هطلت في الوقت المناسب. وفي بداية شهر مايس نمت مزروعاتنا بشكل مدهش وكان لونها الأخضر الجميل يدلّل على سلامتها وقوّتها فأصبحنا متأكّدين من نجاح مشروعنا والإبتهاج للنتيجة حينما قرأت خبراً في زاوية من «الجريدة الرسمية» بأنّ حكومة أنقرة أسقطت جنسيّتي التركية... كان الأمر بمثابة صدمة رهيبة لي.

وعندما عدت إلى نفسي هرعت نحو السراي لألتقي بنيازي إينجه،كاتب المحكمة الذي توثّقت علاقتي معه وكان أصله كوردياً لكنّه يخشى التصريح بذلك علناً كما كان رجلاً أميناً وطيّباً في الأعماق يسعى إلى خدمة كل من يطرق على باب بيته ولا سيّما إذا كانوا من بسطاء الشعب العاديين والخاضعين لأهواء الموظّفين.

كان يعلم بإنتمائي السياسي القومي الكوردي وفي ذلك اليوم حينما عرضت عليه ما قرأته في «الجريدة الرسمية» حدّق في وجهي بحزن عميق.

ـ لك الحق في أن تطعن بالحكم لدى مجلس الدولة. ينبغي عليك الذهاب بسرعة إلى دياربكر ومن هناك إلى أنقرة. ولكن يجب أوّلاً فهم الأسباب القانونية لفقدان جنسيتك التركية وسأعطيك رسالتين موجّهتين إلى أصدقاء إحداهما في دياربكر والأخرى في أنقرة والإثنان يعملان في مجال السجل المدني العام بإمكانهما مساعدتك.

ذهبت إلى دياربكر أوّلاً حاملاً له معي رسالة نيازي إينجه وإلتقيت بموظّف السجل المدني وما أن عرفني ردّ عليّ بجفاء:

ـ لقد أخطأت في إختيار العنوان يا سيّد إنّ هذه الأُمور غريبة على وظيفتي.

وبعد الإنتهاء من كلامه مزّق بطاقة نيازي إنجه ورماها في سلّة المهملات. وأنا أُحدّق في وجهه رأيته يصفرّ ويرتعش...يبدو بأنّ هذا الموظّف المنحدر من أصل كوردي قد وقع في فخ التتريك فيرتعب من كل ما يُشم منه بأنّه كوردي وأدركت لاحقاً بأنّ السلطات التركية تمكّنت من زرع هذا الإحساس لدى عدد كبير من الكورد المُستخدَمين في الدوائر ولا سيّما لدى الموظّفين من الدرجات العليا في التسلسل الوظيفي.

وفي دائرة السجل المدني لأنقرة حينما قرأ صديق نيازي إنجه التركي البطاقة

الموجّهة إليه غادر ليستعلم فطال غيابه بغرابة وعند عودته لاحظت من خلال حركاته وصوته كأنّه مذعور وبالكاد إستطاع الهمس في أذني لأُحاول اللقاء بالمدير وبعد دقائق من ذلك أدخلني أحد البوّابين في مكتب السكرتير الذي عثر على ملفّي فوراً.

ـ إنّ الأمر بسيط، قال لي بنبرة متعالية. لقد فقدت جنسيتك التركية لأنّك قبلت بجنسية الدولة السورية دون أن تستأذن موافقة حكومتنا.

ـ ولكن كنت صبياً والقانون لا يمكن تطبيقه على حالتي.

ـ إنّ هذا الأمر لا يخصّنا فإذهب وفاتح مجلس الدولة بذلك!

كنت محتاراً ولكن لم يدركني اليأس كلّياً بعد.

قال لي غالب، المحامي الذي إستشرته، منذ البداية:

ـ إنّ أمرك حسّاس لأنّ المسألة الكوردية هي بمثابة كابوس يهزّ الناس في بلدنا...يجب علينا العثور على شخص جريء يثبت لا شرعية القرار الحكومي تجاهك وإذا فلحنا في كسب رمزي إلى جانب قضيّتنا فأنّ المسألة ستكون مربحة منذ الآن.

كان رمزي، العضو في مجلس الدولة ورئيس المكتب الحادي عشر، من أحد أبناء الأعمام البعيدين لعائلتنا.

ـ لا أستطيع الحكم على ماضيك السياسي ولكن على الصعيد القانوني فأنّ الحكومة مخطئة وأتعهّد بأن يقوم مجلس الدولة بإلغاء القرار الصادر بحقّك.

فرح غالب بموقف رمزي وشجّعني على المرور لدى كاتب العدل الأقرب إلينا لكي أعطيه وكالةً.

وهكذا طعن غالب بالقرار مثلما إتّفقنا عليه وطالب بإستئناف الحكم وكنّا ننتظر بقلق نتيجة إجتماع المجلس الذي إنعقد بعد عشرين يوماً فرفضوا الإستئناف لسبب بسيط ألا وهو عدم وجود أي شخص يدافع عن حقوقي وقد وجد رمزي وصديق آخر من دياربكر لأنفسهم أعذاراً كي لا يحضروا في إجتماع المجلس...لم يتقبّل غالب هذا الجبن والنذالة.

ـ إنّ الأتراك يهيمنون علينا ويضطهدونا بسبب جبن مثقّفينا المنحرفين، بدأ يصرخ وهو يضرب بقبضاته على الطاولة. ولكن لا تحزن فأنّه من الممكن تقديم طلب

بالإستئناف لمرّتين وسأُقدّم الثاني هذا اليوم بعينه وبإنتظار ذلك عُد إلى أرغاني وإسهر على مزروعاتك.

حينما أخبرت نيازي إنجه بتطوّرات الأحداث شعر بالقلق ولعن الناس الذين قابلتهم بخصوص قضيّتي.

ـ إذا قرّر مجلس الدولة رفض طلب إستئنافك للحكم فعليك إنتظار صدور أمر بإعتقالك وطردك من تركيا. وبخصوص هذا الأمر فأنا سأكون الشخص الأوّل الذي يستلم القرار وحينذاك يتوجّب عليّ توجيهه إلى نائب المحافظ ولكن أثناء ذلك سأُحاول الإتّصال بك. فأسعى من الآن لترتيب أُمورك.

لم تكن شؤوني متألّقة أبداً لأنّ السونة إرتدت زي الحداد وباشرت عملها في الخراب في الوقت الذي كان شركائي يتأمّلون أسراب الحشرات الصفراوية وهي تحط على السنابل بحزن وكآبة.

ـ ها، خاطبتهم بقلب ممزّق، وهل تبقون هكذا مكتوفي الأيدي؟

ـ وماذا يمكننا فعله؟ نحن لا نملك وسيلة لصد هجومهم.

ـ والطائرات؟

ـ بعثت الحكومة بطائرتين فقط وهي جاثمة على بعد خمسة كيلومترات جنوباً على أرض ناجي يلماز.

ـ من هو؟

ـ أنّه تركي من أزمير. لقد إشترى ومنذ سنوات مساحات شاسعة من أراضي المنطقة وتفاهم مع الطيّارين لكي لا يقوموا برش سوى حقوله.

ـ هيّا لنرى هؤلاء الطيّارين!

ـ لا يجدي الأمر، ردّ علي شركائي. لأنّهم لن يصغوا إليك. ومن جهة ثانية فقد فات الأوان.

ركبت حصاني وحينما وصلت أمام خيمة الطيّارين حذّرني أحد الحرّاس:

ـ لقد تعبوا طوال الصبح والآن يستريحون.

حينما إستيقظوا قمت بتوبيخهم وإيلامهم على موقفهم المتحيّز وطالبتهم بالإهتمام بالحقول الأُخرى المهدّدة.

فأسرع أحد الطيّارين يهدّئني:

ـ لا تغضب بلا سبب أنّهم أرسلونا إلى هذه المنطقة لمحاربة السونة أينما تواجدت. وإذا لم نأتِ إليكم بسبب محدودية إمكانياتنا فيستوجب بذل المزيد من الجهد في هذا المجال. ولكن دلّني أين تتواجد مزروعاتك كي أرشّها وأُعالجها في وقت مبكّر من صباح الغد.

في الحقيقة وصلت الطائرة في الساعة الثامنة من اليوم التالي وحلّقت مدوية على مزارعنا وهي تلقي بدخّان أبيض كثيف على الحقل وبالكاد عالجت ربع المساحة المزروعة فإذا بسمومها القاتلة للحشرات تنفذ...فذهبت جميع جهودي أدراج الرياح لإقناع الطيّارين بالمواصلة كما أنّ البرقيات المرسلة إلى أدنة وأنقرة المطالبة بإرسال كمّيات كافية من المبيدات لم تجدِ نفعاً أيضاً بسبب نفاذ المبيد القاتل في المخازن الحكومية ووجوب القيام بتقديم طلب إلى ألمانيا ناهيك عن إفتقار الحكومة التركية للعملة الصعبة. وبعد مرور أُسبوعين حينما باشرت الدرّاسات حصادها لم نتمكّن من الحصول على أكثر من أربعة أطنان من القمح الذي تركته لنا حشرة السونة وهذا يعني بأنّ نصف السنابل كانت خالية من الحبوب مقابل عشرة أطنان قمنا ببذرها. لقد كانت الصدمة شديدة...وكنّا نواسي أنفسنا بالذرة البيضاء التي، لحسن الحظّ، واصلت نموّها وصعودها على راحتها وكنّا نأمل بأنّها ستعوضّنا على الأقل عن الخسائر التي تحمّلناها من القمح ولكن مجريات الأحداث تسارعت بحيث أرغمتني على المغادرة قبل موعد الحصاد.

ففي ٢ تمّوز من عام ١٩٧٠ أخذني صديقي الجريء نيازي إينجه إلى مكتبه بسرعة ومدّ لي وثيقة صادرة من وزارة الداخلية تطالب بشطب اسمي من السجل المدني في مدينة أرغاني كما كان الأمر الوزاري ينص أيضاً على وجوب إبلاغ الشرطة بهذا التعديل ويأمر بتوقيفي وطردي من البلد كأجنبي.

وهكذا بعد قضاء فترة سجن لا أعلم في أي مكان مناسب من تركيا سيقومون بتسليمي إلى سوريا!...لم أكن أصدّق عيني!

ـ لا أجد سبباً يثير قلقك، طمأنني نيازي إينجه. سوف لن أقوم بتنفيذ الأمر بحذافيره. سأضع هذه الوثيقة تحت كل الوثائق الأُخرى التي يجب عرضها على القائمقام وسأحتفظ بها خلال خمسة عشرة يوماً. فأثناء ذلك ألست قادراً على مغادرة تركيا؟

ـ بلى، لدي الآن جواز سفري. لقد نجح أحد أصدقائي بالحصول عليه عن طريق رشوة أحد أفراد الشرطة في دياربكر. لم يخبروا الميت بذلك. سأتّصل أيضاً بالمحامي الذي يدافع عن حقوقي لإخباري فيما إذا كان لا يزال لديه بصيصاً من الأمل لترتيب أُموري بالطرق الشرعية.

وبينما كنت أتحدّث أخرج نيازي إينجه قارورة صغيرة من جيبه وإبتلع منها حبّة.

ـ ولكن ما تأخذه هو من الترينترين فلماذا تستخدمه؟ هل أنّك تعاني من مرض قلبي؟

ـ مررت قبل أيّام قليلة بمعاناة صغيرة. قال لي الطبيب الذي إستشرته بأنّ الأمر ليس خطيراً ونصحني بتناول هذا الدواء. وكلّما شعرت بعصر في القلب أتناول حبّة.

ـ ولكن كان ينبغي عليك إستشارة طبيب قلبي، أكدّتُ عليه.

ـ لكي أفعل ذلك يتوجّب عليّ الذهاب حتّى أنقرة أو إسطنبول وأنا لا أملك لا الوقت الكافي ولا الوسائل. ومن ثمّ فأنّ إضطرابي لا يستدعي بالتأكيد هكذا سفرة...

فإقترحت على نيازي إينجه مصاحبته إلى أنقرة لمعاينته لدى إختصاصي معروف لكن عبثاً وبعد الإلحاح المتكرّر عليه تركته وعيوني مليئة بالدموع وصعدت في سيّارة الباص الذاهبة إلى أنقرة عبر إيلازيغ. كان صديقي المحامي محبطاً ومتشائماً بشأني لأنّ ظل الميت كان لا يزال مخيّماً على مجلس الدولة ولم يكن هنالك قاضي يتجرّأ على إتّخاذ حكم يناقض قرار الحكومة فنصحني بترك الدعوى في القضيّة ومغادرة تركيا قبل فوات الآوان. لم أكن متّفقاً مع روحه الإنهزامية بل نويت البحث عن محامي أكثر إندفاعاً وذو روح قتالية ولكنّ الوقت أدركني ووصلني خبر مفجع في اليوم التالي يعلمني بأنّ صديقي الوفي نيازي إينجه الذي فعل كلّ شيء وربّما أكثر ممّا يتوجّب عليه قد توفّى.

ـ بعد مرور بالكاد ثلاثة أيّام على مغادرتك، روى لي أحد أبناء أعمامه، وصل أمر

جديد، فوري هذه المرّة، بخصوصك إلى قائمقام أرغاني. كان القلق بادياً على وجه نيازي إينجه ولم يكن يعلم كيف يتعامل معه وقد كنّا بصدد البحث والتفكير لإيجاد حل حينما فاجأته أزمة قلبية شديدة وتهاوى أمامي صريعاً على منضدة المكتب. حينما وصل الطبيب الوحيد الذي فلحت في مناداته لم يقدر سوى التأكيد على توقّف نبضات قلب المسكين ووفاته. أنّ المأساة كانت كبيرة لأنّ نيازي كان إنساناً رائعاً وذو شرف مثالي.تبرّعنا فيما بيننا لندفع ديونه المطلوبة لدى عطّاري وخبّازي ومقاهي المدينة.

وعضضت على شفاهي لأمنع نفسي من البكاء. لقد كان نيازي مريضاً لكنّني لم أقدر على إسعافه وأنّ تفانيه والهموم التي ألقيتها على كاهله عجّلت بوفاته.

كان قلبي يفيض ألماً وشعوراً بالذنب تجاهه ولم أعد أملك لا القوّة ولا الشجاعة للكفاح من أجل الإعتراف بحقوقي والآن أصبحت على إستعداد لترك بلد ولادتي وأجمل أيّام طفولتي بشكل نهائي لأنّ الضرورة تقضي بذلك...

إقترح عليّ الجيران في إيلازيغ مصاحبتهم بالباص الذاهب إلى ميونيخ فوافقت وأنا أقول لنفسي بأنّه في إمكانيتهم إعلام عائلتي على الأقل فيما إذا أصابني مكروه عند عبور الحدود...

ولم يترك باصنا إسطنبول سوى في المساء وغمرت قلبي عواطف جيّاشة وأنا أجول بنظري على أماكن أحببتها لكنّني لن أراها مستقبلاً: تلك المقاهي التي تعرفّت فيها على شعراء وكتّاب قوميين كورد وطلاّب ثوريين وجامعيين دخلوا في معارك وإشتبكوا مع عصابات فاشية مدرّبة ومبعوثة عليهم. كما كنت حزيناً أيضاً على هجر مسارح إسطنبول...كنت أتخيّل كل هذه الأحداث حينما إخترق سمعي اسم كابيكالا. أنّه نقطة سيطرة تركية تقع على الحدود البلغارية وكانت الساعة تشير إلى ٢٢,٣٠ عند توقّف الباص صعد فيه موظّف مدني يطالبنا بتسليمه جوازات سفرنا فحملها إلى المركز. وبينما يتفحّص رئيسهم وثائقنا وينادي بين حينٍ وآخر أحد الزوّار كان هنالك دركيان مجهّزان بالأسلحة الأوتوماتيكية يقومان بالحراسة في كل جانب من الباص.

وفي كل مرّة يدق قلبي كالطبل وحلقي يعتصر وكأنّ حيّة لفّت جسدها على عنقي وتحاول خنقي وقد إستمرّ التوتّر لأكثر من ساعتين بدت لي وكأنّها ازلية. لا شك، أنّهم قرّروا بان يدوم وقوف الباص حتّى الصباح... وخطر على بال أحد السوّاق بأن يمر

على المركز فعاد منه بعد لحظات وهو يبتسم: لقد سلّمونا كل جوازاتنا. ومن ثمّ رأينا الإبتسامة تعلو شفاه أفراد الكمرك والشرطة الأتراك وهم يتنعمّون علينا «بسفرة سعيدة!»

لم أُصدّق أُذناي وكنت لا أزال أخشى بأن يغيّر الموظّفون رأيهم في آخر لحظة قبل إنغلاق البوابّة الحديدية وأخيراً لم أحس بإبتعادي من الخطر إلاّ حينما أصبحنا بحق على الأراضي البلغارية. تمنّيت حينذاك التعبير عن الفرح والصراخ بأعلى صوتي: حر، حر، أنا حرٌّ طليق!

وغصت بعد حين في نوم عميق وهاديء ولم استيقظ سوى في اليوم التالي. كنّا في صوفيا التي زرتها في عام ١٩٤٩ والتي لم تكن آنذاك سوى مدينة ريفية صغيرة فإذا بها الآن مدينة عصرية بشوارعها العريضة وبممرّاتها المتواجدة تحت الأرض (الأنفاق) المضاءَة بشكل جيّد وجميل وإذا بالريف البلغاري يثير الإعجاب ببساتينه الخضراء والمعتنى بها بإهتمام وأناقّة وبكرومه المتألّقة.

وقد خرجت من إكتشاف لأغوص في إكتشاف آخر... حيث فاجأتني النمسا بدرجة التقدّم التي وصلتها منذ عام ١٩٥٦ ومع كل ذلك فأنّ المفاجأة الكبرى كانت بإنتظاري في ألمانيا حينما وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام المجتمع الإستهلاكي الذي طالما وصفته وفضحته الصحافة الغربية وأمام المشهد غير الواقعي للأسواق الكبيرة والطابور اللامنتهي من الزبائن...

كنت أتلهّف للعودة إلى سويسرا وإلى دراساتي وأصدقائي الذين أعتز بهم والذين إستقبلوني بحفاوة وأُخوّة.

وها نحن في العام ١٩٧٠ وقد حصلت بعد مرور بضعة شهور على حق اللجوء السياسي وفي العام ١٩٧٢ تزوّجت من سويسرية كانت قد عرفت القضيّة الكوردية بل وحتّى زارت أراضي كوردستان تركيا وفي ربيع عام ١٩٧٣ وقبل يومين من حلول نوروز، ولد إبني الذي يعشق إنشاد الأغاني الكوردية بقدر ما يهوى الأغاني الفرنسية والتركية والعربية والأرمنية...

وأخيراً في خريف عام ١٩٧٨ أصبحت مواطناً لبلد طالما ذكرته كنموذج للنظام الديموقراطي، بلد شعرت دائماً في أحضانه بأنّني أعيش في موطني، في سويسرا

التي أحس بتعلّقي بها أكثر فأكثر وبمناظرها التي تذكّرني بالطبيعة الجبلية وببحيرات وجداول مياه كوردستان.

حينما أنظر إلى سقوط الثلوج على شكل عواصف وزوابع وحينما تهب الرياح القارسة والجافّة الصافعة لخدودي أحس حينذاك وكأنّني لا زلت صبياً صغيراً في كوردستان... أتدحرج على الثلوج طرباً. ولكنّني أبتهج أيضاً حينما أرى الأشجار تتبرعم وتزهر وحينما أرى حقول القمح والسنابل تتراقص...

ولن أنسى كوردستان التي تواصل صراعها من أجل البقاء، كوردستان الممزّقة بين تركيا وإيران والعراق وسوريا، كوردستان التي واجهت الحقد وجميع وسائل القمع والإضطهاد في عام ١٩٨٢ مثلما كان الحال بالأمس.

وكرجل طليق يعيش في بلد ديموقراطي لايمكنني التغاضي عن رؤية وجوه الكورد المعدمين والمعذّبين اليوم في الشرق الأوسط ولا زالوا بسبب إنتمائهم القومي، لا يمكنني إغفال نظرات أولئك الأطفال والنساء والرجال الذين يخاطبونني كل يوم وكل ساعة وثانية.

متى يحس العالم وحكّامهم بالقلق الحقيقي ويبحثون عن حل لجميع مشاكل الإضطهاد والهيمنة العالمية؟ أجهل ذلك...ولكن الذي أدركه هو أنّه طالما إستمرّوا في سحق الكائن البشري والقيام بإضطهاده في كل مكان عبر العالم فأنّ البشرية سوف لن تجد غداً أفضل.

بوسينيي، في شهر شباط من عام ١٩٨٢

نورالدين زازا
مادن ١٩٢٣

في الأسفل من اليسار/ دمشق ١٩٢٩

نورالدين زازا
سوريا ١٩٣٤

نورالدين زازا
حلب ١٩٣٣

نورالدين زازا
بيروت ١٩٣٢

نورالدين زازا
دمشق ١٩٤٢

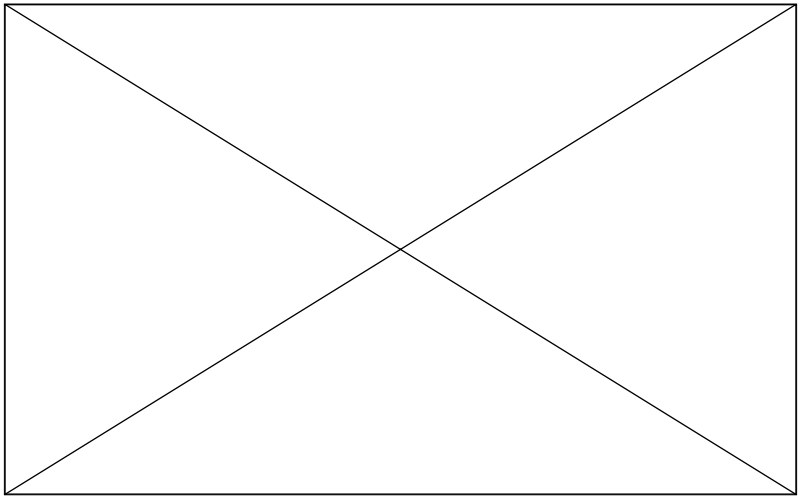

د. نافذ (الواقف في اليسار) بيروت ١٩٤٦

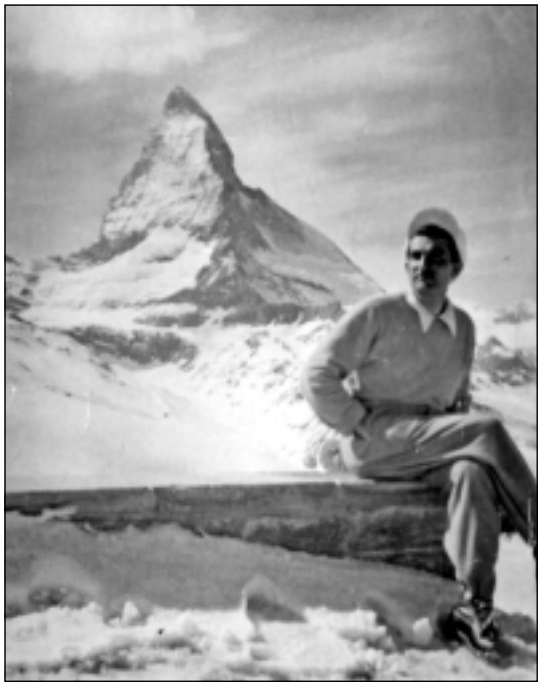

نورالدين زازا
سروين، سويسرا ١٩٤٨

نورالدين زازا
لوزان – سويسرا ١٩٤٨

نورالدين زازا، ڤاليه – سويسرا ١٩٧١

نورالدين زازا
مع زوجته جيلبيرت ڤاڤر
سويسرا ١٩٧٤

نورالدين زازا
مع إبنه شنگو (ڤاليري)
ڤود – سويسرا ١٩٧٤

نورالدين زازا
مع إبنه شنگو (ڤاليري)
ڤاليه – سويسرا ١٩٧٥

نورالدين زازا مع إبنه شنگو (ڤاليري)
گريزون – سويسرا ١٩٧٩

نورالدين زازا
ڤاليه – سويسرا ١٩٧٩

زوجة نورالدين زازا السويسرية جيلبيرت ڤاڤر – قلادزة ١٩٩٢

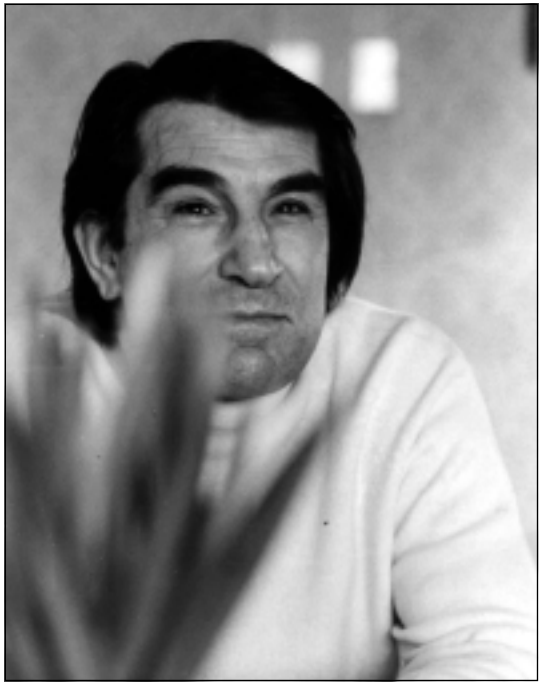

نورالدين زازا
سويسرا ١٩٧٧

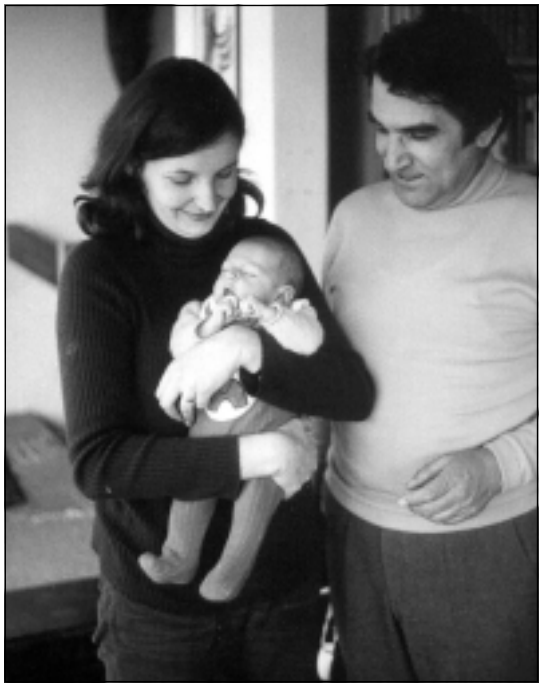

نورالدين زازا
مع زوجته جيلبيرت ڤاڤر
وإبنه شنگو

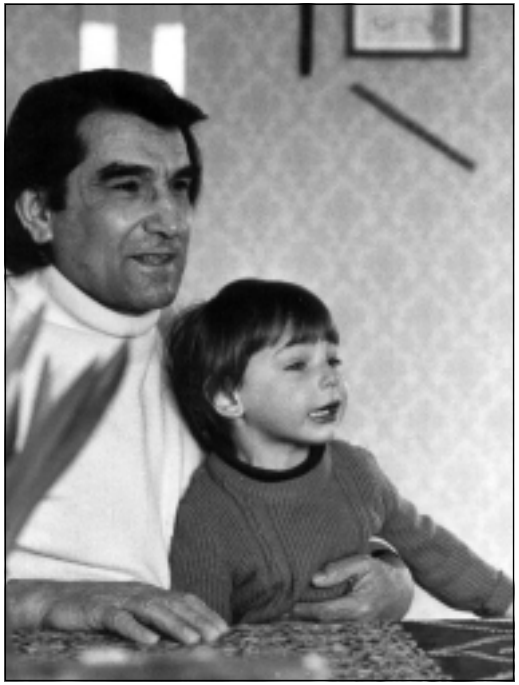

نورالدين زازا
مع إبنه شنگو
سويسرا

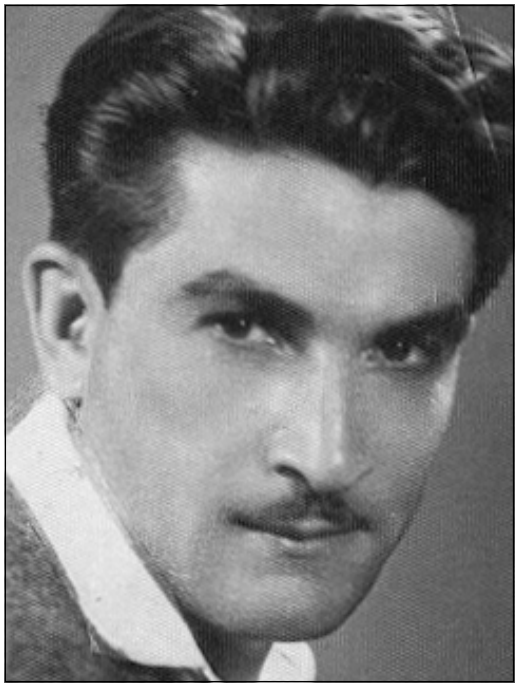

نورالدين زازا